

مناهل الصفا
في
مآثر موالينا الشرفا

لأبي فارس عبد العزيز الفشتالي

دراسة وتحقيق

الدكتور عبد الكريم كريم

أستاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة محمد الخامس الرباط

مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة

مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرف

للأبي فارس عبد الغزير الفشتالي

دراسة وتحقيق
الدكتور عبد الكريم كريم

استاذ التاريخ، إسماعيل بكية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة محمد الخامس الرباط

مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة

عرف القرن العاشر للهجرة الموافق للسداس عشر للميلاد صراعا قويا بين امبراطوريات ثلاث الاتراك العثمانيون فى الشرق الاسلامى والاسبان والبرتغال فى الغرب المسيحى من أجل السيطرة والتحكم فى حوض البحر المتوسط وقد تركز هذا الصراع منذ منتصف هذا القرن فى الشمال الافريقى وفى بلاد المغرب الاقصى بوجه خاص للاهمية الاستراتيجية التى كانت للمغرب

فالأتراك العثمانيون الذين أعلنوا الخلافة الاسلامية سعوا الى ضم المغرب فى نطاق توحيد البلاد الاسلامية والوقوف بها صفا واحدا ضد الهجومات الخارجية المسيحية ولتأمين حدود امبراطوريتهم الغربية ثم لاستغلال الموقع المغربى فى مهاجمة غربى أوروبا وشبه جزيرة ايبيريا قلعة المسيحية العصينة بالاضافة الى أن التوسع فى المغرب يمكن الاتراك من التحكم فى طرق المواصلات البحرية الاسبانية والبرتغالية مع العالم الجديد والشرق الاقصى وتهديدها

ومن جهة أخرى فقد ادرك الاسبان والبرتغال بدورهم أهمية الموقع المغربى للدفاع عن غربى أوروبا المسيحية ضد خطر العثمانيين المسلمين وللتسرب نحو افريقيا لاستغلال خيراتها ولتشر المسيحية بها ، وقد احتلوا لذلك قواعد مختلفة على شواطئ المغرب الشمالية والغربية وعززوا تحصيناتهم بها

وأمام هذه الاخطار الخارجية ، برزت القيادة السعدية التى تزعمت الجهاد الوطنى لرد الاخطار الخارجية ولتوحيد البلاد ثم للحيلولة دون تسرب النفوذ العثمانى ولقاومة أى تدخل عسكري أوروبى وقد كللت اعمال السعديين بالنجاح عند انتصارهم على الحملة الصليبية البرتغالية فى معركة وادى المخازن يوم الاثنين 30 جمادى الاولى عام 986 هـ الموافق 4 غشت 1578م ، والتى بويح على اثرها المولى أحمد خليفة باسم المنصور تغلبد لهذا الانتصار العظيم

لقد عرف المنصور كيف يستغل انتصار المغاربة فى وادى المخازن لتدعيم نفوذه الداخلى وفرض احترامه على خصوم المغرب فى الخارج وأعنى السلطان العثمانى مراد الثالث فى صطامبول والملك الاسبانى فيليب الثانى فى مدريد فأوجد بذلك

للمغرب كيانا مستقلا امام النيارات الخارجية التي كانت تتربص به اللوائر ، ولم يقف المنصور عند هذا الحد بل استغل سمعة المغرب الخارجية وموقع بلاده الاستراتيجية للتدخل في مشاكل خصومه الداخلية سواء بالنسبة للاتراك في الشرق الاسلامي والبلاد العربية أو الاسبان في شبه جزيرة ايبيريا وغربي أوربا ، مما أجبر هؤلاء الخصوم على التقرب منه والسعى الى كسب وده واصبحت لذلك بين يدي المنصور ولفترة من الزمن وسائل التأثير على حفظ التوازن الدولي وترجيح كفة أي من الجانبين المتصارعين . وكنتيجة لذلك تمكن المنصور من تأسيس امبراطورية واسعة بغربي افريقيا لا تقل عظمة وغنى واتساعا عن امبراطوريات معاصريه الاتراك والاسبان كما ازدهرت مختلف المظاهر الحضارية في المغرب الى الحد الذي جعل دولة المنصور تتصف بأنها الدولة التي (أثرت العليم واكسبت المحروم) (1)

وللوقوف على الكثير من الحقائق التي تميز بها المغرب في عهد السعديين والمولى أحمد المنصور بوجه خاص في المجالين السياسي والحضاري ، نرجع الى مخطوط (مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفاء) لأبي فارس عبد العزيز الفشتالي الذي تم العثور عليه أخيرا والذي توجد منه نسختان في خزانة القصر الملكي بالرباط ابو فارس عبد العزيز الفشتالي

اختلف في تاريخ ولادة عبد العزيز بن محمد بن ابراهيم الصنهاجي الفشتالي فاحمد ابن القاضي جعلها عام 952 هـ في حين ان المقرئ آخر ولادته الى عام 956 هـ نشأ عبد العزيز في قبيلته فشتالة بنواحي فاس حيث درس بها على (الامام العالم ابي العباس أحمد بن علي المنجور والقاضي الجليل أبي مالك عبد الواحد الحميلي والفيقه الاستاذ النحوي أبي العباس أحمد الزموري) (2)

وعن اتصال الفشتالي بدولة المنصور وانخراطه في سلك كتاب الانشاء فالذي دلت عليه دراسة مخطوط (مناهل الصفا) هو أن أبا فارس ربما بدأ حياته ككاتب في ديوان انشاء ولي عهد المنصور المولى محمد المامون بفاس فقد تحدث في الصفحة (210) من المخطوط عن وصول الشاعر المكي الى فاس واعتناء المامون به (وكان ممن أزجى مطيته الى حضرته العلية مادحا ومسترفدا شاعر المشرق والمغرب بلا مدافع الشريف الفاضل أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل المكي وقد عل حضرة امير المؤمنين أيده الله من مكة فسقط على المغرب في عام ثمانية وثمانين (أي 988 هـ / 1580 م) وأناخ على

(1) مخطوط مناهل الصفا للفشتالي ، ص 146 .

(2) المقرئ : روضة الآسي ، ص 163 .

ولى العهد بفاس فآكرم وفادته ثم وصل صحبة ركابه العالى الى باب امير المؤمنين ايده الله عند مقدمه عليه لمسكره على نهر تانسيفت فى جمادى العام فمدح امير المؤمنين بقصيدتيه الطناتين

فهل انتقل الفشتالى مع ولى العهد من فاس الى نهر تانسيفت عام 1581/989 لما استدعى المنصور ابنه ليأخذ له البيعة بولاية العهد مصافحة ؟

هناك ما يدل على حضور الفشتالى هذا اللقاء على نهر تانسيفت

اولا الوصف الدقيق للاستقبال الذى خص به المنصور ابنه وولى عهده المامون (ولما هوى الى الارض ساعيا على اقدمه الطاهرة للثم الركاب العلى الامامى شرفه الله وقضاء فرض التحية راجلا برز امير المؤمنين ايده الله عن العساكر ووقفت بمركزها وتقدم وحده للقائه مرحبا وشفيقا ومتبسطا حتى أمكنه من لثم قنمه المشرفه وحنى متطاطئا من صهوته على رأسه حتى قبله واستركبه الى جنبه وسارا معا فى الالوية والعساكر) (1)

ثانيا لقد ذكر الفشتالى بأن من الحاضرين فى هذا اللقاء سفير اسبانيا الذى رغب فى الحضور وأذن له المنصور بذلك (حضر جمعه العظيم رسول عظيم الملة النصرانية طاغية قشتالة بما كان ساعته بمراكش سفيرا الى حضرة امير المؤمنين فاستأذن المقام العلى الامامى ايده الله فى البروز يوم اللقاء لمشاهدة شعار الاسلام وسار من الحضرة الى مخيم عساكر المسلمين) (2)

وأول اشارة وردت على لسان الفشتالى فى المخطوط تدلنا على انخراطه فى عداد موظفى الدولة ، ترجع الى عام 990 هـ / 1582م وذلك فى معرض الاشادة بفصاحة المنصور وبلاغة ولى عهده المامون كما جاء فى احدى توقيعاتهما وقد جرت الحادثة (يظهر الزاوية من ساحة فاس المحروسة عام تسعين فلم ندر ساعته بأيهم ايدهم الله تعجب) (3) وربما انتقل الفشتالى فى هذه السنة من خدمة ولى العهد الى خدمة المنصور الذى كان قد وصل الى فاس فى زيارته الاولى لها ، وعاد مع الخليفة الى مراكش حيث بدأ بها أعماله فى ديوان الانشاء بتحرير نص بيعة برنو المؤرخة بعام 991 هـ / 1583م (4)

(1)	الفشتالى	مخطوط المناهل ص 32
(2)		ص 35
(3)		ص 254
(4)		ص 19

ومما يؤكد هذا الرأي هو أن الفشتالي لما تسرع في تدوين تاريخ دولة المنصور أكد غير
 ما مرة بأنه قد اعتمد في جمع اخبار المنصور في نشاته واثناء ولايته اخيه المعتصم
 والصدر الاول من حكمه على عدد من المعاصرين بما فيهم الخليفة المنصور

- (من ذلك ما اخبرني به الشيخ (1))

- (وسمعتة ايده الله يحدث أنه لما (2))

- (ورأيت أن أعول في تحقيق هذا على تقييد شريف بخط يده الكريمة ناوليه

ايده الله (3))

لم يصبح الفشتالي من جلساء المنصور وخاصة المقربين الا في عام 993هـ/1585م
 كما اثبت هو نفسه في الصفحة (201) من المخطوط (ومن كرمه الذي كاد ان يكون
 كالسنة الجارية الصلات والعوائد التي يصل بها ايده الله خاصته وأهل بناطه غالباً
 عند المواسم حضرت مجلس الخواص مع بابيه العالى ايده الله ليلة عيد الفطر عام
 ثلاثة وتسعين وقد استدعاني لشغل تعين وكتب تأكد فالفيت القوم ينتظرون الخلع
 الموسمية لوعده سبق لهم بها وتقدم من قبل أن أخرج فبرزت اليهم ونشرت عليهم فقلت
 في ذلك مخاطب مولانا الامام المنصور بالله امير المؤمنين ايده الله ثم مازال يتتال
 على بعد ذلك من شائب احسانه ايده الله المتواليه ما اضم الكيس واثقل الظهر
 والرأس)

وقد ازدادت مكانة الفشتالي عند المنصور خلال هذه السنة بدليل أنه قد كلف
 بتحرير نص بيعة ولي العهد المأمون وبقرائها على المال (وأمرني
 ايده الله بالقيام على رؤوس الاشهاد برسم البيعة فرفعت بقراءته عقيرتي ليتأدى الى
 الناس فهمه وقام الى جنبى قاضى الجماعة مفسراً لما اشكل على الناس من احكام
 البيعة التى تضمنها الرسم الكريم) (4)

وهكذا أصبح أبو فارس عبد العزيز الفشتالي (وزير القلم الاعلا) (5) فى دولة
 المنصور بحيث ان معظم رسائل المنصور وظواهره من انشائه ولم يكن هناك من
 أحد يجاريه فى هذا المجال (فتركت ايدهم الله الصدر لمن هو منى أقعد وتعاميت عقده
 لمن هو له أعقد أبى فارس عبد العزيز الفشتالي) . (6) .

(1) الفشتالي مخطوط المناهل ص 5

(2) " " " ص 213

(3) " " " ص 219

(4) " " " " ص 91

(5) ابن القاضى درة البحال ج 2 ص 377

(6) الفشتالي : مخطوط المناهل ص 45 . وذلك كما جاء فى الرسالة التى وجهها العالم الجليل ابومالك
 عيد الواحد بن أحمد الشريف الى المنصور بعد أن كلفه بتسويد رسالة الى اسكيا اسحق ملك السودان

وقد كلف المنصور أبا فارس بتدوين اخبار الدولة السعدية وتسجيل وقائعها
 «ويقرر لي أنا عبده ومن خصه من كتاب الانشاء ببابه العالي بكتب ما يجدد بعلامته
 الكريمة من رسوم اسلافه الكرام والاوامر القديمة» (1) فأصبح الفشتالي بذلك مؤرخ
 الدولة الرسمي على غرار ما كان عند الاتراك العثمانيين في الشرق الاسلامي والمعروف
 بكتابت وقائع آل عثمان وقد اكد هذه الوضعية معاصره أحمد بن القاضي في درة
 الحجال (وهو متولى تاريخ الدولة المنصورية أبقاها الله) (2)

تتبع الفشتالي في تأليف كتاب تاريخي عام عن الدولة السعدية منذ نشأتها في
 مطلع القرن السادس عشر وقد أطلع عليه بعض اصدقائه كابن القاضي (وتاريخه
 المذكور في مجلدات اشتمل على تاريخ ساداتنا الشرفاء من أولها الى الآن) (3) وأحمد
 المقرئ (ولهذا الكاتب اسماء الله جملة تأليف منها) (مناهل الصفا في مآثر موالينا
 الشرفاء) المشتمل على عد اسفار اجداد فيها غاية الاجادة وذكر ما اشتملت عليه الدولة
 الاحمدية من الاعلام وكذا ما يسر الله لها من الفتوحات التي لم يوجد مثلها في ملوك
 الاسلام (4)

ولعل الباعث على التأليف يرجع فيما يبدو الى أن المنصور كان قد توصل من
 بعض علماء الشرق الاسلامي - وقد يكون القاضي مصطفى بن حسن بن سنان بن أحمد
 الجنباني قاضي حلب وصاحب كتاب (العيلم الزاخر في اخبار الاوائل والاواخر) - بتأليف
 تاريخي وجد المنصور به اخطاء ومغالطات تاريخية ، دفعته الى أن يكاف الفشتالي بتدوين
 تاريخ الدولة السعدية واثى التعجيل بالكتابة الى العالم المذكور لينبهه الى الاخطاء التي
 تضمنها مؤلفه السابق (وعلمنا لذلك أن هذه الدولة الكريمة قد غابت عنكم رأسا
 حقائقا واشتبهت على علمكم طرائقها وعلمكم في ذلك واضح لتثنائي الديار وبعد الآفاق
 والاقطار) (5) وأنه قد كلف احد كتابه المشهورين بتأليف كتاب تاريخي عن الدولة
 السعدية ليعتمد عليه في تواريخه (ولا انقنا أن يبقى ذلك الخبال والقلط المنبت الحبال
 فيكون في تأليفكم وصمة وفي جانب الدولة العلية ثلثة توجهت اشارتنا الامامية
 المشرفة الى احد كتابنا وعميد أيادينا وفرسان الانشاء بعل بابنا بتلخيص موضوع
 يكون لخبار هذه الدولة الكريمة ان شاء الله الشامل المستوعب والموجز المسهب يعتمد
 الفضلاء أهاليكم المعنيون بهذا الشأن عليه ويتخلونه ان شاء الله قبله يصلون اليه
 وعرفناكم لتمسكوا ان شاء الله عن نشره ما لفقتهوه في تاريخكم هذا حتى ياتيكم
 ان شاء الله من قبلنا مرتبة في اسلاكها) (6)

- (1) الفشتالي مخطوط المناهل - ص 194 .
- (2) ابن القاضي درة الحجال - ج 2 ص 377 .
- (3) ابن القاضي درة الحجال - ج 2 ص 378 .
- (4) المقرئ روضة الآس - ص 161 .
- (5) عبد الله كنون رسائل سعدية - ص 237 .
- (6) المصدر السابق .

ورغم أن الرسالة قد اغفلت ذكر اسم الكاتب الذى كلفه المنصور بتدوين اخبار السعديين فإن أوصاف الكاتب المذكور تنطبق جميعها على أبى فارس الذى كان صاحب القلم الاعلا بحضرة الامامة مع كثرة الاعلام بها فحاز قصب السبق واتخله قسهم وسحبانهم فى غرض البلاغة امامه (1)

ومهما كانت الاسباب التى أدت الى قيام الفشتالى بتأليف كتاب (المناهل) فإن ظروف المولى احمد المنصور الداخلية والخارجية وفتوحاته العظيمة وما بلغته دولته من عز وعظمة وغنى بالاضافة الى ما كان يطمح اليه المنصور من نشر مآثره فى الشرق العربى الخاضع للعثمانيين ، كل ذلك يعد من الاسباب الرئيسية التى دفعت الفشتالى الى تدوين الكتاب التاريخى والاشادة بالمولى احمد وامبراطوريته وبلولته التى قال عنها (انها اثرت العديد واكسبت المحروم) (2).

واعتمادا على ما أورده المعاصرون فإن (مناهل الصفا) قد تعددت اجزؤه واسفاره (عهدى به أنه اكمل منه ثمانية مجلدات وهو مقصور على السلطان المذكور وذويه) (3) وان بعض المجلدات كانت متعلقة بموضوعات خاصة (أخبرنى أنه ذكر فى فتح السودان فقط ما تحمله سفر ضخمة فما ظنك بغيره) (4) الا أن معظم ما دونه الفشتالى قد ضاع أو هو فى حكم المجهول وقد تجود به الايام يوما ما .

عمر الفشتالى بعد المنصور بنحو عشرين سنة حيث عاصر الاحداث المؤلمة التى عاشها المغرب بعد وفاة المنصور ، ولاسيما النكبات الثلاث التى حلت بالبلاد والعباد من جراء الطاعون الاسود المميت والمجاعة الاقتصادية الخطيرة والحرب الاهلية الطويلة التى دامت بين ابناء المنصور واحفاده سنووات طويلة ضاع بسببها ثرات حضارى عظيم وامجاد سياسية لا تنسى ، ومن بين ذلك الخزائن العلمية العديدة التى بلغت شأوا رفيعا أيام المنصور ، فطويت بعدها الى أجل غير مسمى صفحة مشرقة فى تاريخ المغرب الحديث وتوفى الفشتالى عام 1031 هـ / 1621 م .

ظلت مؤلفات أبى فارس والكثيرين من أمثاله فى حكم المفقود خلال القرون الاربعة الماضية ولا يعلم عنها الا ما تناقله الرواة من اخبار متفرقة ومتقطعة وبالاخص ما حرص بعض المؤرخين الثقات على ابرازه والاشادة به والتنبيه الى مؤلفه الحقيقى الذى أصبح فى حكم المجهول ، الى أن سمحت الظروف أخيرا بالعثور على مجموع مخطوط للفشتالى من كتابه (مناهل الصفا) يتعلق بدراسة بعض الاحداث والوقائع التى تعود الى عهد المولى احمد المنصور بوجه خاص وهذا هو مخطوطنا الذى نحن بصدد دراسته والاعتماد عليه للتعرف على مؤرخنا الفشتالى ولكشف النقاب عن الكثير من الاخبار التى دونها عن أوضاع المغرب الداخلية أواخر القرن السادس عشر وعن بعض البلاد الخارجية المعاصرة له فى الشرق الاسلامى والغرب المسيحى

- (1) المقرئ : روضة الآس - ص 151
- (2) الفشتالى مخطوط المناهل ص 146
- (3) المقرئ : نفع الطيب - ج 5 ص 645
- (4) المقرئ : روضة الآس - ص 162 .

توجد النسخة المخطوطة من المناهل في خزانة القصر الملكي بالرباط تحت رقم (274) ، عدد صفحاتها (304) صفحات كل صفحة بحجم (26،5) سم طولا و (21) سم عرضا وبكل صفحة (26) سطرا وكل سطر يتضمن نحو (15) كلمة (1)

أصالة المخطوط

مخطوطنا هذا ليس النسخة الاصلية التي كتبها الفشتالي أو أطلع عليها لخلوها من أية اشارة الى ذلك ، ولان اضطراب موضوعاتها وعدم تصنيفها يؤكد بأنها منقولة عن نسخة أخرى ، ربما ترجع الى ناسخها على اعتبار أنه قد أطلع على مذكرات الفشتالي مسؤولية عدم ترتيب ما جاء بها من معلومات وفق الترتيب الزمني سهوا منه أو جهلا. وعندما نتساءل هل هناك ما يكشف النقاب عن هوية الناسخ ومتى نسخ وأين ؟ نلاحظ

أولا بأن العبارات والتراكيب وصيغ الافعال في الخبر والتكلم والمخاطبة ، لا يترك أي مجال للشك بأننا نقرأ مذكرات الفشتالي كما وضعت لأول مرة ، والفضل في ذلك يرجع فيما يبدو الى الناسخ الاول ومن نسخ عنه الذين سعوا الى المحافظة على الاصل والمجئ باللفظ دونما تصرف يذكر وان كان في ذلك ما يزيد من عنائنا في البحث والتنقيب عن الناسخ المجهول

(1) توجد بخزانة القصر الملكي بالرباط نسختان مخطوطتان للمناهل اهتمت احدهما رقم (274) . والاخرى تحت رقم 5182 وهي مشكولة تم الفراغ من نسخها أوائل رمضان عام 1128 هـ . وفي دار الوثائق التابعة للخزانة العامة بالرباط (ميكرو فيلم) تحت رقم 779 لنسخة المناهل المخطوطة الموجودة بتونس ومن مقارنة النسخة التونسية مع التي اعتمدتها تأكدت من أن النسخة التونسية منقولة عن المغربية ومن أبرز الأدلة على ذلك النقص الموجود في النسخة التونسية والتي ترتب عن النسخ بالدرجة الاولى ، وعلى سبيل الامثلة لا الحصر صفحات 38 ، 75 ، 76 ، 92 من النسخة التونسية لقد اشتهبه الامر على ناسخ المخطوطة التونسية عند عبارة (مما ذهب اليه) المتكررة (ص 38) (ان ذلك اكثر مما ذهب اليه ابن خلدون باضعاف الا أن يكون قد قصد فيها ذهب اليه ثيكورادين) لحذف سهوا الكلمات (ابن خلدون باضعاف الا أن- يكون قد قصد) . في صفحة 75 ينقص النسخة التونسية سطر (لما تم لمولانا الامام الغليظة المنصور بالله ناصر المؤمنين أيده الله)

وفي صفحة 76 اشتبهت كلمة (جنود) على الناسخ وحذف العبارة التالية (لعلهم انه لا طاقة لهم بمقاومة عساكر المغرب و جنود الامام ولم يكن الا أن يادر ملوكهم بالحضاق الى المعسكر واللياذ بالطاعة دفعا لتيار الهلكة بذلك عنهم وعن قومهم وثقافتها من هجوم العساكر عليهم في منازلهم واستخراجهم من صياصيمهم ووصلوا الى معسكر جنود الامام) ومن الأدلة أيضا عدم وجود زيادة ما في النسخة التونسية ، بالإضافة الى اتفاقها مع النسخة المغربية في الملاحظات العامة التي ائتمناها عند الدراسة والتحقيق من اضطراب في ترتيب المعلومات ووجود نفس البياض وغير ذلك .

وأصالة مذكرات الفشتالي قد تدفعنا من جهة أخرى الى القول بأن مخطوطنا لم تتداوله الايدى الكثيرة أو على الأقل لم يتيسر لاي كان الاطلاع عليه والبحث به ، إذ توارثته اياد أمينة حافظت عليه وأخلت عنه بكل نزاحة . ومن هذا القبيل الافرائني في (نزهة العادى) وبلقاسم أحمد الزباني في (الترجمان المغرب) الذى سجل على هوامش المخطوط بعض ملاحظاته ، ومحمد كنسوس في (الجيش العرمم) الذى ذكر بأن السلطان محمد بن عبد الله قد أمر أحد كتّابه أثناء رحلته الى أغمات عام 1178 هـ أن يروى له فصلا من فصول الفشتالي . وقد اورد صاحب دليل مؤرخ المغرب بأن الوزير أحمد بن موسى كانت له نسخة من المأهل يطالعها كلما فرغ من اشغاله فى دار المخزن .

ثانياً اما عن زمن النسخ فالذى تأكد هو أن المخطوط قد نسخ فى فترة سابقة لعهد الزباني الذى عاش فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر فهل كتب المخطوط فى القرن السابع عشر ؟

ثالثاً وعن مكان النسخ لا توجد أية إشارة الى ذلك ، ولا يدفعنا الشعور على المخطوط بفاس الى القول بأن نسخه قد تم فى هذه المدينة ، فقد يكون فى فاس أو فى مراكش أو فى غيرها

والسؤال المطروح هل يمكن القول بأن ناسخ المخطوط قد اعتمد على بعض الكرايس من مسودة الكتاب التاريخى الذى ألفه الفشتالي عن السعديين وعن عهد المنصور بإشارة من الخليفة ، والذى كان المولى أحمد حريصا على ارساله الى الشرق العربى ؟ وهل كانت من مهام السفارة المغربية التى سعى المنصور الى توجيهها الى حلب عام 1008 هـ / 1600 م القيام بنقل الكتاب التاريخى ونشره فى المشرق العربى ؟

ففى الوثائق التاريخية رسالتان من المنصور الى ايليزابيت ملكة إنجلترا الاولى بتاريخ 12 رمضان 1008/17 مارس 1600 جاء بها (واللى أوجه لكائك المكين انه يرد على مملكتك خدامنا حملة الكتاب الكريم الدين وجهناهم الى حلب لقضاء بعض مآربنا مما عن من اغراضنا)(1)

والثانية بتاريخ 23 شعبان 1009/1 ماي 1601 جاء بها (وأماما اقامه مكانكم من العذر عن علم تجهيز اصحابنا الى جهة حلب فقد قبلنا عنكم)(2) .

أى ان الملكة الانكليزية قد رفضت السماح للسفارة المغربية بالتوجه مع الاسطول البريطانى الى الشرق العربى للتوتر الذى عرفته العلاقات المغربية - الانجليزية وللروابط

(1) مجلة تطوان العدد الثامن - ص 79

(2) المصدر السابق ص 81 .

الحسنة التجارية والسياسية التي كانت تربط الانجليز والاتراك ولم تكن تخفى عن الملكة نوايا المنصور الحقيقية وما كان يسعى اليه من تدخل في الشرق العربي الخاضع للعثمانيين لصالح خلافته ودولته .

ان في هذا الرأي أى كونه ناسخ المخطوط قد اعتمد على بعض الكرايس من مسودة «مناهل الصفاء» ما يفسر لنا الاضطراب الموجود بمخطوطنا سواء فيما يتعلق بالموضوعات الغير المرتبة او فيما يرجع الى الكثير من أماكن البياض للكلمات والعروف التي ربما صعب على الناسخ فهمها ونقلها

ويبقى هناك سؤال آخر هل تمكن المنصور من ارسال كتاب (مناهل الصفاء) الى الشرق العربي أم أن الايام لم تساعده على ذلك ؟

متى بدأ الفشتالى في تدوين اخباره ؟

أول ملاحظة تعترضنا في هذا المجال : هو أن الفشتالى قد دون معلوماته بشكل كرايس منفصلة عن بعضها يتعلق قسم منها بوقائع مختلفة من عهد المنصور ويكون القسم الآخر موضوعات خاصة ، وقد اشتبه الامر على جامع المذكرات او ناسخها فقدم وأخر ومن هنا جاء الاضطراب الذي نلاحظه في مخطوطنا والذي سنفصل فيه القول فيما بعد

وعند تصنيف مذكرات الفشتالى وترتيبها تاريخيا ، نتأكد بأن مؤرخنا لم يشرع في تدوين اخباره الا في حدود عام 997 هـ / 1589 م بعد تولية المنصور بأحد عشر عاما أى بعد أن توجهت اليه اشارة المنصور بالتأليف أو لان الاحداث الهامة الداخلية والخارجية التي عرفتھا هذه السنة يمكن اتخاذها نقطة انطلاق للامجاد والعظمة التي تميز بها عهد المنصور فقد شهدت هذه السنة

1 - معركة الاراماد البحرية وانهزام الاسبان لأول مرة امام الانجليز

2 - محاولة الاستفادة من الانهزام الاسبانى لتحرير مدينة سبتة بوجه خاص من

الاحتلال الاسبانى

3 - وصول اميرين اجنبيين لاجئين الى المغرب هما (دون كريستوف) البرتغالى

وداود بن على السودانى .

4 - تفكير المنصور الجدى فى غزو السودان والتمهيد لذلك

5 - اتصالات المنصور القوية مع الحلف «البرونستانى» ومع الانجليز بوجه خاص

للمعمل ضد الاسبان

6 - قيام المنصور برحلة ثانية الى قاس بعد القضاء على ثورة ابن قرقوش التي لم

يشك المنصور في مساعدة الاسبان لها

7 - استرجاع المنصور لمدينة أصيلا وتحريرها من الاحتلال البرتغالي - الاسباني

ودلينا على ما ذهبنا اليه ، هو أن أبا فادس الفشتالي منذ هذه السنة (997 هـ / 1589) قد استعمل في مذكراته عبارات تؤكد بأن التدوين كان في حينه علاوة على إثباته للتواريخ التي وقعت خلالها هذه الاحداث باليوم والشهر والسنة .

واعتمادا على ذلك ، فإن الفشتالي قد دون معلوماته كما يلي

اولا لقد سجل الاحداث التي عرفها العهد الاول من حكم المنصور خلال السنوات (986 - 993) بعد حدوثها وذلك كما يفهم من العبارات التالية التي تؤكد بأنه يدون أخبارا يعرف جميع تفاصيلها وتطوراتها

- (وبلغت الدولة الى اشرف نصابها حسبما نذكر هذا كله ونحسنه ان شاء

الله) ص 3

- (وقارن ذلك كله حسبما يأتى التعريف بذلك ان شاء الله في محله) . ص 5

- (حسبما نذكر ان شاء الله عند قسمة الاعمال بين الامراء) ص 34

- لما تحدث الفشتالي عن السفير المغربي الهوزالي قال انه قد توفي عام (994 هـ)

في حين أنه كان يتحدث عن سفارته الى صطامبول عام (989 هـ).

عندما ذكر مكائد المنصور في السودان عاد بها الى سنة (991 هـ) واستمر في سرد

التفاصيل الى عام (997 هـ)

- يلاحظ ترابط قوى بين الفصول والمذكرات بأن يشير في نهاية الفصل الى ما

سيتعرض له في الفصل التالى بل ويتخذ أحيانا آخر جملة من الفصل السابق عنوانا

للفصل الذى يليه

ثانيا هناك فترة دامت سنتين تقريبا لم يدون الفشتالي عنها شيئا يذكر (بين

994 هـ و 995 هـ) . ولعل ذلك كان بسبب المرض الذى ألزمه الفراش سنتين ، فقد ذكر

في الصفحة (259) من المخطوط (وأما ما قابلتنى به عنايته ايده الله عند انغماسى

في العلة المتطاولة لآمد من حولين كامين)

ثالثا بدأ الفشتالي منذ عام 997 هـ/1589م يدون الاحداث بشكل مذكرات يحمل

بعضها تواريخ تدوينها وتتضمن ايضا عبارات يفهم منها أن الموضوع الذى هو بصدد

الحديث عنه لم ترد بشأنه معلومات جديدة بعد ، ويلاحظ على هذه المذكرات

1 - التدوين حسب الموضوعات غالبا : فتح السودان ثورة الناصر

ب - الدقة والضبط فى الوصف وتحديد الزمان والمكان كما فعل مثلا فى وصفه

لرحلة المنصور الثانية لغاس .

ج - الاكثار من استعمال هذه العبارات (لهذا العهد) (وفى هذا التاريخ)

(شرع الآن) ، ومن الامثلة

- (وهو الآن ايدى الله لهذا العهد من عام سبعة وتسعين واقف على أهبة
(الاستعداد) ص 90 .

- (وهم لهذا العهد غائبون تجاهها كتب الله سلامتهم) ص 112

- (وشرع امير المؤمنين الآن بعد ارسال الرسول فى تجهيز العساكر ص 57

- (على امداده بالعساكر ليحلب بها على السلطان اليوم بكاغوى ص 69

- (وتسايلت لهذا العهد كتابها على هذا النمط) ص 97 .

- (فكان مبدأ الشروع فى تأسيسه واتصل العمل بهذا العهد وهو عام اثنين
وعشر مائة) ص 226

- (فتهاكوا لهذا العهد فى مضايقته) ص 136

- (وفى هذا التاريخ صمد اليه اسطول بلاد نكلطيره فى مائتى مركب) . ص 36 1.

د - تفق مذكرات المخطوط السياسية عند حدود عام 1005 هـ / 1596 م .

رابعا والى جانب الاحداث السياسية ، هناك موضوعات هامة تتعلق بمظاهر
حضارية مختلفة لعهد المنصور ويمكن تصنيفها كما يلى :

- جوانب ادارية مع تنظيم القوات العسكرية والبحرية

- اوضاع اقتصادية تتعلق بزراعة قصب السكر ومعامله وبعض المصانع
الحربية

- مظاهر اجتماعية وعمرانية

- الناحية الثقافية ومميزاتها فى عهد المنصور .

والذى اكدته الدراسة والبحث أن القشتالى قد دون المظاهر الحضارية السالفة

الذكر اثر انتهائه من تسجيل اخبار الفتوحات المغربية فى السودان وبالضبط غداة
الانتصارات العسكرية التى احرزها محمود باشا فى السودان خلال عام 1002 هـ / 1594م
بدليل أنه :

1 - عندما تحدث عن بناء المنصور لقصر البديع قال (فكان مبدأ الشروع فى تأسيسه
فى شوال خامس الاشهر من خلافته السعيدة فى عام ستة وثمانين وتسعمائة
واتصل العمل لهذا العهد وهو عام اثنين وعشر مائة لم يتخللها فترة) 226 .

2 - عندما تحدث عن القائد المغربى منصور باشا الذى ولاء المنصور القيادة للجيش
بعد تعيين محمود باشا حاكما على السودان قال (فمن الاكابر منصور باى ..

لما رقاها لهذا العهد من قيادة الانكشارية (ص 197) ومعلوم أن محمود باشا قد حكم السودان بين (999 هـ و 1002). ولا تتضمن مذكرات الفشتالى الحضارية اية اشارة الى اى حدث تاريخى وقع بعد عام 1002 هـ/1594

هل المخطوط كل ما دونه الفشتالى ؟

ان مخطوط المناهل يتكون من مجموع عدة أسفار تتعلق بموضوعات سياسية وحضارية ومن بينها موضوع فتح السودان الذى اكده المقرئ - وهو معاصر - بأنه يكون سفرا خاصا فأين بقية الاسفار ؟

1 - هناك الاشارات العديدة الى الاسفار التى دونها الفشتالى عن العهود التى سبقت حكم المنصور (حتى اذا كان زحف صالح رايى من الجزائر بجنود الاتراك مع الاعور بوحسون حسبما قدمنا) ص 59

2 - وهناك العزم على أنه سيستمر فى التأليف (فقد آن لنا أن نختم هذا السفر بمآثره الشريفة الى أن يسنى الله تعالى بفضل من الفتوح والظفر الممنوح ما يستفتح به ان شاء الله سفر آخر) . ص 170

3 - لقد اكده المقرئ فى (روضة الآس) بأن الفشتالى لم ينقطع عن التأليف والتدوين فى الصفحة (162) ذكر من جملة مؤلفات الفشتالى كتاب (تقديم الامام) وقال (عهدى به فى المحلة المنصورية عام عشرة والف قد كتب جله) أى قبيل وفاة المنصور بسنتين تقريبا

لقد ضاع جزء هام مما كتبه الفشتالى للاحداث الخطيرة التى عرفها المغرب منذ وفاة المنصور وارى أن أبا فارس يتحمل قسطا من المسؤولية فى ضياع بعض مدوناته وفى التحريف والبتر الذى اصاب البعض الآخر منها فقد ذكر المقرئ فى (روضة الآس) (وقال ايضا ابقاه الله فى غرض يضاهى ما تقدم من قصيدة لم أجدها أولها فلذلك كتبت منها ما وجدت فقط ولعلى أجدها أولها ان شاء الله تعالى فالحقه) (ص 167) وفى الصفحة (150) من المناهل دليل آخر على ما ذهبنا اليه وهو أن الفشتالى لم يكن يولى عناية كبرى بجمع كل ما دون وبحفظه (وكنى شرعت ساعتئذ فى قصيدة اساجل بها القوم فتجاذبتها مع الاشغال المثالة حينئذ فغلبتنى عليها من بعد الجهد فى المكافحة وأنا مورد ما خلص لى منها) وربما يلاحظ البعض أن عدم اهتمامه بتدوين جميع القصائد مثلاً لا يفهم منه اهماله لتدوين الاحداث السياسية ، الا ان الدراسة تستلزم الاشارة الى ذلك ولان تدوين بعض القصائد التى قيلت فى مناسبات سياسية مثلاً قد تكشف الكثير من التفاصيل التى تساعدنا على فهم بعض الاسباب والنتائج ولله

الاصطلاح وغيرها ضاع قسم من اخبار الفشتالى عن السعديين والمنصور ، وجاءت معلومات المخطوط مضطربة وغير مرتبة

- 1 - ان ما جاء فى بعض المذكرات يفرض معرفتنا لبعض الاحداث التاريخية التى كانت الاشارة قد سبقت اليها فى حين ان الخبر عن هذه الاحداث جاء متأخرا
- 2 - فى الصفحة (52) يتحدث عن (ارتجاع العساكر من كاغو الى تنبكتو) ثم فى الصفحة (68) يتحدث عن وصول القوات المغربية الفاتحة الى كاغو
- ب - فى الصفحة (62) يتحدث عن رجوع القوات المغربية بعد اخماد ثورة توات ، فى حين ان الحديث عن هذه الثورة ورد فى الصفحة (112)
- ج - فى الصفحة (67) ذكر بأن المنصور قد فتح المناطق الصحراوية الشاطئية كتمهيد لفتح السودان فى حين أن الحديث المفصل عن فتح هذه المناطق قد جاء فى الصفحة (84)

2 - لقد تنبه المؤرخ الزيانى الى هذه الملاحظة ودون على هامش الصفحة (48) من المخطوط قوله (هذه الترجمة التى جعلها المؤلف هنا محلها يأتى عند فتح السودان وليس هذا محلها كته بلقاسم بن أحمد الزيانى)

- 3 - الفصل بين معلومات الموضوع الواحد فمعلومات الصفحة (114) هى تنمة لما فى الصفحة (54) ، ونفس الامر بالنسبة لمعلومات الصفحة (163) و الصفحة (58)
- وعلى سبيل المثال لقد حاول المنصور استغلال وجود الامير السودانى داود يماركش للضغط على أخيه اسكيا اسحق فى كاغو بالسودان وتحدث الفشتالى فى مخطوطه عن ذلك فقال (ورأى أن له بذلك التحكم فيما يشاء عند صاحب السودان فابتدر من انتهاز الفرصة فى تشهير الخسراج الموظف على معن تقاوى واعتمل فى اتمام ذلك بأن دس مع ولده المولى أبى فارس عتانه) (ولبض على ولد سكية الواقد على الحضرة فى منييه بأن يكتب الى امير المؤمنين يرغبه على امداده بالعساكر ليجلب بها السلطان اليوم بكاغو)

فالفقرة الاولى توجد فى الصفحة (114) بينما الفقرة الثانية فى الصفحة (54)

- 4 - هناك احداث ووقائع حصلت فى عهد المنصور واشار اليها بعض المعاصرين، وتدخل ضمن الاحداث التى تحدث عنها المخطوط دون أن نجد لها اشارة ما ولا يخالفنا شك فى أنها قد ضاعت ومن ذلك مثلا

- الاشعار الكثيرة التى نقشت على جدران البديع وهى فى معظمها للفشتالى وقد اثبت المقرئ فى روضه الآس بعضها

٥ - زيارة الفشتالي لفاس في سفارة خاصة خلال محرم 1007 هـ لدى ولي العهد كما أشار الى ذلك المقرئ .

٦ - وصول جوذر باشا من السودان الى مراكش في قعدة عام 1007 وقد سجل المقرئ وصفا لذلك .

٧ - لقد نشر الاستاذ الفاضل عبد الله كنون ملخصا لمناهل الصلا ، وقد تصرف الملخص كثيرا والى حد بعيد في اثبات وحذف العديد من الموضوعات والمعلومات الهامة التي لا تترك قيمتها الا بالرجوع الى المخطوط أولا والمختصر ثانيا الامر الذي يؤكد لنا بان مذكرات الفشتالي قد تعرضت كثيرا للتحريف والتشويه من قبل بعض المغرضين والنساح ويجعلنا نقف على حقيقة الراى القائل (كم من ناسخ ما نسخ) ولعل هذا من الاسباب التي جعلت الاستاذ الفاضل عبد الله كنون يثبت في الصفحة (13) قوله (فضلا عن أنه اذا نشر الاصل فإن هله الملخص سوف لا يرى النور ولا يجد سبيلا الى الظهور أبدا) .

٨ - ومن الاحداث الخطيرة التي عرّفها العهد الاخير من حكم المنصور والتي لم يتضمن المخطوط أية اشارة اليها

٩ - الطاعون الذي حل بالمغرب منذ عام 1598/1007 ودام نحو خمسة عشر عاما

١٠ - موت فيليب الثاني ملك اسبانيا وعمو المنصور اللدود وتولية ابنه 1598

١١ - اتصالات المنصور السرية مع الانجليز للعمل سوية ضد الاسبان

١٢ - تمرد المامون ضد والده والقضاء على ثورته

١٣ - موت المنصور في فاس 1603/1012 وتحارب ابنائه على الحكم والتكبات التي

توالت على العباد والبلاد

وهكذا ضاع الكثير مما دونه المؤرخ الفشتالي عن احداث المغرب في عهد المنصور بوجه خاص ، فالفشتالي قد ارجح للدولة السعدية منذ تأسيسها في مطلع القرن السادس عشر وفصل احداث عصر المنصور كما كتب الكثير عن المغرب بعد المنصور حتى وفاته عام 1621/1031 أي ان تواريخه قد شملت حوادث قرن تقريبا ، الامر الذي يؤكد ما ذكره بعض المعاصرين من أن الفشتالي قد دون تاريخ السعديين بما ملا به مجلدات ضخمة وعديدة (عهدي به أنه اكمل منه ثمانية مجلدات وهو مقصور على السلطان المذكور ودونه) (1) و (اخبرني أنه ذكر في فتح السودان فقط ما تحمله سفر ضخمة فما ظنك بغيره) (2) ويضيف ابن القاضي (وتاريخه المذكور في مجلدات اشتمل على تاريخ ساداتنا الشرفاء من اولها الى الآن) (3)

(1) المقرئ نفع الطيب ج 4 ص 645

(2) المقرئ روضة الآس ص 126

(3) ابن القاضي : درة العجال ج 2 ص 378

أما مخطوطنا فلا يؤرخ إلا لسنوات معدودة من حكم المنصور لا تزيد عن خمسة عشر عاما ولا يتضمن جميع تفاصيل الاحداث التي عرفت هذه السنوات المدة التي أُرِخ لها اذ يوجد بها نقص وبترا كثيرا ما يعولان دون تتبع الوقائع مما يدل على أن المخطوط النبى بين ايدينا لا يمثل الا جزءا يسيرا من اخبار الفشتالى ويجسم لنا فى نفس الوقت الخسارة التى لحقت بمؤلفات الفشتالى التاريخية وعرضت معظمها للتلف والضياغ

النقد التاريخى

الاسلوب يلقب على المخطوط الطابع الادبى الى حد بعيد ، للرجة يمكن اتخاذ الكتاب نموذجا ادبيا للنثر الفنى الراقى وللعبرية الشعرية الواسعة الخيال ، التى اتصف بها بعض الادباء المغاربة فى هذا العصر ، ولا غرابة فى ذلك اذ الفشتالى كان ادبيا وشاعرا قبل أن يكون مؤرخا رسميا ، وهذا الطابع الادبى تجلّى فى عنوان الكتاب الذى هو على شكل قافية موزونة (مناهل الصفا فى مآثر موالينا الشرفا) وظهر فى الاستطرادات الكثيرة التى لا تخلو منها صفحة من الصفحات ثم فى تعدد القطع السياسية والدينية والاجتماعية وغيرها ، الشعرية التى القيت فى مختلف المناسبات وقد تضمن المخطوط نحو (27) قطعة شعرية لعدد من الشعراء المعاصرين يصل تعداد أبياتها الى (850) بيتا تقريبا

ولقد حاول الفشتالى أن يجعل مؤلفه التاريخى وقفا على مآثر الخليفة المنصور والاشادة باعماله فى الداخل والخارج ، وتناول الاحداث السياسية ومختلف المظاهر الحضارية التى تميز بها هذا العهد ونادرا ما كان يتعرض الى احوال العامة او يقف على نواح من انماط حياتهم اليومية

وعن الفشتالى المؤرخ وثقافته التاريخية ، يشير اهتمامنا

1 - المصادر التى اعتمد عليها فى تدوين الاحداث ، وترجع فى معظمها الى :

أ - ما نقله عن معاصريه من وجهاء القوم ، وذلك فيما يتعلق بالحوادث التى

حصلت فى العهد السابقة لحكم المنصور او خلال الفترة الاولى من حكمه

(من ذلك ما أخبرنى به الشيخ ...) ص 4 .

(ما حدثنا به سفير الخلفاء ...) ص 5.

ب - ما رواه عن الخليفة المنصور (وعى ما حدثنا به ايده الله ونصره) ص 2

(قال امير المؤمنين آيد الله ولم أشعر يومئذ) ص 3

ج - ما نقله عن المراسلات والوثائق الرسمية بحكم وظيفته

(قرأت فى كتاب الفتح الى امير المؤمنين ان الشيخ...) ص 43

د - ما اطلع عليه وسمعه (فالذى يدل عليه خبر من لقيناه بالابواب العلية)

ص 39 .

هـ - ما شاهدته ووقف عليه وعاصره من احداث (فرغت بقراءته عقيرتى وقام الى جنبى قاضى الجماعة ... مفسرا لما أشكل من احكام البيعة التى تضمنها الرسم الكريم) ص 92 .

و - وهناك معلومات رجع فيها الى مصادر تاريخية كابن خلدون (وقد ألم الامام ابن خلدون فى كتاب العبر بذكر تيكورارين) ص 38

2 - سعة معلوماته التاريخية فقد تعرض الى اخبار تتعلق بالغرب فى عهد المنصور وأخرى بالعالم الخارجى المعاصر شرقا وغربا وسيأتى التفصيل فى ذلك فيما بعد

اما طريقة التدوين فاللشتالى جمع بين طريقتين فى التدوين هناك المذكرات التى دونها وفق الترتيب الزمنى وثبتت فى نهايتها تاريخ التدوين فجاءت بشكل حوليات (ومما يحكى فى هذا الباب فى صفر من عامنا هذا وهو عام سبعة وتسعين) ص 190

وهناك المذكرات التى خصصها لموضوع خاص (ذكر ما اشتملت عليه هذه الممالك المنتظمة فى سلك الايالة العلية المنصورية من الخصائص والمزايا والمفاخر التى لا توافى) ص 129

اما قيمة المؤرخ الفشتالى كشاهد للاحداث التى رواها ومعرفة مدى عدالته وضبطه ، فتشير أول الامر الى أن ابا فارس قد ساعدته ظروفه الخاصة كجلس للمنصور وكوزير للقلم أن يطلع على الاسرار والمعلومات التى لم يكن من السهل على أى كان التعرف عليها والوصول اليها ، فهو لذلك كان يحظى بجميع شروط المشاهدة الصحيحة ، وقد سعى الفشتالى الى :

أ - تدوين الكثير من المعلومات فى الحين (وهو الآن ايده الله لهذا العهد من عام سبعة وتسعين واقف على قدم الاهبة والاستعداد لذلك) (ص 90) . ويبدو ان مؤرخنا كان يهتم كثيرا بالاحداث السياسية قبل غيرها فى التدوين ، مما كان سببا فى ضياع الكثير من القصائد الشعرية مثلا والتى قيلت فى مناسبات سياسية (وزجرت له يوم خروجه على عادة الشعراء الفال الحسن باييات شدة عن حفظى بعضها) (ص 140)

ب - تحديد زمان ومكان الحادث مما يعطى صورة واضحة عن مقدار ضبطه كما يروى (فقال لهم امير المؤمنين لذلك محتجا عليهم أرايتم لو فرضنا قيام اخي عبد الله

بنفسه فضلا عن ولده وبيعتي في اعناقكم يسوغ لكم اتباعه ثم عرض اجتماعي في ذلك اليوم أو بعده مع شيخنا العلامة فحدثني بشأن القضية لعدم اتفاق حضوري ساعتئذ فقال شاهدت اليوم أو أمس .. (ص 193)

ويدخل هنا وصفه لنفسية المنصور وما كان يشعر به أحيانا من فرح وسرور (فاهتز له سرورا من اعواده وزجر فيه الفال الحسن لرحلته) (ص 109) أ ومن ألم واستياء (ووصل الخبر الى امير المؤمنين بفاس فانبعثت له حفاظته) (ص 112)

ج - تدوينه لعدد من الوثائق المتعلقة بعهد المنصور ، وهي كما يلي

- 1 - بيعة ملك برنو (ص 19 - 23) .
- 2 - رسالة المنصور الى الجهات والاقطار بعد فتح السودان (ص 48 - 52)
- 3 - رسالة المنصور الى اسكية اسحاق (ص 55 - 57)
- 4 - رسالة المنصور الى عمر بن محمود بن عمر قاضي تنبكتو (ص 74 - 77)
- 5 - نص البيعة بولاية العهد للمولى محمد الشيخ بن المنصور (ص 92 - 103) .
- 6 - رسالة المنصور الى قائديه بالسودان جوذر باشا ومحمود باشا بعد القضاء على ثورة الناصر (ص 151 - 153)
- 7 - رسالة المنصور الى اهل قاس واهل التفور من بلاد الغرب يشكرهم على الثبات على العهد وعلى موافقهم أيام ثورة الناصر (ص 154 - 156)
- 8 - رسالة المنصور الى صاحب مكة والمدينة وارض الحجاز السلطان حسن (ص 156 - 157) .
- 9 - رسالة المنصور الى كبير المشايخ علم الطريقة بالديار المصرية زين العابدين البكري (ص 158 - 160) .
- 10 - تقييد شريف بخط يد المولى أحمد متضمنا لذكر ما قرأ من العلوم وذكر من أخذ عنه من الشيوخ وسنده عنهم (ص 219 - 221)
- 11 - نص اجازة الشيخ الامام رئيس ائمة العلم بالديار المصرية ابي عبد الله محمد بن ابي الحسن البكري الصديقي للمولى أحمد المنصور (ص 222 - 226)
- 12 - نص اجازة الشيخ الامام قاضي القضاة المالكية بمصر بدر الدين القرافي للمنصور (ص 226 - 250)
- 13 - مقدمة كتاب (العارف في كل ما تحتاج اليه الخلائف) للمنصور (ص 258 - 259).
- 14 - مقدمة كتاب الادعية للمنصور (ص 259 - 260)
- 15 - ظهير تولية المنصور لابراهيم الشط على رئاسة الاسطول المغربي (ص 302 - 303)

ومن جهة أخرى ، تشير الى أن الفشتالي لم يكون الكثير من مراسلات المنصور الصادرة عنه او الواردة عليه من الداخل والخارج ولعله اعتبر ذلك من اسرار الدولة ومما يستلزم السكوت عنه او لان بعضها كان مكتوبا برموز خاصة أى بشيفرة يرجع الى المنصور فضل ابتداعها (اخترع اشكالا من الخط على عدد حروف المعجم يكتب بها فيما لا يريد الاطلاع عليه من اسرار ومهمات أموره واخباره يمزج بها الخط المتعارف فيصير بذلك الكتاب ملمعا مستغلقا فلا يجد المطلع عليه بابا يدخل منه الى فتح شئ من معاني الكتاب ولا الوصول الى فهم سر من اسراره حتى لو تلف الكتاب او سقط أو ضاع أو وقع في يد العدو لأمنت غوائل الاطلاع على اسراره ثم نوع أيده الله هذا الخط الى انواع يخص ولي عهده منها بنوع يرجع اليه في فك معمى كتبه ثم اذا جهز أحد بالعساكر الى جهة أو بعثه في غرض رسالة أو قلده جانباً من اطراف ممالكه وثغوره ناوله خطاً من تلك الخطوط يفك به رسائل امير المؤمنين اليه ويكتب به هو من عنده فيما يريد تعميته من الاخبار وخبايا الاسرار) . (ص 206) .

ورغم أن الفشتالي لم يشب نصوص العديد من الوثائق فانه قد استفاد منها في وصفه للاحداث والوقائع وضبط تفاصيلها كانه شاهد عيان والامثلة كثيرة الفتح المغربى للسودان والمعارك الحربية التى خاضتها قوات المنصور ضد السودانيين تفاصيل عن ثورة الناصر ضد عمه المنصور..

وعدم اثبات الكثير من المراسلات فى مخطوطنا هذا لا يدفعنا الى القول بان الفشتالي قد اهل ذلك ، فقد سبقت الاشارة الى أن المخطوط ليس كل ما دونه الفشتالي ، ثم ان وجود بعض الوثائق فى مصادر نقلت عن الفشتالي كالاقرانى فى (النزهة) مثلا لا يترك مجالاً للشك بان مذكرات الفشتالي قد ضاع قسم منها وقد تجود به الايام يوماً ما

اما قيمة شهادة الفشتالي فيزكى جانباً هاماً منها أخلاقه الفاضلة التى عرف بها وشهادات المعاصرين له (فتركت ايديهم الله المصدر لمن هو منى أقعد وتعميت عقده لمن هو له أقعد أبى فارس عبد العزيز الفشتالي) (ص 54) .

على أن وصف الفشتالي بالعدالة والضبط وصدق الرواية ليس امراً جامعاً مانعاً ، فهو أبعد ما يكون عن ذلك عندما يصف المولى أحمد المنصور ويعدد معاصنه الخلقية والخلقية وخاصة شجاعته التى فاقت الحد والوصف اذ تصبح روايته مخالفة للمنطق ومعقولة الاحداث (ان رجاله الابطال كانوا اذا أحرقهم شرر البندق ولفحت وجوههم نار البارود تقهقروا يتدرق بعضهم ببعض حتى يتدرق جميعهم بامير المؤمنين ويمتدوا من ورائه جبلاً فيبدو تحت الالوية غير متوارى بنو القصر من تحت الغمام) (ص 213) .

ورغم البعض من هذه الهفوات التي أخذت على الفشتالي فإنه لم يقدّر ثقة معاصريه واحترامهم ووصفهم إياه بأحسن النعوت وأفضلها ويكفيها دليلا على ذلك أن معلومات هامة عن دولة المنصور قد تناقلها الرواة والمؤرخون خلال القرون الأربعة السابقة (الإفراني ، الزباني ، كنسوس الناصري) وأن العثور أخيرا على هذا المخطوط قد كشف عن كثير من الحقائق التاريخية والسياسية والحضارية التي تميز بها المغرب في عهد المنصور ومن الانصاف أن نثبت هنا ما ذكره الخليفة المنصور عن مؤرخنا الفشتالي كما أورد ذلك المقرئ في نفع الطيب (ص 852) (أن الفشتالي نفتخر به على ملوك الأرض ونبأى به لسان الدين ابن الخطيب)

مميزات المخطوط العامة :

أولا يعتبر مخطوط (مناهل الصفا) كتاب تاريخ خاص ، من حيث كونه يتعلق بدراسة أحوال المغرب ومختلف التطورات التي عرفت فيها دولة المنصور وصفة الخصوصية هذه تشمل النواحي السياسية والحضارية ولا كان الفشتالي قد ترك أخباره بشكل مذكرات وكراريس رتب من قبل الغير ترتيبا مشوها يحول دون الاستفادة من المعلومات التي تضمنتها - كما سبقت الإشارة إلى ذلك من قبل - فهل يمكن القيام بترتيب مذكرات الفشتالي ترتيبا يساعد على البحث والدراسة ويجعل الدارس يستفيد أكثر ما يمكن من أخبار الفشتالي وتواريخه عن مغرب المنصور ؟

لقد أكدت لي الدراسة أن أفضل طريقة يمكن اتباعها في هذا المجال هي ترتيب مذكرات المخطوط ترتيبا زمنيا وفق التسلسل التاريخي لأن أحداث التاريخ يؤثر بعضها في البعض الآخر ولا يمكن فهم حوادث اليوم إلا بالتعرف على مشاكل يوم أمس ، ولا أخفى هنا مدى الصعوبات التي وجدها عند ترتيب المعلومات ترتيبا زمنيا فقد كان على أن أعيد المخطوط إلى كرايس وأسفار كما وضعها صاحبها وكما وجدها ناسخ مخطوطنا ، وحتى في هذه الحالة لم يتيسر لي ترتيب المعلومات لأول وهلة ، لأن النسخ سامحه الله قد تصرف أو اشتبه عليه الأمر فجمع بين كرايس وأوراق تختلف موضوعيا عن بعضها البعض ولأن المذكرات من جهة أخرى بها الكثير من البتر والتقص الأمر الذي استلزم قراءة كل مذكرة على حدة وتنظيم ما جاء بها من معلومات سياسية وموضوعات حضارية

وترتيب المعلومات المخطوط لم يقع معه أفعال حرف واحد مما في الأصل ، ولم يخرج عن نطاق السعي إلى تصحيح الطريقة التي اتبعها جامع مذكرات الفشتالي أو ناسخها والتي لو قدر لمؤلفها أن يقوم هو نفسه بترتيبها لتجهج المسلك نفسه ودون أن يكون هناك اختلاف يذكر بين الطريقتين

والترتيب الذي انتهت اليه كالتالي الاحداث السياسية

1 - معلومات متفرقة عن الحكام السعديين الاوائل

- التزاع بين الاخوين أحمد الاعرج ومحمد الشيخ (ص 40 - 41)

— الصراع بين محمد الشيخ وأبي حسون وحلفائه الأتراك (ص 58 - 60) .

— اخبار عن الغالب وايمته المتوكل

2- المنصور قبل توليه الخلافة

١٠ - وفاته ونشأته (ص ١ - ٦)

- هجرة الى تلهاسان (188 - 189)

- حروفه يسوس (190-189) + (218 - 217) + (217 - 213)

٢ = حركة المخازن (212 - 213) + (301 - 302)

٧- الفرق عند تولية المنصور (6-7)

3 - الخليفة المنصور

١٤ - في فاس غداة توليته (7 - 14)

في ما اكثي خلال السنوات الاولى لحكمه (14-16) + (23-38).

ب. زیارتہ الناس (16-23)

٤٤- التوسع في الصحراء الشرقية (٣٩-٤٤)

- التوسع في الصحراء الجنوبية وبعدها (87-105)

— ثبوت این قرقوش (105-107) + (184)

٥٧) + (١١٢-١٠٧) الثانية لفاس

- تأديب بعض القبائل (163-169) + (58-62) + (191-192)

- عودتہ لراکش (57-58)

١٠ استرجاع أصيلاً (63-64)

۔ تادیب ثوار قوات (52-57) + (58-64)

(87-69) + (57-54) + (114-113) + (114) + (68-65) } فتح السودان
(133-124) + (48-44) + (124-114) + (54-48) + }

- ثورة الناصر (133-134) + (138-160).

١٠. تأديب قبائل الخلط (١٦٠-١٦٣).

— اوضاع أوروبا الغربية المعاصرة (112-113) + (134-137)

٣٠٣ - عزيمۃ المنصور الجهادیة (303)

المظاهر الحضارية

لقد قمت بترتيبها حسب الموضوعات ، ولم أجد صعوبة كبرى كما حصل عند ترتيب الاحداث السياسية طالما أن المؤلف قد جعل كل مظهر من مظاهر الحياة في عهد المنصور موضوعا مستقلا ، فاقصر عملي على ترتيب هذه الموضوعات كالتالي

٩ - تمهيد (169-170).

- الناحية الادارية وتنظيم القوات العسكرية والاسطول (193-200) + (302-

303) + (204-208)

- الناحية الاقتصادية (279-281) + (303-304)

- الناحية الاجتماعية (170-212) + (281-303) + (264-279) + (218)

- الناحية الفكرية (218-264)

ثانيا يمكن اعتبار المخطوط كتاب تاريخ عام للاهتمام الذي أولاه الفشتالي للاحداث الخارجية سواء في الشرق الاسلامي أو في الغرب المسيحي ، مما يمكن اتخاذه حجة لابطال الرى الذى طالما أبداه بعض المؤرخين الاجانب من أن المسلمين والعرب عامة والمغاربة خاصة قلما أبدى مؤرخوهم اهتماما كبيرا باحداث اقطارهم بله الاقطار المعاصرة لهم والتي كانت معادية لهم بوجه خاص

ويمكن تفصيل هذه العمومية كما يل

- أوضاع الموريسكوس بالاندلس وهجراتهم الى المغرب

- أحوال بلاد السودان والمناطق الصحراوية في شرق المغرب وجنوبه

- الانراك العثمانيون في الشرق واحوال مصر بوجه خاص

- احداث أوروبا الغربية وتفصيل القول في الصراع الكاثوليكي - البروتستانتى

أواخر القرن 16م

- دراسة عامة لتاريخ بعض القبائل العربية بالشرق والمغرب خلال احقاب مختلفة

من التاريخ

ثالثا أغنى وجود المخطوط عن الرجوع الى المراجع التى نقلت عنه لقد نقل

عن (مناهل الصفا) مؤرخون عديدون كالافرانى فى (نزهة الحادى) والزيانى فى (الترجمان المغرب) واكنسوس فى (الجيش العرمم) والناصرى فى (الاستقصا) وخلال العصر الحديث وبعد ضياع مؤلفات الفشتالى أصبح الاعتماد على ما نقلته هذه الكتب عن (المناهل) من قبيل اذا ضاع الاصل حل الفرع محله والآن وقد وجد الاصل فان الباحث عن السعدين وعهد المنصور ملزم بالرجوع الى المناهل الا ما كان يتعلق

ببعض الموضوعات والاحداث والوثائق التي سبق لهذه المراجع قد نقلتها عن الفشتالي والتي لا يتضمنها مخطوطنا هذا عملا بالقاعدة السابقة

رابعاً يطلعنا المخطوط على نموذج عام للتأليف التاريخي في المغرب عند مطلع العصور الحديثة ، وذلك من حيث

- 1 - السعى الى جمع الاخبار بالرجوع الى الوثائق الاصلية المدونة منها والمروية ، والحرص على ذكر مصادرها جرياً على قاعدة السند والمتن
- 2 - التنوع في طرق تدوين الاخبار كأن يهتم المؤرخ الى جانب الاخبار السياسية والحوادث العامة ، بتسجيل الانطباعات الخاصة ومختلف الوقائع اليومية مما يعدد الموضوعات من جهة ويجعل المؤلف انعكاساً لواقع الحياة من جهة أخرى
- 3 - اتباع إحدى الطريقتين في تسجيل الاخبار حسب السنين بشكل حوليات أو حسب الموضوعات مع السعى الى تدوين الاحداث في حينها وضبط تواريخ وقوعها بالسنة والشهر واليوم وهذا منتهى الدقة والضبط
- 4 - الكتاب من انواع التأليف التاريخي التي تدخل في عداد التراجم والسير والاسر الحاكمة ، فهو يهتم بتاريخ الاسرة المالكة وبسيرة أحد ملوكها كما يدون اخبار دولته وأهم مميزاتا دون أن يغفل عن التعرض لأهم رجالها في ميادين السياسة والحرب والعلوم .

- 5 - سعة المعلومات التاريخية التي لا تقف عند حدود الاخبار الداخلية وانما تهتم أيضا بالاحداث الخارجية المعاصرة ومختلف التطورات التي عرفتها بلدان الشرق والغرب.
- 6 - محاولة تحليل بعض الاحداث التاريخية بالوقوف على اسبابها وأهم نتائجها ومضاعفاتها أي عدم الاقتصار على السرد وحشو المعلومات كما درج على ذلك العديد من المؤرخين السابقين

- 7 - توجيه عناية كبرى للمظاهر الحضارية المختلفة التي تكون جميعها مع دراسة الاحداث السياسية صورة متكاملة عن واقع الحياة خلال الفترة المؤرخ لها وهذا تطور هام في التأليف التاريخي في المغرب عند مطلع العصور الحديثة

خامساً يبرز المخطوط صورة عامة لثقافة العصر في أواخر القرن السادس عشر في المغرب بعلومها الاسلامية ولغتها بما في ذلك قواعد القراءة والكتابة المتبعة يومئذ مع ملاحظة الكثير من الالفاظ والمصطلحات الاجنبية التي دخلت اللغة العربية في المغرب شرقية كانت أو غربية وذلك لوجود عدد من الجاليات الاجنبية في المغرب وللتعامل اليومي معها والاتصال المستمر بها أي أن دراسة المخطوط تطلعنا على مرحلة هامة من مراحل تاريخ الادب واللغة العربية في المغرب عند مطلع العصور الحديثة ، وهذا جانب

هام يحرص المؤرخ المعاصر على الوقوف عليه كما يسعى الى التعرف على الاحداث السياسية ومختلف المظاهر الحضارية
المأخذ على المخطوط

كان بودنا أن نقف طويلا عند هذا الموضوع لولا أن المخطوط الذى بين ايدينا قد ثبت بأنه ليس كل ما دونه الفشتالى بل ضاعت اقسام هامة منه نجهل نسبتها لمجموع الكتاب ونجهل الموضوعات التى تضمنتها واهم ما جاء بها

وكيفما كان الامر فان المأخذ التى تلفت النظر فى هذا المخطوط والتى تتعلق خاصة بما كتبه عن عهد المنصور هى

1 - لم يدون جميع معلوماته فى حينها ، فقد اثبتت الدراسة أنه لم يبدأ فى التأليف الا منذ عام 1589/997 أى بعد مرور أحد عشر عاما من تولية المنصور .

2 - لم يدون كل شئ عن عهد المنصور فقد اعترف الفشتالى بأنه لم يول العناية الكبرى للقصائد الشعرية مثلا التى قيلت فى مختلف المناسبات والتى كان من الممكن أن تلقى بعض الاضواء على هذا العهد

3 - غلبة الاسلوب الادبى بل انه قد أغرق كثيرا فى التعابير الادبية والاستطرادات ومختلف ضروب التعبير الادبى

4 - عدم الاهتمام بالطبقات الشعبية والدنيا من المجتمع المغربى

5 - لم يثبت الكثير من الوثائق والمواصفات الواردة الى المنصور أو الصادرة عنه

6 - غلوه فى تعظيم المنصور وتحيزه المطلق لولته وسعيه أحيانا الى تبرير بعض تصرفات المنصور مثل تسليم جثة دون سباستيان دون عوض وعدم تحرير المنصور لقواعد الاحتلال الاجنبى بالشواطىء المغربية قبل التوجه الى فتح السودان ومحاولة تبرير سلوك قوات المنصور الفازية فى السودان

7 - يبدو أن الفشتالى قد أولى عناية كبرى للمولى احمد المنصور ولوالده المولى محمد الشيخ كما تدل على ذلك دراسة وثيقة عقد بيعة المامون وكأنه جعل عهد محمد الشيخ مرحلة البناء والتأسيس للدولة السعدية وعهد ابنه المنصور هو فترة الازدهار والعظمة

وخلاصة القول ان من أهم النتائج التى أدت اليها دراسة مخطوط (مناهل الصفا)

للمؤرخ الفشتالى

الوقوف على ما لحق بعض مصادر التاريخ المغربى على قلتها من عوامل التلف والضياع والبتر والتحريف الامر الذى يستلزم الاهتمام الكبير بجمع مصادر التاريخ من وثائق ومخطوطات كيفما كانت وانى وجدت فى الداخل والخارج للوقوف عليها

ولحفظها وتبويبها وتصنيفها ويستوجب اهتمام المسؤولين وتضافر جهود الاختصاصيين لدراسة هذه المصادر والاستفادة منها وذلك لكشف النقاب عن حقائق التاريخ المغربي خلال عصور التاريخ وسعيًا إلى كتابة تاريخنا بأسلوب علمي وفق طرق البحث ومناهج الدراسة العلمية الحديثة

والأمل كبير في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة لتحقيق غايات ثلاث
أولا السعي إلى جمع المخطوطات والوثائق التاريخية وإقامة معرض جلالة الملك الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق محاولة هامة لجمع مصادر التاريخ الموجودة بالمغرب والتعرف عليها ونرجو أن تتلوها خطوات أخرى وخاصة فيما يتعلق بالبحث عن المصادر التاريخية المغربية الموجودة في الخارج ، وعلى سبيل المثال في خزنة الايسكوريال ودار الوثائق بسيমানكاس باسبانيا وفي صطامبول بتركيا

ثانيا تكوين لجان من الاختصاصيين لدراسة مصادر التاريخ المغربي وتصنيفها وتبويبها وإجعلها في متناول الباحثين والدارسين .
ثالثا القيام بطبع مصادر التاريخ المغربي ونشرها

الرباط في 1972/12/29

الدكتور عبد الكريم كريم

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما

ذكر خلافة أمير المؤمنين المنصور بالله المولى أبى العباس المجاهد أحمد (1) بن الامام مهدي الأمة أبى عبد الله محمد بن الشيخ الخليفة الامام القائم بأمر الله رضى الله عنهم.

وأمر المؤمنين هذا أعلى الله كعبه ، وأناخ في صدور المسلمين رعبه هو اليوم امام الجماعة وانسان حذقة الاسلام وقبة تاج الخلافة النبوية وهتعد كرسيا المنسوب على قواعد العدل وسريرها المرفوع على دعائم الحق وركن الامامة المستلم عند أهل الارض والخليفة المخصوص بشرات الرسالة وهالك امرة المؤمنين بحكم السواء والكفالة ستام هذه الدولة الحسنية وذروة عزها وأوج فلكها ووسطى عقدتها كان أيده الله جوادا كريما سخيا دمث الاخلاق ظاهر الحياء والحشمة بعيد الهمة ناهض الجند سعيد الطلقة ميمون النقيبة مطعم النصر محمى الحوزة مرهوب السيف معطى القبول فى الارض مؤثرا للعدل حسن السيرة جيد الطريقة ناهج المسعى موفق الراى عفيف الازار نزيه الخلوة مطوعا للحق نافذ العزيمة قوى الشكيمة شديد الوطاة على الاعداء مرضعا فى البر للاولياء محبا للعلماء خدن العاقبة مغدوم الاقدار جماعة للمال مستكثرا من ذخائر الملك مولعا باقتناء نفيسها طامح العين الى كل مرمى بعيد موهوب الكمال واسع الخطة رحب المجال يقظ الجفن ساهر العين نهوضا باعباء الخلافة مباشرا الامور سلطانه مخدوم المقام عزيز الجوار راعى النمام منتاب الجناب غاص الغناء بارسال ملوك الدنيا ووفود الارض وما عسى أن يطنب اللسان أو تفى العبارة أو يستج القول فى وصف من خرق الله له سياج العادة وأقر الوجود بفضلته وعظم الزمان عن ولادة مثله اجماعا لا تحليه وقولا بالحق وبعدا عن الاهواء ونشر اللواء النصفة ولولا الاختصار الذى اشترطنا لأوردنا من شريف خلاله ما يضيق عنه الرحب ولا يسعه الكتب ، حفظ الله على الاسلام ظله الوارف وخلع على الدنيا نور كماله وروا جماله أبهى الحلى والمطارف بعزته وقدرته بويح له أيده الله عشي الاثنين الآخر من جمادى الاولى بمشهد الفتح(2) الذى حضرته ملائكة الرحمن وجليت فيه حور الجنان وشهدته جنود الارض والسماء فكان ذلك

ص 2

(1) هو المولى أحمد بن محمد الشيخ بن محمد بن عبد الرحمن الملقب بالقائم بأمر الله وأمه مسعودة بنت الشيخ أحمد بن عبد الله الوزكى ولد عام 956 هـ / 1549 م أى فى السنة التى دخل فيها المولى محمد الشيخ مدينة فاس فاتحا بعد القضاء على الوطاسيين الحاكمين بها

(2) جرت معركة وادى المخازن يوم الاثنين 30 جمادى الاولى عام 986 هـ الموافق 4 غشت 1578 م وتعرف هذه المعركة أيضا بمعركة القصر الكبير أو معركة الملوك الثلاثة وعلى اثرها بويح المولى أحمد خلفا لآخيه المتصمم واتخذ لقب الخليفة المنصور تخطيا لهذا الانتصار العظيم .

القرآن السعيد من دلائل القدرة وعلامات السعادة وشواهد الاقبال الدالة على عناية الله بانتظام آخر هذا الأمر العزيز بأوله وكانت ولايته أيده الله على رأس الثلاثين سنة من ولادته فكان ذلك تعبير رؤياه المباركة الشهيرة وهي ما حدثنا به أيده الله ونصره مرارا أنه لما ترامت به همته العلية الى منصب الخلافة الذي أهلت له خلافة الشريفه وصفاته في الفضل والكمال النفسية وفاق الى اقتعاد كرسىها وتسلم سريرها وشغل باله الكريم الاهتمام والتفكير فيما طوى له من ذلك في جب الغيب رأى ذات ليلة في عالم النوم النبي صلى الله عليه وسلم وهو على شرف عال شبه الربوة والى جنبه شخصان تشهد لهما منزلة الدنو منه صلى الله عليه وسلم بانهما من كبار الصحابة رضى الله عنهم غير أنه لا يسميهما قال فعن لى عندما بصرت به صلى الله عليه وسلم أن أسأله عن ثلاث مسائل أهمنى امرها احداها نصيبى من هذه الخلافة ومصير امرها الي قال فصمدت تجاهه صلى الله عليه وسلم بهذه النية الى أن شارفت الوصول اليه صلى الله عليه وسلم والدنو منه فأدركته وهو قائم وواقف وأرى قيامه عليه السلام قد كان لي من أجل ترحيبا بقدمي واقبالا علي وعنما استقبلت وجهه الكريم لاداء التحية فاضت علي أنوار النبوة واعشت بصرى اشعتها وبهرتنى هيئته فارتج علي ووقفت أمامه مطرقا وبصرى الى الأرض خاشعا مهابة له صلى الله عليه وسلم وتادبا لعظيم جلالة ولم أملك من نفسى نطقا بكلمة ولا نبسا بينت شفة قال ثم كاشفنى صلى الله عليه وسلم فيما عن لي السؤال عنه فاجابنى عن الخلافة بما حقق لي منالها ومصير امرها الي ثم أشار لى عندما أفهمنى ذلك وكشف لى الفطاء عنه بأصابعه صلى الله عليه وسلم الثلاثة وقد ضم الابهام عنها الى السبابة والوسطى قال امير المؤمنين ثم استيقظت وأنا بما وعيت من كلامه صلى الله عليه وسلم وارتسم من خيال صورته الحسنة فى ذهنى أشد يقينا أن لو شاهدته صلى الله عليه وسلم بحال اليقظة أو رأيته رؤية بصرية قال فلم أرتب من يومئذ فى منال الخلافة ببشارة النبي صلى الله عليه وسلم وخبر الصادق المصطفى * الذى لا ينطق عن الهوى فطويت على ذلك السر من يومئذ كشحى وذررت عليه أزرار ضميرى ولم يتعد العلم به صدرى الى أحد الى أن كان من زحف طاغية يرتقال(1) فى

ص 3

(1) دون سبستيان Don Sabastian بن الملك جان الثالث تول عرش لشبونة سنة 1562 م وقد كان يراود خياله أمل استعادة الامجاد البرتغالية فى المغرب بعد الهزائم التى منى بها البرتغال منذ قيام السعديين وأول محاولة قام بها لغزو المغرب كانت سنة 1574 اذ ارسل ابن عمه دون أنطونيو Don Antonio حاكمها على طنجة ثم لعق به على رأس قوات عسكرية يوم 17 غشت للملاحة المناطق الشمالية المغربية الا أن القوات المغربية كانت له بالرصاد (دى كاسترى : De Castries فرنسا ج 1 • ص 339) •

وقد ظل ملك البرتغال يعمل فى الخفاء ويتحين الفرص الى أن حصل الخلاف بين المتوكل وعمه المتصمم فأتى مسرعا لتلبية طلب النجدة الذى تقدم به المولى محمد المتوكل •

جموع الشرك لوادى المخازن وارجاف الناس بمرض أخى المعتصم (1) ما بلغ من اجله العزام
 الطبييين فارتبك الامر وأرعدت سماء الهول وابرقت بتداعى زحوف العدوتين واحزاب
 الملتين الى اللقاء للغد واضطربت احوال المسلمين وانحلت عزائم المستضعفين منهم
 ورءا قائد القواد كان عند المنصور حينئذ أبو عبد الله محمد بن سليمان من تلك الاهوال
 ما هاله قال امير المؤمنين المنصور أيده الله ولم أشعر يومئذ حتى استأذن على الدخول
 على بالفسطاط مدعورا فوصف لى من اضطراب احوال الناس لهول اليوم وانحلال عزائم
 المسلمين ما شاهده وأذهله قال فضحكت من حال فزعه واشتباه المسالك عليه حتى
 بدت نواجذى ثم قلت له هلم أبشرك ببشارة تعفى على قنطك وتبعث من نشاطك فقصصت
 عليه رؤيا النبى صلى الله عليه وسلم وبشارته لى بمصير الخلافة الى حتى انتهيت
 الى عقد إصابه الثلاثة صلى الله عليه وسلم فتاوتها له ساعتئذ بانها كناية عن الثلاثين
 سنة مبلغ السن حين الولاية وأخبرته أن بتلك السنة استكملت العدد فسر حينئذ
 بتلك البشارة وسرى عنه من حينه وخرج مستبشرا وقد راجعته حياته وزايله قنطه
 فكان من مصداق تلك الرؤيا الكريمة للقرب بما صنع الله فيه على يد امير المؤمنين من
 الفتح العظيم الطائر الصيبت فى جميع المعمور ومصير الخلافة اليه بذلك المشهد الكريم
 الذى حضرته ملائكة الرحمان وجنود الارض والسماء ما شمل الناس يمنه وبركته وسعدوا
 بطائره الى يومنا هذا ولله المنه وكان هذا الخليفة المنصور أيده الله منذ نشأ فى حجر
 الامامة المهدية وتيطت به تمانم المجوزر على جيده طوق العلا تلوح عليه مغايل السعادة
 وتسمه احواله الطاهرة بقدر الفضل الواضحة وحجوله وتزاوّل منه العيون فى سن الشبيبة
 هلال الكمال ودرى الاريغة وشعلة ذكاء وفرع نباهة ولبنة التمام وأنموذج الفضل وجوهر
 السؤدد الفرد وسر النصبه وحكمة البيت والاشارات الكريمة الامامية المهدية تحوم
 أيضا عليه دائما بما له فى الغيب من السر المكنون بشهادة الاثر المخزون وتنيط به آمال
 الخلق وتصرف لجاهه وجوه القبطه والرجاء بما ينبىء أن الوراثة له حتى صار بذلك
 عند الامام رضى الله عنه وبما لاح عليه من المغايل وتفرس فيه من الشواهد انسان عينه
 وعين انسانه وملهج لسانه وقسيم روحه وزين مجلسه وداعية بسطه ومورد حبه
 ومصرفه دعائه والمعتمد برضاه * من بنيه والمخصوص منهم لديه بالمكان الاخص من خلده
 وقد حدث عنه رضى الله عنه فى شأنه الثقات من كبار الدولة بأشياء تدل على علو الشأن
 وامتداد السلطان من ذلك ما اخبرنى به الشيخ المعمر القائد أبو محمد مومن بن غازى

(1) يؤكد المؤرخ المغربى المعاصر أحمد بن القاضى بأن الاتراك هم الذين دبروا مؤامرة تسميم المعتصم
 (ان قائد الاتراك الذين كان معه - اى مع المعتصم - بعث لبعض قواده أن يلقاهم بكمك مسموم
 هدية لعبد الملك المذكور قبل وقت جودهم عليهم قصد بذلك بعد أخذه به مدينة فاس ليثبت الملك لهم
 فيها) • درة السلوك • مخطوط بدار الوثائق بالرباط رقم د 1428 •

العمرى المعقل وكان ممن ربي في جو الدولة المهدية أن امير المؤمنين المنصور أيده الله أقبل يوما في شببته طفلا يافعا على أبيه الامام والمجلس غاص بالخاصة والاكابر من أرباب الدولة فاندفع يخرق السماطين قال وكنت أحد من حضر ذلك النادى الكريم فلم أشعر أن صاح بي الامام رضى الله عنه وأنا أصغر القوم يا مومن ارفعه فسينفعك وينفع عقبك فابتدرت حمله وتخطى الاعناق به حتى اجلسته الى جنب الامام على سريره قلت ان الرجل اليوم لحي يرزق وقد أمهلت الايام وساله الحمام وقطع به نجيب العمر من عشرة السبعين عقبه كؤد حتى أشرف من دولة أمير المؤمنين المنصور هذا وأيامه الهنية على جناب مريح وحمى منيع ورياض أريضة ودنيا عريضة وانه اليوم لبحال المشاهدة راتع هو وعقبه بنين وحفدة في جميعها وغريق في بحر نعيمها جانبا ثمرات ذلك الخبر وواقف منه على العين من بعد الاثر وحدثني الرجل ايضا من هذا النمط أن الامام رضى الله عنه لما أدرك بنوه الامراء الاصاغر واهتبل بأخذ البيعة عليهم لسولى عهده المولى عبد الله (1) بما كانوا صفارا حين العقد له بفاس خرج في جنود المغرب من الحضرة لمخيمه بتامسنا (2) وأهاب بولى العهد من فاس دار الامارة وعندما اقترب ركابه اقتضى التنويه بشأنه استركاب الاجناد للقائه على رسم الخلفاء في ذلك فنادى الامام رضى الله عنه بالمولى المنصور أمير المؤمنين من بين ولده وكان اصغرهم وجميع أرباب الدولة وعلية الاكابر والخاصة فقال لهم قوموا وأركبوا مع سلطانكم يعنى المنصور الى لقاء أخيه فكانت تلك المقالة الكريمة من احدى البشائر التى استبصر الناس بها في شأن المنصور أمير المؤمنين أيده الله واستوضحوا منها سر الله فيه ثم قال لى هو وغيره ان من أقوى العزائم الباعثة حينئذ على عقد الجمع الذى كان آخر ملتقى الامام رضى الله عنه في دار الدنيا بولى عهده ايضا بأخيه المنصور والاخذ عليه بعهود الوفاء في كل ما تضمنته وصايته الكريمة الشهيرة وممن حدثنى أيضا بشأن هذه الوصاة الكريمة القائد الشهير الكبير أبو محمد عبد النبى ابن أحمد أحد أوتاد الدولة وبيوت الاحلاف الكبار قال سعى يوما بى الى الخليفة الغالب بالله أبى محمد عبد الله خاله صنو أمه الشيخ أبو يعقوب يوسف بن محمد الملولى * بما أمل به اهتمام ركنى لديه لانطواء كشح ابى يعقوب على الكره فى ورسوخ العداوة القديمة لى فى صدره لسوابق الحلف الكائن بين قومه بنى ملول وأخواننا الاضداد كانوا لنا من الاحلاف واولاد عبد الكريم قال فنبأ سمع الخليفة عن الاصغاء

(1) المولى عبد الله الغالب بالله رابع ملوك الدولة السعدية تولى بعد اغتيال والده المولى محمد الشيخ من قبل الاتراك يوم لاربعا 27 ذى الحجة عام 964 الموافق 23 أكتوبر 1557 . وقد تميز عهده بالتقارب القوى الذى حصل بين المغرب ودول غربى أوروبا وذلك لمقاومة الخطر العثمانى وصدى هجوم تركى ضد المغرب .

(2) تامسنا : المنطقة السهلية الواسعة الممتدة بين وادى أبى رقراق شمالا ونهر ام الربيع جنوبا .

الى تلك السعاية بى وأبطل كيد خاله فى ذلك بأن قال له ان الامام رضى الله عنه لم يوصنى حين العهد الى شىء من أمور الدنيا والدين كوصافه الى باخى المنصور وبخالصتنا القائد أبى محمد عبد النبى هذا واخبار الامام رضى الله عنه الواردة فى شأن امير المؤمنين المنصور وفراساته فيه الصادقة لا تحيط بجمعها هذه القلادة من ذلك ما يحكى ايضا عنه رضى الله عنه مستفيضاً انه كثيراً ما كان يقول ويشير الى امير المؤمنين المنصور هذا شيخ الشرفاء يعنى أهل بيتهم الكريم تكرر منه ذلك مرات عديدة فى مجالس شتى وذكر القائد أبو محمد مومن بن غازى المتقدم الذكر أن امير المؤمنين المنصور كان قد أقبل يوماً الى أبيه الامام فى مجلسه الكريم حال السببية فهش اليه على العادة ورحب وفدى وضمه اليه وجعل يمسح على رأسه وهو يقول ما اكثر ما ضم هذا الرأس من الرأى وجمع من التدبير وأخذ يكرره حتى وعاه الحاضرون وأقول ليته اليوم رضى الله عنه نشر ونفخ فى شخصه الكريم روحه حتى يشاهد صدق فراسته الربانية ويسرى من ثقافة الرأى واحكام التدبير واستبحار الدهاء ما تقربه عينه ويعلم منه أن كلامة من خلفه الكريم خليفة كاملاً واماماً كافلاً واماماً رويماً من طرق شتى فى شأنه ايده الله عن كبار الاولياء وشيخة الدين وأهل المكاشفة فاعلاه سندا وثبته فى مركز الصبغة قلما ما حدثنا به سفير الخلفاء الشيخ الفقيه العالم الولي الحاج أبو عبد الله محمد بن الولي الصالح أبى عبد الله محمد بن الشيخ البركة الصالح القدوة العالم أبى الحسن على بن محمد الدرعى الدار الجزوى النجار أنه لقي فى حجته الأولى بالديار المصرية بعض أهل المكاشفة من أولياء الله تعالى والعلماء العاملين قال فسألنى لما ضمتى معه مجلس الخلوة بمنزله عن أبناء الامام رضى الله عنه وبحث عن أسمائهم فجلت أذكرهم واحداً فواحداً حتى أتيت عليهم عدا وهو يستزيدنى ذكر من بقى ولم يكن لى من علم بكون المنصور امير المؤمنين هذا حينئذ عند الامام لصغره وازدياده فى مغيبى عن دار الخلافة فقلت له لم أحط علماً بغير من سميت فقال اليس فيهم أحمد فقلت كلا وقولاً مع علمى فقال أى فهو خليفة الاسلام العظيم الشأن القوى السلطان المفتوح له وعلى يده بـ بتمهيد الاقطار واقتتاح الامصار والاطوان(1) قال أبو عبد الله ولما فعل بنا الركاب الى الغرب ووقفت بنا مطايا الترحال على الوطن تنكبت عن المنزل بدرعة وجعلت وجهى الى حضرة الخليفة بدار الخلافة مراکش فالفيتنه غائبا فى بعض حركاته الى السوسى فأرجيت اللطية تبعاه حتى أتمت على مقامه العالى برباط ماسه(2) فرحب رضى الله عنه وبر وعظم وأكرم قال وعند ما

ص 189

(1) يدخل هذا فى إطار فكرة المهدوية التى عادت الى الظهور زمن المنصور ، ومن ذلك ما ذكره الأفرانى (ان دخول ورايات السلطان أبى العباسى فى حياته للسودان واستيلائه على سلطانية ٠٠ كل ذلك من امارات قرب خروج الامام الفاطمى المهدى) (ترجمة العائى : ص 111) فهل كان المنصور يعنى نفسه بأن يكون هذا الامام المهدى المنتظر ؟
(2) ماسة : من مدن القطر السوسى الساحلية

جاذبني اطراف الحديث والمسايلة عن أحوال المشرق (1) كان أول شيء قصصت عليه وفضضت عنه ختام المقال حديث الرجل الصالح وما اشار اليه في شأن المنصور أمير المؤمنين قال فسر الامام رضى الله عنه بتلك المقالة سرورا هزه من أجله الارتياح على وقاره وفي الحين قال أهاب من فسطاطه الكريم بالخليفة المنصور بما كان لا يفارقه في حركاته وسكناته لفرط حبه والقاء محبته عليه فأوتى به اليه قال وهو صبي صغير فقال رضى الله عنه هذا هو ذاكم ولدى أحمد واياه يعنى الرجل الصالح ففديت وهنأت ودعوت قال أبو عبد الله ولم أكن أرتاب من يومئذ بعد علمي بالمنصور وبما وعيت من مقالة ذلك الصالح وخبرت من حاله ومقامه في الولاية أن المنصور لا محالة بالغ امره قال ولجزمي بذلك والقطع به تجشمت بنته يوما الى أخيه الخليفة الغالب بالله ولم يظهر منه انكار لذلك ثم أسررت أيضا بذلك الى المنصور لعهد أخيه الغالب بالله هذا أشره بمصير الامر اليه قال فاصغى الى حتى استوعبت مقالتي وحصل على كل ما لدى من ذلك وانتقل بى لبعده غوره وعظيم دهائه الى غير ما أفضنا فيه من ذلك الحديث وأضرب عن ذلك صفحا ولم يجبنى عنه بنفى ولا اثبات مكرا ودهاء وما زال التحزى والمنجمون وأهل الاثارة بكل قطر وفي كل أرض الى اليوم يحومون عليه بظنونهم ويجرون في شأنه بما دل انتظام أول الامر فيه على تمام آخره بمن (2)

وقد شهد له بالتوكل وجميل الاخلاص وصلاح النية وطيب السريرة والطوية فيما وصفنا من أحواله أيده الله ما صحبه من النجح والاستقامة في جميع أحواله فلا يلقي في أموره عسرا ولا يعرف صعبا ولا يعتاد شدة ولا يفتقد من الله لطفا وهو الآن أيده الله على أحسن مما وصفنا وأما صبره أيده الله عند الشدائد واحتماله العظائم وتجلده عند جلول الخطب ونزول المقدور فحدث عن الجبل سكونا ورسوخ قدم وعن الضيغم ثبوت جأش وعن الماء المطرد على العصى الرضراض حسن خلق وبسط نفس وكرم شيمة يزداد ذلك عند ازدياد الامر الجلل ويعظم بحسب العظائم ولنورد نبدا مما

(1) دخل المولى محمد الشيخ في صراع حاد ومسلح ضد الاتراك وذلك منذ أن أصبحت للسعديين حدود مجاورة للاتراك في الجزائر سنة 1549 م ويرجع سبب ذلك الى رفض الشيخ الاعتراف بالسلطان العثماني سليمان القانوني ، والى قيامه بمهاجمة الاتراك في وجدة خلال ابريل 1549 وفي تلمسان في يونيو 1550 وقد كان رد الفعل التركي قويا اذ تمكن القائد حسن كورسو من اخراج السعديين من تلمسان ووجدة ، كما استطاعت القوات التركية أن تدخل بمدينة فاس في مطلع سنة 1554 وأن تعلن بيعة الامير الوطاسي (ابو حسون) بها ورغم أن المولى محمد الشيخ قد استعاد مدينة فاس وأرجع القوات التركية الى الجزائر خلال أواخر سنة 1554 م فإن الجو لم يصف بين السعديين والعثمانيين واتقاء لاي تدخل عسكري تركي في المغرب ، أخذ الشيخ يتقرب من دول أوروبا الغربية ويتعاون بصفة خاصة مع الاسبان والبرتغال لخصوم الاتراك العثمانيين ، وقد كان ذلك من أهم العوامل التي دفعت السلطان العثماني الى تدبير مؤامرة اغتيال الشيخ وهو يهيم بعقد حلف عسكري مع الاسبان والبرتغال ضد الاتراك في شمال افريقية . وقد اغتيل الشيخ يوم الاربعاء 27 ذي الحجة 964 الموافق 23 أكتوبر 1557 .

(2) يقتضي سياق الحديث عن المنصور والتعرض الى أوضاعه قبل توليه الخلافة الانتقال الى صفحة 188 .

شاهدناه من ذلك أو حدثنا به أيده الله وأعل كعبه من ذلك ما لقيه من العنت والشدة منصرفه من سجناسية الى تلمسان عند صيرورة الخلافة الى المتوكل (1) حسبما قدمنا اخبرنا أيده الله في مجالس شتى وأصحابه أهل الهجرة حضور غائب انه لما نزع من سجناسية الى تلمسان وركب اليها القفر والفلاة واقتصد العمران ونفذ الزاد وأعوز الاقتيات وتفاقم الامر حتى ضن كل من الحاشية والخدام بما احتكره من القوت ليسد به رمقه فلا نجد أحدا يرحم أحدا فكان أيده الله اذا نزل على ماء لصلاة أو ابتغاء راحة وارقة نفس من دؤب السير وحيث الاعداء عمد أصحابه الى خبثاتهم فأقبل كل على ما عنده فيأكلون مثنى وفرادى ومولانا أمير المؤمنين مجردا منهم منتبذا عنهم وحده ولا يلوى أحد مهم عليه بغرض لتزول القحط بهم من اشتداد المسغبة وربما لعن بعضهم بعضا وتناشدوا بمحاربة أمير المؤمنين ببعض ما لديهم فمنهم من يجود بما لا بال له ومنهم من يبخل فاذا أكلوا اجتمعوا اليه ليركبوا فلا يزيد هو على جرعة ماء يشربها فيركب فيهم ويقبل عليهم بوجه طلق لا يبدو عليه أثر انقباض ولا مخايل الموجلة والانحراف ولا افتقدوا قط ما الفوه من كرم الخلق وبسط النفس صبورا منه أيده الله واحتمالا للشدائد ولقد أفضى بهم الهلع والبال به هو أيده الله الاحتمال الى أن تصيدت له يوما في وجهته تلك أرنب وجى بها اليه فنزل على ماء وأمر بها لتشوى بين يديه فأحلق بها أصحابه احداق العين الجائعة وتهافتوا عليها تهافت الفراش من فرط الجوع والمسغبة فكانت هيبة أمير المؤمنين تمنعهم من اصطلامها ثم استدبرهم أيده الله وجعل يتوضأ فاغتنموا لذلك فلم يلتفت حتى الفاهم قد اختطفوها من قبل ان تنضج ولم يبق منها غير نتفه في يد الحرس الذى تولى شواءها فابتلعها وأمير المؤمنين ينظر فلم يزد أيده الله على أن استضحكوا عليه فقد كان أيده الله اشدهم قوة وأكثر نشاطا وأعظم صبورا وتجلدا على مواصلة السرى بالتأويب وطى الشقة واحتمال المشقة معه قدس الله وتأييدا أعجز أصحاب الاكلة فكانوا يقتضون العجب العجيب ويتحدثون بذلك الى هلم

وأعجب من هنا صبورا وأفظع خطبا وأعظم شدة مصابرتة الأهوال التى تلقاها بالسوس فى خلافة أخيه المعتصم (2) والشدائد التى كابدها هنالك فى سنين كسنيين

(1) هو محمد المتوكل بن الغالب بالله تولى بعد وفاة والده عام 1574 وحكم الى عام 1576 حيث انهزم أمام عمه المعتصم ، والتجأ الى بلاد سوس ومنها الى طنجة احدى قواعد الاحتلال البرتغالى بشمال المغرب طلبا لنجدة البرتغالى ومساعدتهم .

(2) دامت خلافة المعتصم سنتين تقريبا (1576 - 1578) . ولقد كلف المعتصم أخاه المولى أحمد بملاحقة محمد التوكل ومجاورته ببلاد سوس التى التجأ اليها . وفى الجنوب المغربى جرت عدة معارك حربية بين المتوكل وعمه المولى أحمد أهمها معركة تينزوت ، ومعركة أساطس التى يفصل المؤرخ الفشتالى الحديث عنهما .

يوسف فاجتمع عليه أيده الله من حروب العدو وانحراف الرعايا وفساد الضمائر ونفاذ المال واقواء المخازن من الحبوب واعراض أخيه الخليفة عنه بملء يجهزه أو مال ينقله ما لا يقدر على النهوض بأعبائه والثبات إلا عظيم مثله فقاوم أيده الله تلك الشدائد الهائلة بعظيم صبره وقوة جلده وكريم احتماله حتى تقشعت غياهيها وانجاب ليلها وكان أصحابه إذا نزل بهم القنط خلال ذلك عند أعياء الحيلة وفراغ التدبير فزعوا إلى بابهم عيسى بن موسى واستقروا في داره * وأما جبال راسيا وبحرا لا تكدره الدلاء فيطامنوا أنفسهم ويراجعوا صبرهم وتبعث قواهم ويتحايون بجميل صبره حتى عصم الله به من ذلك الطوفان وأرسي به عمود الاسلام من عواصف تلك الزلازل وجعل الله من بعد العسر يسرا ببركته وجميل صبره نفعه الله بذلك ولقد بلغت به الشدة أيام المقاتلة مع المتوكل في الحركة الشهيرة التي استجرت فيها ابن ويسعون ظهير المتوكل الشوك والمد من قبائل السوس وذو بان البربر حسبما قدما إلى أن هجر أيده الله مرقده مدة من خمسة عشر يوما انقطع فيها بقسطنطين جلوسه عن مضربه وحرمه ولم يكتحل في تلك الليالي جفنه بالكرى إلا لما وسنة طالت المقاتلة بانقباض العدو عن الانحدار للسهل حتى اشتدت المسغبة في معسكر أمير المؤمنين لانقباض الرعايا عنه وانحرافها إلى المتوكل الباعليه بأغراء غويهم ابن ويسعدن فبلغ به الصبر أيده الله عند تفاقم الأمر وتناهى أشده يومئذ إلى أن عمد لما في خزانته الكريمة من الدقيق فقسمه على أهل المعسكر كافة ولم يضرب لنفسه إلا بما نابه في سهمه من بينهم وهو قومة تلك الليلة لا غيره ولغد أرسل الله الفرج من بعد الشدة فاتيح له الظفر والظهور على العدو وعلى نحو ما وصفنا في محله فكان شأنه أيده الله في الصبر والاحتساب آية عجا نفعه الله واجزل مثوبته

ومنها (1) ما كان من إيقاعه أيده الله بالمتوكل وظهيره ابن ويسعدن في جموعهم المذكورة بالحشد يوم تينزت الكائنة قبل وقعة اساطس وهو أقل ما كان أيده الله يومئذ عددا والعدو أبسط ما كان قوة وأوفر جمعا فقد كان أقصى ما تبلغ إليه عساكر هولانا أمير المؤمنين ذلك اليوم ألفا وثلاثمائة ما بين عساكر النار والاسل وجموع العدو تناهز ستمين ألفا ما بين المدونة والخوارج ونهيات الملحمة في بسط من الأرض وأطبق على جميعه سوادهم المنتشر أطباق الجفن على الحدة فصعبت الورطة من ضحك المقام فنظم أيده الله التعبئة نظاما محكما أحاط على الظاهر من خلفه سياجا من النار حذرا عليه من نهب العدو المحيط به أن ينشب به أظفاره من وراء وصم أيده الله أمامه فلم

(1) يقتضى الترتيب الزمني لسرد الاحداث الانتقال إلى صفحة 217

يهله أمر تلك الجموع ولا ارتاع لها وعدل بنفسه وشجاعته ما زادت به جموع العدو على جمعه فاشتبكت الحرب واشتعلت وأشار أيده الله على سعيد بن فرج الدغالي وكان قائد جيش الاندلس وممن يدلى بالصرامة والشجاعة أن يصمم بعسكره من جيش النار تجاه المتوكل وكان قد تخيز يومئذ عن القلب الى جهة اليمنة ليخفى نفسه واعتاض بابن ويسعدن ليتيامن به زعم وليس بما اعطاه من الاله ففرس مولانا امير المؤمنين في المتوكل بما رآه على جهته من شعار الجندي وحدة الشوكة واستنجد لصدته الدغالي من بعد أن ناوله تهليل أوراده وأدعيته وعلقه عليه تهمية فخام عن ذلك واحجم فاعرض عنه امير المؤمنين وصمم ايده الله نحوه وعلم أن بانفضاض المتوكل تنفض سائر الجموع وارتفع القتال الى السماء وطبق منه على امير المؤمنين وجنوده ليل دامس فصب ايده الله من خلل النقع على المتوكل كأنه شهاب ثقاب فانصاع منهزما امامه ولم يتمالك لصدته وانفض بانفضاضه ابن ويسعدن وسائر جموع الخوارج والحشود واستمرت عليهم الهزيمة وبعدت عنهم الجبال فركبتهم * جنود امير المؤمنين بالعراء وحكمت فيهم أسياهم واحصيت القتل في الملحمة فكانوا أربعة آلاف ويقال قتل رجلان من جيش النار وحدهما تسعين شخصا من الخوارج فكانت هزيمة لم يسمع بأعظم منها ولا أشنع من خطبها وحدثني الفقيه القائد أبو الحسن علي بن منصور الشيعي وكان ممن شهد المعترك مع امير المؤمنين أنه لما التقى الجمعان واشتد الزلزال واستحكم الطعن واستفحل الامر وشوهد الموت ومولانا امير المؤمنين أيده الله ثابت الجأش راسخ القدم مترام بطرفه الى العدو كالصقر الى سرب الكراكي قال انشدته أيده الله بيتي ابن عيسى الكاتب من قصيدة له في امداحه الشريفة وهما

هو الغيث ثم البحر في الجود والندى وليث اذا جد الطعان هصور
 يفوق السهام عزمه وانبعائه ويقصر عنه في الثبات ثبير
 قال فاجابني ايده الله على البديهة بيتي ابي فراس وهما
 ونحن اناس لا توسط عندنا لنا الصدر دون العالمين أو القبر
 تهون علينا في المعالي نفوسنا ومن يخطب الحسنة لم يغله المهر
 فصار ظهوره ايده الله بجمعه القليل على جموع العدو المتكاثرة وافتحاه له ذلك
 السواد الاعظم في ذلك المقام الفنك والمجال الضيق آية مع الايام تتلى واجل منقبته في
 الشجاعة تروى ويقال ان اهل السوس لما وضعت الحرب أوزارها وسكن رجلمان المغرب
 بالجبل الذي ارسى الله به أرضه من امير المؤمنين عند مصير الخلافة اليه احصى كل
 قبيل من القبائل ما اساره الموت واستجهمه السيف في حروب امير المؤمنين مع المتوكل
 لحولين كاملين فكانت جملة المفقود من العدد الذي اثبتوا به في دواوين الخراج

سنة عشر الفا ولو تتبعنا ماله أيده الله في هذا الباب من المآثر لكنت جياذ الاقلام
وتقطعت اجيادها في هذا المضمار واقتصرت على ما ذكرت ليدل دلالة الغدير على المطر
والله ولى التوفيق والاعانة

ومنها (1) اجلابه ايده الله على ابن أخيه المتوكل وعلى جنوده بمضيق اساطس في
حروبه معه بالسوس واقتحامه عليه وهو ما هو منعة وحصانة ومازال الخوارج على
الدول في الحديث والقديم يتمنعون به ويدفعون في صدور الملوك والخلفاء ولقد لجأ
اليه على بن يدر لما استبد بالسوس ونبذ طاعة بني عبد المومن فنهض اليه * أبو دبوس ص 214
آخر خلفائهم في عساكر الموحدين قاطبة ومدد بني مريـن الذين ظهر بهم على المرتضى
وابتز ملكه فأنـاخ بتلك الجنود على ابن ايدر ثم عظم على شأن ذلك المضيق ونكل على
اقتحامه وتخشمه فافرج عنه ولم يغن شيئا وارتاده المتوكل لاجل حصانته وزاده منعة
بما ضرب على بابه من الاسداد بالصخور فغتم عليه بجنوده ومن معه من الاتراك
النازعين اليه وكان من خبرهم أن هذه الفئة من الاتراك كانت من حصنة جنود امير
المؤمنين المتحيزة اليه من جيوش الشرق التي استجرها هو وأخوه المولى عبد الملك
المعتصم بالله للمغرب ثم بدا للخليفة المعتصم من بعد استوائه على كرسى الخلافة أن
يستبد بجيش الاتراك كلها ويجمعهم اليه فساعده مولانا امير المؤمنين على ذلك ونزل
له عن الحصنة التي عنده منهم فما كان الا أن انحرف المعتصم عن سيرة مولانا امير
المؤمنين معهم ولم يحسن في سياستهم فنزعوا عنه الى المتوكل بالجبل ولقاهم مبرة
واجل لهم العطاء وانزلهم بمنازل القرب والاختصاص لديه فامحضوا له النصيح
والمخالصة وعضوا على خدمته والاستماتة دونه بنواجدهم وكانوا أحد شوكته في
الحروب السوسية وحذر مولانا امير المؤمنين ايده الله مغبة هؤلاء الاتراك ان جثم بهم
المتوكل على تلك الاسداد المضروبة على باب اساطس ومطاولة نزالهم مع نفود الاقوات
وقطع الميرة والعلوفة عن معسكره فكان ذلك مما اضطره الى اقتحام اساطس على المتوكل
على علمه بشدة حصانته ومنعته واعتياصه على سلف الدول .

إذا لم يكن الا الاسنة مركبا فلا رأى للمضطّر الا ركوبها

فما كان الا أن اعتمل ايده الله في استفساد الاتراك عن المتوكل بمكيدة نفث
بها بالسوس فيما بينه وبينهم فاستحكمت النفرة وتمكنت الاسترابة وهو أنه ايده الله
بعث الى رئيس هؤلاء الاتراك وقائد زمامهم قارى حماد تذكره بسوائف الخدمة ومواقع
الاحسان ووعدته ومناه وزيـن له النزوع عن المتوكل والفتك به فتفادى من ذلك حماد

(1) يقتضى الترتيب التاريخى للوقائع الانتقال الى صفحة 213

بمعاذير القاها الى مولانا امير المؤمنين ولما استتيئس أيده الله منه اعتمل في كتاب انشأه على لسان حماد وكأنه جواب منه الى أمير المؤمنين عن خطاب سبق ومحاوره تقدمت وأنه يخبره بما كان من عزمه على الغدر بالمتوكل بواقعة الملتقى بأساطس ثم أكد ايده الله المكيدة بأن ذكر في الكتاب على لسان حماد أنه يقرر لامير المؤمنين سوائف العداوة والبعضاء التي بين جيش الاتراك وزواوة منذ المشاققة الكائنة بين الجيشين المذكورين على عهد المعتصم حسبما قدمنا وأنه يطلب لذلك من امير المؤمنين أن يخلى لهم وجه المصاف عند النقاء الجمعين * من زواوة مخافة ما يلقاها منهم عند النزوع الى أمير المؤمنين في المعترك واقام شاهدا عدلا على صدق ذلك بأن جعل أيده الله جيش زواوة يومئذ في الساقة وبنى ذلك على ما ورى لهم به ايده الله من الضئانة بهم في اصطلاء الحروب وفنائهم فيها وأراهم الرغبة في استبقائهم ذخرا لامثالها لكونهم من جيوشه المختصة به ثم تحيل على ايصال هذا الكتاب الى المتوكل فاطلع على هذه المكاييد ولم يشك في صدقها وقامت لها قيامته فاستراب بالاتراك واتهمهم على أنفسهم وسكت بدائه وبلغت به الحيرة والاياس من الناس والاسترابة بهم حتى من ثوبه بسبب مكيدة امير المؤمنين له الى أن وقع بخطه على ظهر الكتاب ما نصه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من طالت به حياته (1) ووقع هذا الكتاب بيد مولانا امير المؤمنين لما استولى اثاره وملابسه في وقيعه أساطس هذه ثم ما وسعه يوم الزحف الا أن أقصى الاتراك عن مصافه استرابة بهم فوقفوا على ربوة منتبذين عنه وحدهم وتم من ذلك لامير المؤمنين أيده الله ما أراد ثم ما أخل مع ذلك أيده الله بالحزم ولا عول على تمام المكيدة بل عمل على محاربة الجميع واستجر الانفاض من المحمدية (2) قاعدة السوس وصمم نحو المتوكل والاتراك وسائر جموع الخوارج وحمله فرط شجاعته وجراته وشدة بأسه واقدامه على اقتحام ذلك المضيق الذي لم يفتض احد من الخلفاء والملوك قبله عذرتة فالح على المتوكل وجموعه واخترق اليهم الاسداد المنضودة رصفا بالصخور ففضهم واجفلوا أمامه فركبتهم سيوفه أيده الله واستولى على محلتهم وسوادها وانحجر معهم في المضيق وأوغل فيه رجاء أن يقبض على المتوكل ويكبس جموعه فيه فكان الناس يمرون على الصراط من ذلك المضيق لكون طريقهم على شفا جرف هار لا يصل من زلت به القدم منها الى الحضيض حتى ينقطع شلوه قطعاً وفي اثناء المضيق وقعت نفرة في جنود امير المؤمنين أيده الله لالتقاء اول طلائع خيله المغاوره مع الاتراك الذين كانوا مع المتوكل وقد كانوا افترقوا عنه وسلكوا على غير طريقه لانتباذهم عنه في المعترك

ص 215

(1) يوجد بياض في المخطوط .
(2) نسبة الى المولى محمد الشيخ وهي تارودانت اليوم ببلاد سوس .

ووفوهم لقتال وحدهم على رهوة تحيزوا لها لاستراية المتوكل بهم لمكيدة حسبما قدمنا
فما كان الا أن فرت الاتراك على غير سبيل المتوكل عند استمواهم الهزيمة ففدفت بهم
الشعاب والجبال الى خيل امير المؤمنين على حين غفلة وكانوا نزولا على ماء هنالك
فاجفلوا ناكسين الى امير المؤمنين فانجفل بانجفالهم سائر الاجناد وولوا الادبار وقد
انسدت في وجوههم المسالك لاطباق الجبال عليهم من كل جهة وانسداد الطريق بالكرع
والظهر * فصاروا يبتغون نفقا في الارض أو سلما في السماء خشية ورهبة وهنالك
حل الخطب وعمت الفضيحة من كان لا يرضى الدنيا من الابطال واسود القراع والنزال
فاختلط حينئذ امير المؤمنين ايده الله سيفه واعترض الناس في المضيق ولم يترك أحد
يتخطاه الى وراء وربما ترجل بعض الفرسان من شدة الرعب رجاء أن يتواري عن امير
المؤمنين ويهرب من خلال أرجل الخيل وحمل ايده الله على الرجوع الى العدو
كارهين فتدامروا ثم بصر عن يمينه وشماله بالبرابر في قنن الجبال وقد تاهبوا
للاقتضاض على الجنود عند تحقق الهزيمة وأعدوا الصخور لرحمهم بها فيهلكوا جميعا
والناس كلهم من شدة الرعب وهول الهيعة في غفلة فاغرى امير المؤمنين ايده الله من
حف بركائبه من صنف السلاق بالرمي عليهم بالبندق واحراقهم بالرصاص فسردهم
واجفلوا فانقذ الناس بذلك من الهلكة وهم لا يشعرون وشد على الاجناد في الكرع ودفع
عليهم بسيفه مسلولا فتراجعوا هيبة وخشية وثبت في المضيق ثبوت الاسد العاوى فانقذ
الناس من الورطة بفضل شجاعته وثبوتة للصدمة وذهب بفخر ذلك اليوم وحده ايده
الله وقد تحدث الناس بشأن اقدامه ورسوخ قدمه في ذلك المقام الصعب وصار حديثا
للسمر الى اليوم وما زال الحاضرون يغربون به حدثي صاحبنا الفقيه الاديب شاعر
الدولة ابو عبد الله محمد بن علي الهوزالي وكان ممن شهد الزلزلة وحضر هولها انه لما
عظمت الحيرة واستفجلت المحنة بارتداد الجنود على اعقابها كافة الابطال منهم
والمستضعفين حتى جعل يقول لمن حوله هلم الى التلويح قطعاً بعول المنية لعدم المسلك
واستداد طرق النجاة قال ثم استثبتني احد الاعيان من قبائل السوس كان بازائها وقال
لي اتند واسكن ولا تنظر لشيء سوى امير المؤمنين فان ثبت للصدمة وجبر لزلزال الهيعة
فارج المياه والا كلا لا وزر الا الموت قال وجعلت لذلك انظر آلى مولانا امير المؤمنين
وهو معترض للاجناد الذين ذهب بهم النفرة اعتراض الاسد وسيفه بيده مسلول يسوق
به الناس للكرة سوفا عنيفا حتى تسايلا مع المضيق اثر العدو ونصلوا الى المتسع وحمدوا
العاقبة قال فلم يكن انجى للناس من الورطة في ذلك المقام الصعب الا مولانا امير المؤمنين
ايده الله وحده بفرط شجاعته وعظيم صبره وقوة جأشه والا كان آخر العهد بجميع من
حشره الله في ذلك المضيق من العساكر والاجناد وسائر السواد فكان له في اقتحام

اساطس الذى انفرد بانقضاء عذرتة وصبره النفرة الواقعة فى الاجناد اثناء الفخر الباقي مع الايام ومن قصيدة للفقير الاديب * ابى الحسن على بن منصور الشيعي يصف التحام الحرب فى وقعة اساطس قوله

اثخنهم يوم وجل الما فلم يجدوا	من بأسه نفقا ينجى ولا سببا
لله اقدامه المشهور حين سطا	بهم وقد رجحوا من ساطس شغبا
وعال هول بغاة فى الكد اصعدت	اذ أرسل الجو من احجارهم سحبا
والجيش قد جاش وارتجت جوانبه	وهاله بالخطب وشط الشعب فاضطربا
ثم تقدم كالليث الهزبر وقد	هاجت حفيظته وأرعدت غضبا
فرد فردا صروفا الدهر مرغمة	لحين ما صرفت انيابها نوبا

واما (1) الشجاعة فحدث عن الاسد فى تاموره صرامة وبأسا واقداما وثبوت جاش ورسوخ قدم فى منافع الموت والمآزق الهائلة التى تشيب لها النواصى وناهيك بما كان له فى ذلك من الايام المذكورة والوقائع المشهورة فمنها ما كان من فخر الجلال والثبات يوم الركن ووقعة الريحان وبوادي المخازن الذى اجتمعت فيه جموع الملتين وأمم الكلمتين فقاوم أيده الله احزاب الشرك وطواغيت الكفر وحده لانقضاء أخيه المولى عبد الملك أمير المؤمنين رحمه الله لاول المصطدم وعندما اقتدح زناد الحرب فكان فى موته ساعته واحزاب الطاغوت فاغرة الافواه لالتهم انصار الملة كبة للإسلام وعشار لجد الدين لولا أن الله تعالى جبر الصدع وأقال العثار بهولنا أمير المؤمنين مقيم أود الملة ومجدد الدين للامة اذ لا خفاء بما يعترى الدول عند موت الخلفاء والملوك وعلى مهاد الاطمئنان وسرير العافية من اضطراب جبلها وتزلزل قواعدها ويخامر الفحول من ولاة العهد عند تحويل الدعوة اليهم من الحيرة والجزع وهذا بحيث لا يخفى على احد فى الحديث والتقديم نظر عبد الملك بن مروان لما حضرته الوفاة الى والده الوليد بن عبد الملك وهو ما هو جرة واقداما وكان يدعى فارس بنى مروان فراء يبكى جزعا فقال له ما هذا احثين الحمامة اذا أنامت فشمروا وتزروا والبس جلد هـر وضع سيفك على عاتقك فمن ابدى ذات نفسه اليك فاضرب عنقه ومن سكت مات بدائه وقد شاهدنا من الاضطراب فى المغرب وتلون الخطوب عند وفاة المولى عبد الله الغالب بالله أمير المؤمنين رحمه الله على سرير ملكه ما أغنى فيه الخبر عن الخبر واذا كانت الامور تشتبه على فحول الخلفاء عند تحويل الدعوة اليهم وهم * فى سعة من الامر وفسحة من الزمان والمكان فما بالك بذلك

ص 213

(1) يقتضى سياق الحديث عن المولى أحمد قبل توليته وذكر حروبه ببلاذ سوس فى معركة وادي المخازن الانتقال الى صفحة 212 .

عند ضيق المجال ومصافحة الأجال ومقارعة السيوف والنصال هذا والاهواء مفترقة والعزائم ضعيفة والقلوب دخيلة وعلى هذا فما ارتبك أمير المؤمنين لخطب ولا اعترته حيرة لهول اليوم وضنك المقام ولا تضعض لذلك ركن جلده وصبره بل تعاظم عند العظائم ولم يحفل بما قارن هجوم العدو من موت أخيه (1) ولا زاد أيده الله على أن وكل برعى محفته من وثق بمكانه وصمم هو أمام في الوثبة إلى المشركين حتى زحزحهم عن مصافهم واجرحهم في عريشهم وصبر لهول اليوم وجربه وثبت محتسبا للزلازل المشركين وصدماهم المتتالية ثبوت الجبل الراسي حتى منحه الله العافية وحكم له بالفتح والظفر فاستولى على سواد المشركين من بعد اختلال صفوف المسلمين وارتداد جنودهم كافة على أعقابها الجيش المظفر المنصور الذي ضبطه أيده الله بهيبته ووقاه بنفسه لما قدمنا أن رجاله الإبطال كانوا إذا احرقهم شرر البندق ولفحت وجوههم نار البارود تقهقروا يتدرق بعضهم ببعض حتى يتدرق جميعهم بأمر المؤمنين ويمتلوا من ورائه جبلا فيبدوا تحت الألوية غير متوار بدو القمر تحت الغمام والليث تحت اللبد حتى كان المشركون يجعلونه غرضا للرمي فاصابته أيده الله يومئذ جراحات بالبندق مشطت احداها ظاهر قدمه وخاضت في احشاء فرسه من تحت ركابه فمات الفرس منها في المعترك واصابته أخرى أيده الله في صدره فكانت بردا وسلاما وخارقا أظهر الله به عجائب لطفه وعصمته للمسلمين والا كانت القاضية وسمعته أيده الله يحدث أنه لما وكزته في صدره لم يشك لشدة ثباتها أنها نافذة من تابوته قال أيده الله فادخلت يدي من تحت الاطواق لالمس الجرح فوجدت حصاة البندق وقد اخترقت الاطواق وبردت عند الثوب الذي هو الشعار وتورم المكان من ساعته وربما مغرطا عقب الله فيه باللطف الشامل فكانت إحدى الكرامات التي أظهر الله بها عصمة الاسلام وصار أثره أيده الله في هذه الغزوة العظيمة وشجاعته في ذلك المصطلم الهائل ومصابرته لذلك الزلزال اثرا مجمعا على استغرابه والتحدث به في البلاد

واما (1) ما له أيده الله من المآثر الشريفة في الجهاد الذي جليت على منصته عروس خلافته واقتعد كرسى الامامة الشريفة بمشهده واعتنق بكر الفتوح التي حضرت ملائكة الرحمن زفافها الشريف دولته فما عسى أن أعد أو أذكر بعد يوم المخازن الذي حضرته ملوك العدوتين وجموع الملتين وانصار الكلمتين على حين ما انقضى أخوه الخليفة وفاضت نفسه واترع من الحمام كاسه وواراه من المحفة الحجة رسمه ولاذ بالخدلان من مثل به للشقاء تعسه ونحسه فاظلم الجو وتلون الدهر واشتد الخطب وتفاقم الامر

(1) يقتضى سياق الحديث عن دور المنصور في معركة المخازن إدراج ما جاء من الاخبار في صفحة 301 .

واستأسد الكفر وانتشب الناب والظفر فاثبت أيده الله في مستنقع الموت قدمه واحتسب في الدب عن الملة نفسه وتدفت عليه كتائب المشركين وجموع الكفر وطواغيت الشرك واحزاب التثليت فصابر زلزالها كالجبال الرواسي وثبت تحت الاكوية كالليث العادي وانصرف وجه القتال لموكب واحرق البندق رجاله الابطال واسود الحرب والنزال فتزحزحوا عن مراكزهم وتدرق بعضهم ببعض حتى تدرقوا جميعا بهولانا امير المؤمنين أيده الله وامتدوا من ورائه جبلا فخلا وجه القتال للمشركين من رجاله وأبطله الا من * منحه الله الصبر وقليل ما هم حتى صار أيده الله هدفا لرمي المشركين فاصابته جراحة بالبندق مسحت احداها ظاهر قدمه الطاهر في الركاب وخاضت احشاء فرسه فمات منها حسبا بسطته هول في ذلك في محله وثبت أيده الله لضحك المقام وهول اليوم حتى جبر الله الصدع وأقال العثار وحكم لدينه بالنصر والظهور ونصر على يده الاسلام وتل عرش الكفر واستأصل شافة الاصنام فذهب أيده الله وحده بفخر اليوم جلادا وصبرا وثباتا واقداما على كثرة من ضمه المعترك من ابطال الملثمين على تجههم اليوم وضحك المقام وخشونة المعترك واشتداد زلزال الحرب وناهيك من يوم اجلى عن ثلاثة ملوك موتى ما بين «جبل وغريق وفائض النفس حتف الانف وعن ثمانين الفا من المشركين ما بين قتيل واسير حسبا تقرر في موضعه كل ذلك نتيجة صبر امير المؤمنين الذي أجمل الله به العقبي وجلب للاسلام المسرة الكبرى أبقاه الله للامة يحمي سرحها وللملة ينصر دينها وحزبها

ولما (1) انعقدت بيعته المباركة باصفاق المسلمين عليها كافة في مشهد الفتح ورسخت بذلك قواعد خلافته نظر في اعطاف الدولة وقد ادركها بآخر الرمي تجود بنفسها لتوالى المرض عليها خمسة اعوام تباع عمر دولتي المتوكل والمعتصم (2) التي نفقت فيها أسواق الفتن وأظلم الجو فيها بالهرج في سائر اقطار المغرب حتى تنمرت الرعايا واستنسر بغاتها وطفى الجند الذي به قوام مائلها فغلب فساد على صلاحه وتعدر النفع به وتعطل الخراج منذ سنين حتى نفذ الطارف والتالد واقوت بيوت المال من كل صفراء وبيضاء وانتسفت مخازن الحبوب والاقوات واصبحت خاوية كان لم تغن بالامس واستشوى الداء * واعضل الخطب وكاد سلك الدولة يتنسر وذيلها يتقلص ثم

ص 201

(1) الانتقال الى صفحة 6 .

(2) المولى محمد المتوكل بن عبد الله الغالب بالله ، بويج بعد وفاة والده سنة 1574 م ، الا أن عمه المولى عبد الملك المعتصم استطاع أن يحصل على مساعدات عسكرية تركية من الجزائر وأن يهزمه بعد معارك طاحنة اضطر معها المتوكل الى اللجوء الى طنجة طلبا لمساعدة البرتغاليين . وفي شهر مارس 1576 دخل المولى عبد الملك مدينة فاس ومنها انتقل الى مراكش . واستمر المعتصم حاكما الى أن توفي صبيحة المعركة (4 غشت 1578) .

جبر الله الصديق بامير المؤمنين ايده الله فشمس لا ابتداء الامر من اوله وتشبيد الملك من أساسه. وافتتاح المغرب فتحا ثانيا من أصله فسكن زعازع هوله واقتلع جرثومة أهل البغي والشقاق من اجناده ثانيا واستأصل شافة الخوارج والثوار على الدولة ثالثا وطاب الجنى وذرت اخلاف الجباية فامتلات بيوت المال وغصت بالحجوب مخازن الاقوات ثم جاء نصر الله فنرت الفتوح واتسع نطاق الملك وبلغت الدولة الى اشرف نصابها حسبها نذكر هذا كله ونحسنه ان شاء الله بعد

ولما كانت فاس اقرب الى مشهد الفتح من مراکش رما ايده الله أن يتبدى أمره بتثقيف أطرافها وتمهيد ممالكها وأعمالها فارتحل ثلاثة الفتح من مخيمه بوادي المخازن يوم الاربعاء الثاني من جمادى الاخرى ووصل لفاس للنصف منها فدخل في يوم مشهود عند أهلها دخولا فغما لكثرة ما استاق من سبي المشركين واقتاد من جنود الله وعلاه من نور الخلافة ورواء الغزو والجهاد ولايام من مقامه وافاه وفد مراکش دار الخلافة ببيعة أهلها جنديهم وحضريهم والملا المقيمين لرسم النيابة بها من أهل الدولة ثم انشالت عليه بيعات سائر المدن والامصار ووفود الاقطار وتخللت الدعوة جميع ممالك المغرب وجهاتها الدانية والقاصية (1) فانقاد الناس لها وتظامنوا الى ظلها واغبطوا بها جمع الله لهم لوقت واحد من سرور الفتح العظيم المصنوع على يد امير المؤمنين وسرور ولايته التي تقارنه وترجح به وزنا فاعتدوا تلك الايام من اعمارهم مواسم وأعيادا ولما تكامل صنع الله لديه باستياق وفود الجهات ببيعاتهم لبابه العالي واستوسق بذلك ملكه ورسخت قدمه جهز العساكر بفاس وعقد عليها لمولاه العامل كان على خراجه من قبل الخلافة القائد الكبير ابي عبد الله حم بن بركة وسرحه للطواف على ممالك فاس وأعمالها وسائر جبالها التي نعق بها ناعق الفتنة منذ اجتياز المتوكل عليها منصرفه من السوس لسبته فلوخ ومهد ومر يستقر في السهول والحزون حتى سلك تلك الجهات كلها وانتهى منها الى قاصية الريف (2) وقفل لاشهر من مغييه بعد استكمال

(1) دخل المنصور الى فاس يوم السبت 16 غشت 1578 واستمر مقامه بها الى أكتوبر 1578 وفي فاس ضرب لأول مرة نقودا ذهبية بقيمة الدينار ونصفه ، وقد جاء في هذا الدينار (بسم الله الرحمن الرحيم عن امير المؤمنين المجاهد في سبيل الله امير المؤمنين ابي العباس ضرب بمدينة فاس عام ستة وثمانين وتسعمائة) .

Brethes Contribution à l'histoire du Maroc. P. 202.

(2) يرجع لأهتمام المنصور بتوطيد سلطانه على شمال المغرب خلال الفترة الاولى من حكمه الى أن هذه المنطقة كانت مثار نزاع كبير ، وهدفا لتدخل عسكري خارجي ، لا تمثله من استراتيجية بالغة الأهمية في الصراع والحروب القائمة بين لاثراك والاسبان ، وقد ازداد التدخل العسكري الاسباني في شمال المغرب منذ انهزام البرتغال في وادي المخازن ، وحسب الوثائق التاريخية فإن المجلس العسكري الاسباني المنعقد يوم 16 غشت 1578 قد اسند مهمة الدفاع عن مدن سبتة وطنجة واصيلا - وهي قواعد احتلال البرتغال - الى القائد الاسباني Antonio Mango كما أن القوات الاسلامانية المرابطة بجنوبي اسبانيا قد أمرت بأن تكون على أهبة الاستعداد لرد أي خطر خارجي يوجه ضد ايبيريا من قبل المسلمين (دي كاستري اسبانيا . ج 3 . ص 451) .

التمهيد فوصل لفاس من بعد انصراف أمير المؤمنين لمرآكش وكان من السطو بالدغالي

ص 8 والملا من قواد الاندلس بفاس ما نذكر ان شاء الله تعالى *

نكبة الملا من قواد الاندلس (1) وهم سعيد ابن فرج الدغالي ومحمد بن أخيه
ومحمد زرقون الكاهية وأبو الفضل الغري ومقتلهم ليوم واحد وذكر حرائرهم الموبقة

فأما الدغالي منهم وهو سعيد بن فرج يعسوب فنتهم وجرتومة عصابتهم ومشب
نار الفساد التي صلوا حرها فأصله من نطيش قرية من قرى شلين الجبل المطل على
غرناطة ولما كانت الحالة التي التهم فيها العدو جزيرة الاندلس على حين ما فشلت ربح
دول الاسلام بالمغرب في المائة التاسعة وتقلصت أذيالها عن القاصية وتناقصت
قدرتها عن الدفاع لعهد المستضعفين من بنى مرين ملوك المغرب الأقصى حينئذ وبنى زيان
أهل المغرب الاوسط وبنى أبي حفص ملوك افريقية (2) وملك الطاغية غرناطة في حدود
تسعة وتسعين من المائة التاسعة لعهد المستضعفين من بنى الاحمر وسكيت حلبتهم
السلطان أبي عبد الله الشهير بالزغبى واستولى بها الكفر على الصبابة الباقية
وانقرضت دولة الاسلام بالاندلس وطمست معالمها وابتر الكفر ملكها واستولى طواغيت
الشرك على سائر امصارها وقواعدها واستباحوا حماها وادال الله في جميع
صقعها الطيب بالخبيث لجا من استنكف من ذل الكفر ومن الاقامة على الهزيمة الى بلاد
المسلمين بالعدوة وصبر على غالب حب الوطن ورضى بضرب الذلة عليه والمسكنة
واعطاء الجزية عن يد فكان سلف سعيد ممن رضى بالاقامة على الهزيمة بدار الدل فنبأ
هنالك بالاندلس على حالة من الدعارة ومخالطة أولى الجرابة ثم عبر البحر الى العدوة

(1) من الاسباب الرئيسية التي دفعت المنصور الى نكبة هؤلاء القادة العسكريين اتهامهم بالتآمر مع
الأتراك في الجزائر لضم المغرب الى الامبراطورية العثمانية ، وقد ابتدأت هذه الخطة بتدبير مؤامرة
تسميم المعتصم الا أن التآمرين أسقط في ايديهم لما أعلن عن تولية المولى احمد خلفا لأخيه المعتصم
عشية المعركة ، فكان أن اثاروا الشعب بين اوساط الجند والعامه وأخذوا ينادون باحقية الامير
الصفير اسماعيل بن المعتصم الموجود بالجزائر في الخلافة مستغلين سمعة المعتصم الملك الشهيد
الامر الذي حدا بالمولى احمد الى الفرار (خوفا من أن يقتلوه) (تاريخ السودان عبد الرحمن السعدى
ص 208)

الا أن المغاربة اصروا على بيعة المولى احمد والتمسك بها مما لم يجد معه المتآمرون بدا من قبول
الامر الواقع فلم يقل ذلك أهل مرآكش فجاءهم بمولاي احمد اينما كان في الساعة فولوه فكان مولاي
احمد اميرا (المصدر نفسه ص 208) .
يضاف الى ذلك أن المعتصم كان قد أوصى بالاملا للمولى احمد من بعده (فأعلم أني لا أحب احدا بعد
نفسى محبتي لك ورغبتي في انتقال هذا الامر بعدى الا اليك لاغيرك) (الافرناسي نزهة لعادى
ص 71) .

(2) بعد ضعف الموحدين تجزأت امبراطوريتهم بالمغرب الاسلامي الى دول وامارات ففي شمالي افريقية
ظهر الحفصيون بتونس (603 - 981) وبثوزيان في الجزائر (631 هـ - 922 هـ) والرينيون في المغرب
(669 ، 889 هـ) . وفي الاندلس بعثت من جديد امارات الطوائف ، كان من أبرزها بنو الاحمر
بغرناطة (929 - 899) التي سقطت أخيرا بيد الاسبان يوم 2 يناير 1492 م .

في سبيل الجولة ومطاوعة جنون الصبوة وطفيان الشباب ونزل بتيطاون(1) من ثغور المغرب وولع بالسفر في البحر خليع الرسن ثم اتصل لعهد الغالب بالله بعظيم دولته أبي على الحسن بن أبي بكر واختلف لداره بفاس أيام رياسته فجذب بضبعه ويمكن قومه عند الخليفة وعقد له على الغرباء من قومه النازعين الى المغرب من بلاد الاندلس فجمعهم من كل قطر وتآلف منهم على يده جيش كثيف من النار بمراكش واقطعتهم الدولة اراضي فسيحة بالجانب الغربي من فحصها الافيج فاغترسوا بها جنات معروشات وغير معروشات وحصلوا من استغلال ذلك الى اليوم على ما انساهم ذكر وطنهم واعتاضهم مما فاتهم به ولم يزل الدغالي متوغلا هضبات العز عند الخلفاء الى ان كان من امره في ارتكاب سنن الغدر والتربص بالدولة والسعي في تخيب الكلمة ما ذكرناه مستوفى في مواضع شتى من هذا الكتاب فاما أولا فبمداخلة المولى أبي النصر بن الغالب بالله في الانتزاء على الامر ووعده اياه بالنصر على الثورة والمظاهر على الاستبداد واما ثانيا فيقدره في الوكن (2) ومكره بقومه واما ثالثا فباستتيام الثورة والاستبداد بالسوس في مغيب المولى المنصور عنه لتشريد المتوكل الى ارض النصاري (3) حسبما قدمنا ولما خلاص الامر الى امير المؤمنين المنصور وواتته الخلافة منقادا اليه تجر أذيالها وكان الدغالي هذا بالسوس منذ تركه به كما ذكرنا مع ولده المولى الامير أبي عبد الله محمد الشيخ واتفق ما كان من اجتماعه مع الحاجب عبد الكريم بن موسى بن يحيى في محلة واحدة بما كان المعتصم سرحه اليه من الحضرة لتحويل عزابه عند ايناس الغدر منه واستتيام الثورة بالسوس ثم تلاحق بهما قواد بلاد درعة وولاتها القائد المعظم الصدر الشهير ابو عبد الله محمد بن أحمد الكبير خال امير المؤمنين المنصور وحاجبه اليوم القائد أبو محمد عزوز بن سعيد الوزكيتان وتوافوا جميعا بمعسكر واحد من بلاد سكتانة اجمعوا امرهم على الوفاة على امير المؤمنين بفاس ليهنوه بالفتح والخلافة فلم يسع الدغالي حينئذ غير المسير معهم فتأخر من القوم خال امير المؤمنين وأبو محمد عزوز بن سعيد وانقلبا الى أعمالهما لتثقيف البلاد وقوض الحاجب مع الدغالي

(1) تطاون من المدن المغربية الشمالية المطلة على البحر المتوسط ، اتجا اليها عسدد عظيم من المهاجرين الاندلسيين وقد استقلوا بحكمها وقاموا بنور هام في رد الفارات الخارجية عن شمال البلاد ، كما خاضوا غمار حروب بحرية طويلة ضد الاسبان والبرتغال مما أسفد على القراة خططهم التوسعية في المغرب وشماله بوجه خاص .

(2) وقعة الركن معركة جرت باحواز فاس في مارس 1576 حيث انتصر فيها المولى عبد الملك للمعتصم على ابن اخيه محمد المتوكل .

(3) خلال ولاية المعتصم كلف المولى أحمد المنصور بمحاربة المتوكل ومطاردته وقد لاقى من ذلك عناء كبيرا الى أن تمكن في النهاية من اجبار المتوكل على اللجوء الى طنجة احدى قواعد الاحتلال البرتغالي في شمال المغرب .

وساروا حتى اذا انحدروا الى الحضرة وأناخوا بساحتها رام الدغالي الدخول للراحة بها أياما وهو يسر حسوا في ارتقاء فمنعه من ذلك أصلا المأ المقيمون برسم النيابة بها من أهل الدولة وانصرف لقضده بفاس فوجد بها هو والحاجب على أمير المؤمنين غب الفتح فللقاهما برا وترحيبا سرورا بمقامهما وأكرم نزلهما ولم يلبث الدغالي أن استعمل المرض وشكى الى الخليفة وخاصة المنزل وفساد مزاجه بفاس وطلب منه الاذن في القدوم لسلا بما كانت تحت ولايته من عهد المعتصم يستنيب بها محمد بن أخيه فتفطن الخليفة لمكره وانطوائه على النكت واعتل عليه في الاذن واطهر له غاية الحاجة الى حضوره بمجاسه للمفاوضة معه في أمور سلطانه وصالح مملكته توثقا بنصحه واعتادا بمخالصته فلم يصرفه بذلك كله عن عزمه وصمم على الغدو وألح في الطلب فسدد له الخليفة باب الاذن فاجتريا حينئذ لحقه (1) مع الجهد والفضاضة الى الغاية فخرج نهارا من غير اذن وصمم الى وجهه وبعث اليه الخليفة أولا مع قائد القواد كان عنده أبي عبد الله محمد بن سليمان بالملاينة والملاطفة على الرجوع وحلده انتقاض المرض عليه بمشقة السفر فامتنع من الرجوع وأبى لها امضاء عزمته على الغدر ومضى حتى انتهى الى المستقى وضرب ابنيته على ضفة وادى الجواهر وتلوم على خروج ائقاله وماله من فاس فاستغضب حينئذ الخليفة بما ارتكبه من سوء السيرة في الافتيات على الامر والخروج من غير الاذن وجاهر بما آتاه من ذلك بالعصيان والمخالفة (2) فحق * عليه القول واتجه الى قتله السبيل وبحث على حقه بظلفه واقام على صوره من الحجة الواضحة فلم يجد أمير المؤمنين حينئذ وليجة من دون الراحة منه فسرحت الى قتله عظيم الدولة القائد أبا اسحاق ابراهيم بن محمد السفياني وانفذ معه الفاتك أحمد الزواوي وقريعه حمو الزواوي وعبد العزيز بن يخلق اليفرني وعبد الله التلمساني وكلهم قواد عشائره زواوة وعصابة الشراقة من جيوش النار وكان في اختصاص الخليفة هؤلاء نفر بهذا الفتك نعم السياسة النافعة حينئذ لاستحداث العداوة الباقية بسبب ذلك من يومئذ الى الآن بين عساكر الاندلس والشراقة من جيوش النار وما راع الدغالي الا دخول ابى اسحاق عليه في مضربه والفاتك أحمد

(1) يوجد بياض بالاصل -

(2) يفهم من كلام الفشتالي أن سعيد الدغالي كان يتآمر على دولة المنصور بانذاره للفتن والثورات الداخلية وباتصاله مع خصوم المنصور في الخارج ، وخاصة الاتراك في الجزائر وفي الوثائق التاريخية رسالة وجهها الاسباني Luis de Herrera من سبتة بتاريخ 13 غشت 1578 الى الملك الاسباني فيليب الثاني جاء فيها بأن القائد التركي لجنود المنصور قد كتب الى باشا الجزائر يعلمه بأن الوقت قد حان لاحتلال المغرب وتحقيق رغبة السلطان العثماني ، وذلك لأن الحاكم المغربي الجديد غير قادر على تسلم السلطة وليس هناك من يخلفه (دى كاسترى . اسبانيا . ج 3 . ص 453) . فهل قام سعيد الدغالي أو أحد من الثلاثة الآخرين الذين تكبهم المنصور بهذا الاتصال مع الاتراك مما كان سببا في التعجيل بتكبيتهم ؟

الزواوى على اثره وتقاعس الآخرون خارج المضرب واستشعر الدغالى الشر وكان مستلقيا على قفاه لما يظهر من التمارض فاستخلى لابی اسحاق واستكان ورغبه على ارسال يده واقسم له على استمكانه منها فجعل يقبلها فعل التدليل الجازع وخرج بذلك عن ماله فى الغلظة والفضاضة الى الغاية فى التواضع والاستكانة ذلا وخورا وكان القائد اسحاق ذهب من عند الخليفة على الحالة التى ركب بها اليه من داره أعزل من السلاح واتفق أن وجد محمد بن اخى الدغالى واقفا حينئذ بسيفه على رأس عمه فحذر أبو اسحاق غائلته وجعل يختل سيفه ويختل عمه بالمحادثة لما أظهره من القنوم لتشجيعه حتى أمكنته الفرصة فاستقل واقفا ووثب على قائم سيف محمد فاخرطه وأغرى أحمد الزواوى بالدغالى فأوما بسيفه العضب الى سالفته وهو مستلق فطارت هامته لضربة واحدة وشد أبو اسحاق هو على محمد بسيفه فعصب جيئه ثم اعتورته سيوف النفر فاستلحمته واحتزوا رأسه وحمل مع رأس عمه فى مخالاة حتى وضعها بين يدى امير المؤمنين وانتهب القوم فساطيظهما واستبد كل بما حصل فى يده من الخرشى والخيول والسريات الزنجيات والروميات وبينما أبو اسحاق هقبل لفاس من المستقى اذ تلقته على ظهر الزاوية بغال الدغالى الحاملة لاله واثقاله وكانت نهايته ستين الفا من الذهب العين فاستردها وجعل بها وجهه الى امير المؤمنين واشتق بالمال والرأسين معسكر قومهما وعشائرها الاندلس المخيم حينئذ بظهر الزاوية منذ بلوغ امير المؤمنين من مشهد الفتح لفاس فاستكان الجميع للأمر واستخذى ولم ينس منهم احد بينت شقة ولا نبضت له عروق الحمية وذهبوا مثلا فى الغابرين وما يكتهما عين واما محمد ثرقون الشهير بالكاهية فاصله من وادى أش وكان ممن حضر قيام المسلمين ببلاد الاندلس على التصارى ثورتهم المشهورة * للمشرىكين الكائنة على عهد الغالب بالله من الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم فى حدود عام سبعة وسبعين (1) ثم محض الله تلك الصبابة من المسلمين فكانت عليهم دائرة السوء للمشرىكين لقتلهم وانقطاعهم عن أهل دينهم وملتهم وبناء أمر قيامهم من أول وهلة على غير أساس من الرأى وانحلال عزائمهم من قبل مبلغ صريخ اخوانهم المسلمين وراء البحر لعدم من يملك نظامهم ويرجعون فى

ص 11

(1) هناك مصدران هامان تحدثا عن ثورة المورىسكوس بالاندلس عام 1569/977 أحدهما رسالة معاصرة بعثها السفير الفرنسى فى مدريد وقد جاء فيها بأن المسلمين قد ثاروا فى جبال البوشرات بضواحي غرناطة تحت قيادة (محمد بن أمية) Don Fernando de Valor وأن فيليب الثانى ملك اسبانيا قد تمكن من القضاء على الثورة أخيرا وتشريد الثوار (دى كاسترى-فرنسا ج 1 ص 286) وأما المصدر الثانى فهو المؤرخ المجهول فى كتابه (تاريخ الدولة السعدية) الذى أكد بأن فشل ثورة الاندلسيين يرجع الى تغلب الغالب عن نجدتهم (فقد أمرهم - أى الغالب - غشا منه بأن يقوموا مع النصرارى ليتق بهم فى قولهم بظهور فعلهم فلما قاموا على يد النصرارى تراخى عما وعدهم به من الاغاثة غشا منه لهم ولدين الله عز وجل ومصلة لملكه وكانت بينه وبين النصرارى مكاتبات فى ذلك ومراسلات) ص 38 - ويزداد فهمنا للاحداث اذا علمنا بأن الغالب قد تعاون مع دول أوروبا الغربية ومع اسبانيا والبرتغال بوجه خاص ليتخذ منهم حلفاء ضد الاتراك العثمانيين.

الاقبال والادبار الى كلمته من اولى الامر فاستأصلت بسيف الكفر فى الملاحم من قضى الله له بالشهادة منهم وغربت الصبابة الباقية الى أقصى بلاد الشرك وتفرقوا بها يادى سبا وخلص محمد زرقون هذا فيمن خلص من تلك الورطة وعبر البحر الى المغرب فانتظم فى جيوش النار لعهد الغالب بالله ثم نزع الى الجزائر عند الاتراك فاقام لديهم متحيزا الى فئتهم الى أن اجلب بهم المعتصم على المغرب وكان قد داخله وصحبه أيام الاغتراب بالمشرق الى أن صارت اليه الخلافة فرعى له تلك السوابق ورفع منزلته وأوفى برتبته على سائر الرتب والقي بيده زمام الدولة وصرف اليه تدبير عساكر النار فأنفرد بالتكلم فى أمورهم وملك بذلك زمامهم وكان من القوانين التى أخذ فيها المعتصم بسيرة العجم فى دولته التبرع لعساكر النار حين مصير الخلافة اليه بالزيادة لسائرهم فى اعطياتهم المفروضة وفى الديوان ومال يث فيهم ويفرق عليهم ويعبرون عنه فى مصطلحهم بالشيش وحذى فى ذلك حثو ملوك العجم ولما صنع الله من اخيه أمير المؤمنين ما صنع من الفتح العظيم والغزوة الشهيرة بوادى المخازن وشفع له نعمتها بما اصاب اليه من الملك والخلافة وجل الصنع علم العساكر لا محالة يطالبونه بالشرطين العاديين فرأى أن يتبرع لهم قبل السؤال بأحدهما ليتركوا الآخر وليكون بدل ذلك لهم المصافاة من باب المن لا من باب المشاركة وبعث لذلك عن الكاهية ثانى الفتح ففاوضه فيما عزم عليه بما كان زمام عساكر النار فى يده كما قدمنا وكشف له عن ذات صدره وما ذهب اليه فأبى عليه من ذلك وبين له احتجاز ماله وزعم له بصرف العساكر عن مطالبته بشئ من ذلك وضمن له عنهم الرضى بما افاء الله عليهم من السبى والمغانم التى خرج لهم عن جميعها أمير المؤمنين فهوها فى ذلك بالنصح ومظهرها من نفسه الشفقة وهو يسر حسوا فى ارتقاء فحسن أمير المؤمنين به الظن وعمل برأيه وامسك يده عن العطاء ثقة بما زعم ولما كان يوم الدخول لفاس اعترض الاجناد بباب دار الملك أمير المؤمنين عند الدخول بمكاحلهم واشتبكت اشتباك الاصابع ليستوقفوه بذلك حتى 12 نعم الشرطين العاديين عادة عجيبة أحدثها المعتصم فى المغرب وقطعها * المنصور فيما قطع من الحوادث المبتدعة والكلف الشاقة واقتحم ايده الله الاجناد المعترضة ومردوسهم بأرجل فرسه مقيظا ومتجهما فافرجوا له رهبة من بأسه فدخل قصوره وقد اسخط فعلهم ونمى اليه أن ذلك اغراء محمد زرقون من اشارته تشفيا وسعيا فى الفساد واستأنبت للخليفة عاقبة غشه فيما كان اشار به من احتجان ماله وامسك يده عن التبرع للاجناد بأحد الشرطين العاديين فأسرهما فى نفسه ولم ييدها له ثم أغرى الفوغاء من الاجناد ثانيا وحضهم على الطلب وأسرى فى تنفيق سوق الشقاق لذلك والتغريب بين الجند والخليفة والحجم حتى تفاقم الامر وأفضى الحال الى أن اجتمع جند

النار وقوض من معسكره بظهر الزاوية وذهب مغاضبا لخرق العادة واستنكف امير المؤمنين من الاذعان ساعتئذ ما طلبوه الا من بعد أن يسكنوا ويدعنوا فيكون ذلك حينئذ على وجه أمن المحض لا على وجه العنف الموزن بالتحكم والعسف وبعث لذلك عن محمد زرقون وبدبه لتلاف الامر واسترجاع الجند بالملاطفة والملاينة وكان جيش الموالي العلوجي وجيش الاندلس وهما أعظم جيوش النار متبرعين من الدخول في حزب غيرهم من تلك الاجناد فما كان الا أن صحبهم في وجهته واغراهم بالدخول في حزب اخوانهم وانغمس معهم بإشارته وحطب لنار تلك المغاضبة فزاده اشتعالا ولم يرجع لامير المؤمنين مرسله الا وقد جمع كلمة الاجناد كافة على افساد فاضطربت الاحوال ومرج أمر الناس وتحقق امير المؤمنين حينئذ بذلك ما انطوى عليه محمد من العداوة والبغضاء لسلطانه وجده في هدم بناء دولته وسعيه في فساد ملكه وتفريق امر الجماعة فحقده عليه ذلك وعزم على الفتك به وارجاه حتى استصلح احوال الاجناد وكان قد اعرض عنه في أمره وضرب عن وساطته صفحا وندب لذلك أولياءه وقعد له بنفسه فرتق بحسن سياسته ذلك الخرق من حينه فاستقام أمر الجند واسترضاهم بالقول أولا وبالعمل ثانيا واخفق أمل زرقون وبدى له ما لم يحتسب ولما كان يوم قتل الدغالي وأخيه تقبض عليه امير المؤمنين فلحقه بهما جزاء بما أبدى فيه من السعى في الفساد واعاد وأصبح مثالا في الآخرين وأما أبو الفضل الغري فاصله من لندراش قرية من قرى جبل شلين المطل على غرناطة وكان يزعم أنه من ذرية أبي الوليد بن زيدون وزير المعتزم بن عباد وصاحب ولادة بنت المستكفي وكثيرا ما كان يردد قصيدته النونية الشهيرة عن أهل الادب التي صدرها بقوله

أضحى التنائي بدلا من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا
بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا شوقا اليكم ولا جفت مآقينا

ويقول ما زال الصبيان عندنا بالاندلس منذ اليوم يحفظونها في المكاتب وكان ممن قذفت به * النوى عندما عصفت بالاندلس رياح الكفر وطوحت به الطوائف الى الجزائر فنزل على أمرائها من الاتراك فرسموه بديوانهم واثبتوا له الجراية لديهم ثم حصلت له من بعد ذلك المداخلة الثابتة هنالك بالمعتصم(1) رحمه الله فتقرب اليه

ص 13

(1) سعى الغالب الى عقد ولاية العهد لابنه محمد المتوكل وقد قام لاجل ذلك بشليد اخوته مما اضطر معه المولى عبد الملك (المعتصم) والمولى عبد المومن الى الالتجاء عند الاتراك في الجزائر طلبا للحماية والمساعدة ومن الجزائر خرج المعتصم بقوات عسكرية تمكن بفضلها من معاربة ابن أخيه المتوكل الذي انهزم لتخل القوات الاندلسية عنه وانضمامها الى عمه في معركة الركن بأحواز فاس عام 1576.

بالبحث عن اخبار المغرب ونقلها بما كان يعلم ميله لذلك وتشوفه له ثم افضى الحال الى أن اشخصه المعتصم الى المغرب عينا له وسفيرا عنه الى اشياعه ومن كان يدخله في أمره فوصل الى مراكش بعهد الغالب بالله في صورة التاجر وحمل معه احجارا من الياقوت فكان يطوف بها على منازل الاكابر توصلا الى مكالة اشياح المعتصم وايصال كتبه اليهم ثم رجع لفاس وكان المتوكل ولى العهد اميرها حينئذ وتلطف حتى اتصل به ورسمه في خدمته ثم عقد له على حصه من جيوش النار لديه وهو في ذلك كله حاطب في جبل المعتصم مرسله والمتوكل ووالده في غفلة من أمره وكان في خلال ذلك يسرى مع الدغالي في الغدر ويلحم حتى اذا كان يوم الركن الذي تحيناه لما تعاقدا عليه من الغدر والخلاف نزعا بقومهما مكرًا ومخادعة الى الخليفتين لاول احتدام الرعى واشتعال نار الحرب فرعى الخليفتان لابي الفضل تلك الموات ورفعنا منزلته في أهل الدولة وأعدّه المعتصم من بطانته وبسط عليه نعمته فلم يرض بما غمره من طوفانها وصار يسمو بنفسه الى العظائم التي ليس لها بأهل من تقليد الاعمال وولاية الثغور بقود عساكر الاسنة وكان قد داخل ايضا الدغالي ظهيره في الخلاف ومساعدته بغدر في شأن استيلاء الثورة التي جنح اليها واحتمل في أمرها بالسوس ولما سطى أمير المؤمنين بالدغالي وعلم ما بينهما من الخلّة واجتماع الكلمة على الشر حذر مغبة امهاله وأكد ذلك ما كان من انقباضه عن مجلس الخليفة في تلك الايام باستعمال المرض فاستراب لذلك به وتقبض عليه يوم الفتك بالدغالي وأصحابه وجنب الى مصرعه فالحقه بهم وقتل النفر الاربعة جميعا ليوم واحد في شهر رجب من عام ستة وثمانين (1) وأصبحت رؤوسهم معلقة على الشرفات بباب السبع من أبواب البلد الجديد وسر الناس قاطبة بقتلهم بما كانوا يضطقنون عليهم اعتيادا لغدر دائما والجنوح الى الفساد واعتدوا قتلهم فتحا ثانيا لما عقبه من التمهيد واطمئنان الاحوال واقتلعت جرثومة الشقاق باقتلاع جلوعهم واستقامت احوال الجند من يومئذ رهبة ورغبة واستوت قدم امير المؤمنين في ملكه واجمع الرحلة لمراكش دار الخلافة وعنصر الدولة (2) فانزل ولده المولى الامير أبا عبد الله محمد الشيخ بقصوره من فاس لاقامة رسم الملك وكان اذ ذاك طفلا صغيرا فضرب بذلك تدبير الامور والنقض والابرار ساعتئذ لخالفته القائد ابى اسحاق ابراهيم ابن محمد السفيناني وانزله مع المولى أبى عبد الله بالباب الجديد توثقا بمكانه واستنامة * اليه

ص 14

(1) يوافق هذا شهر سبتمبر 1578

(2) قبل أن يتوجه المنصور الى مراكش استقبل وفدا اسبانيا برتغاليا وصل الى فاس لافتضاء جثة سباستيان، وسيتعرض الفصل الى ذلك في الصفحة التالية رقم 15 .

وعقد على الشرطة لمولاه القائد أبى عبد الله محمد بن سالم ثم عقد على مكناسة لداود بن أخيه المولى الأمير بد المؤمن وجعل امرها الى نظره ورتب بها من انتقاء للنيابة عنه فيها من الخدام وصحبه هو لمراكش واسكنه بها بازائه وتحت رقبته استراحة به وثقف سائر ممالك واطرافها برجاله وخرج فى غرة شعبان عام ستة وثمانين (1) وتلوم بمعسكره من ظهر الزاوية بساحة فاس حتى استكمل أهبة السفر وفرغ من ابرام ما عن عن له من الامور فارتحل للنصف من شعبان ووصل لمراكش فى الثانى عشر من رمضان العام فاستوى على كرسي الخلافة بها وتسلم سرير الامارة وامتطى مهادها فكان يوم دخوله عند أهلها غرة فى جبين الدهر سرورا بما يسر الله لهم وللمسلمين من اسباب الخير والسعادة بولايته أيده الله وبركة خلافته الطالعة على سائر الامم بالعدل والامان وشمول العافية والاحسان وكف ايدي العدوان ورتع الناس فى ظل ظليل ورعى جهيم الى هلم كما نذكر ان شاء الله تعالى .

ذكر وفاة ارسال ملوك الارض للتهنئة بالفتح والخلافة ومباراتهم فى الهدايا والتاحفة واغرابهم بالذخائر النفيسة وفاخر الطرف واسنى التحف وبيعة صاحب برنوا من ملوك السودان

لما سنى الله لأمير المؤمنين من غزوته الشهيرة السائرة الذكر ما سنى وصنع على يده من فتحها الذى عفى على ذكر الفتوح السالفة فى دول الاسلام منذ الصدر الاول الى هلم ما صنع وتحدث الناس بقتل الطاغية والاستيلاء على مئين من ألوف أمم النصرانية (2) وغريب ما اتفق من هلاك الملوك الثلاثة وما كان لأمير المؤمنين من سورة التغلب واية العز وشاعت اخبار ذلك الصنيع الخارق فى المشارق والمغارب وسائر الآفاق وزويت لصيته الارض فطار ذكره وانتشر فى المعمور خبره وشفع الله ذلك بما اصاب اليه من الخلافة التى جلا عروس فتحها على منصة ذلك الفتح وبسط بها جناح العدل على الامة خاطب لحيته صاحب القسطنطينية العظمى (3) وسائر ملوك الاسلام المجاورين للمغرب وعرفهم بالفتح وظهور حزب الله على حزب الشيطان فاقامت أسواق التباشير بنصر الملة واعتزاز الدين واعلاء الكلمة فى كل أرض وارتفعت الى الله كلمات الشكر

(1) الموافق لآكتوبر 1578

(2) ذكرت وثيقة معاصرة ان سادة البرتغال من ابن دو: براكانس Bragance الى حامل الترس قد قتلوا أو وقعوا فى الأسر ، وهذا أمر لم يره احد من الناس ولاسمع به (دى كاسترى بريطانيا ج 1 ص 297)

(3) هو السلطان مراد الثالث (1574 - 1595)

وقد عرفت الامبراطورية العثمانية فى عهده أقصى الساعها (اعظم سلطان خفقت عليه الجنود واكبر ملك قد جند الجنود .. كثر فى زمنه العلماء وما اجتمع فى زمن اخذ من آل عثمان ما اجتمع فى زمنه من الفضلاء) : نصرة أهل الايمان لمحمد البكرى دار الوثائق بالرباط . رقم د 527 .

الطيبة في كل أفق وقطر فسمت بذلك ملوك الدنيا من أهل الملتين الى مخاطبة امير المؤمنين وايفاد ارسالهم عليه للتهنية بالفتح والخلافة فحاضوا اليه البحار وشقوا القفار متبارين في السبق الى حضرته الكريمة فكان اولهم ورودا على سدته الشريفة وأبوابه العلية المنيعة رسول صاحب الجزائر (1) لاقترابه فبلغ الرسالة * وادى الهدية وكان فيها من فساطيط الهند الغريبة الشكل والصنعة وزرابى مبنوثة وطرف نفيسة ما يستحسن من أمثاله ثم تلتها ارسال طاغية برتغال انريك (2) القائم بالدولة من بعد ولد أخيه بستييان (3) فريسة امير المؤمنين المنصور وارسال طاغية قشتالة فليب (4) وكان الطاغيتان قد أوفدا معا قبل ذلك على امير المؤمنين رسلهم الاولين يرغبونه في الامتنان عليهم بشلو الطاغية بستييان الموارى بالقصر في تابوته ووافوه أيام مقامه بمعسكره من ساحة فاس بين يدي ارتحاله لمراكش (5) فتطارحوا عليه متضرعين وخاضعين لعز الاسلام فرأى أيده الله ما في اسلام الشلو لهم والذهاب به الى ارضهم من مزيد الفخر للاسلام وتجدد الاحزان لعبدة الاصنام بمشاهدته وغبطتهم برويته ونكايتهم بالوقوف على فريسته فامتن لذلك به عليهم واسلمه اليهم من غير عوض بعد أن كانوا ملعين لبذل الاموال العظيمة فيه (6) وتباروا لذلك في مكافاة امير المؤمنين ومجازاته بالحسنى فاوفدوا عليه رسلهم رهبة ورغبة ووافوا جميعا حضرته العلية الامامية في جمادى الاولى (7) متفاوتين بيومين أو ثلاثة وكان اسبقهم بلوغا لدار الخلافة صاحب برتغال وكانوا قد بلغوا الى البريجة (8) بجمادى الاولى ثم تلقاهم بها خبر اعتلال امير المؤمنين بمرضه الذي وعك منه حينئذ وعكا شديدا فاقاموا هنالك الى أن ابل وجاءهم أنه قد استقل من علته فوفدوا عليه ووصلوا مراكش بهدايا مرسلهم وكان يوم بلوغهم اليها يوما مشهودا عند اهلها تحدث الناس به دهرا لكثرة ما شاهدوا من تلك الهدية العظمى التي نفوت الحصر واعجابهم من احتفال مهديها وكانوا وقروها يوم الدخول على العجالات والقراريط فاشتقوا بها الحضرة من باب فاس الى (9) فتهافت الناس على رؤيتها تهاقت الفراش وغصت بهم طرق المدينة وسككها وحطوا أثقالها بالايوان

(1) كان على الجزائر حسن البندقي (بكلر بك شمالى الفريقية) دامت ولايته من سنة 1577 الى 1580

(2) اى الكاردينال هنرى الذى حكم البرتغال بين سنتي 1580-78 .

(3) يقصد سابستيان : Don Sabastian

(4) فيليب الثانى Philippe II ملك اسبانيا (1555-1598) يمثل عهد الازج في تاريخ اسبانيا الحديث .

(5) استقبل المنصور الوفدين الاسبانى والبرتغال بظهر الزاوية بناحية فاس اكتوبر 1578 قبل توجهه الى مراكش .

(6) يتضح من هذا ان المنصور كان يهدف الى خلق جو من التعاون مع الاسبان والبرتغال ولم يشأ الضغط على البرتغال للتخلي عن بعض قواعد الاحتلال بشمال المغرب كما كان متوقعا .

(7) جمادى الاولى 987 يوليوز 1579

(8) البريجة مدينة الجديدة - كانت من مراكز الاحتلال البرتغالى في المغرب .

(9) بياض بالاصل .

فضاق بها رجب فضائه على سعته وانفساح أرجائه وكان الذى ظهر منها للناس واحصوه ثلاثمائة الف دقات من ريال الفضة وأما ما يرجع الى أحمال السلع النفيسة من كل جنس وغريب كل نوع من التحرير والخز والديباج والسندس الى غير ذلك من أسرة هندية مذهبة بستورها وأوطيتها من رقيق الديباج والوشى وكراسى مكللة وعجائب من طرف الهند وبلادهم وتحف أرضهم وأوانى صنعهم وذخائر ملكهم فبحر لا ساحل له كثرة ودنيا لا يحاط بها وصفا وزينة وجلس لهم امير المؤمنين عند السلام جلوسا مما اعرب عن قدرته وأبهى سلطانه ثم وصلت على اثرهم ارسال صاحب قشتالة وبلغوا مراكش على جهة أسفى مرسى فلهم ومحط رحالهم للثالثة من وصول ارسال صاحب برتقال اليها فأدوا رسالة ملكهم وعظيم ملتهم وقدموا بين ايديهم هديته المشتملة على كل نفيس من حجر الياقوت * الكبير الحصيات المنتقى للذخائر الملوك ص 16 انتزعت من تاج ابائه واسلافه والخيرة العظمى عند قومه وربعة مملوءة من حصباء الدر الفاخر وقصب الزمرد كانت منها زمردة فاخرة الجرم تفوت سائر الاحجار مقدارا وشكلا وحسنا وعلقت بها زمردة أخرى أقل منها جرما وأشبه بها حسنا وكتلتاهما من ذخائر الملوك العظيمة ونحو ذلك من الذخائر النفيسة والتحف الدالة على همة مرسلها وعظمة المترف بها ثم رام الناس تحقيق ما بين الهديتين من التفاوت بمكيال التقدير وميزان التخمين عند المقارنة والمقابلة فأشكل عليهم ذلك وتوقفوا عن الحكم لاحداهما بالشكوف عن الاخرى لاحتفال كليتهما فى نوعها ووصل الرسول الى امير المؤمنين لاداء التحية فقعدهم لهم افخم قعود وبالغوا فى الخضوع له والاستخدام لوطء بساطه والاستكانة لعظيم سلطانه وتلقاهم بما يليق به كرماء القوم من البر والحياء ثم وردت على تفتة ذلك ارسال سلطان الروم وبلاد المشرق وصاحب القسطنطينية العظمى خاقان الترك من بنى عثمان السلطان مراد خان اوفدهم من ضرته وأوعز الى مفتى جزائر من ايالاته الشيخ العالم الصدر الكبير الخطيب الشهير ابنى الطيب (1) (1) البسكرى بصحابتهم الى المغرب واختاره لشهرته ومكانه فى العلم والرياسة ليحسن اداء الرسالة وتقرير المودة والاعراب عما فى الضمائر وليلدل بارساله على علو عمله وشرف مقدار المرسل اليه فوفلوا على سدة امير المؤمنين المنصور فى جمادى الاولى من عام سبعة وثمانين يقدمهم أبو الطيب فبلغوا الرسالة وادوا الهدية وكان انتخب فيها خاقان ما انتقاء من الملابس الفاخرة وبعث معها بسيف محلى بديع الصنعة فاخر الحلى والزينة فاسخفر أبو الطيب فى شان التهنية والاعراب عن مقاصد الرسالة وادى الهدية فاهتز

(1) يوجد بياض فى الاصل .

لذلك امير المؤمنين سرورا من اعواده ولقاهم مبرة التكريم واختار النزول والارغاد في القرى واقامة رسم الضيافة وتوسيع الجراية حتى انقلبوا الى مرسلهم مجبورين وكان ممن وصل أيضا على تفتة ذلك عامئذ ارسال طاغية الافرنجة (1) ويقال افرنصة وبه يعرفون اليوم فقضوا فرض التهنية واقتفوا سنن غيرهم من ارسال ملوك الارض .

ذكر تجهيز الحركة الاولى لتمهيد السوس (2)

قد قدمنا ما كان من اضطراب أحوال المغرب في أيام المعتصم رحمه الله واضطرابه نارا وفتنة وهبوب زلازل الهول في كل قطر من اقطاره وظلام الجو في سائر ممالكه وجهاته واتصل ذلك مدة حياته حتى مال عمود الخلافة او كاد وهلك رحمه الله والشر والفساد في عنفوانهما ومرجل الهول شديد الغيلان والدنيا يموج بعض في بعض فجاء الله من امير المؤمنين بالجبل العاصم من الطوفان فرست به قواعد الملك وتثبت اركان الخلافة وركدت عواصف الهول الدائمة الهبوب خمسة أعوام تباعا عمر دولتي المتوكل والمعتصم ولما استوسق لامير المؤمنين الامر ورجع من مشهد الفتح واقتلح لأول مرة جرثومة البغي والشقاق من قواد الاندلس على ما قدمنا بفاس ووصل لمراكش دار الخلافة وعصر الدولة فافتقد بها كرسى الملك واستوى على سرير الخلافة وانثالت على بابه بها ارسال ملوك الارض مهنئين كما سبق بما صنع الله على يده من الفتح واتاه من الملك ورسخت قدمه وتمكنت قواعده نظر في اعطاف دولته فلم أرهم لديه ولا أشد عليه من تقويم مائلها وتثقيف أطرافها واستيصال الخوارج عليها وتلويخ النازعين الى الخلاف من رعاياها وتمهيد القاصية والدانية من أعمالها وكان من أول ما صرف اليه همه من ذلك ووجه اليه عنايته بلاد السوس وممالكه بما كان قطره منبعث الدعوة ومطلع شمس الامامة الكريمة وقبائله اشد شوكة واقوى عصبية وكان شأنه في الانتفاض سهلا وحزنا مند نهوض امير المؤمنين منه في عساكر * لتشيريد المتوكل (3) من أعمال الحضرة أيام اطلاله عليها على ما وصفنا من قبل وانه عادت فيه هيف الى اديانها من لدن مغيبه عنه ايده الله في خلافة أخيه المعتصم الى حين ولايته هو فاجمع امره حينئذ على تدويخ جهاته وتمهيد اقطاره فجهز العساكر من الرامحة والنار وعقد عليها

ص 24

(1) بعث الملك الفرنسي هنري الثالث سفارة الى المغرب تحت رئاسة Guillaume Berard وذلك لتهنئة المنصور وتذكيره بالعلاقات الطيبة التي كانت بين المغرب وفرنسا زمن المعتصم ، ولتقديم بعض المطالب كفتح الموانئ المغربية في وجه السفن الفرنسية وتحرير الاسرى الفرنسيين وكلا لشراء مقادير هامة من ملح البارود واخير المطالب قرض مالي بمبلغ مائة وخمسين الف دوكة . (دى كامبرى ، فرنسا ، ج 2 ، ص 22) .

(2) يقتضى الترتيب الزمني للاحداث الانتقال الى صفحة 23 .

(3) أثناء خلافة المعتصم ، كلف المولى احمد بمحاربة المتوكل وملاحقته بالسوس ، وقد استقر: في قتاله سنتين متتاليتين 985-986/77-1578

لحاجبه اليوم الغالصة القائد أبي محمد عزوز بن سعيد الوزكىتى وجعل اليه امر تدبير الاجناد والحروب فاقبلوا عن الحضرة فى شهر (1) ومن بعد انفصالهم بدا لامير المؤمنين أن يسرح معهم خاله القائد أبا عبد الله محمد بن أحمد الصغير وصاحب الاشغال بالحضرة الصدر ابا عبد الله محمد بن مومن السوسى وكان ببلاد حاحة انقله اليه امير المؤمنين من قبل ذلك فى حصنة من الجيش لاقتضاء خراجها فاوعز اليه بالنفور مع العساكر رديفا لخاله والحاجب فى الشورى والمفاوضة بما كان عارفا بأحوال السوس وبصيرا بأموره لاستعماله على الشرطة والخراج به دهرًا من خلافة الغالب بالله وصدروا من خلافة المعتصم فلحق بالعساكر وتوجه ثالث القواد تحت رايات امير المؤمنين وساروا حتى اذا نزلوا بالسوس صمدوا الى جباله على جهة تاكراكرى من بلاد هشتوكة ومروا مجتمعين حتى أناخوا ببلاد هلالة فافترقوا هنالك محلتين توجه باحدهما خال امير المؤمنين وعاج بها الى جهة القبائل المجاورين لجبل درن ومروا يتقصون تمهيد البلاد أرضا أرضا وقبيلة قبيلة ويجوسون بالعساكر خلال ديار الخوارج وأهل الشقاق والعصبية فاكسحوا السرح وانتسفوا الزرع وخرّبوا العمران ودمروا أرض المارقين تدميرا حتى اذعن لهم جل قبائل السوس ومدوا يد الانقياد للطاعة واشرفوا على التمهيد واستكمال التدويخ وبينما هم فى جد من امرهم واقتبال من شأنهم اذ عرض لامير المؤمنين مرضه الشديد الذى بلغ الى حد الارجاج به فكتب اليهم أيده الله يسترجعهم عندما عوفى من طائفته فوردوا الحضرة فى شهر (2) (وارجأ امير المؤمنين امر السوس فى استكمال تمهيده ومعاودة تدويخه حتى استأنف له حركة أخرى واردف اليه الكتاب والعساكر حتى ادلت عصيه واقامت الى اليوم ماثله على ما سنذكر ان شاء الله بعد

ذكر اعتلال امير المؤمنين وتجهم الزمان لطروق مرضه وجزع المسلمين عند اشتداد زلزاله وما كان عقب ذلك لابنه المولى الامير الهمام أبى عبد الله محمد الشيخ المامون ابقى الله ايامهم

كان طروق هذا المرض والمام طائفه بذات مولانا امير المؤمنين فى جمادى الاولى من سبعة وثمانين (3) ووافق ذلك من الزمان فصل الحر والقيظ ولفح سموم الهواجر

ص 25

(1) ارسلته هذه القوات غالبا خلال الاشهر الاولى عام 1579/987 ، وقد استدعت للعودة الى هراكن

اثر مرض المنصور فى جمادى الاولى 987/غشت 1579 وفى الاصل يوجد بياض .

(2) حسب الفشتالى استدعى المنصور قواته المعاربة بالسوس الى العودة الى هراكن اثر ابلاله من المرض أى قبيل رمضان 1579/987 .

(3) جمادى الاولى 987 يوافق شهر غشت 1579

قشبت بذلك نار الحميات ونفخ عليها كبر الحر بلهب تلك السموم فازدادت توقدا واشتعالا فاهتاجت حينئذ سورة المرض بما كان من الامراض الحادة احتياجا قام له في ركائبه رئيس اطباء بباب الخلفاء رضوان الله عليهم الشيخ ابو عبد الله محمد الطبيب احد كبار مواليتهم المملوحي حتى كان من مهرة الفن واية في العمل والتجريب ووحيدا في فهم امراض الخلفاء ومعرفة طباعهم لطول مازاول في الجاهلية والاسلام بباب دارهم مدة من ثلاثين سنة او اربعين فعكف على باب امير المؤمنين وشمر لمصارعة ذلك المرض فكان الحرب بينهما سجالا ثم طال الامر بالناس واطرقوا الوجوم الاسد في خيسه وانبهمت عليهم الامور ايام اشتداد الوجع وتكالب العلة فملكتهم الحيرة واطبق على الدنيا ليل الهول واغبر وجه الارض وتجهم الزمان ومرج امر الناس فبلغت القلوب الحناجر جزعا على امير المؤمنين ايده الله وضنائة به وشفقا لامة من عدم تعيين من يكفلها ويحمي من بعد الامام بيضتها فتصرف اليه الوجوه وتناط به الامال اذ كان امير المؤمنين مازال لم يعهد الى احد ساعته بامر الامة ولا نصب للناس خليفة يكفلهم من بعده ثم تدارك الله تعالى الاسلام بما شأنه ان يتدارك به المضطر من عباده فهبت على الناس من راحة امير المؤمنين ريح عاترة واستنشقوا الانتعاشة وافاقته نسيم الفرج طيب الارج فانجاب عن الدنيا الهول المطبق وتقسعت عنها غياهب الحيرة فسكنت النفوس الواجفة واطمأنت الخواطر المتأوهة ولما أطاق ايده الله الحركة وخلص ابريزه من ذلك السبك وأهل قمره من بعد المحاق وطلع بأفق قصره اعتزم على البدو للناس لاول انتعاشه لما يعلم من تشوقهم الى وجهه الكريم واستطلاعهم لغرته السعيدة والاقتباس من انوارها الساطعة وارتباكهم لمغيبه عن ابصارهم فبرز صبحا الى الايوان الكريم الامامي ونصب له كرسي الخلافة بقبته الكبرى ذات الاساطين فلاح بها ليح القمر بهالته وتسامع الناس بخبر ظهوره فنسلوا اليه من كل حدب وقدفت بهم سلك الحضرة من كل أوب واشرع بباب الايوان فتهاقت الناس عليه ايده الله تهاقت الفراش وكادوا أن يختطفوه شوقا اليه وشفقا به لما القى الله من محبتهم عليه فازدحموا على رويته وتقيل بساطه ولثم اطرافه واستقبال جميل محياه فرحين بمشاهدة طلعتة الكريمة ورافعين الى الله أكف الشكر والثناء على فضله بما امتن به عليهم من عصمة دينهم ودنياهم بعصمة مولانا الامام * كهف الاسلام وظل الله في الانام ثم تنافس ارباب الدولة وصدور المملكة وأهل البساط في اتحاف الطبيب شكرا لله على ما خولهم من نعمة ابلال امير المؤمنين فانهاؤا عليه بين يدي الامام بشايب الدنانير والدراهم والخلع انهلال الغمامة الوطاء وتهالكوا في ذلك وتبعهم فيه سائر القواد ورؤساء الاجناد فلم يبرح الطبيب من ذلك المجلس الكريم الا بألوف من العين واحمال من الخلع اكسبته ثروة وابقت في ورثته الى اليوم غنى مختلما

وكان ذلك اليوم المبارك عيداً بالحضرة بما قام من اسواق الفرح والسرور وابتهاج
الافئدة والصدور وبروز العذارى من وراء الحجال والستور ورفع الشعراء الى امير
المؤمنين كلماتهم يهنونه بالصحة والابلال فقال في ذلك شاعر الدولة الفقيه البليغ
ابو عبد الله محمد بن علي الهوزالي

تردى اذى من سقمك البر والبحر وضجت لشكوى جسمك الشمس والبدر
وبات الهدى خوفاً عليك مسهداً وأصبح مذعور الفؤاد الندى الغمر
فلما أعاد الله صحتك التي افاق بهما من غمه البدو والحضر
ترأت لنا الدنيا بزينة حسنهما وعاد الى ايامها ذلك البشر
وصار بك الاسلام في كل بلدة يهنى ويدعوك أن يطال لك العمر
وصحت لنا الآمال بعد اعتلالها وعادت الى الايناع أغصنها النضر
ولا غرو ان خافت على سمط الندى اذا غبر وجه الارض واحتبس القطر
بسيف ابي العباس انققت عجافها قديماً فخافت ان يعادوها الضمر
لئن جزلت بيض المعالي فقد غدت نشاوى الطباة البيض واللبن السمر
بقيت لهذا الدين تحمى ذمارة ويحميك رب العرش ما بقى الدهر

ولما اجزل الله تعالى بكمال صحة مولانا الامام امير المؤمنين ايده الله وصالح بدنه
ومزاجه وعوده الى احسن قوامه واعتداله ودفع الله تعالى الخطب بما رفع عن ذاته
المشرفة صان الله تعالى جوهرها النفيس من الآلام وعوارض الاسقام وجعل في ذلك
سبحانه عصمة للاسلام جنة واقية لامة نبيه عليه السلام انتب الملامن اكابر الدولة واهل
الحل والعقد الذي يقتدى بانارهم ويهتدى في الاراء الصالحة بمنارهم واجتمعوا على رفع
رسائلهم وتوجيه رغباتهم الى مولانا الامام امير المؤمنين ايده الله في النظر للامة بتعيين
امام يصرف اليه عهده وينصبه خليفة للاسلام بعده وكان اشداهم على هذا الامر حرصاً
واخلصهم فيه الى الله نية واصدقهم عزيمة الشيخ المسن الصدر الكبير المعمر بقية
اصحاب الامام * رضى الله عنه القائد ابو محمد مومن بن غازي العمري تقدم الى امير
المؤمنين لاول ما برز للناس من قصره غب مرضه فمثل يومنا بين يديه واكب على قدمه
الشريفة لاثماً ومستعبداً وقال له وقد تجرد من ثوب الريا وا طرح رداء المداينة ولبس
حلة النصيح لله ولرسوله ولائمة المسلمين وقال ايده الله مولانا امير المؤمنين اننا معشر
الامة مسائلك ومطالبوك عند الله بحقنا عليك في النظر لنا بمن يحفظ كلمتنا ويصون
عن الافتراق جماعتنا وقد كان ابوك الامام رضى الله عنه لما بدا وتهم لم يقبضه الله اليه
حتى عين من اخيك الغالب بالله اماماً يرجع اليه فاتبعناه وأطعناه فحفظ النظام وحميت
بيضة الاسلام ثم عين أخوك ابنه فرجعنا اليه حتى اداله الله بغيره فجاء باخيك المعتصم

ص 27

وبك ردا له فخلع عليك عهده ونصبك لئلا خير امام بعده فاطعنك واتبعناك فكنت
الكافي الكافل والامام الكامل وان مع اليوم غدا فلن تكل امر الامة بعدك وما علوك
في ترك الناس هدى ولم تنصب عليهم اماما يرجعون اليه وخليفة تدور امورهم من بعدك
عليه ثم قال له وهذا ابنك يفرى الفرى ويرمى الى كل غرض فيصيب شاكلة الرمية
يشير الى كبير ولده الجارى على هديه والمقتدى بصالح علمه ومشكور سعيه المولى الامير
الهامم ابي عبد الله محمد الشيخ المامون وسماه له باسمه ورغبه ان يشد به اركان
المة ويخلع عليه امر الامة لكونه مستودع آياته الصادقة وصاحب علاماته الناطقة وبقي
امير المؤمنين ايده الله يستخير الله في ذلك ويسأل منه الالهام والتوفيق لما فيه صلاح
الامة الى أن تلاحق وفد فاس من علمائها واشرافها وأهل الحل والعقد من أهلها وقد
اهمهم أيضا ما هم الملامن أهل الحضرة من حفظ نظام الكلمة وصون الجماعة وتشديد
اركان اللة بمن يحمي ذمارها ويحوط بعد الامام بيضتها فتقدموا الى أمير المؤمنين
ونور الله يسعى بين ايديهم فتطارحوا على فضله أيده الله في اسعافهم الى هذا الامر
الذي اهمهم شأنه وخاضوا القفار الى بابه العالى من أجله والقوا اليه اضطرار الامة الى
من يلم بعده شعنتها ويحفظ نظامها ويصون عن الافتراق جماعتها ثم اصفقوا في ذلك على
اختيار كبير ولده ومن أجمع الناس على فضله من بعده المولى الامير ابي عبد الله محمد
الشيخ المامون لما علموا من أهليته وتحققوا من افضليته فلم تزل رغباتهم الى امير
المؤمنين ممتدة حتى اسعفوا الى قصدهم الجميل وقد ذكروا منه أيده الله من لم يكن
ناسيا ونهوا ساهيا فجمع أهل الحل والعقد من سائر الاجناد فعهد فيهم بأمره الى ولده
المولى الامير ابي عبد الله محمد الشيخ وأخذ له البيعة عليهم فأعطوها طواعية باصفاق
منهم واجماع من خاصتهم * وجمهورهم وأعطوا عليها صفقة ايمانهم طائعين ومتبرعين
وفرحين ومقتبطين وكان ذلك في يوم الاثنين ليلتين خلتا من شعبان العام فاطمان الناس
بذلك وسكنت نفوسهم واستمرت الاحوال على ذلك الى ان جدد امير المؤمنين أيده الله
هذا العهد وأكده لولده لما ادرك بنوه الصغار فأخذ له عليهم وعلى الناس البيعة ثانيا
بالملتقى المبارك الذى جمع الاحمر والاسود بتامسنا عام ثلاثة وتسعين حسبا ياتى
التعريف بذلك ان شاء الله في محله .

ص 28

ذكر مفر داوود بن المولى الامير عبد المومن من الحضرة وخروجه
بالسوس وتجهيز العساكر اليه وما كان من خروج الامام اثرهم
وعسكرته بقم تانوت الى أن جاء الفتح

كان الأمير داوود هذا ممن تزايد من البنين للمولى عبد المومن بن المهدي الامام بمسقط، اعتراه من تلمسان وهلك فتركه هو وأخوه عمر الكبير كان منهما في كفالة عمهما المولى عبد الملك المعتصم واصحبهما ركابه الى المغرب فمات عمر لاول خلافة عمه المعتصم وبقي داوود تحت كفالته الى أن زحف من الحضرة في العساكر لغزاة وادي المخازن منذ خروج الطاغية فجهزه في حصنة من الجيش وسائر مطوعة الحضرة الى دكالة لمقابلة ولد المتوكل ومن معه من المشركين بالبريجة (1) وسرح معه القائد ابا الفضل القرى الاندلسي المتقدم الذكر عند تكبته هو وقومه فأقاموا هناك الى أن صنع الله على يد أمير المؤمنين من الفتح ما صنع وهلك المعتصم فصار اليه الملك والخلافة فبعث عن داوود لاول أمره من مشهد الفتح وسرح اليه القائد أبا عبد الله محمد بن إبراهيم بن بجة يستقدمه من دكالة فوفد عليه بفاس مرجعه من الغزو ولقاه برا وترحبيا وعقد له على مكناسة محل امارة ابيه المولى عبد المومن ولما فرغ من ابرام الامور بفاس حلا وعقدا وتثقيف جهاتها وأطرافها والولاية على ممالكها وأعمالها واعتزم على المسير لمراكش دار الخلافة أجمع أمره على استصحابه معه للحضرة حذارا مما تفرس فيه من الشواهد وتوسم في أمره من المخايل التي اسفرت عنها العاقبة ولما قارن ذلك أيضا من اعتلال الدولة ومرضاها منذ خلافة المعتصم بتغلب الجيش واستطالة يد عدوانه وزبونه واضطراب أحوال المغرب وتوقى لذلك ما ينشأ عن بقاء داوود وراءه وحذر مغبته فرأى جلبه ومقامه لديه أحوط على الكلمة فعمل به مقتضى الحزم الذي من شيمته واصحبه ركابه بخاصة نفسه واستبقى مكناسة بدمته وترك بها عماله وولات الامر بها من قبله لتمشية اوامره فيها واحكامه وأخفى عنه وجه التقية موريا * بأنه يحتاجه للنيابة عنه في قود العساكر الى السوس والقيام بتمهيدته وتلويخ اقطاره على علمه بأنه يضعف عن ذلك كاهل اقتداره وعن النهوض بأعبائه وانما يسر له حسوا في ارتقاء ولما احتل أمير المؤمنين أيده الله بمراكش انزله من قصودهم بسداده المظلة على اساراك المخصوصة من قبل الخلافة بسكناه ايثارا ومحابة ثم مهد له اكناف العز وبسط له أوطية القبول والاحتفاء وجرى في مصانعته ومحاباته بكل ما يسع من وجوه البر وحسن الايثار الى أبعد ورجاء أن يستخلصه ويستل سخائمه فلم تنسل واتصلت به الشرذمة التي سطى أمير المؤمنين في خبر نذكره من أصحاب المعتصم فظهروا له الميل الى جانبه ومثوا اليه باسباب الانتماء الى حزب عمه المعتصم وجعلوا يوسوسون اليه ويبشون في آذانه الا لاقى بما كانوا مرضى القلوب على

ص 29

(1) انزل الملك البرتغالي دون سباستيان المولى الشيخ بن المتوكل في حصن البريجة (الجديدة) رهينة الى أن تنتهي المعركة ، وبعد انهزام البرتغاليين في وادي المخازن نقل لشيخ الى لشبونة التي استقر بها لاجئا سياسيا .

الدولة وصادقوا منه قلبا خليا وفؤادا شجيا فتكمنت منه وساوسهم واسودت نكثتها في قلبه فانطوى على النكث حتى اذا سمع ما عزم عليه امير المؤمنين بالعهد بالخلافة لابنه الاحق بمنصبها المولى الامير الهمام ابي عبد الله محمد الشيخ المامون بتقديم رغبات أهل الجبل والعقد كما مر وأخذ له البيعة على الناس أسفه ذلك وحرك من احنه ونفس على ابن عمه ولاية العهد واغتمم ذلك سماسرة الفتن فخطبوا لنار موجودته فازدادت لهبا ونزع من حينه عن الحضرة الى جبال سكساوة المطل من درن وأوعز اليهم أمير المؤمنين بالقبض عليه ودس اليهم بذلك وتوعدهم عليه فنفظن لذلك داوود وفر بنفسه فلحق بالسوس ونزل على المنحرفين عن الطاعة من أهله فاجتمعوا اليه ثم صرخ في سائر القبائل بالخلاف والعصيان وكان عهدهم بالطاعة حديثا لم ترسخ فيهم قواعدها كل الرسوخ فلبوا لذلك داعيته واعلنوا بالعصيان وتواطئوا على الشقاق كافة فتعاونت ذبايهم على رأس كل يفاع واضطرم بذلك السوس نارا وورى فيه زئد الشيرفى سائر البقاع فاعتزم امير المؤمنين حينئذ على استيناف الاهبة وتجهيز العساكر ثانيا لحسم أدواء الفساد واستيصال الخوارج ومنازلة داوود فى معصيته فبعث عن العساكر المجمرة ببلاد سجنانه من السوس مع خاله والحاجب وابى عبد الله محمد بن موسى فوصلوا الى الحضرة وخلا بذلك الجو لداوود فاغتمم الفرصة فى الاجلاب على درعة (1) فى فصل الشتاء وانقطاع الثنايا المفضية اليها من الحضرة على الفائجة بما تراكم فيها من الثلج واذن فى الخوارج ببلاد السوس بالمسير اليها واعذ نحوها فى جموع من اوباشهم وبلغ الخبر الى امير المؤمنين فصرح اليه عسكرا من الحضرة واوعز الى القبائل بتمهيد المجازلة على ثنية الكلاوى وسابقوه اليها فشردوه عنها فرجع الى السوس مقلولا ثم انصرم فصل الشتاء واحتفل امير المؤمنين فى الاهبة * وخرج من عساكر الحضرة جيشا عرمرما يحمل الاسل والنار وعقد عليه للزعيم الشهم القائد أبى عبد الله محمد بن ابراهيم بن بجة احد رجال دولته وأوناد مملكته وفحل العصابة التى فخر الهجرة (2) وسوابق الخدمة السالفة ودفعه الى حرب داوود واستيصال الخوارج فنهض فى الاولوية

ص 30

(1) كان داود بن عبد المؤمن يسمى الى الوصول الى درعة والصحراء الغربية الشرقية من أجل الاتصال بالأتراك فى الجزائر ، ومن الوثائق النادرة التى تلقى ضوئا على هذه الثورة رسالة موجهة من رمضان باشا حاكم الجزائر الى داود بتاريخ اواخر ربيع الاول 988/ماى 1580 وقد جاء فيها (ولما عزمنا الآن قدومنا الى مدينة تلمسان فاول ما سألنا عن احوالكم واين استقر مقامكم لكى ننشؤوا معكم عهدا تقدم لنا مع اسلافكم فبعثنا لكم هذا المکتوب لعلكم تعلموننا فى جوابكم لنا بما عندكم من مامول ومرغوب .. فلا تقيبوا عنا شيئا من مقاصدكم السنية)

سيمانكاس باسبانيا (Simancas) رقم الوثيقة 114 L E
ويوجد نص الرسالة فى ملحق أطروحة الدكتوراه عصر المولى أحمد المنصور الذهبي ص 449 .
(2) يقصد بالهجرة خروج المولى أحمد من المغرب الى الجزائر جلائا عندما تولى ابن أخيه المتوكل الحكم بعد وفاة الغالب بالله ، خوفا من أن يبطش به .

والعساكر من مراكز في تاريخ (1) ثم خرج امير المؤمنين اثرهم من الحضرة في اجناده الامامية منتصف صفر من عام ثمانية وثمانين وتلوم بساحة الحضرة اياما وسار الى شوشاوة واراح بها شهرا او يزيد ثم انتقل الى ايمى اتانوت وهو باب الطود الاعظم المفضى الى القصر السوسى فاقام هنالك فى جنوده مطلا على سائر المملكة اقطار من مرقبته ومشارفا لاحوال عساكره ولما اشرف القائد ابو عبد الله محمد بن ابراهيم بالعساكر على السوس اعتمد داوود برأس الوادى وصمم اليه فاجفل امامه وتواعد الى جبل هوالة فاعتصم بذروته واوعز امير المؤمنين الى أبى عبد الله باقتحامه فى معتصمه وكان اتخذ عليه اسدادا من الحجارة والصخور وثابتت جموع من الفوغاء واحزاب من الخوارج واستعملوا للدفاع فزحف اليهم القائد ابو عبد الله وقد جمعوا له فاقتمع عليهم الجبل والحج عليهم بالقتال فعضتهم ناب الحرب وفض جموعهم فاستولى على معقلهم ومحل اعتصامهم واجفل داوود يولى الى وادى هرغة عصابة الامام المهدي القائم بدعوة الموحدين ثم جهز امير المؤمنين من معسكر بفم تانوت عساكر أخرى من الرامحة والنار وعقد عليها لمولاه القائد ابى على منصور بن عبد الرحمن وسرحه لاعتراض داوود فصمد اليه على جهة بلاد جطيوة وأهرقته العساكر التى الى نظر القائد ابى عبد الله محمد بن ابراهيم بن بجة وزحفت اليه الاجناد من كل جانب فطلب منجاةه واجفل الى القفر برأس طمرة ولجام فتزل على عرب الوداية وبقي يتقلب فى احيائهم حتى اغتيل وهلك فى الغابرين فلم تبكه عين ثم جالت الكتائب والعساكر فى ممالك السوس وانبسطت فى جهاته ومرت تنقرى جباله وأوطانه ارضا ارضا وقطرا قطرا حتى دوخت القصى واستنزلت من صياصيه العصى وحسنت ادواء الفساد واستأصلت شافة الخوارج ومحت اثار الثوار فخفت فى عرض السوس وطوله الى هلم اصواتهم وسكن ارجافهم واتحت عليهم الدولة بكلها فالقت الطاعة بحيرانها وجاء خبر الفتح الى امير المؤمنين ايده الله بمعسكره المبارك من فم تانوت وأوقد عليه القائد ابو عبد الله ابن ابراهيم وفدا من الخوارج ومشيختهم المنغمسين فى العصيان منذ اعوام خاضعين وتائبين ومستأمنين فامنهم امير المؤمنين ووسعهم صفحه وعفى عفوه على جرائمهم فحسنت طاعتهم وخلصت انابتهم واستقامت احوال السوس وتخللت الطاعة والعافية ممالكه قاطبة فدرت * بذلك ضروع جبايتها وقسمها امير المؤمنين بين الزعيم أبى عبد الله ومولاه أبى على شطرين فبث كل منهما العمال فى جهته لاقتضاء خراجها فسأل

ص 31

(1) من سياق الكلام يبدو أن خروج القوات العسكرية كان فى مطلع صفر 988/ابريل 1580 وفى الاصل يوجد بياض .

عليهما من ذلك بحر لا ساحل له وقفوا الى الابواب عند استيفاء سائر تلك الوضائع والمغارم فوصلوا متفاوتين واستاق كلاهما بين يديه غيرا من الذهب والفضة واحمالا من المال تفوت التقدير لم يأت جلبها من من هذا القطر فيما علمنا لدولة من دول الاسلام بالمغرب لتناصر صولتها عن تدويخه والاستبلاغ في تمهيده فكان ذلك من دلائل القدرة لعله الدولة الكريمة الامامية على صلابه عودها وقوة عصاها التي لا يستقل من خبطها كل من علت مفرقه ولله الحول والقوة لا اله الا هو ولما كمل الفتح وانتالت على معسكر امير المؤمنين وفود القبائل وهرعوا الى بابه والولوج في طاعته افواجا حتى اجتمع منهم خلق كبير غصت بهم محلاته السعيدة على اتساع معسكرها فسرحهم الى حضرته ثم تلتهم وفود اخرى يقدمهم رؤساء الخوارج وكبار الثوار الذين تولوا كسر ذلك الشقاق واداروا بيد اعتياصهم رحي تلك الفتن موسى بن علي كبير قومه هوزالة وقرينه المساهم كان له في الثورة وتخريب الاحزاب واضرام نار الشر وتحريك اسباب الفساد والدعاء الى الخلاف محمد بن ابراهيم الزودتى كان اوفد اخاه وابنه اولا على باب امير المؤمنين ثم قدم بنفسه اخيرا الى اقبالها من رؤساء الخوارج واعيان القبائل فكان ورودهم هؤلاء الثوار خاتمة الفتح والعلامة الكبرى على التمهيد والاستقامة ازمع امير المؤمنين ايله الله حينئذ القفول الى الحضرة فقوض الركاب ورجع على غير الطريق التي اتى منها فارتحل مع السفح ونزل على القاهرة وواصل الترحال حتى احتل بالحضرة ميمون السفر مظفر اللواء فاستقر بها على مهاد الغبطة الى أن كان ما نذكر ان شاء الله .

ذكر خروج امير المؤمنين وعسكرته بتانسيقت وما كان من مبايعة الناس
لولده المولى الامير ابى عبد الله محمد الشيخ المامون بالله هنالك
مصافحة

لما كانت البيعة التي اخذها امير المؤمنين لولده على الناس غد ابلاله من مرضه كما قدمنا قد انبرمت بالحضرة والمولى ابو عبد الله بفاس فلم يصفحه الناس بها مباشرة ولا اقتضيت منهم ايمانها مشاهدة وكان عهد الناس برؤيته ايضا قديما لمغيبه بفاس منذ سن الطفولة الى أن اقر هلاله السعيد ودوح غصنه الباسق رءا لذلك امير المؤمنين ان يأتى بتلك البيعة المباركة على اتم شروطها واكمل ربوطها وان يستقدم ولى عهده من فاس حتى يشهد الناس اهليته لمنصب الخلافة النبوية واولويته برتبته الشريفة بما يبلون من كماله وشريف خلاله فخرج لذلك من الحضرة * فى الثانى عشر من صفر عام تسعة وثمانين(1) واضطرب معسكره على شط نهر تانسيقت واوغز الى

ص 32

(1) يوم 12 صفر 989 هـ يوافق مارس 1580

ولى عهده بالقدوم وتلوم عليه حتى وصل غرة جمادى الثانية(1) من العام فى اجناد فاس وعساكرها وسائر اهل الحل والعقد الذين عليهم مدار الامور واليهم ترجع الخاصة والجمهور من علمائها واشرافها واعيانها ولما كان يوم وصول ركابه العالى وطلوع طلّاع السعد امام موكبه الزاخر العباب ركب امير المؤمنين ايده الله فى العساكر للقاءه تكرمة واجلالا وبرورا بمقدمه وبرزوا الى الصحراء خارج معسكره السعيد فوقف فى الاجناد واقبل المولى الامير ابو عبد الله فى كتابه وقد ملأت الرى والاباطح فى افخم زى واحسن ابهة واجمل شارة وانبرت الكتائب تتسرب للسلام على امير المؤمنين فوجا من بعد فوج حتى قضى جميعهم فرض التحية وتدافع المولى ابو عبد الله فى موكبه المتلاطم وقد تطلع من خلال الرايات كالكوكب الدرى ولما هوى الى الارض ساعيا على اقدامه الطاهرة لثم الركب العلى الامامى شرفه الله وقضاء فرض التحية راجلا برز امير المؤمنين ايده الله عن العساكر ووقفت بمركزها وتقدم وحده للقاءه مرحبا وشفيقا ومتبسطا حتى امكنه من لثم قدمه المشرفة وحنى متطائلا من صهوته على رأسه حتى قبله واستركبه الى جنبه وسارا معا فى الالوية والعساكر والارض تموج بالكتائب حتى نزلا بفسطاط جلوس امير المؤمنين ايده الله وارح المولى ابو عبد الله ريثما ضربت قبابه واستوعب مفسكره النزول لصق معسكر امير المؤمنين والده فركب اليه فكان ذلك اليوم أحد الايام المعدودة بما جمع الله من الاجناد وأظهر من عز الملة ووفور الحامية حضر جمعه العظيم رسول عظيم الملة النصرانية طاغية قشتالة بما كان ساعته بمراكش سفيرا الى حضرة امير المؤمنين من عند ملكه(2) فاستأذن المقام العلى الامامى ايده الله فى البروز يوم اللقاء لمشاهدة شعار الاسلام فاسعف الى ذلك وسار من الحضرة الى مخيم عساكر المسلمين ومجمع بحريها فشاهد من جنود الله وشدة شوكة الدين ووفور حامية الملة وضخامة عساكر الاسلام وابهته وجموعه المذكورة بالحشر سوادا ودويا ما لم يشاهده قط فى ارضهم ولا عدل ببعضه جموع ملتهم وطواغيت اخابهم فراح بما هاله واذله ولله الحمد على اعلاء كلمته واعزاز ملته ولايام من مبلغ المولى الامير ابى عبد الله جمع امير المؤمنين ارباب الدولة واهل الحل والعقد وسائر الاجناد والعساكر وجلس لهم المولى ابو عبد الله بخيمة امير المؤمنين العظمى فازدحم الناس على تقبيل يده ومصافحته بالبيعة واقتضيت منهم الايمان بمحضره فكمل الغرض من ذلك الجمع المبارك فثنى

(1) جمادى الثانية 989 يوافق يوليو 1580

(2) فى الوثائق التاريخية رسالة بعثها من مراكش الانكليزى Ralph Lane يذكر فيها بان ملك اسبانيا فيليب الثانى قد ارسل سفارة الى المنصور مع هدية خاصة وان الطرفين قد دخلا فى مفاوضة لعقد تحالف بينهما (دى كاسترى • بريطانيا ج 1 - ص 356) •

عنايه لدار الامارة بفاس قرير العين مثلج بما أوتى من ولاية العهد والخلافة وقفل امير المؤمنين لراكش منتصف جمادى الثانية فجرت الاحوال على ما تقر به عين الاسلام الى أن كان * من مسير امير المؤمنين أيده الله لفاس ما نذكر ان شاء الله تعالى ص 33

ذكر ارتحال أمير المؤمنين في العساكر لفاس ومقامه بها حولا كاملا وتفويضه لولي عهده في ولايته وما تدبره من الامور وأمضى من العزائم

كما قدمنا التعريف بما كان من مراسلة أمير المؤمنين لسلطان بلاد الروم والمشرق وإيفاد رسائله عليه في مشهد القتح الى القسطنطينية يخبره بما هيا الله من نصر دينه واعلاء كلمته والاستيلاء على أحزاب الشرك وطواغيت الكفر ونهبنا على ما كان من احتفال خاقان في الهدية وإيفاد ارساله بها على حضرة أمير المؤمنين وسدته الشريفة للتهنية بالفتح والخلافة فبلغ الارسال وأدوا حق الرسالة في التهنية وتقرير المودة والمبالغة فيما يؤكد أسباب الاتصال بين المملكتين وانقلبوا فتشوق خاقان الى مثلها من أمير المؤمنين فتناقل (1) عن ذلك لما شغله من تمهيد المملكة وقطع الشواغب عن الدولة واستيصال الخوارج عليها وحسم أدواء الفساد من أقطارها وارجا الامر في إيفاد ارساله على خاقان الى فراغه مما هو بصدده من ذلك ثم ان علوج على (2) وزير البحر كان عند بني عثمان وقائد أسطولهم لما كان حديث العهد بالكفر لتأخر اسلامه الى مجاوزة سن الاكتمال صار يستبطن لذلك عداوة للاسلام ويجاهر بها خصوصا لآبناء النبي عليه السلام الخلفاء الراشدين بالمغرب رضوان الله عليهم ويجزل قسطهم من ذلك بمقدار ما لهم من العراقة في الدين والهداية بالنشأة من طينة النبوة والتكون من معدن الرسالة فشمع بذلك لاثارة الوحشة والغیظة بين المملكتين واستيصال رحم الدين الجامع بينهما ليفت بذلك من عضد الملة باختلاف كلمة الاسلام واقتراق جماعة حزب الهدى ودبت لذلك عقارب سعائته على ما سلف من هديته وحرك منه بذلك النزعات الملوكية وزين له الانحدار للمغرب (3) في أسطولهم الذي ألقوا بيده زمامه

- (1) تفيد كلمة (تناقل) بأن المنصور قد تمعد عدم الاهتمام بالوفاء العثماني لعدة عوامل أهمها : هوفل الاتراك منه ساعة بيعته وتآمرهم مع بعض قادة الجيش للاتاحة بحكمه في الشهر الاول من توليته ، ثم الاتصالات التي كانت لهم مع داود بن عبد المؤمن علاوة على ايوائهم للامير اسماعيل بن العتصم في الجزائر ، فهذه العوامل باعنت بين المنصور والاتراك ودفعته الى التقرب من الاسبان
- (2) علوج على : من أسرى نصارى صقلية ، تربى في احضان القراصنة ووصل الى أعلى مرتبة في البحرية العثمانية ، ولاء السلطان على الجزائر في غشت 1568 (بكلربك الحريقية) ثم اصبح وزيرا للبحرية الى أن توفي سنة 1587
- وتهجم الفشتالي وزير المنصور على علوج على هوفي الواقع تعرضى غير مباشر بالاتراك العثمانيين ومواقفهم من الخلفاء السعديين بالمغرب .
- (3) هناك عوامل خارجية دفعت السلطان مراد الثالث الى التفكير في مهاجمة المغرب أهمها الهدنة التي عقدها الاتراك مع لاسبان يوم 7 يراير 1578 وفي سيمانكاس باسبانيا يوجد النص الكامل لهذه الهدنة Simancas E 489

توصلا الى ما يريد من كيد الاسلام بافتراق كلمته وتحريك أسباب العداوة والبغضاء بين المملكتين واستيما لما يحاول كان أيضا ويعتمل فيه من الاستبداد عند استواء قدمه بالجزائر قاعدة المغرب الاوسط اليوم واتصال يده بيد قومه من طواغيت الكفر وأحزاب الشرك المجاورين له ويدفع بذلك في صدر بني عثمان وأسدى في هذه المكيدة عند سلطانه وألحم حتى وجد منه أذنا صاغية وبرز له الاذن بتجهيز الاساطيل فشحنها بالحامية ولم يال جهدا في الاحتفال وأقلع فيها الى المغرب وكان أمير المؤمنين عندما اتصل به في مخيمه بجنوده على تانسيقت خبر اعتمال * علوج على هذا في شأن الحركة الى المغرب قصدا لتحبيب الكلمة وحطبا في حبل الكفر باستحداث الشقاق بين المسلمين وافتراق جماعتهم وبلغ اليه خبر اجتهاده في ذلك من قبل انحداره في الاساطيل بستة أشهر بادر أيده الله دفع مكيدته وأرهدف حده لنكايته فجهز العساكر مرجع ولى عهده لفاس من المجمع المبارك بتانسيقت وسرحهم الى بلاد الريف * ورتبهم بمسالح المغرب وثغوره وسرح الى بلاد الفحص كبير الدولة وصدر الخاصة القائد أبا اسحاق ابراهيم بن محمد السفيناني وكان قد وصل في ركاب ولى العهد الامير أبى عبد الله بما كان القائم بأمره ومثقا وأوامره واحكامه بفاس أيام صغره وقبل اقضاء العهد اليه فخيم في العساكر والاجناد بساحة العرائش (3) ودفع بذلك أمير المؤمنين في صدر على باشى وكان عند استقراغه أيده الله قبل ذلك من تمهيد المغرب وازالة الشواغب عن الدولة أوفد ارساله على القسطنطينية حضرة بنى عثمان وسرحهم اليها في السفن فلقبهم على باشى على ثيج البحر منحدره في الاسطول الى المغرب فحذر مغبة بلوغهم للابواب العثمانية وافساد النصبه عليه بالكشف عن مساوئه والادلال على عورته ومكايدته التي يسر بها حسوا في ارتقاء للاسلام وينصبها سلما الى هدم بناء الملة بمعاول غشه وخديعته ورام استرجاع الارسال جملة حذارا من سوء المغبة فتوقع سطوة السلطان في صدهم عن بابه ثم اعتمل في رد البعض لينقص من كيدهم ويفت في عضدهم فتجبر منهم لصحبته الى المغرب القائد أبا العباس احمد

ص 34

- (1) وصل علوج على الى الجزائر في شهر يونيو 1581 على رأس أسطول حربي يتكون من ستين قطعة حربية لغزو المغرب (دى كاسترى . فرنسا . ج 2 . ص 96) .
- (2) كان الدافع الاساسى لبعث القوات المسلحة الى شمال المغرب ، هو استراتيجية هذه المنطقة وسمى كل من الاتراك والاسبان لاحتلالها وتوسع فيها .
- (3) بعد وضع المنصور للقوات العسكرية بحسن الفتح بالعرائش ومحاولة خطة دفاعية ضد أى هجوم خارجى تركى أو اسبانى ، فليبيب الثانى ملك اسبانيا طالما سعى الى الاستيلاء على العرائش لتدعيم مركز القوات الاسبانية في شمال المغرب واعتمادا على المصادر المعاصرة فان المنصور كان يعنى فليبيب الثانى بالتخلل عن العرائش مقابل مساعدته العسكرية للمغرب ضد الاتراك (دى كاسترى فرنسا . ج 2 ص 96) .

ابن ودة بما توسم فيه من الدهاء بكبر السن ورد معه في سفن أمير المؤمنين وأسلم رفيقه الكاتب السري النبيل النبيه أبا العباس أحمد بن يحيى الهوزالي وأركبه في إحدى سفنه للقسطنطينية لتبليغ الرسالة استخفاً بأمره لصغر سنه وجهلاً منه بوفور عقله وصحة نبلة وذكائه فعكس عليه رحمة الله الأمر عندما وصل الأبواب العثمانية بما أبطل من كيده ونقض من تدبيره وانفصل ابن ودة عن علي باشي من الجزائر مرسى أساطيله ومحط رجال عساكره ووصل إلى سدة أمير المؤمنين يقص عليه القصص فشهروا أيده الله لتجهيز عساكره الهاشمية وكتائبه المظفرة الامامية فازاح عللها ويسر أسباب سفرها وارتحالها إلى تخوم المملكة لسد فروعها وحيطة ثغورها مخافة أن يفاجيء على بعضها على حين غفلة وأرصدت له العساكر على كل ثنية بالمغرب وجلست للوثبة على برائها وقد شهد أمير المؤمنين سيوفها وأرهف عزائمها على السطو به أن لو زلت به القدم ثم جاء الأمر على أثره بقوله في الاسطول والحامية إلى القسطنطينية على يد مبدى هناته ومبيد صفته الكاتب أبي العباس فانقلب من الجزائر خائب مسعى لشهر أو نحوه من مقامه بها * (1) ووصل أبو العباس إلى سدة أمير المؤمنين بمراكش فحمدت سفارته وجلت في أغراضها واستقبلت فيها أراؤه وأنجحت مساعيه فجلب ذلك بضبعه عند أمير المؤمنين ورقاه عند وصوله من القلم إلى السيف فجعله أولاً قائد مجلاته السعيدة في سفره الكائن غب وصوله لفاس ثم رقاها إلى قيادة القواد عند ولئ عهده المولى الأمير أبي عبد الله وأنزله معه بفاس ورمى به أغراض الخدمة ببابه فأصاب شاكلة الرمية واضطلع بما دفع الله فحمدت فيه سيرته وحسنت طريقته إلى أن طرقه حمامه وهلك عقى الله عنه عن سادس ذي حجة متم عام أربعة وتسعين وإلى الله المصير رجع ولما وصل أبو العباس وأنهى إلى أمير المؤمنين ارتجاع على في الاسطول من الجزائر وكانت الاجناد على قدم الالهة والاستعداد للسفر أجمع أمير المؤمنين المسير لفاس برسم تفقد أحوالها والنظر في ممالكها وأعمالها فخرج من مراكش أواخر شوال من عام تسعة وثمانين (2) واضطرب معسكره بباب اغمات وتلوم به أياماً ثم ارتحل أوائل ذي قعدة وسار يطوى المراحل حتى إذا اقترب ركباه العالي من فاس خرج ولئ عهده الأمير أبو عبد الله محمد الشيخ في أجنادها وعساكرها للقاءه فكان

(1) استسمى السلطان مراد الثالث علوج على وزير البحرية وحسن البندقى باشا الجزائر للتوجه إلى الشرق ، وكلفهما بالقضاء على بعض الثورات التي قامت ضد الحكم العثماني هناك ، وحسب اللشقال فقد غادر الجزائر خلال يوليوز أو غشت 1580م . على أن تراجع الاتراك عن غزو المغرب يرجع إلى التقارب القوى بين المغرب والاسبان مما يخشى معه تزايد النفوذ الاسباني في المغرب ، وإلى الحروب الدامية التي كانت تخوضها القوات التركية في إيران ضد الصفويين .

(2) شوال عام 989 يوافق شهر نوفمبر 1581 .

الملتقى المبارك على رأس الماء فجندت الجنود من الجهتين وغص بها الفضاء وكانت ارسال بنى عثمان ملوك القسطنطينية العظمى وارسال طاغية قشتالة حاضرين يومئذ لانتظارهم بفاس ورود أمير المؤمنين فأذن لهم فى ا لسلام يوم التقاء الجمعين فتقدمت منهم للسلام أولا ارسال بنى عثمان لمزية الاسلام وأوصلوا الى امير المؤمنين فى الموكب فقصوا فرض التحية ورجعوا الى موقفيهم ثم أوتى بارسال الطاغية فاقتفوا اثرهم وجروا على فعلهم ووقف الجمع حتى تماثلوا من النظر والاعتبار فى جنود الله وكتائب الاسلام وشاهدوا من ذلك ما سر المسلمين وأساء الكافرين ودخل للغد يوم الخميس الاولى من ذى حجة العام فى أضخم زى وأعظم أبهة ولما أراح أيده الله واطمأن به الاستقرار كان أول شىء قدمه من أعماله وبدأ به من مهماته وصرف اليه وجه عنايته وشريف همته بعض الزيادة مما يلي البحر فى الحصن العظيم الطائر الذكر من بنائه بالعرائش المعروف بحصن الفتح لاختطاطه عقب الفتح وبنائه من مقاومه وبسببه وافتتاح أمر الدولة بتشبيده فى سبيل البر والزلفى ثم نظر أيده الله فى تثقيف أطراف البلاد وادالة بعض ولايتها بمن انتصاه من قراب اختياره وعجم عوده بمسبار اختياره من رجاله الذين علم كفايتهم وحسن غنائمهم واضطلاعهم وبرزت التقاليد الشريفة فسرح كلا الى مكانه فتقف بهم الجهات وسد الثغور والمسالج واستوعب * ص 36 النظر فى أمور الرعايا وفى رفع الظلمات عنهم وبسط جناح عدله عليهم فرتعوا فى ظل معدته وناموا تحت افياء كفاله ثم نظر فى مخاطبة خاقان صاحب القسطنطينية السلطان مراد خان وايفاد ارساله عليه لما تقرر من سوابق اللفة والمهادات السالفة بينهما وبما كان السلطان مراد خان الاخير منهما فى اتعاف صاحبه بالهدية التى أنفذها مع الكاتب أبى العباس الهوزالى مرجعه من حضرته قسطنطينية الى الابواب العلية الامامية شرفها الله فانتقى أمير المؤمنين للوفادة عليه وحمل رسالته النبوية الكريمة اليه من يحسن الرئاسة ويعرب عما فى الضمائر ويدل على شرف مرسله فاعتما لذلك قاضى القضاة بحضرته المشمول بعنايته والمعدود فى خواص بساطه الكريم ومجلسه الشيخ العالم العلامة أبا القاسم بن على الشاطبى وربهم الناشئ فى ظل دولتهم الكريمة ومرعى نعمتها الحاج القائد أبا زيد عبد الرحمن بن منصور بن سعيد الشيفلمى المريدى فسرحهم أمير المؤمنين فى السفين وتلوم وراءهم بفاس ريثما انصرم فصل الشتاء وازينت الارض بزخرفها ابان الربيع فاضطرب معسكره بظهر الزاوية من ساحة فاس وخرج اليه فى جمادى الاولى من عام تسعين (1) ثم انتقل الى رأس الماء منبعث النهر المنصب لفاس اغترق فى ذلك البسيط من المغرب الى المشرق يشق فاس وتنقسم فيها خلجانه وجدوله المنتحلة لمنازلها ثم يجتمع عند انبعاثه من البلد ويصب على غلوة منها بوادى سبو الجارى مغربا من المشرق الى البحر الرومى فاتخذته أمير المؤمنين دار اقامته ستة أشهر

(1) جمادى الاولى عام 990 يوافق شهر يونيو 1592

وسنة أيام جهز فيها العساكر لفاس فسرّح منها أولا مولاه القائد أبا عبد الله حم بن بركة في جيش عرمرم من الاسل والنار الى بلاد الريف والهبط وجبال غمارة لاقتضاء خراجها وتجديد العهد فيها بقواعد الطاعة لاستيحاش طباع أهلها وسرعة استحالتهم فسارت العساكر في تلك الجهات مسير الشمس حتى استوعبوها سلوكا سهلا وجبالا واقتضى خراجها وبث فيها الطاعة فرست فيهم قواعدا ثم سرح داوود بن علي المزوار من طبقة العمال في حصة أخرى من الجيش الى قبائل أولاد حسين من العرب المعقل لانزعاج خيلهم لما اشتهر عنهم من قطع السبل والعبث في الاوطان فأرجلوا كافة واستقصيت خيلهم الذكران وجنبت كرادس فتفرقت الاجناد واوطأت الدولة أقدامها عرائنهم فنجعوا واستكانوا ثم امتلت عينه أيده الله الى اقليمى توات وتيكورارين وانبعشت عزائمه الماضية الى تجهيز العساكر لتدويخها وانتظامها في مملكته فشجد عزائمه لذلك وأجمع اغزاءها بجيوشه وتخير لقودها والزحف بها الى بلاد سجلماسة من بعد أبيه عمر بن الصدر الكبير * الراسخ القدم في الولايات والمناصب النبيلة عن الخلق القائد أبي عبد الله محمد بن عبد الله وانتقاء الامام أيده الله لذلك بما كان قطر سجلماسة محل ولايته مصاقبا للقطرين وركب العساكر اليهما وبعث عنه فوصل لبابه العالي بمحيمه من رأس الماء ففقد له هنالك على العساكر ونهض فيها من معسكر أمير المؤمنين بين يدي ارتحاله لراكش بلدى قلعة عام تسعين (١) ووصل الى سجلماسة فتناقل بها حتى انصرف فصل الربيع المعين للركاب على جوب القفر المعترض دون القطرين ثم ارتحل من بعد ذلك وعاج بالعساكر على فجيج وأقام عليها موريا باقتضاء خراجها وشق عليه الزحف لتوات فتلكى يلتمس الوليجة من دون ذلك الى أن تحقق أمير المؤمنين تقاعسه واحتجابه عن الزحف الى القطرين فسخطه وسرح اليه منصور بن علي ابن هطهوط من مواليه فتقبض عليه واقتاده الى الحضرة بين يديه مقيدا فتل الى محبسه حتى اقتضى منه ما أنفق من الاموال في أرزاق الجيش ومؤنة سفرهم ذاك وأوعز أيده الله للعساكر بالرجوع لما عزم على استيناف الالهة من اولها وتجهيز عساكر أخرى الى تلك البلاد حسبما تذكر ان شاء الله فوصلت لبابه وتلوم أيده الله ريثما أمضى هذا العزائم وفرغ من تجهيز العساكر وقفلت ارساله من القسطنطينة وكان من خبرهم انه لما وفدوا على القسطنطينة حضرة بنى عثمان وأدوا رسالتهم الى السلطان مراد خان اهتز سرورا من اعداده لمقدمهم ولقاها مبرة التكريم واختيار النزل والقرى ودار النعمة واستبلغ في اكرام وفادتهم بما أربى على الغاية وكان

ص 37

القاضي أبو القاسم صنع له كلاماً أعرب فيه عن حق الدولتين وأطرا فيه السلطان وقرر فضل أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة وحض على اتحاد كلمة الاسلام واستأذن في أملائه يوم السلام مقدمة بين يدي نجواه فأذن له وصدع به واقفاً بمحضر الوزراء فاهتز السلطان لذلك وحن اليه واستنبل فيه أحوال القاضي وحسن تطفه في الإبانة عن أغراضه واستدل بذلك على شرف مرسله وهمته في انتقاء أمثاله للسفارة عن أبوابه ووقف السلطان على قدم البر لرسالة الامام أمير المؤمنين واستبلغ في تعظيمه واجلاله والاشادة بشرف قدره وسمو مقامه بأن تولى جوابها بخط يده (1) فأعرب في ذلك بما لم يسمع قط عن ملك من ملوكهم الى ملك وعند ما تكاملت هذه الأغراض وانتظمت لمولانا الامام أمير المؤمنين أيده الله أجمع المسير لمراكش ففوض الى ولي عهده المولى الامير أبي عبد الله محمد الشيخ المأمون دامت سعادتته في أمور فاس وممالكها لايفاته على ثنية النجابة وسن الاستقلال وبما كان الخليفة * الامام طول مقامه على رأس الماء ص 38 بمحلاته السعيدة يجلسه لصق أريكته وحناء سريره أيام الديوان المتعاهدة لانتياح باب السلطان وتناول أمور الملك بالابرام والنقض والحل والعقد حتى حفظ السيرة وتملا من اصول السياسة وقواعد الملك وربما دفعه أمير المؤمنين خلال ذلك للنيابة عنه في المظالم والاحكام ابتلاء وترشيحاً آونة بمقعد سلطانه وأخرى بالانتصاب لها في فسطاطه هو وريوانه فيجلى في ذلك ويمضى قدما في مذاهب الاضافة وجرت الاحوال على ذلك طول مقام أمير المؤمنين على فاس حتى استنبل أغراضه فيما دفعه الله ووثق بكفايته وحسن اضطلاعاه وقرت عينه بصدق فراسته فيه للاسلام فرمى اليه حينئذ بمقاليده الامور بفاس وألقى في يده زمامها ودفعه الى تدبير الملك والسياسة بها وصرف نحوه وجوه جندها ورعاياها وأفرده بالنظر في ذلك وأطلقه من أسار الاشراف والمراقبة التي كانت عليه أيام صغره لكبير الدولة أبى اسحاق ابراهيم السفيناني وأرحله عنه أمير المؤمنين الى الحضرة وجعله قائد القواد وكبير الخاصة ببابه وعقد له على بلاد تدلا فاستناب بها من دونه الى أن عزله الامام عنها بابنه المولى الامير زيدان وأدال له بدمنات حسبما نذكر ان شاء الله تعالى عند قسمة الاعمال بين الامراء بين الخليفة الامام ولما كان يوم ارتحال أمير المؤمنين لمراكش خرج الفقهاء ومشايخ العلم والطلبة من المدينة وقرى البخارى سردا في المصحف بين يدي أمير المؤمنين على الرسم المتعارف في ذلك عند الخلفاء رضوان الله عليهم عند ارادة الاسفار وودع الناس وقوض الركاب

(1) يؤكد هذا ما أورده صاحب مخطوط (نصرة أهل الايمان بدولة آل عثمان) من أن السلطان مراد الثالث كان يحسن اللغة العربية . (نصرة أهل الايمان) مخطوط بدار الوثائق بالرباط رقم 527 وهو لمحمد البكري .

فثنى المولى الامير أبو عبد الله الشيخ عنانه لفاس محل امارته وأعمل المولى الامام الخليفة
أيده الله المطية لدار الخلافة مراکش فاحتل بها أواخر ذى حجة متم عام تسعين (1) ثم
كان من تجهيز العساكر على تفتة ذلك الى توات وتيكورارين على ما نذكر ان شاء الله
تعالى .

ثم وصل (2) عام تسعين (3) رسول صاحب مملكة برنوا من ملوك السودان وجلب
فى هديته ما جرت عادتهم أن يجلبوه فى مهاداتهم من فتيان العبيد والاماء المختلفة
الاسنان وكان من ذلك عدد كثير ناهز المئين وافى أمير المومنين المنصور أيده الله
بمعسكره على رأس الماء من ناحية فاس وكان يوم سلامه يوما مشهودا حسنا وفخامة وأبهة
وجلالة وجلس لهم أمير المومنين أفخم جلوس بالقتنين التوأمتين المضروبتين أمام السياج
المحيط بقباب الخلافة بأفراك واستوقف المولى والماليك * سماطين من التوأمتين الى القبة 17
العربية ثم منها الى فسطاط الجلوس المعروف بالديوان ثم منه الى باب المعسكر القبلى
فغودى بالرسول يخترق السماطين حتى أنزل بالديوان وكان الملا من أكابر الدولة وصدور
المملكة جلوسا به وكرسى الامامة وسرير الخلافة منصوب به واماط الامامة الكريمة
ممهدة وأوطيتها مبسوطة والمهابة قد أخرست اللسن وخشعت القلوبو الابصار فجلس
الرسول هنالك مليا ثم غودى به على سبيل الترقى الى القبة العربية فتلبث بها ريثما
جاء الاذن الكريم بايصاله الى مقر الامامة الكريمة العلية أعلى الله منارها وخلع على
أقطار الارضين أشعتها الساطعة وأنوارها الباهرة فغودى به الى التوأمتين فمثل بين
يدى أمير المومنين وشرف النظر الى طلعتة السعيدة والاقتباس من أنوارها النبوية
فادى الرسالة وقضى فرض التهنية وسنة الهدية وأعرب عن مقاصد مرسله فى الاعتراف
للامامة الكريمة الى معسكر ولى عهد الخلافة العلية وسليل الامامة النبوية تاج الاسلام
وكافل الامة ان شاء الله من بعد الامام المولى الامير أبى عبد الله محمد الشيخ وكان لصق
معسكر أمير المومنين والده أيده الله وأدام للاسلام ظلهم الوارف فأشرف الرسول على
دنيا أخرى وأبهة مدهشة ومثابة هائلة فوقف فوق موقف الحيرة واستدرج الى أن وصل
لولى العهد وقد قعد له بقسطاط جلوسه أفخم قعود فحى وفدى وهنى وانصرف الى
موضع منزله ودار كرامته بالقصبة من فاس البلد القديم فاستدر عليه من النعم ما لم يكن
له فى حساب وكان من أغراض الرسالة التى التى أنفله فيها سلطانه طلب المدد من أمير
المومنين بالعساكر والاجناد وعدة البندق ومدافع النار لمجاهدة من يليهم زعموا بقاصية

(1) حجة عام 990 هـ يوافق يناير 1583

(2) الانتقال الى صفحة 16 .

(3) استقبال المنصور سفارة برنو بضواحي فاس عام 990 هـ / 1582 وذلك اثناء زيارته الاولى لمدينة فاس .

السودان من الكفار (1) وكان قد أوفد من قبل ذلك رسوله هذا على سلطان بلاد الروم
والشرق ووصل الى حضرته بالقسطنطينية يسأل منه الامداد بما طلب فأخفق لديه مسعاه
ورده خائباً فأوفده اذ ذاك على أمير المؤمنين يشجده منه أجناده الامامية بالمغرب ثم لما
عرض كتابه على أمير المؤمنين اتفق أن وقع بينه وبين كلام الرسول اختلاف بين وتباين
واضح فكان الذي دل عليه الكتاب خلاف ما دل عليه كلام الرسول جر اليهم ذلك توغلهم
في الجهل والغباوة وعدم من يحسن الاعراب عن مقاصدهم والابانة عن أغراضهم من قرسان
الانشاء والكتابة لطموس معالم العلوم على الجملة ببلادهم وقارن ذلك ما كان من احتفال
أمير المؤمنين وعزمه من قبل مجيء الرسول على تجهيز العساكر التي أنفذها كان عامداً
الى تدويخ بلاد توات * وتيكورارين وأمل أن يجعلها ركاباً الى استفتاح أقطار السودان
والاستيلاء على ممالكهم التي أوطاها من بعد ذلك عساكره وصارت في ممالك المالى عظيم
السودان الى أن وردن بحر النيل على مائة مرحلة حسبما يأتى التعريف بذلك ان شاء
الله في محله وصمم الى ذلك أيده الله عزمه وجعل أمره قصده وهمه لما يعلم لنفسه من
كمال القدرة عليه بما لاح له من شواهد التأييد الربانى والظهور وتضافر لديه من
دلائل السعادة والاقبال وتوفر له من عز السلطان وقوة العساكر والاجناد وانتظام
الممالك ورسوخ الدعوة واتصال الكلمة فى أقطار المغرب فاغتنم لذلك اختلاف الرسول
والرسالة وبني عليه فاعتل به على صاحب برنوا ورجع اليه رسوله وكافاه معه بهدية
من عتاق الخيل وخلعة شرفه منها بالملابس النبوية ولما وصل الرسول وألقى المعصرة
الى سلطانه استأنف الهدية وأعرب اذ ذاك عن قصده ومراده ورد الرسول ثانية الى
الابواب العلية المشرفة فوافى أمير المؤمنين بحضرته العلية مراکش دار الخلافة فآزاح
اللبس وبين الغرض فصعد لهم أمير المؤمنين حينئذ أيده الله بكلمة الحق والدعاء الى التي
هى أقوم وطالبهم بالمبايعة له والدخول فى دعوته المباركة النبوية التى أوجب الله عليهم
وعلى جميع العباد واقطار البلاد الانقياد لكلمتها المؤسسة على تقوى من الله ورضوان
المبينة على أساس الشرع وأوثق قواعد الايمان وقرر لهم بلسان السنة الناطق بين
الكتاب المنزل على جده الصادق المصدق عليه أفضل الصلاة وأزكى التحية أن الجهاد
الذى ينتحلونه ويظهرون الميل اليه والرغبة فيه لا يتم لهم فرصة ولا يكتب عمله ما لم
يستندوا فى أمرهم الى اذن من امام الجماعة الذى اختص الله اليوم أمير المؤمنين أيده الله
بوصفه الشريف وصرف اليه بذلك كقالة الامة ووراثة الارض وثرات النبوة والرسالة

(1) يعتبر الخلاف الذى حصل بين الامارتين المسلمتين السودائيتين برنو وكاغو بسبب تضارب النفوذ
والمصالح فى بلاد الهوسا الفاصلة بينهما من أهم البواعث التى دفعت الامير ادريس الثالث الى طلب
المساعدة العسكرية من المتصور.

وفلده بها حماية بيضة الاسلام لما اختصه به تعالى من شرف الشرف وأتاه من كمال الكمال وفضله على جميع أولى الامر والسلاطين من ملوك الارض بالنسب الفرشى الذى هو شرط فى الخلافة باجماع من علماء الاسلام وإيمة السنة الاعلام وورثة الانبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام وألزمهم أيده الله القيام فى أقطارهم بدعوته ومجاهدة أعدائهم الكفار بكلمته وعلق لهم أيده الله الامداد على الوفاء بهذا الشرط فالتزمه الرسول وزعم ايضا عن سلطانه بالقبول والاجابة فودع وانصرف وما لبث أن رجع سلطانه ثالثة وحمله الهدية والرسالة وخاض القفار لدار الخلافة فوصل الى تيكورارين ثم اعترضته هناك منيته فاعتل وهلك واشخص أولو الامر بتيكورارين الهدية صعبة رفقاء الرسول قد حمل معه فى الرجعة الثانية من الابواب العلوية الى بلاده نسخة البيعة الكريمة التى * شارطهم عليه امير المؤمنين بما كان سال كتبها واستصحبها معه ص 19 مخافة الاخلال ببعض شروطها لما قدمنا من غلبة العجمة والجهالة على القوم وكانت من انشاء مؤلف الكتاب ونصها الحمد لله الذى رفع لكلمة الحق منارا يسامت فى مطالعها الكواكب والنجوم وازاح بها عن شمس الهداية المنيرة غياهب الغباوة المدلهمة وسحاب الغواية المركوم وحى على الفلاح بها داعى التوفيق الذى نشر للنجاح كتابه الموقوت واستنجز للسعادة اجلها المعلوم وشرف هذا الوجود والعالم الموجود بالخلافة النبوية والامامة الحسنة العلوية التى صرفت الوجوه الى قبلتها المشروعة واستبان الحق التبليج الصباح فى مبايعتها والانقياد لدعوتها المسموعة وكلمتها المتبوعة ونسخ بدولتها الفراء دول الحيف التى هى بسيف النبوة المصلوت مقطوعة وبلسان السنة مدفوعة وقوض بها مبانى الادعاء التى هى على غير أساس الشرع الصحيح مرفوعة وفرق بكلمتها المجموعة على التوحيد فرق التثليث التى هى على مشاقة الله ورسوله متابعة ومجموعة وخلع بظهورها على المطاف الحنيفية السمحاء رداء العز الفضفاض واستل بتأييدها للدين المحمدى سيف الانفة والحمية والامتعاظ وشار للاعادى من بأسها المروع الحية النضناض وقجر للمؤمنين ينبوع رحمتها التجارى على حصى عدلها الرضراض ومهد بسيوفها المنتضات الافاق والاقطار تمهيدا ازال عن حكمه الاعتراض وجلى بانوارها النبوية المتألقة سدف الجهالة التى ادلهم جوها وغيم واسعد الوجود بيمينها الذى لبث فى اكناف مجدها وخيم وقضى لها بتوارث الارض ومن عليها ان شاء الله الى عيسى بن مريم والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد الذى تعاظدت البراهين القاطعة على صلق رسالته البارة ونهج للدين القويم طريق الحق المثل وجادته الشارعة وسوغ لمن آمن به مناهل الهدى النيرة الزلال وموارده العذب ومشارعة وانتقى لعز الملة السيوف

القارعة لطلا الشرك والضلال وما ادراك ما القارعة واطلع لشرائع الاسلام شموسا
لاتزال انوارها فى سماء الايمان به ساطعة. نبى الرحمة ونبعة الخلافة النبوية التى
بسقت بالمجد والعلى افنانها وازهرت بالنعمى الدانية القطاف اغصانها اليانعة وجرثومة
الامامة العلوية التى هى لراية سنته الخافقة تابعة وعلى موطنه فى الاقوال والافعال واقعة
وعلى حذوه فى كل حالة من الامور واضعة وعلى آله بدور العلى السافرة وشموس الهدى
الباهرة وسيوف العد الباترة واسود الشرى القاهرة ومركز الشرف الاصيل ونقطة دارته
الدائرة واصحابه ليوث المخافر وحزب الله الوافر وحتف * الفاجر والكافر وجيش 20
التصرة الظافر وانصار الملة الموصولة الاواصر وحماة الدين السيوف البواتر واعلام الدين
الذين سيدوا بمناقبهم البوادى والجواضر والدعاء لمولانا الامام الخليفة امير المؤمنين
ابن مولانا امير المؤمنين نجل سيد المرسلين وخاتم النبيئين وسليل الوصى والسبطين
وفخر الخلفاء الاولين والآخرين المفترض طاعته على الخلق اجمعين بنصر يتخلل به
امره المشروع وحكمه المسموع زوايا المعمور وتعقد به راية الفتوحات على قناة العدل
الذى تدور عليها الامور ويعشوا الى نور سراجها الوهاج الخاصة والجمهور وفخر يتحلى
به اجياد المنابر والاسرة وظهر تعمر به البشائر والتهانى سوق المسرة وتطرد به
لصنع الله الجميل العوائد المستمرة وسعد رائق الحجول والغرة واقبال لا تزال مباسم
الزمان عن سنه مفترة وفضله وكرمه وطوله وبعد فانه لما اذن الله فى ليل الجهالة ان
ينجاب وفى شمس الحق الوهاجة ان يرتفع عنها الحجاب وفى العز الخلق الجلباب ان
ان يعود الى الشباب وفى النجاح والاستقامة ان يفتح لهما باب وفى الامارة ان تستند
الى السنة والكتاب وتتعلق من الشرع باسباب تدارك الله سبحانه الوجود واعز
العالم الوجود استطارت الانوار المضيئة للاغوار والنجود بطلوع شمس الخلافة
النبوية والامامة الهاشمية العلوية ففاضت على اديم البسيطة انوارها وارتفع الى حيث
السهى والفرقد منارها وتبلج بالاصباح نهارها ولاحت فى سماء المجد بلورها واقمارها
وكابرت شهب السماء اتباعها وانصارها وانتشرت فى الآفاق والاقطار على البعد
والقرب آثارها وهزت عطف الزمان انتشاء مناقبها الشريفة واخبارها وفض لبركتها
على اكناف المعمور يمها الزاخر وتيارها خلافة ينتمى الى النبوة عنصرها وتستنبط من
رسالة الوحي اسطرها ويناط بعروتها الوثقى دسترها وامامة على وليها والله
نصيرها والسببط بدرها الذى حياه منبرها وسريرها والحمد لله الذى اصطفى من هذه
الروضة النبوية السماء والشجرة الطيبة الهاشمية العلوية التى اصلها ثابت وفرعها
فى السماء اماما القى له فى القلوب حبا جميلا وولاء جعله على مرضاته سبحانه علامة
ودليلا وخليفة استرعاه فكان يحسن الرعى لخلقه وعباده كفيلا وانتضى من بأسه

وبسائطه لحماية حمى الشريعة حساما صقيلا مولانا امير المؤمنين وخليفة الله فى الارضين وسليل خاتم النبيين ووارث الانبياء والمرسلين المفترضة طاعته على الخلق اجمعين والممنون بامامته المقدسة على العالمين بحر الندى والبأس وعصمة الله للناس وشهاب اليوم الخماس امير المؤمنين المنصور بالله مولانا ابا العباس صلوات الله عليه وعلى آله الخلفاء * الراشدين والائمة الطيبين الطاهرين وطيب بانفاس المغفرة لحدودهم

ص 21 اجمعين امام تهتز لذكره اعطاف المنابر وتتقلد من شريف دعوته ابهى من نفيس الجواهر وتستضىء البلاد باكليل شرفه الزاهر وتسكن العباد تحت ظل رحمته الوارف الوافر ابقى الله ايامه الغر بقاء يستصحب النصر دوامه وخلد له ولاعقابه هذا الامر الكريم الى يوم القيامة ولما طلعت ايدى الله على هذه الاصقاع الزنجية طلائع امامته النبوية وخلافته ولاحت فى سمئها شهب مناقبه المنيفة الدالة على فخامة شرفه وناقته وتليت لمجده الآيات المبينات التى تشهد له بثرات الرسالة وتقضى له على الاسلام وعلى الانام بحكم الولاء والكفالة واوضح الله سبحانه للناس من اعتقاد وجوب طاعته والاعتقاد بامامته والانقياد لدعوته وتقليد بيعته ما جاء به كتابه الحكيم ووردت به سنة نبيه الكريم كما قال عليه السلام لاتزال فى قريش ما بقى منهم اثنان وكما ورد فى صحيح الخبر ان الخلافة فى قريش والقضاء فى الانصار وفى الحبشة الاذان واذا على هذا تعاوض الخبر والعيان فلا ناكز ان ليس فى المعمور على هذا الشرط ايدى الله من ثان فنهض بدليل الشرع انه امام الجماعة حقا المستوفى شروطها والوارث للخلافة النبوية الحريص على بيضة الاسلام ان يحوطها وان القائم بهذا الامر على الاطلاق غيره دعى ومحاولة دون اذنه المشروع بدعى فتعين لذلك ان الرجوع الى الحق فريضة واستبان بما تقرر وعلم أن امارة لا تلاقى فى الشرع محلها المشروع منبوذة ومرفوضة وعروتها لذلك مفصومة ومنقوضة فانتدت لهذه الآثار وصحيح الاخبار وصرف الى رضى الله العناية ووقف مع الشرائع المشروعة حيث مركز الراية ومنتهى الغاية الرئيس ابو العلاء ادريس اكرمه الله انتداب من وقفت به مطية التوفيق على حضرة الاخلاص والتصديق واخلت بزمامه السعادة الى حيث الفوز برضى الله ورسوله حقيق والتأييد صاحب ورفيق وروض الآمال انيق وراح الراحة والاطمئنان عتيق الى تقليد بيعة امام الجماعة مولانا امير المؤمنين المنصور بالله زاده الله قدسا وتشريفا التى تتأسس ان شاء الله على تقوى من الله ورضوان وتشهد عقدها الكريم المبارك ملائكة الرحمن وآثر أسعده الله أن يؤدى فرضها المعلوم من فروض الاعيان وحكمها الذى توجه به خطاب الشرع العام الى القاصى والدان وينشر سنتها المشروعة فى صقعه وما يليه من البقاع والاصقاع بالسودان تقليدا يستضىء ان شاء الله بانواره ويستشرفا للعز المكين به على

مناره ويخمد به للجهل جنوة ناره ويتنظم به فى اتباع الحق انصاره ويجتلى به صوره
 انسانه ويستوجب به من الله عوارف صنعه واحسانه ويرهف به * للعون على العزمات
 حد سيفه وسنانه ويقرع به لرضى الله باب القبول ويتضاعف له ببركته العمل المقبول
 ويستشيق بمشهد عقده الكريم نواسم النبوة ويعود له به الزمان للشباب والفتوة ويرفع
 به منار الامارة على قواعد الشرع لوثيقة ويعدل به فى كل الاحوال عن المجاز الى
 الحقيقة وتتسنى له به وهى المقصد الاسنى والخاتمة الحسنى الاسوة الحسنة بامامى
 بنى العباس السفاح والمتصور ويحيى سنتهما التى نقلها ثقة الاعلام والصدور فى مبايعتهما
 الخليفة المهدي الاكبر سليل زين الدين وجد مولانا امير المؤمنين الذى رأى امام دار
 الهجرة انه بشرات الخلافة النبوية ساعد اولى واحق وفى منصب الامامة على شرطها
 أعرق وبسريها ومنبرها اليق فتأكد للمنتدب اكرمه الله بهذه الآثار الشريفة والمناقب
 المنيقة العزم والقصد وانجز له فيما نواه وأراده الوعد وساعد نيته الصالحة فيه السعد
 قبايعه أعلى الله يده على الامن والامانة والعفاف والديانة والعدل الذى يشيد للمجد
 اركانها مبايعة شائعة على عقدها الكريم اكرمه الله اتباعه وجموعه واشياعه بحكم الوفاق
 والاتفاق والمواثيق الشديدة الوثاق وبجميع الايمان الصادقة الايمان اعطوا بها صفقة
 ايديهم ورفع بها العقيرة مناديهم عارفين ان يد الله فيها فوق ايديهم وامضوها على
 السمع والطاعة والانتظام فى سلك الجماعة امضاء يدينون به فى الجهر والسر واليسر
 والعسر والرخاء والشدة والازمات المتشددة والتزموا شروطها طوعا واستوعبوها اصلا
 وفرعا واستوفوها جنسا ونوعا بنيات منهم خالصة صادقة وعدة من الله لهم بالخير
 سابقة وسعادة بالحسنى لاحقة ابرموا عقدها واحكموا عهدا على حكم السنة والكتاب
 والجماعة والاخذ بسنتها اعقابا عن اعقاب واحقابا اثر احقاب الى يوم القيامة واقترب
 الساعة لا يلحق عقدها الكريم فسح ولا يعقبه بحول الله تعالى نسخ ولا يتطرق اليه
 نقض ولا نكث ولا يشوبه بشوائب الشبهات بحث واجمع على هذا أسعده الله بالمواثيق
 المستحقة والايمان اللازمة المغلظة هو واتباعه اجماعا شرعيا وحتموه على انفسهم حتما
 مقضيا واعتقدوه اعتقادا أبديا وعرضوا على التزامه بمشهد عقده المبارك فرادى وازواجا
 وزمرا وافواجا واشهدوا على الوفاء به بايمانهم الصادقة البرور ومواثيقهم المثلجة
 الصدور بالله الذى لا اله الا هو الملك القدوس العليم بالخفيات والخبير بآجال
 الوفيات وجميع الرسل الكرام والانبياء وملائكة الرحمن فى الارض والسماء وعلى أنهم
 ان حادوا عن هذه السبيل وانقادوا لداعى التحريف والتبديل فهم براء من حول الله
 وقوته وعصمته ومستوجبون لغضبه وعذابه وسخطه ونقمته وبعاء من رحمته ومن *

الرسول عليه السلام اعلنوا بهذا اعلانا يعصده النجوى وادوه بشروطه الجارية على مذاهب الفتوى واحكامه اللازمة لكلمة التقوى استرضاء لله وللخلافة النبوية والامامة العلوية ورياضة للنفوس على بيعتها المباركة النقية واستيفاء لشروطها واقسامها الواجبة والمستحبة والمندوبة مستسلمين الى الله بالقلوب الخاشعة ومتضرعين الى بابه الكريم بالادعية النافعة في أن يعرفهم خير هذا العقد الكريم والعهد العظيم بدءا وختاما وان يمنحهم بركته التي تعهم حالا ودواما لا رب غيره ولا خير الا خيره اشهد على نفسه بما فيه وعلى اتباعه من شهد بهذه البيعة المباركة والتزامها والوفاء بشروطها واحكامها النذب الرئيس ابو العلاء ادريس اسعده الله واكرمه وفي تاريخ كذا(1)

(2) ذكر استيلاء العساكر على قطرى توات وتيكورارين واستفتاحها بالسيف عنوة

هذا الاقليم المفرع الى قطر توات وهو اوسع وطنا وافصح مجالا واقرب للسودان اتصالا وجوارا والى قطر تيكورارين وهو اعظم اشتهارا واعرف نقيا واشد شوكة واخشن جانبا واعظم اقاليم المغرب واكثرها امنا وافسحها خطة انتظم عرانه واتصلت نخيله وتراصفت قصوره على مسافة ثلاثين مرحلة أو أكثر وقد الم الامام ابن خلدون في كتاب العبر بذكر تيكورارين عند الكلام على المغرب * الاقصى وامه فقال وفي شرقي تسابيت الى ما يلي الجوف قصور تيكورارين وتنتهي الى ثلاثمائة أو أكثر في واد واحد يتحدر من المغرب الى المشرق وفيها أمم من قبائل زناته انتهى قلت وتقدير ابن خلدون عمران القطر وقصوره بما ذكر تقريبا لا تحرير يشهد بذلك العطف بأو الشكية من قوله أو أكثر والا فالذي يدل عليه خبر من لقيناه بالابواب العلية من وفد البلاد واجنادها ان ذلك اكثر مما ذهب اليه ابن خلدون باضعاف الا ان يكون قد قصد فيما ذهب اليه تيكورارين دون توات بدليل سكوته عنها فلا يبعد عن الصواب والله أعلم وبالجمله فالقطران عالم من عوالم الارض واقليم من اقاليم الدنيا بما جمع من الامم وتراكم فيه من القصور واتصل من العمران وتخلله من العيون ذات الابار والنخيل المرخى على اكنافه جناحا من الليل الدامس وكانت الملوك المغلوبون في القديم والحديث على ارضهم وممالك سلطانهم يلجئون اليه عند تجهم الزمان وتلون الدهر وعثار الجد لبعده عن مثال الجيوش والعساكر بما حف به من جميع الجهات من عروق الرمل ومهامه القفر التي تضل بها القطا وتغمرها بحار من الرمل لا تقطعها ذوات الجناح حتى صار بذلك جزيرة في فلاة من الارض لا تهتدى اليها سوا في الرياح فاما من لجأ اليه من الملوك

(1) كتبت البيعة غالبا بعد عودة المنصور الى مراکش اي في اواخر عام 990 او مطلع 991/1583

(2) الانتقال الى صفحة 38 •

فالسultan ابوحم (1) من بنى زيان ملوك المغرب الاوسط من بنى عبد الوادى لما غلبه بنو مرين لعهد السلطان عبد العزيز بن أبى (2) الحسن منهم على ملكه وشردوه من تلمسان من بعد أن وقعت به عساكرهم اولا بالدوسن آخر عمل الزاب من جهة المغرب وثانيا بساحة تلمسان مجلبه عليها عند انتياد العساكر عنها فاستأصلوا بذلك شافة جموعه من الجند والعرب وسبوا حرمه واستاقوا ظعنه وتلاشى امره فنجى بنفسه الى تيكورارين واقام بها الى أن هلك السلطان عبد العزيز ورجع بنو مرين القهقري لفاس فطير اليه النجيب اولياؤه من العرب فأغذ السير الى تلمسان فعاود بها سلطانه واقتعد اريكته وكانت احلى الغرائب واما من الخلفاء فالمولي ابو العباس أحمد (3) الشريف أمير المؤمنين رحمه الله لحق بها وبنيه ومن تبعهم من حاشيته على حين ما اقصاهم الامام صنوه رضى الله عنه من بلاد سجلماسة التي امتن بها عليهم كان عند استقلاله بالدعوة الكريمة ومغالبتهم على كرسى الخلافة بمراكش فلبثوا بها الى أن اسفوه بمظاهرة بنى مرين اعدائه واتصال اليد معهم على محاربتة وتجهيز المدد مع المولى الامير زيان لاستنقاذهم من يده ايام جثومهم عليهم بظاهر فاس محاصرا لهم الحصار الطويل واجلابهم ايضا في مغيبه بالعساكر على الفاتحة من اعمال الحضرة ليشغلوه * من ورائه ويأخلوا بحجزته عن حصار بنى مرين لما كان بينهم من العهد على ذلك فاحفظه شأنهم وشردهم بذلك عن سجلماسة الى القفر فلتحقوا بتكورارين واقاموا بها الى أن كان من اجلاب عرب اليمن اهل مجالاتها عليهم باغراء الامام والثياب احوالهم الى حين القبض عليهم وخمود ذبالتهم باستئصالهم ما ذكرناه مستوعبا في محله وبقي هذا الصقع منتبذا عن الدولة لانحصار تيارها عنه لشغل الامام رضى الله عنه بفتح المغربين حتى استكمل تمهيدا فجهز اليه العساكر لنظر القائد ابى عبد الله محمد بن عبد الوالى كان على سجلماسة وبينما هو منازل بلاد توات منه اذ ورد عليه الخبر بموت الامام (4) رضى الله عنه فافرج عنها وانقلب الى المغرب من قبل الحصول على طائل منها ولقد خلفه من بعد

س 40

(1) ابو حمو موسى بن عثمان : من ملوك بنى زيان حكم خلال الفترة (697 - 718)

(2) ابو فارس عبد العزيز بن ابى الحسن المريني حكم بين (767 - 774)

(3) ابو العباس أحمد بن القائم بأمر الله المعروف بالاعرج ، بويج ماسكا على سوس عام 916 هـ الموافق 1510م وقد نظمت في عهده المقاومة المسلحة ضد البرتغال بسواحل سوس واحرز السعديون تحت قيادته انتصارات عسكرية ضد الغزاة المحتلين كما تخذت مراكش عاصمة للدولة السعدية الناشئة بعد الاستيلاء عليها عام 1525 م وبعد انتقال الاعرج الى مراكش ترك اخاه محمد الشيخ نائبا عنه في سوس حيث اهتم بمعاربة البرتغال الى عام 1541 م وهى السنة التى حدث بها خلاف بين الاخوين أدى الى حروب مسلحة بينهما دامت عدة سنوات وانتهت بانهزام الاعرج عام 1544 والتجانه الى الصحراء الا أن الشيخ تمكن من القضاء القبض عليه وسجنه وعندما اغتيل الشيخ من قبل الاتراك 1557 تم تنفيذ الاعدام فى الاعرج وابنائنه .

(4) اغتيل المولى محمد الشيخ من قبل الاتراك عام 964 هـ الموافق 1557م

الامام عن تناول لما لم تصل اليه دعوته الكريمة ترضى بالسهل واحرار المخلف وربما تنبعت بعض الاحيان عزائم الغالب بالله منهم الى تجهيز العساكر نحوه فيشغله عن الالتفات الى اضداد الدولة وحذار مغبة مغيب العساكر عن المغرب وخلاء جوه منهم والنظر الى ما يستدعيه جوب القفار وطى الشقة البعيدة من كثرة الظهر ومؤن الاسفار البعيدة شاغل يأخذ بحجزته فتتخل عزائمه ويتفادى من ركوب الخطر فى ذلك جنوحا الى العافية وتجاфия عن التهالك فى طلب العن والظهور الى أن جاء الله بالفعل الذى لا يقدر انفه والهزير الذى لا يصد عن فريسته صقر قريش والحية الذكر من هشام مولانا الخليفة الامام العالى الكعب امير المؤمنين المنصور أيدى الله فطوى الارض ومهد الدنيا وزلزل قواعد الشرك ونهض بالدولة حتى استفحلت لعده وبلغت الى اشرف نصابها فاستطال جناحها واتسع نطاقها وضاحت حواصل ممالكها وثغورها القاصية والدانية بما تراكمت فيها من الجند وتوفر من الحامية فامتلت عينه لذلك الى فتح الاقطار وتجهيز البعث تحت رايته المنصورة الى الآفاق الشاسعة لانتظامها فى مملكته والدعاء الى التى هى اقوم من طاعته والدخول فى دعوته الكريمة التى أوجب الله عليه بثها ونشرها وعلى الخلق الانقياد لشريف كلمتها وامرها بما أوتى من امرة المؤمنين وامامة الجماعة ووراثة الارض ولما كان صقع بلاد توات وتيكورادين من دون سائر الاقطار القاصية بالمحل القريب من جواره رءا أيدى الله أن يبدأ أمره بافتتاحه ويجعله ركابا لما وراءه وسلما لما يليه فجهز العساكر اولا وسرحها اليه من فاس مع عمر بن محمد بن عب الوالى كان على سبجلماسة فكان من تناقله ببلاد فكيفك واجهامه عن الوصول الى البلاد وسطو امير المؤمنين به * واعتقاله حتى افتدى بما انفق من الاموال على الاجناد ومؤنة الاسفار ما قدمنا ذكره ثم استأنف امير المؤمنين ايدى الله الالهة ثانيا فجهز العساكر من الحضرتين مراکش وفاس وعقد على حصة فاس منهم لمولاه الوالى كان على مكناسة لنظر اميرها المولى أبى فارس بن الامام القائد أبى عبد الله محمد بن برمكة وأوعز اليه باستنفاذ عساكرها معه أيضا من الرامجة فاهبطوا لدأعيه ونهضوا صحبته خلفا وثقالا لرضاهم عن حسن سيرته فيهم فحسن لذلك بالأوهم معه فى الحروب وعقد امير المؤمنين على حصة مراکش للقائد أبى العباس احمد بن الحداد العمرى المعقل من صنائعهم وجعله أسوة مولاه ابن برمكة فى تدبير الحروب دون الخراج ونهضوا جميعا فى عام احدى وتسعين(1) وضربوا موعدا للقاء بسبجلماسة فتوافقوا بها جميعا وزحفوا الى البلاد وخاضوا القفر نحوها فى عساكر ضخمة اهتزت أقطار السودان لصيتها وداخلهم الرعب منها ووصلوا الترحال ويمموا

ص 41

تيكوراتين من قبل توات بما كانت احد شوكة واصلب عودا واعتملوا تينميون منها قاعدة قصورها وأم قراها فتركوا عليها لسبعين مرحلة من مراكش دار الخلافة وكانوا قدموا الى أهلها كتب امير المؤمنين بالاعذار والبراءة والدعاء الى الطاعة والارشاد الى الدخول في حزب الهدى فاساءوا الرد ولاذوا بالمنع واستعدوا للحصار وسولت لهم نفوسهم القدرة على الدفاع وجعلوا أكبر معولهم على تينميون مقر الملوك الملتجئين اليها ومحل أولى الامر من ولايتها والرؤساء من أهلها فارتحل اليها كل من يليها ويجاورها من القصور والقرى وشحنوها بالمقاتلة وكان نزول العساكر عليها للزوال من يوم () (1) ولم يكونوا عولوا يومئذ على الزحف الى حربها حتى يريحوا ويبنوا عليها مقاعدهم للقتال من الغد فتفرق الاجناد لذلك في حاجاتهم من بعد ضرب الابنية ومصر بعض الرماة بساحة البلد وكان أهلها بالمرصاد لانتهاز الفرصة فيمن يتفرد منهم عن العساكر حتى اذا حاذوهم انقضوا عليهم من مكانهم فهاجموا منهم على أنفسهم أسودا ضارية وعقبانا تقتنص الارواح وتبارى الرياح فزحفوا اليهم حينئذ من ساعتهم واحدقوا بهم في معتصمهم ونصبوا عليهم مدافع النار وقد كانوا استجروها اليهم من الحضرة وزجروهم بحصى السماوى منها والحواء بالحرب على اسوارهم ودلفت اليها الاجناد وتنادوا بشعار النصر وتهافتوا على البلد المحروب تهافت الفراش وازعدت رعود النار من كل جهة فارسلوا عليها شاييب الرصاص واطبق عليها ليل ديجوجى من البارود وتبوا الرجل * ص 42

مقاعدهم للقتال لصق الاسوار والفرسان تحوم حولها حوم العقبان على الفريسة وحوى الوطيس وضجت الارض من صواعق النار الموقدة وابلى القوم في الدفاع من وراء الجدران وامتنعوا من القاء اليد فاذاقهم العساكر نكال الحرب وساموهم سوء العذاب من النار الموقدة وارسال الصواعق عليهم عامة يومهم حتى توارت الشمس بالحجاب فوصلوه بالليل ولم تمض منهم طائفة حتى اقتحموا عليهم البلد غلابة وتناولتهم السيوف وانطلقت ايدي العساكر بالنهب والعيث في المنازل حتى ارتفع النداء بالامان او الابقاء على من تخطاه الاجل فسكنت الهيعة وتقبض على رؤساء البلاد واعيان القصور الملتجئين اليه عند الحصار فتلوا الى معبسهم وانقاد بانقياد تينميون سائر قطر تيكوراتين واتوا طاعتهم راهبين مما نزل من الخسف باحيائهم المحاصرين الا الفريق الاقصى من الشط الظهراني انكمشوا في قصورهم وانقبضوا عن القاء اليد للطاعة فأمل لهم القواد اعداء اليهم واقامة للحجة عليهم واعرضوا عنهم فبث القائد ابو عبد الله بن بركة عماله في البلاد فاقتضوا له خراجها وحملوا اليه جبايتها فزحفوا الى قطر توات واعتملوا منها

(1) يوجد بياض بالاصل .

تمنيط قاعدة قصورها ولدة تينميون وقرعتها في العصابة والرياسة وكان شيخا ورئيسا والمرجوع الى كلمته في سائر قطر توات الشيخ عمر بن محمد بن عمر بن عبد الرحمن اخو السلطان كان بواركلا لامه وكان راسخ القدم في الرياسة بها آخذا ببعض الشارة الملوكية في ضرب السكة لديه وارتفاع الرماح بين يديه فنزلت عليه العساكر وخيمت محلاتهم بساحته ووجه اليه القواد بالطاعة وأملوا له ثلاثا فراجع نفسه وكان من أولى البصر بالعواقب فحذر على نفسه وقومه مغبة أهل تينميون أضداده وعلم أنه لا طاقة له بمقاومة الحصار ودفاع العساكر فتمشت اليهم رجالته حتى استوثق منهم لنفسه وقومه ما اراد من الاماني وبعث عمر يخرج في يده من رجال الدولة ويصل تحت خفارته الى القواد فبعثوا اليه القائد أبا عبد الله محمد بن احمد السيوري احد رؤساء جند مكناسة ومن طبقة القواد بها ومن بيوت الاحلاف المتاخمين في مجالاتهم في القفر لتوات فوصل صحبته ولقاء القواد برا وترحيبا وخلع عليه القائد ابو عبد الله موسى وحمله فأفرج روعه وحمد مغبه ثم سابقه الى الطاعة والبقاء اليد منافسوه من رؤساء البلاد واعيان القطر ومجاذبوهم جبل الرياسة به من بعد فوج واتوا طاعتهم راغبين وراهبين واستجابت لهم القاصية والدانية فكان 43 استنزال عمر رئيس البلاد وزعيمها مفتاحا لانقياد سائرها واقتضاض بكر * فتحها من غير قتال فذرت ضروع الجباية في البلاد وقدر القائد ابو عبد الله بن بركة الوضائع على أهلها وفرض المغارم فأعطوها عن يد وبث العمال في الجهات فحملوا اليه من ذلك أموالا جمّة واقتضى من سائر أهلها الرهن على الطاعة فثنى عنانه الى الشط الطهراني من تيكورارين فنزلوا عليه بالعساكر وأعلنوا الى أهله بالبراءة وايقاد الرسل عليهم من أهل الدين يقدمهم الشيخ عمر رئيس تمنيط يعظونهم ويدعونهم الى الطاعة فلجوا في الاباية وأصروا على المعصية جهلا وغباوة وايدانا ان لهم خزي الدنيا وعلاب الآخرة وجمعوا للحصار بقصبة أولاد عبد الله منهم فحققت عليهم الاجناد المجاهرة بالعصيان وامتعضوا من اساءة الرد فالتهب صدورهم حنقا عليهم فأجمعوا على استيصال شافتهم وقطع دابرهم فزحفوا اليهم وترجل سائر الفرسان والابطال من جيش الاسل يومئذ عن خيلهم واستلاموا واسبقوا من شكهم وتظاهروا في دروعهم ونصبوا الدرق أمامهم وشمروا سيوفهم وسابقوا الرجل من عساكر النار الى معتصم المخالفين حتى وقفوا لصق اسوار قصبتهم وتنادى باشعار سائر العساكر فأرعدت رعود النار وضج الافق من صواعقها الهاطلة على أهل الشقاق بشنايب النار الموقدة والرصاص المنهل انهلال القطر وحصي

الحديد المنبعث من أفواه النفط الذى يدك الجبال ويصدع الصخر وصابر القوم حر
اليوم وحر به وأقاموا يصطلون بناره شقاء وعباوة وايدانا بأن لهم خزي الدنيا وعذاب
الآخرة وامتنعوا من القاء اليد حتى اقتحمت عليهم العساكر معتصمهم غالبا من بعد أن
فاء في النهار وتبارى جيش الاسل وجيش النار فى تناول راية السبق واحراز الخصل
فى اقتحام القسبة على أهل الشقاق فلم يروهم الا انشالهم عليهم من الفرج المتشمة
من السور بالحاج المدافع عليه انشال السيل فتناولهم القتل وحكموا السيف فى الرجال
منهم والنساء والولدان حنقا عليهم حتى كلت سواعدهم فتنادوا بهدم القسبة عليهم
واستيصال شافتهم بالرمد فلم يكن الا كلمج البصر أو أقرب حتى أصرعوا جدرانها الى
الارض وألصقوها بالرغم وهويت ردما على الخوارج فلم تبق منهم ولا من حيوانهم
وسائر من يدب على الارض من نعمهم ودوابهم عين تطرف فأطبق على الجميع تيار
الهلكة فأصبحوا مثلا فى الغابرين وعادت منازلهم بلافع كأن لم تغن بالامس وكان
فى ذلك أعظم عبرة للمعتبرين وأجل عظة للمتغطين قرأت فى كتاب الفتح الى أمير
المومنين أن الشيخ عمر صاحب تمنطيط ورئيس سائر قطر توات وكان صاحب
العساكر فى مغداهم الى الشط الظهرانى وشاهد ما نزل باهله من الخسف والتدمير
ص 44 لما وقف يوم الفتح على أطلال القسبة المخروبة الدارسة * ومنازلها التى أمست خاوية وقتلا
أهلها تقرر فى دمائهم الخيل اتعظ وارعوى وعلم ما نجاه الله منه هو وقومه فحمد مغبة
الطاعة وحسن العاقبة ثم داخله من النصيحة رعب اعتل له من ساعته وانتكح حتى أشرف
على الشية فكان الشط حاتمة الفتح وغاية العز والظهور فى تدويخ القطرين وتمهيد
جهااتها الدانية والقاصية وطير القواد لاول الفتح النجيب الى أمير المومنين بمراكش
فعمم لذلك سروره واهتز له من أعواده وحمد مغبة نظره الكريم فى انتظام القطرين
فى ملكته . (1)

ذكر (2) نهوض العساكر الى بلاد السودان وانتهائها الى النيل
المنبعث من قاصيتها واقتضاء البيعة من ملوك سواحلها

لما تم لمولانا الامام الخليفة المنصور بالله أمير المومنين أيده الله ما أراد من فتح
اقليمى توات وتيكورارين والاستيلاء على صقعيهما الطويل المديد امتدت عينه الى فتح

(1) كتب المؤرخ الزباني تعليقا على هامش صفحة 48 من مخطوط الماهل جاء به (العهد لله هذه الترجمة
جعلها المؤلف هنا محلها يأتى عند فتح بلاد السودان وليس هذا محلها ولعل الجامع لهذا التأليف
حين استخرجه من المسودة ظن أن الكتاب الذى وجهه المنصور رحمه الله كان فى فتح توات وليس
كما ظن وإنما هو فى فتح اقاليم السودان وستقف عليه فى محله عند فتح السودان فتامله فإنه
فى الورقة التاسعة عشر ومائة . كتبه بلقاسم بن أحمد الزباني .

(2) يقتضى الترتيب التاريخى الانتقال الى صفحة 87

ما وراءه من بلاد السودان وكان الذي جاوده من ملوكها وتاخم بجهة الجنوب ممالك سكية صاحب كاغو (1) وما اليها وبجهة الجوف مما يلي ساحل البحر * المحيط ملوك جلفو وفلان فأجمع أيده الله أمره على اغزاء الجميع بالعساكر وتجهيز الحركة الى الجهتين من الغرب ثم لما كان سكية صاحب كاغو منهم أحد شوكة وأقصى وطنا وأبعد شقة وكان شأن الحركة اليه ادعى الى الاستبلاغ فى الاحتفال والاستكثار من العساكر والظهر لطفى الشقة البعيدة وحمل الاثقال الحافلة من خزائن العدة والبارود والرصاص واللات الحركة الى جهة الساحل بما كانت أخف بعض الشيء وأيسر مؤنة من الاخرى يستعين بفتحها وبما تشتاق العساكر من الكراع والظهر المجلوب من زكاة أعراب الفلات والامم المجاورين من أهل الوبر لممالك السودان على أمر الحركة الى جهة الجنوب وأن يبعث أولا الى سكية رسولا يكون عينا له على عورة البلاد وأحوالها فى الضعف والقدرة وما يحتاج اليه من العساكر وتستدعى من الاحتفال وتخير لذلك من رجال الدولة قس زمانه فى الفصاحة وطلاقة اللسان العمرى الشيخ مومن بن موسى العمرى المعقلى فسرحه بهدية ورسالة الى سكية بكاغوا وأنظر الحركة من جهتها لقفوله وبادر بتجهيز العساكر الى جهة الساحل لينهز فيها الفرصة من قبل أن يرجع مومن فيجده قد أخذ الاهبة والاستعداد الى الحرب ثم استعجل الاوبة ففعل من قبل فصول العساكر فأضى أمير المؤمنين عزيمته فى تسريحهم الى الساحل من بعد أن أراح عليلهم ويسر لهم الظهر ومؤون السفر وجهزهم اليها من حامية السوس وجنوده بما كانت ممالكه مصابقة لممالك السودان وبعث عن مولاه القائد أبى عبد الله محمد بن سالم صاحب الشرطة بفاس فعقد له عليهم وسرحه الى السوس بالمال وخزائن العدة والبارود وأوعز الى القائد أبى محمد عبد المولى بن عيسى بن بر الوالى كان على عمالة تكاوست ووادى نول بالحركة معه بقومه وسائر عشائره من عبده النازلين معه وجعله اسوة مولاه ابن سالم فى تدبير الحروب دون الخراج فنهضوا من السوس من بعد استكمال الاهبة فى شهور عام اثنين وتسعين وخاضوا القفر مع الساحل الى السودان فوصلوا اليها من بعد الجهد لتسعين مرحلة متصلة من ثغور ممالك العرب القبلية ولم يكن لاهل السودان من علم بالعساكر لوحشة القفر حتى نزلوا بساحتهم وكان مناخهم عليها ليلا فلم يرعهم عند انقضاء بازى الصبح على غراب الليل الا ابيضاض الارض بما جللها من القباب ومخيمات الاجناد ولمعان الافق ببريق السيوف ووميض الدروع وشهب الخرصان وخنق الرايات ثم هذرت الطبول وأرعدت رعود

(1) يرجع فضل تأسيس دولة سنغاي فى كاغو بالسودان الى محمد اسكيا الملقب باسكيا الكبير وقد تم ذلك عام 1493 بعد ضعف مبراطورية مالي والاحتلالها وبعد وفاته توارث ابناؤه حكم البلاد ومن أشهرهم اسكيا اسحق الذى سيدخل فى خلاف مع المنصور ينتهى بفزو القوات المغربية المسلحة لبلاد السودان عام 1591 فانقرضت بذلك دولة سنغاي وقضى على الاسرة الحاكمة بها .

النار اشعارا * بالبلوغ فاهتزت الارض وربت وضج الافق من هول اليوم وصواعقه فظن
اهله ان القيامة قد قامت وحسبوها رجة الصعق أو نفخا في الصور لعدم اعتياد
صواعق البارود وایناس ناره فی بلادهم فأطرقوا لذلك الهول وطلبوا بطن الارض جزعا
فلم تنبعت حفاظهم للدفاع ولا حدثوا أنفسهم بالحرب لعلمهم انه لا طاقة لهم بمقاومة
عساكر المغرب وجنود الامام ولم يكن الا أن بادر ملوكهم بالححاق الى المعسكر واللياذ
بالطاعة دفعا لتيار الهلكة بذلك عنهم وعن قومهم وتفاديا من هجوم العساكر عليهم في
منازلهم واستخراجهم من صياصيههم ووصلوا الى معسكر جنود الامام أمير المؤمنين يقدمهم
كبيرهم الموفى على الغاية في السن والهرم ابراهيم بن رضوان يامر فال وموسى جوب
وغولى أخويا مر فال وكلهم من ملوك السواحل ببلاد السودان وألقوا أنفسهم على القواد
مستسلمين فتلقوهم بما يتلقى به أمثالهم من عظماء القوم وملوكهم واکرموا موصلهم
وخلعوا عليهم ودفعوا اليهم كتاب أمير المؤمنين يدعوهم فيه الى التی هي أقوم من
طاعته والدخول في شريف دعوته وأسمعوهم خطابه الكريم فطأطأوا له رؤوس الخضوع
والاستكانة لمهابته حتى وعوا مقالته الصادقة وولج أسماعهم وعده ووعيده فسمعوا وأطاعوا
وأقبلوا على كتاب أمير المؤمنين لاثمين ومعفرين وجوهم في علامته الكريمة التي
خطتها يمينى ابن النبی عليه السلام ولا مستها راحته الطاهرة الشريفة النبوية وطالبهم
القواد بالبيعة لأمير المؤمنين فأذعنوا لها وأعطوها طوعية بمحل اجتماعهم من فسطاط
محمد بن سالم مولى أمير المؤمنين واستحلفوهم على الوفاء بما ارتضوه من الايمان المغلظة
وأحسنوا الاستماع والاصغاء لشروط الطاعة والانقياد ودانوا بذلك واقتضوا لانفسهم من
القواد ما أرادوا من الامان فانطلقوا الى قومهم غرا محجلين بما كساهم من أنوار الهداية
وتسربلوه من خلع الامامة الكريمة التي حلت أجسادهم العاطلة بدعواتها الشريفة النبوية
وارتجلت العساكر من بعد ذلك وسارت تحت رايات أمير المؤمنين تخترق ممالك السودان
حتى انتهت لخليج النيل المنبعث من قاصية السودان وكرعت خيل المنصور في مائه
وخفقت راياتها على شطه وكان في ذلك الفخر الطائر الذكر مع الايام لمولانا أمير
المؤمنين أيده الله وقفلت العساكر الى المغرب ظافرة ظاهرة وكان الذى استجاب لهم ودان
بالطاعة والانقياد من عرب الفلات فقط وأممهم الذين ينتجعون الكلا في مجالات القفر الممتد
من ثغور المغرب القبلية الى ممالك السودان * بالجَنُوب نيفا وأربعين ألف خيمة كلها من
أهل الوبر والكراع المربى على النمل كثرة والجراد انتشارا فحصل أمير المؤمنين من ذلك
على ما أراد وفوق ما كان يأمل من الاستعانة بكثرة الظهور على ما أجمع عليه من الحركة

الى سكية بجهة الجنوب وهو الان ايده الله لهذا العهد من عام سبعة وتسعين واقف على قسم الالهية والاستعداد لذلك توصلا بما ينشأ عن ذلك من اتساع نطاق الملك وامتداد جناح السلطان وانفساخ مجال الاعمال وكثرة الانفال الى التفرغ لما صرف اليه ايده الله عزمه وجعله قصده وهمه من جهاد المشركين واغزاء ارضهم في الجنوب والشمال بعساكره الامامية ومواليات البعوث الى اقطارهم حتى ينجز الله وعده الكريم في اعلاء كلمة الحق والاستيلاء بفضلله على الاقرب والابعد والاحمر والاسود بلفه الله تعالى امله وجعل اهل الارض عبيد سيغفه وخوله وكتبه فيمن اخلص لوجهه الكريم عمله لا اله الا هو جلت قدرته

ذكر تجديد البيعة لولي العهد الامير ابي عبد الله محمد الشيخ المامون ابن امير المؤمنين خلد الله ايامهم

لما كان الامراء بنو الامام امير المؤمنين المنصور ايده الله حين العهد الى المولى ابي عبد الله الشيخ كبيرهم صفارا لم يدركوا ولا بلغوا مبلغ التكليف بشروط البيعة واعطاء صفقة اليمين عليها ثم ترعرعوا من بعد ذلك وأوقى بهم سنن الاحتلام على ثنية التكليف بسائر الواجبات رء ايده الله أن يأخذ له عليهم البيعة خصوصا ويؤكد العهد بتجديد أخذها أيضا على سائر الناس عموما فبرز ايده الله من الحضرة في شوال عام اثنين وتسعين (1) واستنفر لها الناس من كل فج عميق وارتاد لمشهدا المبارك بسيط تامسنا وفحصها الافيج وأقام بمعسكره من تانسيفت حتى جهز العساكر الى جهة السودان وسرح اليهم بالسوس مولاه ابا عبد الله محمد بن سالم كما قدمنا وتلوم بمكانه لمشاركة احوالهم واستحائهم بالكتب والمراسلة على المسير حتى انفصلوا عن السوس وخاضوا القفر فارتحل هو حينئذ ايده الله في الاجناد لودى السد وسرح من هنالك حاجبه القائد ابا محمد عزوز بن سعييد الوزكيتي الى ولي عهده بفاس يستقدمه ويستحثه على الوصول وضرب له موعدا للقاءه بمشهد البيعة من تامسنا فارتحل كل منهما وتوافى الركابان بالويدان منها وسبق اليها ركاب امير المؤمنين ثم تلاحق ولي العهد لايام من مقامه ايده الله فاضطرب محلاته لصق معسكر الامام والده واجتمع باجتماعهما في ذلك المخيم السعيد والمشهد المبارك أمم لاتحصى من أجناد المغرب ورؤساء القبائل والاشياخ والاعيان وسائر أهل الحل والعقد ومن يشار اليه في المغرب بالبنان سوى أهل الثغور والمسالح وجهوا ببيعاتهم من امصارهم ولما انتهى ذلك الجمع العظيم وتكاملت الوفود في ذلك المشهد الحافل جلس امير المؤمنين ايده الله لاحكام عقد البيعة ثالثة يوم ورود ولي عهده وبلوغ ركابه العالي وشهر لمباشرة ذلك بنفسه ولم يكل امره ايده الله الى غيره اهتماما بنظام كلمة الاسلام واحتياطا على الجماعة التي استوعب

بي 91

(1) شوال عام 992 هـ يوافق أكتوبر 1584-

أمرها ونادى فى الناس بالاجتماع الى قسطنطين فجلسوا وقعد لهم قعودا فخما وفسح لهم المجلس ليسمح للجمع الفقير بانتظام ديوانه الاعظم الى التوأمتين الهائلتين اللتين قدمهما كان بين يديه ولى العهد هدية الى الامام أبيه وجمعهما بسياج محيط من فساطيط الهند الغربية الشكل والعمل وأسبل على الجميع رواقا سابغا موشيا فكان ذلك المجلس من أجمل مجالس الدنيا زينة ورائتها حسنا وبهجة وأفخمها جلاله وأبهة وأمرنى أيده الله بالقيام على رؤوس الاشهاد برسم البيعة فرفعت بقراءته عقيرتى ليتادى الى الناس فهمه وبعد فصوله وقام الى جنبى قاضى الجماعة وخطيب الحضرة العلية الشيخ العالم العلامة الصدر الاوحد أبو القاسم بن على الشاطبى مفسرا لما أشكل على الناس من أحكام البيعة التى تضمنها الرسم الكريم حتى أتيت عليه سردا وقد وعته الاسماع وشربته الصدور واستطعمته الافهام ونادى الناس بالسمع والطاعة والرضى والقبول واحضر بين يدي الامام المصنف الكريم لعقبة بن نافع رضى الله عنه الذى من ذخائر الخلفاء رضوان الله عليهم والصحيحان من كف الاسلام واندفع الناس للبيعة واعطاء صفقة الايمان وتسابقوا الى ذلك وازدحموا عليه ازدحام الحجيج على الحجر الاسعد لم نعلم بيعة فى الاسلام انشروحت لها الصدور وابتهجت القلوب ووقع اليها الشدة من الخاص والعام وباشرها بنفسه الامام مثل هذه البيعة الكريمة الرضوانية وكان الامراء بنو الامام أمير المؤمنين أيده الله تأخرت عن الجرم الفقير اكراما لهم وصونا لتمامهم عن مواقف الخجل والازدحام مع من دونهم الى أن عقد لهم من الفد مجلس خاص بهم فى القبة العربية وأسمعوا رسم البيعة بقراءتى اياه بمحضر الملاء من العلماء والقضات ومشايخه الفتيا والشورى فسمعوا وأطاعوا وأوقعوا على الرسم علاماتهم بالرضى والقبول والتزام الحلف والايمان المنصوص عليها فى رسم البيعة الكريمة ونصه وهو من املاء مؤلف الكتاب * بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما من عبد الله أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين أيده الله بالنصر والتمكين وأمد أعلامه الموعود لها من الله بالفتح المبين الى يوم الدين بدوام الظهور والعز والتمكين صدر هذا التقليد الشريف المبارك السعيد الامامى النبوى الكريم والعهد المؤسس القواعد والمباني على ما سنه أشرف الخلق عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم المقتتح بقوله وهو أسعد افتتاح وأكرم داع جى على الفلاح الحمد لله الذى جعل الخلافة للدين قواما وللدنيا عصاما وتشمل الامة نظاما ونشر بالامامة فى الامم امانا أرسل على نار البغي والشقاق من جداول البيض الرقاق ماء الرحمة الرقاق فكانت بردا وسلاما وعصم بعصمها مصون النفوس والاموال ونفخ بعدلها روح الامن فى اسباح الرجاء والامال وحمى بعزها حمى الاسلام من سوام الهوان والابدال فعز مقاما وطاب معرسا ومقاما والحمد لله الذى رفع

لها بالدعوة النبوية الالوية الخافقة على هضاب النصر واعلاما وقبض لها من الارحام الفاطمية والاصلاب الحسنية السبطية من أعادها الى نصابها الشريف وأقرها في بيتها المنيف اعتناء بشأنها واهتماما واهلها لورثة الامامة النبوية القرشينة أولا وابتداء كما أحرز لها اثرها الخالص الى مجدها الصميم ءاخرا وانتهاء لتكون لها الحجة البالغة على الخلق افتتاحا واختتاماً وصرف الى عهدها الكريم امامة الجماعة وقضى لها على جميع الملل وسائر الدول بوجوب الانقياد والطاعة ووعدها بميراث الارض ومن عليها الى يوم القيامة واقترب الساعة وفرض على الطوائف الاسلامية الانخراط في سلك بيعتها الامامية فرضا عم به الخطاب وجاءت به عن الله السنة والكتاب حتما واجبا والتزاما وانظرها حين أنشأها وفطرها لتكون عاقبة حاشرة كما ورد في صحيح الخبر الى يوم الجزاء والمحشر ولتكون خاتمة الدول كما ختم كل نبي ومرسل بجدها عليه السلام أشرف الخلق وأكرم ولد عدنان الذي أيده بمعجزات القرآن وبين عن الرحمن وأوضح معالم الايمان وسن بيعة الرضوان وأعطى صفقات الايمان وعقد على لزوم الطاعة وحذر من مخالفة الجماعة صلى الله عليه وعلى جميع رسله وأنبيائه وعلى صفوته وخيرة خلقه من أرضه وسماؤه صلاة * تبلى الجديدين اتصالا ودواما والرضى عن ءاله والصحابة الخلفاء الراشدين الذين نفوا في الدين الاختلاف وأوجبوا على أنفسهم الاستخلاف وأجمعوا القلوب والاهواء على الوفاق والاتلاف ورأوا أن ينظروا للمسلمين في مآلهم كما نظروا لهم في حياتهم فصار الائمة معظما وعقد الامامة منتظما وشمل الاسلام مجموعا وكلام الامام مسموعا واجتهاده العائد بعظيم النجاح والفلاح على العباد والبلاد واجب التقليد واقتداء به واثمما والحمد لله الذي أوضح لهذا الجناح النبوى الشريف والمقام العلى الامامى المنيف دلائل الفخر على الكمال والتمام واصطفاه من سلالة النبو عليه الصلاة والسلام أفضل الخلق وخاتم الانبياء والرسل الكرام وأنشأ مجده الصميم من الارحام الطاهرة الفاطمية واصلاب الوصى الرضى أمير المؤمنين على رابع الخلفاء الراشدين الاعلام هداة الخلفاء والانام والائمة الذين جددوا معالم الايمان وهدموا البيع وكسروا الاوثان والاصنام وسليمة ربحانة الجنة ابن البتول وسليل الرسول أمير المؤمنين الحسن السبط الذى قبل ثناياه عليه السلام وقال فى حقه أن ابنى هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين والشكر لله سبحانه والمنة ان اجتبى من هذه الروضة الحسنية السماء والشجرة الطيبة الهاشمية التى أصلها ثابت وفرعها فى السماء اماما ألقى له فى القلوب والارواح محبة وأخلاصا والخليفة استرعاه فوجده للامة خير راع عدلا ورحمة وسعت عاما وخصا جهادا فى الدين أوجب عن الله زلفى واختصاصا وأوضح للناس وجوب اعتقاد طاعته مسننا قويما ومنهاجا مستقيما وجعله كما قال عز وجل وكان

ص 93

بالمؤمنين رحيمًا مولانا أمير المؤمنين بن مولانا أمير المؤمنين بن مولانا أمير المؤمنين وخليفة الله في الأرضين ووارث الأنبياء والمرسلين والمفترض طاعته على الخلق أجمعين الممنون بإمامته المقدسة على العالمين مولانا أبا العباس المنصور المجاهد أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين الطيبين إمام تشرفت بشريف دعوته الإمامية المنابر الإسلامية وتحلت أجياد الأيام بدرر مناقبه السنية السامية المفروض الطاعة على جميع الملل الحنفية والبول الأعرابية والأعاجمية والمختوم على كل من لم يحل جبهه العاقل بعهود إمامته القرشية الهاشمية ولم يبدن بوجوب الطاعة والانقياد لآياله الكريمة النبوية الفاطمية بسوء الخاتمة الموعد بها في قوله عليه السلام من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية فأدام الله لآلوته المنصورة بالله الظاهرة وسيوفه الغالية بالله القاهرة * التي ملأت أكناف الأرض عدلا وأوسعها بفضلها فضلا رحمت دماءها وأمنت أعداءها وشفت داءها وحفظت أرجاءها وأكثت غبظتها ورجاءها ولقاهم الذي نفخ في شخص الأمن روحه وجر على ألقى كفه فكان مسيحه وسنى من الدين لواعجه وتباريجه واهب على القفر زعزعا ريجه نصرا تدور به الأفلاك وتنزل به المللك وتخضع له الاملاك وتنجاب بأنواره المضيئة مدلهجات الاحلاك وتتسق به الفتوحات المتعاقبات الى يوم الدين اتساق الفرائد فى الاسلاك وحفظ على الاسلام والمسلمين مهجته وعلى الايام والانام حدته وأبقى دولته الغراء بقاء يخلق أثواب الايام وهو جديد وجعل أيامه الزاهرة مقرونة بالدوام والتخليد الى يوم الوعيد وواصل لسليته الرضى المستضى بأصواته المهتدى باهتدائه المجمع على اختياره وارتضائه مولانا الامير الاظهر الاشرف الاحسب الانسب الاجل الافضل الاكمل الامجد الاسعد الاصعد أبو عبد الله محمد الشيخ الامون بالله بن أمير المؤمنين أسباب السعادة المطردة اطراد الكعوب والمواهب التجارية وفق اختياره على أسنوب بفضلته ومنه وتأنيده وعونه وبعد فان الله تعالى لما بعث محمدا صلى الله عليه وسلم الى الناس كافة بشيرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا دعى الى الهدى وأوضح طرق الشريعة منفسحة المدى ووعد وواعد وألآن وشدد ويسر وما عسر وبشر وما نفر وفرض فرائض وسنن سننا ونهج الى الهدى طريقا لا حبا وسننا فكان مما سنه عليه السلام وشرعه وضم عليه نظام الخلق وجمعه الامامة القرشية المستدل عليها بالافان المروية والاحاديث النبوية عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس تبع لقريش فى هذا الشأن مسلمهم لمشلمهم وكافرهم تبع لكافرهم وعن ابن جرير انه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول الناس تبع لقريش فى الخير والشر وقال عليه السلام الائمة من قريش وعنه صلى الله عليه وسلم انه قال الخلافة فى قريش والقضاء فى الانصار والاذان فى الحبشة ثم أنبا عليه السلام ووعد باتصال أمرها الكريم

مدى الدهور والازمان فقال لايزال هذا الامر فى قريش ما بقى منهم اثنان والحمد لله الذى أظهر مصداق حديث نبيه الكريم بظهور سليله ودعا الحق الى طريق الهدى وسبيله خليفة الله فى الارضين وقامع المشركين والملحدين ورحمت الله الى المسلمين مولانا الامام الخليفة المجاهد أبو عبد الله محمد الشيخ المهدي بالله * المقدس أمير المؤمنين الذى أبتعثه الله بتجديد دعوة الامامة القرشية وصرفه لوراثة امامة جده الامام محمد بن عبد الله المهدي بن الحسن المثنى المؤسسة على القواعد الشرعية الجارية على أنهج الفتاوى المذهبية المالكية والحنفية والساكية على أوضح المسالك السنية السنية ونشر به دعوته التى كانت فى الارض مسموعة والكلمة عليها مجموعة على حين دان ببيعة المنصور وتقلد بالعهود التى قضت للامام محمد بن عبد الله المهدي عليه حين التشاجر وهبوب رياح الانتكاث والتقاطع والتهاجر بالحجة والظهور وراء امام دار الهجرة وأبو حنيفة رضى الله عنهما للامام محمد بن عبد الله المهدي أن الحق حقه والامر قد أحاط به رقه والعهد قد دار بعنق المنصور ربقة حتى لكان ذلك سببا رضى الله عنهما فى محنتهما وداعيا للمنصور الى اذايته ونكبتهما حسبما هو مشهور وفى كل كتاب مسطور ثم وصل الله موصول الامامة بظهوره الكريم لحين انقراض دعوتها من الارض وأخلص الى مجده المصميم تراث الدولة العباسية التى اغتالتها الايام والاقدار على حين انبعائه من جميع الاقطار على الطول والعرض فجمع سبحانه لايائه المحمدية الكريمة وراثة الدولة الحديثة والقديمة مصداقا لما روى فى الخبر الصحيح وورد فيه الاثر المروى عنه عليه السلام بنص ثابت صريح انه قال ما معناه لايزال هذا الامر فى ولد العباس راسخ القدم حتى يسلموه الى هذه الايالة المهدية العاقبة الحاشرة الوارثة لمن تأخر بحول الله وتقدم ولن تزال ظاهرة على الحق بحجته ومالكه فيه على طريق الحق ولحجته حتى يسلم ان شاء الله الى عيسى بن مريم والحمد لله الذى وفق امامته المحمدية الكاملة بين مذاهب الامم والفرق وجمع عليها من الاهواء ما كان فى الحديث والقديم اختلف واقتضى ودل هذا المن الربانى الذى تأتى لها اختصاصا من الله واتفق وانتظم لها بالايثار الالاهى واتسق على صديق النبأ المستفيض عند كل مومن المتضح لدى كل مسلم موقن والمتحقق من الآثار المستنبطة من علم اليقين المجزوم بها عند العارفين المتقين والابرار المخلصين الصديقين من أن هذا الامر العزيز متين متمكن له فى الارض مخلوم الارادة فى البسط والقبض منصور اللواء على مر الاوقات والاناء الى يوم الدين والمعرض موعود له بالفتح والنصر والتمكين والظهور ودائم التخليد الى يوم البعث والتشور لا يضره من عانده ولا من عاداه ولا يقدح فيه من خذله أو خدعه أو سلك على غير منه عظمة من الله لا يكيدها كيد كائد وأمر مخروس بالله لا يحل * عقوده المنظمة وعهوده المبرمة وزوابطه المحكمة طروق

طارق ولا نزول نازل ولا حدوث حادث زائد حتى ينجز الله وعده الكريم في الاستيلاء على الاقرب والابعد والابيض والاسود والاقصى والادنى والانتها من مراقى الكمال الى مركزها الاسمى ومصعدها الابعد الاسعد الاسنى والقاء الامامة العظمى على الاحق بها فالاحق والاولى فالاولى عدلا وشرفا واعظاما وانجازا للوعود السابقة والبشرى الصادقة واكمالا لشأنها واتماما ولما أطلع الله بامامته الكريمة شמוש الهداية بهذا المغرب الاقصى والدين به غريب وصاحبه مريب والفضلال قد دجى ليله وضى على الاسلام ذيله وسال بالعيث والحيف على البلاد سيله وأوجفت بالبغى والعدوان رجله وخيله صدع بالحق وأظهره ودحض الباطل وهدره ورفع لواء الايمان ونشره وأمات الناس فاقبره وأحيى الدين الحنفى وأنشره وجدد شرائع جده واستقال الاسلام من عثار جده وأشاع المعرفة وغير المنكر قدر جهده وجاهد في الله حق جهاده وجرى في قضاء حق الله في العباد الى أبعد آماده حتى غدى جناب الاسلام مريعا وحصنه منيعا وباع الحق وسيعا ورياض العدل اريضه وساحة الامن والامان طويلة وعريضة وأبواب الجور مغلقة ومقبوضة وحين استنار به رضى الله عنه وقدمه المسلك والمنهج ولاحت لمن قدرت له السعادة شמוש الهداية والوهج لحق بالرفيق الاعلى وسور فضله في صحائف الايام تتلى واثاره الواضحة على جبين اليمى تجلى ونبؤه العجيب الصادر عن علم اليقين فى شأن سليله الامام الخليفة المجاهد مولانا ابا العباس المنصور أمير المؤمنين محفوظ والوقت المعلوم لظهور ذلك السر المكتوم مرتقب وملحوظ الى أن أذن الله بانجاز الوعد الموعد والامد المرسوم المحدود آتته الخلافة والفتح يزفهما بين يديه الى جلاله ويسوقها غنيمة الى أسله ونصاله على حين غزوته الشهيرة العظيمة الكبرى وفتحته التى خلج على الاسلام والمسلمين حلل الفخر والمسرة والبشرى فعقدت بحكم الاحتفال فى مشاهدها المباركة وحرص الكافة فى احراز المساهمة فيها والمشاركة بيعته السعيدة المباركة الرضوانية التى حضرتهما أجناد الارض وملائكة السماء وفتحت لها أبواب المغفرة والرحمة وتضاعفت بها على الحق سوابغ الالاء والنعمى عن وفاق واجماع من أهل الحل والعقد وسائر العساكر والاجناد ومن جميع الاشياخ والاعيان وجماهر القبائل والشعوب من كل بلاد وحاضر وباد ومن كل خاص وعام بمواثيق * وعهود وايمان وربوط مستكملة الشروط على الكمال بحول الله والتمام فشملت المسرة وتشرفت بدعوته المباركة الامامية المنصور المناير والاسرة وارتفعت الريب ولاج نور الحق فجلا كل غيب ولما انتظم أمره أيده الله وانسق وتمهد ملكه واستوسق وقمع أهل الشقاق والعناد وقضى حق الله فى العباد وعرفت كفه المباركة بالا عنه فى الجهاد وتعود عاتقه فى سبيل الله حمل النجاد ووطئت كتابه المنصورة بالله أقصى الاغوار والانجاد وحيطت الثغور

ونام في خفارة السيف والسنان الخاص والجمهور نظر نزه الله عن السرار بسر
كماله ولا يضح الامة والامامة من وارف ظلاله في عواقب الامور وصدق نفسه نفس الله
مهلها عن المقدور ولاحظ قول القائلة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ارايت ان جئت
ولم أجدك فتلقاها عليه السلام بالتصديق واجابها عن الصديق فاهتدى ايده الله بهداه
واقطفى اثره عليه السلام ومداه وتامل ايده الله أمره وفسح طويلا عمره في حياة من
وكل من الخلق الى امامته وعنايته وحفظ بعين كلاته ورعايته ونظر اليهم نظر الشفيق
والنفت اليهم التفات الرؤوف بالمومنين الرفيق ولم يزل ايده الله وشكر اعتناءه يعمل عوامل
رايه وفكرته ويكحل جفن نظره في صلاح المسلمين بالسهاد ورويته ويستخير الله في
مجالس خلواته ويستمنحه التوفيق للاصابة في مرفوع دعواته ويسئله سبحانه العزيمة
على من فيه الخيرة والصلاح لكفالة الامامة من بعده والامة وللم الشعث ورفع الشتات
ونصر السنة وجمع الكلمة ودفع الصروف الملمة ويستوهب منه تعالى الالهام الى من
هو اهل لتقليد عهده ونصبه اماما للناس ان شاء الله من بعده غير متخل خلال نظره ايده
الله بمشاورة اهل الحل والعقد لديه في الاصدار والايراد وارباب الشورى من وزراء
الدولة وخواص الاجناد وغير مستبد ايده الله وهو احق الناس بالاستبداد ثم ما زالت
أنساً الله في اثره وخلع على الايام جمال سيره مخايل الفضل له ولهم تتميز والحق
الى أهله ونور الله بين يدي عقده وحله يرشده الى من رآه الناس دون محله وهو
ابنه المقتفى من سننه ما اقتفى ومجتبى الخلافة نسبا وحسبا وخلقا وفرع الامامة التي تزهي
الدنيا والدين بها جمالا وشرفا مولانا الملك المعظم الهمام الاعظم الاجل الافضل الاكمل
الاطهر الاظهر الاشرف الاحسب الانسب الاسد الاسعد الامجد الاصعد مولانا أبو عبد
الله محمد الشيخ المامون بالله بن أمير المومنين الذي لم تزل عيون المسلمين عصمهم
الله ممتدة ونفوسهم لتقليده وتعظيمه * معدة ورغباتهم الى أمير المومنين في نصبه لعهدهم
مشتدة لما عرفوه وشاهدوه من عدله وهديه وتعرفوه في كل الاحوال من مشكور سعيه
ويمن نقيته ورأيه ولما استحكمت السعادة وأذن الله ببلوغ الارادة ونهض بالركاب
العالى الامامى النظر في صلاح المسلمين العام وقاده رائد السعادة والتوفيق الى أسعد
مخيمه المبارك بتامسنا وايمن مناخ ومقام لعهد الثلاثة وتسعين أنجح سنه مباركة
وأسعد عام تالق بالمجتمع السعيد الذى جمع الاحمر والاسود أو كاد من العساكر والاجناد
ومن انصاف اليهم من جماهير القبائل والاشياخ والاعيان من كل بلاد وحاضر وباد
جمع كبير وحفل كثير وجم غفير ممن يدخل فيما ارتبطوا عليه سائرهم وينتظم فيما عقده
جماعتهم وعشائرهم فعزمت على الجميع البواعث الايمانية واشارت على الكل والكافة
العناية الربانية بتجديد البيعة الرضوانية والعهود الاكيدة الايمانية التي سبق لمولانا

ص 98

الخليفة المجاهد أبى العباس المنصور أمير المؤمنين الأخذ بها من الكافة لنفسه ولولئى
عهده المسلمين ان شاء الله من بعده مولانا أبى عبد الله محمد الشيخ المامون بالله بن
أمير المؤمنين وأجمع المسلمون عصمهم الله قاطبة على اعاتتها اكمالا للفريضة ورجاء فى
الفضيلة واستنادا الى الاشارات الجليلة بعد الاستشارات الطويلة فأجمع مولانا الامام
الخليفة المجاهد أبو العباس المنصور بالله أمير المؤمنين أيده الله باجماعهم وبمحل
اجتماعهم ولم يال جهدا فى نصح الدين وفى صلاح المسلمين فانهم أطال الله أيامه ونصر
بنوده وأعلامه بعقد هذه البيعة المباركة السعيدة والأخذ فيها بالعهود الاكيدة
والمواثيق اللازمة الشديدة ولولده ولئى عهده وعهد المسلمين ان شاء الله من بعده مولانا
الامير الاجل الاكمل أبى عبد الله محمد الشيخ المامون بالله ابن أمير المؤمنين أيده الله
ونصره وأعلى أمرهما وظفرهما فنادى بها منادى الحق فى الانام هى بيعة الرضوان
فادخلوها بسلام فأبتر المسلمون عصمهم الله لادائها عجالا وأتوها بصدور منسرحة وآمال
منفسحة خفافا وثقالا وانقادوا اليها طائعين متبرعين مغتبطين مرتبطين فبايعوا عصمهم
الله قاطبة لمولانا الامام الخليفة المجاهد أبى العباس المنصور أمير المؤمنين ثم لولده وارث
مجدده وولئى عهده وعهد المسلمين ان شاء الله من بعده مولانا أبى عبد الله محمد الشيخ
المامون بالله ابن أمير المؤمنين على الامن والامامة والعفاف والديانة وعلى السمع
والطاعة وحكم السنة والكتاب * والجماعة مبايعة أدوها صفاء الاعتقاد الى السنة وحط
الايدي من جميع الاشراف والوزراء والرؤساء والصلحاء وطبقات العساكر والاجناد والاعيان
والاشياخ الخاص والعام من كل حاضر وباد ربطوا نياتهم على الاخلاص لها ربطا أسس
على التقوى وشدوا بعقدتها الكريم للدين عضد الحزم الاقوى وشكروا الله على ما
وفق اليه أمير المؤمنين من جمع كلمتهم على أفضل ولده وخير الخلق كافة من بعده وتلوه
فى الخلائق الحسنى وشرفه الاسنى وابتهلوا اليه سبحانه أن يجازى أمير المؤمنين على
سعيه المبرور وعمله الصالح المدخور بأفضل ما جزى به خليفة استخلفه فى أرضه فقام
بحق سننه وفرضه وعدل فى بسطه وقبضه وسأله تعالى أن يديم للخلافة فى يد أمير
المؤمنين طبالها ويطيل اتصالها ويمد بكرها وءصالها حتى لا يخلع أثوابها الا بعد مهل
لا يبلغه شاو الخلفاء ولا يتناوله يد الاستيفاء فيصير الامر لولئى عهده ووارث مجده والامامة
ان شاء الله فى فصلها مستقرة باقية والامة بحول الله به مغتبطة راضية ولما عمت
المسلمين هذه البشرى وجاءتهم المذاهب تترى أعطوا بها صفقة الايمان المغلفة وأخلصوا
عقائد ايمانهم المستحفظة والتزموا عهودها الاكيدة ودانوا بمواثيقها الشديدة على السمع
والطاعة وبذل الجهد والاستطاعة لمولانا الامام المجاهد أبى العباس المنصور أمير المؤمنين
ناصر الدين وقامع المشركين والملحدين ثم لولئى عهده وعهد المسلمين ان شاء الله من

بعده قرة عين الاسلام وكافل الامة والامامة من بعد ما قام الجامع لخصال الفضل على الكمال والتمام الجارى على سنن سيد المرسلين وعلى جادة ابيه الخليفة الرضى أمير المؤمنين ومقتفى أثره فى كل فرض من فروض العدل ومسنون مولانا الامير الاجل الملك الاسعد أبى عبد الله محمد الشيخ المامون بالله بن أمير المؤمنين وصل الله لايالتهما الكريمة النبوية العز المكين ونصر آلويتهما الامامية بنواسم النصر والتمكين وأشهد الكل ممن حضر المشهد الكريم والجمع العظيم من أبناء أمير المؤمنين وأهل بيته وقرابته من جميع الاشراف والعلماء والصلحاء والوزراء والرؤساء والقواد والاجناد والاشياخ والاعيان من كل حاضر وباد على الوفاء بشروط هذه البيعة المباركة الرضوانية والمواثيق الشديدة والعهود اللازمة الاكيدة الايمانية فى اليسر والعسر والقل والكثر والرضى والسخط والقرب والشحط عالم السر والاعلان ورسوله المصطفى سيد ولد عدنان ومن فى الارض والسماء من ملائكة الرحمن وعلى أن يكونوا لمن ود الامام الخليفة * المجاهد مولانا أبا العباس أحمد المنصور بالله أمير المؤمنين وود ولده ولوى عهده وعهد المسلمين ان شاء الله من بعده مولانا أبا عبد الله محمد الشيخ المامون بالله ابن أمير المؤمنين واحبها حزبا وعلى من حاد عنها حربا ولن والاهما أولياء وعلى من عاداهما أعداء قريبا كان أو بعيدا شقيا أو سعيدا كائنا من كان وحيثما تعين وبان فى زمن الازمان أو حين من الاحيان ما تعاقب الملوان واتصل الجديدان واصطحب الفرقدان لا يستثنى أمير المؤمنين من هذا الحكم العام من بعد ولوى عهده وعهد المسلمين ان شاء الله من بعده مولانا الاسعد أبى عبد الله محمد الشيخ المامون بالله بن أمير المؤمنين أحدا من بنيه وأهل بيته وقرابته ونسبه وكل من يمت لهذا الامر أو يتعلق بسببه أو يدلى بقرب أو قرابة أو ينتمى لهذا المقام العلى الكريم المتأبه فقد أخرج أمير المؤمنين من هذا العهد الكريم الذى قلده ولوى عهده وعهد المسلمين ان شاء الله من بعده مولانا الامير الاجل الاكمل أبا عبد الله محمد الشيخ المامون بالله بن أمير المؤمنين عن جميع بنيه وأهل بيته كافة وقرابته خاصة وعامة ما تعاقبوا وتناسلوا واتصلوا وتواصلوا وصرفه عنهم كافة كما صرفهم عنه ولن يضرب لاحد كائنا من كان بحظ ولا نصيب منه غير مبال أيده الله فى هذه الامانة التى أداها الى من رآه أحق بها وأهلها وأنسب بها حياطة للامة ونصرة للملة وأولى برحم يصله ولا غرض لولد أو قريب يحصله ولا مستلزم فيها من بنوة ولا قرابة عن حقه ولا اخوة وألزم أيده الله الكافة أن لايعبؤوا بكل من يمد بالدعاء الى نفسه وقتا ما أسبابه أو بفتح الى شق العصى وحل هذا النظام الذى تألف عليه من المسلمين الادنى والاقصى وصيد الشقاق باباه وأن يعاجلوا ببيض السيوف وسمر العوالى الموردة لموارد العتوف كل من يتراعى به الانتكاف والعدوان الى الوثوب على هذا الامر

المحروسى العزيز المكان محتجين بقوله عليه السلام من أراد أن يفرق هذا الامر وهو مجتمع فاضربوا عنقه كائننا من كان بحيث لا يعتبرون أحدا غير ولى عهد المسلمين مولانا محمد الشيخ المون بالله بن أمير المؤمنين ولا يعبتون بسواه أيا كان أقبل أو أدبر نفع أو ضرر غاب أو حضر عى أو بر وأن لايهزمهم عند متخلفات الاهواء زعزع ولا رخاء ولا تستفزهم نزغات الشيطان فى شدة ولا رخاء وأن يطهروا قلوبهم من سخائم الغش والخللان والخديعة لمولانا الامام الخليفة المجاهد أبى العباس المنصور بالله أمير المؤمنين وولى عهد المسلمين ان شاء الله من بعده * مولانا أبى عبد الله محمد الشيخ المامون بالله ابن أمير المؤمنين وأن يخلصوا مضمراتهم وسرائرهم وطواياهم من شوائب الدلس والخللان والمداينة التى وصف الله بها المنافقين وأن تكون كلمتهم على لم الشعث ورفع الشتات ودفع مكائد العداة كلمة واحدة وأهواؤهم وعزوماتهم على الخير والصالح والتظاهر والنصح لمولانا أمير المؤمنين وولى عهد المسلمين فى السر والجهر متعاضدة وأن لايتأثروا فى خير ولا شر لشيطان مارد أو مارق تهتف به هواتف المناكر والمفاسد أو ماكر يسعى فى حل هذا النظام المحروس بالله بمكيدة من المكائد أو نائس يشور أو باغ يستمسك بحبل الغرور أو قائم يدلى بطلب ما لم يصرفه الشرع اليه ولا خلع أمير المؤمنين عهده عليه مصممين على هذه العهد والربوط التى دانوا بها واعتصموا بأوثق عروتها وسببها غير مرتابين ولا شاكين فى أن من رام القطع عن هذا القصد المبارك فالله تعالى به قاطع ومن تصدى لتفرقة هذا النظام فالانتقام من الله تعالى عليه واقع ثم لما تجلى لمولانا الامام الخليفة المجاهد أبى العباس المنصور أمير المؤمنين فى ابنه الاهدى وولى عهده ان شاء الله من بعده فى كل حال على سنن الاستقامة والهدى مولانا الملك الاسعد الاصعد أبى عبد الله محمد الشيخ المامون بالله بن أمير المؤمنين من المذايل الكريمة والشمائل الوسيمة ودلائل النجج الجارية على المسالك القويمة وتعرف أيدى الله من أحواله التى اقتفى بها «أثاره الواضحة ومقاصده الصالحة ومن عدله الذى لا يغيب الاله احسانه وانعامه ولا يعدل فيه عن سنن الخلفاء آبائه الراشدين احكامه ما أداه الى أن استكفاه وبعث أيدى الله على أن استرعاه أمر الخلق من بعده فأغناه وكفاه وتعرف اليمن والامان فى كل ما أتاه بعد أن محض عنه أيدى الله وعن جميل سيره واختبره وردد البحث تدبراته وحميد أثاره فى كل ورد وصدر وكرره والقاء والتوفيق لارائه رائد والسعادة بحمد الله فى كل حال مطردة العوائد شرط عليه مولانا أمير المؤمنين أيدى الله أداء ما يجب عليه وعلى الخلق كافة من السمع لامير المؤمنين والطاعة وامتثال امره ونواهيهِ المطاعة واعطاء مقام الانقياد له فى جميع حركاته وسكناته وعوداته فى الامور وبدءاته طول بقاء أمير المؤمنين أيدى الله وطول حياته وأسقط عنه من الاجل الذى لا بد

من موافاته كل شرط يتعلق بهذا التقليد المصروف اليه من بعد أمير المؤمنين وثنيا وأطلقه من كل عقال وربط لا يقتضيه حكم التقبض أمرا ونهيا ثقة منه أيده الله بما يعلمه من كفايته * في الامور وكماله وتحققه من شريف آثاره الحميدة وخصاله وأسند الى نظره السديد أيده الله اختيار من يرتضيه من ولده ان شاء الله وذريته ومن أبناء أمير المؤمنين اخوته أهلا لولاية عهده المصروف اليه من قبل أمير المؤمنين من بعده ووكل أمير المؤمنين اليه في ذلك الراي الرشيد بحكم التفويض التام والاذن من أمير المؤمنين المطلق الشامل العام الا أن يتجدد لأمير المؤمنين نظر يقتضيه الصلاح ويدعو اليه داعي النجاح باسناد العهد الى أحد أبنائه أولاد أمير المؤمنين من بعد ولي عهده وعهد المسلمين ان شاء الله من بعده مولانا أبي عبد الله محمد الشيخ المأمون بالله بن أمير المؤمنين فنظر أمير المؤمنين وأمره في ذلك نافذ وماض وحكمه فيما يراه أيده الله ويختاره ليس عليه اعتراض ثم الخيار من بعد ذلك لولي عهده وعهد المسلمين من بعده مولانا أبي عبد الله محمد الشيخ المأمون بالله بن أمير المؤمنين في صرف ذلك العهد بعد من يرتضيه أمير المؤمنين الى من يشاؤه هو ويختاره من ولده لصلبه وذريته وعقبه ما شهد مولانا الامام الخليفة المجاهد أبو العباس المنصور أمير المؤمنين أيده الله بما فيه عنه وعن رضى واختيار منه كما أشهد الكل والكافة ممن حضر الجمع العظيم والمشهد الكريم من أبناء أمير المؤمنين وأهل بيته وذوى نسبه وقرابته ومن الاشراف والوزراء والرؤساء والعلماء والصلحاء والقواد وجمهور العساكر والاجناد والاشياخ والاعيان من كل حاضر وباد على الوفاء بكل ما تضمنه هذا التقليد الكريم والعهد الشريف المبارك الجارى على ما سنه خير الخلق عليه افضل الصلاة وازكى التسليم من العهود والشروط التى التزموها وتقلدوها والمواثيق والربوط التى دانوا بها وارتضوها طائعين ومتبرعين واعتقدوها واقسموا على ذلك بالله الذى لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم وبعهد الله وموآثيقه وذمته وذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وذمة أمير المؤمنين وذم المسلمين وبأشده ما أخذ الله من العهود والمواثيق على النبيين والمرسلين وعلى الملائكة المقربين ووكلها فى اعناق المسلمين والمؤمنين وبجميع الايمان المؤكدة والمواثيق المشددة التى أمر الله بالوفاء بها قليلها وجليلها ونهى عن نقضها وانتكائها وتبديلها وانهم ان حادوا عن هذا السبيل أو انحرفوا لداعى التغيير والتبديل أو نقضوا شيئا مما أشرطه أمير المؤمنين وسماء فى هذا التقليد الكريم وأخذ به لنفسه ولولى عهده من بعده وعهد المسلمين أو بدلوا فى ذلك وغيروا أو نكثوا * فى شيء منه وغدروا فقد برئوا من الله ورسوله ومن ولايته ودينه ومن آل محمد صلى الله عليه وسلم ومن حول الله وقوته الى حولهم وقوتهم ومن ذمة الله الوافية لئمتهم ولقوا الله كفارا مشركين ولكل ما نهى الله عنه ءاتين وما أمروا به

نابذين وتاركين وكل امرأة هي اليوم لرجل منهم أو يتزوجها في جميع بلاد الله الى خمسين سنة فهي طالق ثلاثا البتة طلاق الحرج لاتنويه فيه ولا رجعه وكل مملوك ملكه أحد منهم أو يملكه الى خمسين سنة عبيدا أو اماء ذكورا أو اناثا فهم عتقاء لاحقين بأحرار المسلمين وعلى كل رجل منهم المشى الى بيت الله الحرام الذى بمكة خمسين حجة ندرا واجبا عليه فى عنقه على قدمه حافيا رجلا مجرما من منزله بحجة كفارة لاتعزى عن حجة الاسلام ولا يقبل الله الا الوفاء بذلك وكل مال هو لاحدهم أو يملكه أو يستفيده الى خمسين سنة عينا وعرضا حيوانا وأرضا وزرعا وضرعا وسائر ما يحويه التملك كلا أو بعضا فهو هدى بالغ الكعبة مخرجا عليه أن لا يصرف شيئا من ذلك الى ملكه لحيلة أو استرعاء يقدمه لنفسه الزموا قاطبة وفقهم الله هذا كله وأشهدوا به غير مضرين لسواه ولا ناوين الا اياه متطوعين ومتبرعين غير مجبورين ولا مضطرين عالمين بما شرطه عليهم أمير المؤمنين لنفسه ولولى عهده وعهد المسلمين ان شاء الله من بعده وسارين ومستبشرين عالمين ما عد لاصحاب نبيه الكريم الذى بايعوه بيعة الرضوان المتلو شأنها فى القرآن اذ قال تعالى تعزىزا لهم وتعظيما وتعريفا بسبب الثواب المرتب على نيه القلوب وتكريما لقد رضى الله عن أمير المؤمنين الى قوله وكان الله عزيزا حكيما وكتب الملا من أبناء أمير المؤمنين وأهل بيته وقربته ومن تلاحم أسماؤهم عقب هذا الكتاب ليكون باقيا فى الاعقاب وثابتا ان شاء الله يوم الاحقاب وقد دانوا الله تعالى بما أمضوه وعقدوه والتزموا الوفاء به وشدوده ورضى الله تعالى يهديهم ويد الله فوق أيديهم فمن نكت فانما ينكت على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسنوته أجر عظيم وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما والحمد لله رب العالمين وفى تاريخ جمادى الاولى عام ثلاثة وتسعين وتسعمائة(1).

ذكر قسيمة الممالك والاعمال بين الامراء بنى الامام أمير المؤمنين

كان للخليفة الامام أيده الله جماعة من الولد لامهات مختلفات وكان المرشح منهم للامارة ومناصب الولاية أربعة أكبرهم سابق حلبتهم والمحل فى مضمار مجدهم وميدان عزمهم المولى أبو عبد الله محمد الشيخ المامون وشقيقه المولى أبو فارس عبد الله والمولى الامير أبو الحسن والمولى الامير زيدان ولما طلعا أعزهم الله بافاق دولته الشريفة وطالت فروعهم فى دوحته النبوية وازينت بدراريهم سماء خلافته العلية رء أيده الله أن يرسى بهم قواعد ملكه ويشد بهم ازر الاسلام وعضد الملة فجرد لهم العساكر وعقد لهم على الجهات وقسم بينهم الممالك فاما كبيرهم ويعسوب بيئتهم والطود العالى على هضباتهم المولى

ص 104

الامير أبو عبد الله محمد الشيخ فانه لما كان له أعزه الله من مزيد الشفوف على الجميع بسنده وهديه وشرف همته وحسن ملكته وكفايته ما شهد له بمغبة حاله قلده الخليفة الامام أيده الله ولاية العهد وألقى عليه أمانته العظمى كما قدمنا وعقد له على فاس وسائر ممالكها فاضطلع بأمرها وحسن فيها غناؤه ولما أخذ له البيعة على اخوته بتامسنا رءا أيده الله أن يقسم لهم من الترشيح الامارة ويزين بهم مناصب الملك فعقد لهم بذلك المشهد المبارك في تامسنا على الولايات والاعمال فأما المولى أبو فارس شقيق ولى العهد ورديفه فعقد له على السوس وسائر ممالكه ونصب فيه النيابة عنه مولاه القائد أبا عبد الله محمد بن بركة وأنزله هو معه بالحضرة ودفعه الى النيابة عنه في مغيبه عنها وسماع المظالم والقعود للجم الغفير بايوان الخلافة متى عن للامام في بعض الاحيان ما يوجب العكوف في قصوره عن مصالح المسلمين والنظر فيما استرعاه من أمور العباد فاستنبلت في جميع ذلك أغراضه وحمد الناس فيه مغبة اختيار أمير المؤمنين وحسن نظره الكريم في اعتيابه وترشيحه وأما المولى أبو الحسن فعقد له أولا على مكناسة وعقد للمولى زيدان أصغرهم على تدلا ثم بدى له أن يدل كلا منهما بالآخر فنقل المولى أبا الحسن لتدلا وعقد له على مكناسة وولاه أعمالها فسرجه اليها وشد بهم عرى ملكه فازدهت بهم ءافاق الدولة ورست بقواعدهم أركانها الثابتة ونفقت بذلك سوق المنافسة في المعالى والاستباق الى احراز الخصل في اقتناء المكارم والتبريز في ميدان النجدة وثقافة النظر وحسن الضبط وجرى في كل ذلك الى أبعد شأو وأقصى غاية والامور جارية * لهذا العهد على ما وصفنا من أحوالهم جميعا أبقاهم الله والحفهم سراييل العز والعناية وجعل هذا الامرالكريم باقيا فيهم الى يوم القيامة

ذكر خروج الدعى ابن قرقوش بجهات الهبط وجبال غمارة وما كان أمره الى حين هلاكه

كان والد هذا الدعى يدعى بالحاج قرقوش من سفلة البيوت بمدينة مكناسة ونشأ هذا الغمر في حجره محترفا بصناعة الحياكة ثم تلبس بشعار أهل الزهد والورع المنتمين الى الصلاح واغترب عن بلده وذهب يتقلب في الارض منتحلا للمشيخة وطالبا للتلميذ وكان يتعاطى تدليس السكة ويدعى انه يخيل المعادن الى الذهب والفضة ولم يزل ينتقل في البدو من حى الى حى وكلما أقام بمكان حتى يستوضح أهله جنبه ويفضحه العجب في ما ادعاه فيمقتوه انتقل منه الى مكان آخر حتى وصل الى جبال غمارة وكان أهلها على ثنج من الجهل والغباوة والبعد عن مدارك العقلاء فانتمى اليهم الى أهل البيت وادعى الهداية فتحدثوا بشأنه واشتملوا عليه ثم سرى خبره في سائر بلاد الهبط وجبالها فانثالت عليه غوغاؤهم من كل فج عميق وطاقوا به وانفعلوا لزيه فركبوا سنن

الخلاف ولبسوا جلدة التفاق وتفاقم بذلك أمر الدعى فلبس شارة الملك واتخذ الالة وتسمى فى كتبه بأمر المومنين فاضطربت به سائر بلاد الهبط نارا وفتنة وكان مبدأ ظهور ضلاله ومثار نيران فساد زيفه فى النصف من صفر عام ستة وتسعين (2) ووافق شان قيامه اشتداد كلب البرد فاستعان من ذلك على ما أضرم من الفساد وأقام من سوء الفتنة بعدوين ظهيرين له الثلج الذى سد على العساكر المسالك المفضية الى الجبال من السهل وأعواز الجبب للعلوفة اذ ذاك الفصل بالجبال فتحصن بذلك وبما تسنم من ذروة المنع فجهز أمير المومنين العساكر وأملا له رفقا بجنوده من اقتحام الثلج واحتقاراً لشأن الدعى وغوغائه وعلموا بأن آمال أمرهم الى الاضلال ونار فسادهم الى الخمود لبناء أمره على غير أساس من الامور التى تتقيها الدول والا فلو آنس من أمره ما يحذر مغبة اهماله ما كان ليملى له أو يضيع فى امهاله الحزم أو يصده عن فريسته تراكم الثلج واعواز الحب لكثرة جنوده ووفور كنوزه ومخازن أقاته وجبوه ولما انصرم الفصل وتفشع عن الطرق الثلج وبدا صلاح الحب زحفت اليه العساكر من فاس فى جمادى على يد ولى العهد يقتادها * الشهم القائد أبو عبد الله محمد بن ابراهيم بن بجة وكانت زهاء ستة آلاف بين الاسل والنار فجمع اليها الدعى من أحزابه من الغوغاء أولا فصمدت نحوهم العساكر وصمم لحربهم القائد أبو عبد الله والناس فى كل يوم يستوضحون خبء الدعى ومكره الى أن اختل بزحف العساكر اليه نظام حزبه من الغوغاء ففرقوا عنه وتبرءوا منه وأسلموه فلاذ بالاختفاء وغاص فى لجة الجبال مدججا باليل وكامنا فى النهار طالبا منجاة الى بعض ثغور المشركين بسيف البحر وكان القائد أبو عبد الله قد أذكى عليه العيون وأغرى أولياءه من أهل الجبل بالبحث عليه فأرصدوا بكل ثنية فانفق أن بعث الدعى بعض أصحابه من زعانفة الغرباء الذين طوحت بهم الطوائج ليلتمسوا له ولانفسهم طعاما من العمران حول مكمنه لفرط ما أذاقهم الله من لباس الجوع والخوف فانطلق منهم ثلاثة أشخاص ملبسين بزى الفقراء أهل السياحة فى الارض فعثر بهم شريف من شرفاء العلم الادبسة يعرف بعبد الله بن عبد الرحمن وكان أشد الناس بحنا على الدعى وأحرصهم على الظفر به يبتغى بذلك اليد عند الدولة فتفرس فى الاشخاص وركض اليهم فرسه فغلظ لهم فى القول فنجعوا وذلوا وارتبكوا واقتادهم بين يديه على كره الى العمران حتى وصل بهم زاوية شريف من طاعة القصر ودعى بالقيم عليها فأغراه بالقبض على الاشخاص وحلره مغبة افلاتهم فشد عليهم الوثاق وفوض اليه فى أمرهم فبقى يتهددهم بالعذاب والقتل ويعددهم بالخلاص من الورطة واطلاقهم ان صدقوه كنه الدعى حتى أقسروا له وحدثوه عن مكمنه فصرخ فى السحر فى أهل شريف فساروا معه رجالا وركبانا ونفر

ص 106

(1) منتصف صفر 996 هـ يوافق منتصف يناير 1588

الأشخاص ليصون بهم الطريق إلى الدعي فلم يرعه إلا انقضاى القوم عليه ضحى يوم الجمعة سابع عشر رجب العام (1) وعلى امرأته حمالة الحطب وكان أصهر منها لأول انتزائه إلى بعض أشيخ الجبل من أهل تبريزان يعرف بأحمد بن موسى شيخ بنى خالد ليستظهر بعصيته فوكل به وتولى لصاحب القصر القائد أبى العباس أحمد بن عبد الله فسرّح إليه من أتاه به وطير الخبر من حينه إلى أمير المؤمنين فوافاه بمسكّره من ظاهر الحضرة راجعا من حركة راحة أعمالها لزيارة الصالحين والتبرك بمشاهد الأولياء بمدينة اغمات وجىء بالدعي إلى ولي العهد بفاس فقتل هو ومن معه من أتباعه يوم الأربعاء الثانى وعشرين من رجب (2) وعلق شلوه على سور البلد الجديد وطير برأسه إلى الحضرة فوافى يوم دخول أمير المؤمنين من زيارته فنصب على خشبة بإساراك من القصبة وبقي هنالك مدة إلى أن سقط بجولان الخيل فى الميدان أيام الموسم فألصقت السنايك عظامه بالرغام * وذهب فى غير سبيل مرحة .

س 107

ودخل (3) أمير المؤمنين فى يوم الخميس منسلخ رجب أو مهل شعبان عام ستة وتسعين فوافق دخوله ورود رأس الشقى ابن قرقوش الثائر كان ببلاد الهبط حسبما قدمنا فعظم سرور أمير المؤمنين بما انفق له من ذلك وجاشت فكرتى حينئذ بأبيات صنعتها فى معنى التهئة فقلت :

انل فبكل كف منك ومر	قالهر يفعل ما تقول
اطاعك فى عراك بكل ارض	لتعلم انه عبد مشيل
ومن يكن القضاء لديه جندا	تصان عن الدماء له النصول
ومن تنوى ولو عنقاء جوف	فسيك ذو الفقار به كفيل
ومن سئم الحياة يسم نفاقا	يعاجله لكم أجل عجول
واشقى الناس من يعصى اماما	ولياه على والرسول
اذا زار استكان الاسد رعبا	وترهب منه ان هدر الفحول
بنى الهدى انتم للبرايا شמוש	لا يعارضها أفول
وأقرب ما لكم فى ملك الى	عيسى بن مريم لا يزول

ثم قطعت من دون كمالها اشغال سبحت فى تيارها فصرفتنى عن تمامها ولم أرفعها إلى جلاله العالى

(1) الجمعة 17 رجب عام 996 هـ يوافق 12 يونيه 1588

(2) الأربعاء 22 رجب 996 هـ يوافق 17 يونيه 1588 .

(3) يقتضى الترتيب الزمنى للاحداث الانتقال إلى صفحة 184

وضرع (1) سائر أهل الجبال المنغمسين في الثورة مع الدعي الى أمير المؤمنين في الصفح عن جرائمهم فتقبل فثتهم وعفى عنهم الا أهل تبريزان من بني خالد قوم أحمد بن موسى صهر الدعي ومتولى كبر الفتنة أوعز الى القائد أبي عبد الله بن بجة باستيصال شافتهم وتخريب عمرانهم واقتلاع جرثومهم جزاء على ما اتوه من النكث والمجاهرة بالخلعان ونصرة الدعي وايوائه والقيام بدعوته فاستباحتهم السيوف بالقتل رجالا ونساء وولدانا وغادرتهم حصائد واجتمعت العساكر على عمرانهم فغربوا الديار واقتلعوا الأشجار وعفوا الآثار وترك المنازل أطلالا دراسة كان كأن لم تكن بالامس فكان في ذلك أعظم العبرة والموعظة لمن سواهم ثم جلت العساكر خلال ديار سائر قبائل الهبط ومرت تتقري جبال غمارة هضبة هضبة وقنة قنة حتى استوعبتها سلوكا واقتضوا من جميع أهلها العدة وقبضوا منهم الرهن على الطاعة فنصلوا الى بلاد الريف وقد دوخوا سائر الجبال تدويغها ودمروا أرض المارقين تدميرا وحسموا منها داء النفاق واثار الفساد وقلوا الى ولي العهد بفاس ظهريين

ذكر ارتحال أمير المؤمنين لفاس للمرة الثانية وما قارب ذلك من الفتح ودار من الامور وكان من تجهيز العساكر الى الجهات ووصول الابناء من ملوك النصرانية والسودان الى الحضرة في مغيبه

لما قضى أمير المؤمنين وطرا من زيارته ورحل الحضرة في آخر رجب العام أجمع امره على الرحلة لفاس لتفقد أحوالها وكثرة اشتياق أهلها الى طلعتة السعيدة والاقتباس من انوارها النبوية لطول عهدهم به منذ سبعة اعوام فتلوم بالحضرة حتى قضى منسك الاضحى فاضطرب معسكره بباب اغمات وخرج اليه يوم الخميس موفى العشرين من ذي حجة عام ستة وتسعين (2) فأقام هنالك نصف شهر أو نحوه فارتحل وعاج على وادي السد وتناقل في الطريق ليقضى وطرا من الصيد ولما نزل بساحة قلعة الكرار وتلوم بها اياما وافته هنالك البشارة بما سنى الله عنده بتيطاون من الفتح والاستيلاء على المشركين أهل سبته وكان من خبرهم في ذلك ان العصابة القائمة بفروض الغزو والجهاد من المسلمين بتيطاون حاولوا انتهاز الفرصة في المشركين أهل سبته واجتمع زعمائهم الذين مارسوا خدعة الحرب تدبر مكيدة توصل الى استيصال شافة العدو والاستبلاخ في نكايته وتمنحهم رضى الله وتخليد الذكر مع الايام فانتدب لذلك منهم زعيم الفتنة * احمد بن عيسى النقسي وكان احد المقدمين على الرجل من

ص 108

(1) الانتقال الى صفحة 107

(2) يوم 20 حجة 996 هـ يوافق 10 نوفمبر 1588 -

حامية الثغر وله فى الغزو والجهاد معاهد مشهورة ومشاهد مذكورة وتقدم فى جماعة من أصحابه الذين عركتهم مشاهد الحروب مع المشركين الى فحص سبته وكان اعرف الناس بمكانته واخبرهم بمسالكه لطول مراسه فتنكب عن المكامن التى يعتاد المشركون انبعثت خيل المسلمين منها وطلوع طلائعهم من جهتها وعدل الى جهة ما منهم من جانب الشمال وكان المكان لا يطرقة انيس من كثرة العشب والتفاف الشجر ومخاماته لاقتربه من العدو فعكف هو واصحابه على تسوية الطريق وتمهيد المجاز للمسلمين من تلك الناحية بقطع الشجر وتنحية الصخر ورضه بالفأس الكهام حتى تأتى لخيل الله المجاز منها واوغز للسادس من مقامهم الى قائد الثغر يستحثه على المسارعة والوصول فى حامية الرجل والخيول وتلقاهم وقصد بهم الطريق الى الجهة التى سواها وارتادها لشن الغارة منها وكان المشركون قد انسوا راحة من خيل المسلمين فى تلك المدة لانكماش مغاورتهم عن الفجوة واعراء مكانهم عن الرصد مكرًا بالمشركين وخديعة حتى امنوا واطمأنوا وظنوا بالمسلمين الفشل والملل ولما كان يوم الجمعة الثانى والعشرين من المحرم فاتح سبعة وتسعين اجمعوا امرهم على البروز من سبته بسائر سوادهم رجالا ونساء وولدانا برسم النزهة والراحة والتقلب فى الفحص وسرحوا مع الصباح عيونهم الى مكامن المسلمين المعروفة ليستكشفوا خبرها ويأخلوا لانفسهم بالاحتياط من جهتها على المعهود من امرهم فى ذلك فلم يترأ لهم شخص بالفحص ولا انسوا للمسلمين به حركة وكانوا لهم بالمرصاد من جهة مامنهم بالشمال ولا هم يشعرون ولما ايقنوا بالبراءة من الفحص ووثقوا بالعاقبة من جهة المكان النى يعتادون بانطلاق الغارة منها اذنوا لآخوانهم المشركين بالبروز من سبته فانتشر سوادهم بساحتها رجالا ونساء وولدانا ومساك فيها سرحهم واقبل كل على ما بدى له اامين ومطمئين فاستبشر المسلمون بالفتح فقرعوا الطبول وتنادوا بشعار النصر ولم يرع المشركون الا طلوع خيل الله عليهم من حيث لا يحتسبون فانطلقت عليهم مغاورة المسلمين عنانا واحدا فجالت بينهم وبين سبته وتدافعت الساقة تحت الاولوية اثرهم فمنحهم الله الظفر واستولوا على سائر سواد المشركين ما بين الاسر والقتل واكتسحوا سراحهم وكادوا أن يستولوا على سبته بما أتيح لهم من الظهور باستيصال عامة أهلها وانتهاز الفرصة فى حاميته ولاكن الله أمل لها حتى ينجز فيها وعده الكريم بفضله ونظم المسلمون * من تخطاه الاجل من المشركين فى الجبايل سلاسل وحملوا رؤوس القتلى على عجلات اكتسحوها مع السرح للنصارى وقفل المسلمون اعزاء ظاهرين واستاقوا السبى بين ايديهم الى تطاوين فبرز الناس لمشاهدته

مى 109

فكان يوما مشهودا عندهم وكتبوا بالفتح الى امير المؤمنين فوافاه بخيمه من ساحة قلعة الكرار كما قدمنا فاهتز له سرورا من اعواده وزجر منه الفال الحسن لرحلته المباركة وكتب لقائد الثغر بالتقائه بالسبى لفاس فارتحل ايده الله لتادلا وتلقاه بأطرافها ولده اميرها المولى الحسن فى جيش عرمرم من جندها واستاق اليه هدية من العين والخياد والبغال وخيم بمحلاته على نظير منها وقد كان هب من قبل ذلك فيما بين اولاد حسين واولاد مطاع الذين اقطعهم الدولة ارض بالماغت عاصف من الفتنة أحدثتها المشاجنة فى حدود المواطن وانتصر لاولاد حسين سائر أهل حلفهم من قبائل العرب والبربر وجمعوا لاولاد مطاع فاوقد بهم وجاء امير المؤمنين ايده الله وسرح اليهم من مخيمه بنظير قائد القواد وكبير الدولة القائد ابا اسحاق ابراهيم بن محمد السفينانى فى قومه سفينان وجيشا من النار وامره بفرض الوضائع الثقيلة على اولاد حسين وسائر القبائل المنغمسين معهم فى الصولة وانتزع خيلهم والمبالغة فى ردعهم عقوبة لهم على ما اضرموه من الفتنة وحزبوا الاحزاب قامضى فيهم عزيمته وانفذ فى الانتقام منهم امره وارغم أنوفهم بالزواج المذلة فنجعوا واستكانوا وانزجروا وقوض امير المؤمنين بالثامن من مقامه بنظير معبر وادى أم ربيع واناخ على ضفتها بحواته وكان قد احتبس وشحست السماء بمدرارها حتى ادرك الناس القنط من ابيضاض السنة ثم ارسل الله على سائر البلاد الوابل الغزير فاقام له الايام ثمانيا حتى عقب الصحو من بعد الرى فارتحل مستبشرا بذهاب الجذب وظهور الخصب وتلقاه وقد اهل فاس من مشيخة العلم والاشراف يوم ارتحاله من حواته واعتسفوا اليه الشقة البعيدة وتجسموا الامطار المسترسلة لشدة اشتياقهم اليه وحينئذ الى مشاهدة طلعتة السعيدة فلقاهم البر والترحيب وافاض عليهم انوار بشره وارغد لهم فى الكرامة ثلاثا وسرحهم الى منازلهم امامه بفاس رفقا بهم من تعسف الظعن والاقامة مع الركاب ثم شفع الله ذلك الغيث بالتلج فارسلت السماء به على سائر بلاد المغرب فتراكم بالسهل والجبل بعضه على بعض تراكم الجبال وواصل فيه الركاب الترحال ما بين ابى الخمائر وعين اغبال وكف الله لاميير المؤمنين من اللطف به فى ذلك وبجنوده بالخلاص من الورطة خارقا دل على * عناية الله بشأنه وعصمة لحزبه وعدل ايده الله بالناس الى مدينة مكناسة رفقا بهم وشفقا عليهم وراح بهم ثلاثا حتى ذهب العناء عن سائر الركاب وقوض فى جنوده لفاس وكان ولى عهده المولى الامير ابو عبد الله محمد الشيخ المامون بالله عن زهو اعزه الله من فاس للقاء امير المؤمنين فى جنودها وعساكرها وخيم على رأس الماء من ساحتها وملا بمخيماته ومحلاته بطاحها واستبلغ اعزه الله فى الاحتفال وانتقاء الاجناد بما كان له من العناية بجمعها والاستكثار من عددها وعدتها وانتقاء الابطال

من رجلها وخيلها وانتهى في ذلك الى ما لا مزيد فوقه من الكفاية الدالة على الحزم وحسن الملكة والضبط ولما كان يوم التقاء امير المؤمنين وولده ولى العهد بمجمع البحرين وملتقى الثقليين برأس الماء اختلقت جنود الله للسلام من الجبهتين وتظاهرت في زيها الذى هو زينة الايام وشعار الاسلام وخفقت في اكف رياح النصر والاقبال الرايات وجندت جنود الاسل والنار فمالا الارض سوادها وهزت الارض بزئيرها ضراغمةا واسادها ووقف امير المؤمنين لعرض كتائب ولده عند السلام افواجا افواجا حتى قضى فرض التحية على ما هو المعلوم في ذلك عند الخلفاء وركب ولى العهد الى جنب الخليفة ابيه وسارا معا الى معسكرهما واختلطت جنود الله حينئذ ومدت على الارض جناحا واطلعت من آفاق النصر صباحا وأرعدت رعود النار وهدرت الطبول وماجت الارض بمن عليها وغصت بكتائب الاسلام الدنيا فلا الجبال جبالا ولا الوهاد وهادا واهتزت الاقطار لصيت ذلك اليوم وكان من اجل الايام المارة في الاسلام حسنا وفخامة وشفع بمثله من الغد عند الدخول فاحتفلت جنود الله على سبيلها وامتدت عساكر النار جبليين من العساكر الى ظهر الزاوية وجنبت الجنايب صفوفا وعليها الديباج الموشى وماج ركب الخليفة كالبجر المتلاطم وكانت الارسال الوافدة من جهة بنى عثمان بالقسطنطينة مقيمة بفاس لانتظار بلوغ امير المؤمنين اليها فاذن لهم يومئذ بالصعود على سطح الدار المعدة لنزولهم بالرياض من البلد الجديد لما سألوا ذلك لينزهوا الطرف في جنود الله وكتائب الاسلام وكانوا يميزون امير المؤمنين في عابها الزاخر بالمظل الكبير والراية البيضاء التى هى من شعار الدولة كما قدمنا فشاهدوا من زين اليوم وجماله ما اجتنبوه للحديث في السمر ببلاذهم غرابة واعجابا وبرز من نظارة أهل فاس للصعيد عالم لا يحصيهم الا رازقهم ودخل امير المؤمنين ايده الله افخم دخول وكان ذلك في يوم الثلاثاء السادس من ربيع النبوى عام سبعة وتسعين(1) ولما فرغ من شأن الموسم النبوى الكريم الذى يبالغ الخلفاء * فى التنويه بيومه المبارك الكريم كان أول شيء قام به ايده الله من اعماله النظر فى أمور الرعايا ورفع الظلامات عنها فجلس لسماع شكاياتهم وأرشف الحد للعمال وحذرهم المغيب عن ديوان الخلافة العلية أيام القعود للشكاية واخذهم بغرم ما جاروا به على الرعية واصفى فيهم الى قولها واعتوزت الرفيع منهم والوضيع زواجره فارعلوا وازدجروا واتقوا سطوته فلاذوا بالانتصاف من انفسهم للرعايا من قبل الوصول اليه فراروا من فضيحة الزجر وخجل الموقف بين يديه فكانت احدى مناقبه فى العدل الذى نهج فيه منهج والده الامام رضى الله عنه وقعله الذى اقتفى فيه اثره غب دخوله لفاس فى الفتح الثانى

(1) الثلاثاء 16 ربيع الاول 997 هـ يوافق 1 يبرابر 1589

وجبرت القلوب وخلصت النيات ورفعت الى الله أكف الضراعة من الخاصة والعامة في استقامة ايامه الهنية وبقاء ظلال عدله الوارفة على الامة ثم وصل على تفتة ذلك قائد الشجر والمقدمون على الفزات بسبى سبته واشتقوا به فاسا على التعبية والاولوية وبرز العذارى لمشاهدة ذلك من وراء حجابها فكان يوما مشهودا عند أهل فاس وجلس لهم امير المؤمنين ايده الله بمجلس المنكأة المثل على ايوانهم الكريم الذي اختط بباب قصور ملكهم بالباب الجديد فعرض عليه السبى وسلم أهل الشجر فكان من الايام التي اعز الله فيها الاسلام واذال عبدة الاصنام ورفع الشعراء اليه قصائدهم يهنونه بما صنع الله له في ذلك الفتح وكان ممن رفع اليه همته في ذلك صاحبنا وبلدينا الكاتب البارع ابو عبد الله محمد بن علي الفشتالي يبيتين زجر له منهما الفال بأنه يستولى على سبته وينقاد له ما وراءها فاهتز لهما وحسن لديه موقعهما وهما

هذه سبته تزف عروسا نحو ناديك في شباب وشيب

وهي بشرى وأنت كفء اللواتي كلفت بعدها بفتح قريب

ورفع اليه ابن السائح من طلبة فاس قصيدة مطلعها

اعرف الزهر ساح من الكرائم أم البشري أتنا بالغنائم

ثم انتهى اليه ايده الله بعد ذلك ما كان من اجلاب عرب اليمن أهل مجالات تيكورارين على عسكرها وقتل قائدها سعيد بن الحسن وكان من خيره معهم أنه لما عقد له امير المؤمنين على بلاد توات وتيكورارين وقلده خراجها فسرجه اليها أواخر عام اربعة وتسعين كان من اعماله التي اساء فيها السيرة وخرج عن سياج السياسة اذهاف الحد لعربها من اليمن وكان عهدهم بالجاهلية حديث فتنكر لهم وقتل من اعيانهم وشردهم عن البلاد ومنعهم من ورودها وكانت معاشهم ومجذب ارفاقهم فشخطوا احواله وتآمروا * على العيث في اوطانها فأجلبوا على اطرافها واضاع الجهد في النهوض اليهم وكان أن يستألفهم لرسوخ قواعد الطاعة فيهم فابعد المذاهب في اتباعهم فتدامروا ورجعوا اليه فتخرم جمعه وقتلوه من بعد أن اتخنت فيهم العساكر ووصل الخبر الى امير المؤمنين بفاس فانبعثت له حفاظته واجمع أمره على السطو بهم فجهز العساكر من فاس والسوس وعقد عليها للقائد ابي عبد الله محمد بن بركة الذي كان فتح البلاد على يده وأمر اليه بالنهوض من السوس في عساكره من الاسل والنار وسرح من فاس عساكر أخرى عقد على جيش النار منها لمولاه القائد سليمان مهرباشي من العلوجي وعلى جيش الاسل لربي دارهم الكريمة علال بن القائد مهر بن عبو وجعل الجميع الى نظر القائد ابي عبد الله بن بركة وضرب لهم وعد اللقاء بسجلامة ليرجعوا مجتمعين تحت راية واحدة وهم لهذا العهد غائبون تجاهلها كتب الله سلامتهم في الطعن والاقامة ومنجهم الظفر

والغنيمة واتفق ايضا ما كان من وصول ولد صاحب برتقال من ملوك النصرانية وولد سكية صاحب كاغو من ملوك السودان الى الحضرة في مغييه عنها(1)

فاما ولد طاغية برتقال دون أنطون (2) فقد كان من خبره ان امير المؤمنين المنصور لما أوقع بجموع الشرك يوم النهر بوادي المخازن حسبما سبق وجدلت سيوفه بستان (3) برتقال واستولى المسلمون على من تخطاه الاجل من سواد المشركين كان ممن يأسر يومئذ من طواغيت الشرك دون انطون عم بستان طاغية برتقال الهالك أسره بعض زعانفة البربر من مطوعة بلاد الهبط واستمالهم بالمال وقد جهلوه فأوصلوه الى أصيلا وعبر البحر الى الاشبونة قاعدة برتقال وكان القائم بها يومئذ بامر برتقال من بعد بستان عمه فرديال(4) ثم هلك لحولين من ولايته فقام بالامر من بعده دون انطون هذا ثم طمع طاغية قشتالة(5) ان يغلبه على ملكه بها واعانه على انتهاز الفرصة فيه ما قدمنا من تلاشى امر برتقال باستيصال شافتهم وهلاك جموعهم بوادي المخازن الكائن عليهم للمسلمين على يد امير المؤمنين فزحف اليهم بعساكر قشتالة وكانت امم النصرانية جمعا فخرج دون انطون لدفاعه فيمن بقي من جموع برتقال فالتقى الجمعان بساحة الاشبونة فكانت الدائرة على دون انطون ونجى الى ملكة بلاد نكلطيرة ابذيل(6) فنزل منها خير نزل فأوته وشمرت لنصرته ثم نظر في امره فرأى أن جبر صدهم وبناء ما تهلم من ملكهم لا يتأني الا على يد امير المؤمنين الذي في ملاكه ضرهم ونفعهم وجبرهم وصدعهم وانه لا قدرة على تشييد ركنهم الا لمن نقضه بمعاول * سيوفه الامامية واستته الالهامية فاستخدم له ومد له اليه يد التأميل من وراء البحر وأوقف عليه ابنه من بلاد لنكلطير صريخا وضارعا فنزل بأسفى قاعدة البحر وبلغ الى امير المؤمنين على مكناسة من طريقه لفاس خبر وصوله غرة ربيع النبوى فسرح الى ابنه المولى الامير ابى فارس بالحضرة يأمره بارسال كبير الموالى العلوجى ببابه القائد محمود لصحابه فوصل به وانزل بسهريج المنارة من بساتين الخلافة بساحة الحضرة واقیم له هنالك من رسوم الكرامة ما يليق بعظماء القوم امثاله

ولما استوعب(7) امير المؤمنين ايده الله النظر فى أمور فاس وممالكها وازمع

- (1) اثناء غياب المنصور عن مراكش فى رحلته الثانية لفاس ، وصل الى العاصمة اميران لاجئان هما داود بن على السودانى ودون كريستوف البرتغالى طلبا لنجدة المنصور ومساعدته
- (2) دون انطونيو
- (3) دون سباستيان
- (4) اى الكاردينال هنرى
- (5) يقصد فيليب الثانى .
- (6) يقصد ايليزابيث ملكة بريطانيا
- (7) الانتقال الى صفحة 57 .

القفول الى الحضرة اضطرب معسكره بظهر الزاوية من ساحة قاس يوم الخميس رابع جمادى الاخرى وخرج اليه في العساكر يوم الخميس ثانى عشر الشهر وتلوم به ريشما جهز منه العساكر الى بلاد ازغار لانتزاع خيل العرب حسبما نذكر ان شاء الله .

ذكر انتزاع الخيل من عرب الخلط وسائر قبائل ازغار وضرب الخراج عليهم(1)

ص 163

قلت وقبائل جشم التي منها هؤلاء الخلط اولوا العصبة القوية طالما شقيت بهم الدول وركبوا سنن الانحراف والخروج على الخلفاء في الحديث والقديم يمتون في ذلك بسند عان ودم راسخة لا يجاريهم في هذا الميدان مجار ولا يجاريهم فيها مبار شنشنة اشتروا بها وامتازوا عن جنس العرب قاطبة بنوعها حتى لو كانت العرب اهل الانفة واخذان الوفاء يعتنون هذه الخصلة الخسيسية عندهم مزية تشاد ومنقبة تخلد لذهب بفخرها عنهم قبائل جشم التي منها هذه العصاة الخبيثة لما لهم من الشقوق فيها على من سواهم لا تكاد تعقد لهم راية ولا تلوح لهم بارقة ولا تخرج لهم صائفة او شاتية الا في سبيل الميل مع اهل الاهواء او خروج على الملوك والخلفاء او هبوب الى ناعق اولى الثورة والانتزاع ديدنا دربوا عليه على مر الليالي وتتابع الاناء فلقد كانوا تكثوا أولا في حدود المائة الثالثة على الموقف العباسي وانصرفوا عن الدولة فأرهب اليهم الحد وسدد نحوهم سطوة من عزائم صولته فلاذوا منه بالهرب وتجزؤوا الى القرمطي(2) فلم تنل منهم سيوفه وكانت اعمادها حنقا عليهم وشرق الموفق بفصتهم ثم جاءت الدولة العبيدية واقتسمت ممالك الشرق مع الدولة العباسية وتجادبتها جبل المغالبة والمدافعة والمشاقة على الاعمال والاقطار والاطوان فاغتموا اختلاف الكلمتين وانقسام الدعوتين فتداعوا الى العيث والفساد واعتزوا على الدولتين ونالوا من الفتنين واقاموا على مشاغبة الفريقين الى أن اراحهم المستنصر العبيدي(3) رغبة منهم لا رهبة على الدخول الى افريقية في جملة من دخل حين نزوع صنهاجة امراء الخلفاء بنى عبيد على افريقية عن طاعتهم وتحويل الدعوة الى الدولة العباسية على نحو ما اشتهر * عند ائمة التاريخ فرمى المستنصر منهم صنهاجة المنحرفين عن طاعته بالاداهية الدهياء النشاد فانتشروا ببلاد افريقية ودمروا الاوطان وانتسفوها واهلكوا الحرث والنسل ثم دافعوا صنهاجة عن البسائط الى الساحل وغلبوهم على المدن والامصار واجهضوهم عن القيروان دار ملكهم فلجأوا الى المهدي وتقلصت

ص 164

(1) يوجد هذا العنوان في الصفحة 58 من المخطوط ، وقد أثبتت الكواسة ان ما جاء في الصفحات : (58-62) هو تتمه لما ورد في الصفحات (163 - 169) حيث يتحدث المؤرخ اللشكالي عن قبائل

جشم والخلط وادوارها في التاريخ العربي شرقا وغربا وطوال عدة قرون .
(2) يعنى حمدان قرمط مؤسس حركة القرامطة في شرقي الجزيرة العربية في الربع الاخير من القرن الثالث الهجري

(3) المستنصر الفاطمي (427 - 487) وفي عهده خرج الكز بن باديس الصنهاجي في المهدي عام 443 هـ عن طاعة الفاطميين في مصر ، فارسل المستنصر ضد الصنهاجيين قبائل بني هلال وسليم التي نشرت الغراب والدمار في ليبيا وتونس وقضت على الكثير من معالم الحضارة الاسلامية بهله البلاد ، وقد تم ذلك منذ منتصف القرن الخامس للهجرة .

ظلال صولتهم وتفاصرت عن مدافعة هذه القبائل قدرتهم وصارت البلاد تحت قهر العرب وقد خربوا ملكها وثبروا سلكها وضربوا الاتاوة على أهلها فأقاموا تحت خسف منهم يتجرعون مفص هضيمتهم ويشرقون بغصص التحكم عليهم الى أن جاءت دولة التوحيد(1) فعانى ملوكها الخلفاء من بنى عبد المؤمن المشاق العظيمة فى تهديد افريقية وتداولوا النهوض اليها بعساكرهم من مراكش ولقوا العنف من مشاغبة عربها هؤلاء وكانوا وصلوا يدهم بيد ابن غانية (2) صاحب ميورقة من عصابة دولة اللثام (3) فكانت بينهم وبين الموحدين وقائع وحروب استنفذ فيها الموحدون وسعهم وشابت لها نواصيهم الى أن أعياهم شأن هؤلاء العرب وطال بهم الامل فى ارتكاب الجهد والمشاق المجحفة بهم فى النهوض اليهم بالعساكر من اقصى المغرب وكلما اقلعوا عن البلاد عادت هيف الى اديانها فاحتال منصورهم على ادخال هؤلاء العرب لقطع عادية فسادهم من افريقية وراحة من شعبهم الملجئ الى اتصال الحركات وجوب الارضين اليهم فجأجا بهم الى الجهاد وورى لهم بالعبور بهم الى جزيرة الاندلس بنية الرباط ف جذبهم برسن المكيدة وزمام الحيلة الى أن ادخل منهم هؤلاء الخلط ومن معهم الى المغرب ليكونوا تحت قهر الدولة وضغطها وعلى رهب من صولتها فما كان الا ان ابتلى بهم هذه الاقطار وتبين له فى رأيه عدم الاستبصار ويقال ان ذلك من احدى المسائل الثلاث التى ادركته عليها الندامة عند موته وشقى بهم بنوه من بعده وأول من صلى منهم بنار نكثهم والانحراف عنه والخروج عليه وقلب ظهر المجن اليه ومظاهرة العدو عليه يحيى (4) بن الناصر بن المنصور وذلك أن الخلط هؤلاء كانوا متربصين بالدولة منذ استجراهم بجبل المكيدة الى الدخول للمغرب على يد المنصور كما قلنا ومتحينين لها وقت انتهاذ الفرصة الى أن أفضى الامر الى يحيى بن الناصر كما ذكرنا وجاذبه عمه المامون جبل الخلافة ودعى الى نفسه بالاندلس محل امارته فاغتنم هؤلاء الاشقياء سmaschine الفتن هبوب ربح اختلاف الكلمة فتناولوا راية السبق الى الفكت والانحراف غير متمالكين وركبوا سننهم فى الخروج على الدولة وخلع ربة الدين من اعناقهم وفى شق العصى والمروق من الجماعة فوجه رئيسهم هلال ابن المقدم ببيعته الى المامون باشبيلية حضرته

- (1) اى دولة الموحدين (515 - 668 هـ)
- (2) ابن غانية : ثار ضد الموحدين (580-595 هـ) زمن يعقوب المنصور بليبيا وتونس وتحالف مع قبائل بنى هلال كما وجد من بعض الامراء الايوبيين مساعدات مادية ومعنوية الامر الذى دفع المنصور الى توجيه حروبه من الاندلس الى شمالى افريقية للقضاء على ابن غانية .
- (3) يعنى دولة المرابطين (449 - 515 هـ) .
- (4) يحيى بن الناصر بن المنصور الموحدي بايه اشياخ الموحدين فى مراكش ، فاستنجد الخليفة المامون الموحدي الذى بايه اشياخ الموحدين بالاندلس ، بالنصارى واستولى بالقوة على مراكش بعد ان تمت له الفلبة والانتصار على عدد عظيم من اشياخ الموحدين بالمغرب وقد اقدم المامون بعد استقراره فى مراكش على إلغاء الدعوة الموحدية التى كانت المذهب الرسمى للدولة .

ص 165 وأنه تحت * طاعته وداخل في سلك جماعته فكتب اليه المأمون بقصيدة من نظم الكاتب
ابي زيد الفاززي يشكره على فعله ويعده بأقصى امانيه وأمله وهي

الظعن والضرب منسوبان للعرب	بالسمهرية والهندية القصب
والحرب تبعث منها كل معترك	حفاظا تترك الاعداء في حرب
حازوا الوفاء الى الاقدام وانتسبوا	الى خلال المعالي كل منتسب
تجشمت جشم نصر المفيد لها	اسنى الجوائز من مال ومن نسب
وجاءت الخلط المشكور مقدمها	كالاسد تبدو عيها سورة الغضب
خفوا الى نصره حزب الله واحتفلوا	في عسكر صخب أو جحفل لجب
كتائب ضاقت الارض الفضاء بها	في ظل الوية منشورة العذب
فمن صوارم مثل النار في صعد	ومن سوابق مثل الماء في صبيب
بحر على البر مرتج غواربه	من فوقه قطع الرايات كالسحب
شواهد صدقت فيهم مخائلها	بما لهم من صميم الدين والحسب
تذكروا ممن المنصور فاعترفوا	لنجله بعد كرات من الحسب
والفضل يبدو على الاحرار رونقه	وليس يخفى على الباقي من العقب
اما هلال فقد أوفى بلمته	وفاء راع لحق الدين والادب
رءا الخلافة حلت غير موضعها	فادركته عليها غيرة العرب
وقال لا سلم حتى يستقاد لها	من ظلم مستلب أو جور مغتصب
وسلم الامر للال الاحق به	بالرغم من انف أهل الغدر والكذب
وافت مصرحة بالود بيعته	طليقة بجزيل النصر والغلب
جمعا لفضلين يلقي الحسينين به	نصر الكتائب في الهيجاء والكتب
صبرا أبا النجم صبرا انها نجم	تجلى وتمحى بفضل الله عن كتب
ودم على حالة تجنى عواقبها	اذكى من المسك في أحلى من الضرب
فعدنا لك ايشار ومرتبسة	تنحط عنها مزايا سائر الرتب
وسوف تلقى بعون الله ماثرة	تحظى براحتها من ذلك التعب

ولما تحصلت هذه القصيدة بيد يحيى بن الناصر ورءا ما فيها من التمجيد لهلال

ص 166 بن مقدم المذكور امر الاستاذ ابا عبد الله بن الصفار المعروف بالبرنامج ان يجاوبه *
عليها وينهج في هلال غير تلك المناهج فقال الاستاذ المذكور

نسبت شر عبيد العجم للعرب	جهلا بفضل رسول الله والنسب
اصغ لتسمع انساب الدين هم	شعاركم في الخطوب السود والنوب

كانت عبيد العصا للقرمطي اذا
 خلت محلاة بتسرا وقد رحلت
 خانتهم الخيل رعيان الشياه لها
 لو أعلمت وائل يوما بدعوتها
 ونيطت الخلد الرذلي بهم نسبا
 فان تكن الوغى من طلحة سلمت
 وليس من رهب ينجيهم هرب
 اما هلال فقد حاق المحاق به
 حل الحضيض سقوطا وهو محترق
 وغره خلب من شاعر ملق
 وظل من رتب العليا على عدة
 وصار يطمع في مال وفي نسب
 فقل له اراد الخير فاز به
 ولو أوت عاصم للدين واعتصمت
 فان يك مهتد منها بكم فكما
 ومن عصى منكم فآلوت يطلبه
 والحق شمس سناها ليس يحجبه
 يحيى خليفة رب العالمين ومن
 نال الخلافة عن خبر وعن خبر
 اختاره الله فاخترته صفوته
 لم يدخر نصحهم للدين واجتهدوا
 ليس بنكت ولا كتب قد اختلفت
 لم ينتصر بالنصارى والبغاة على
 خليفة مرتضى أنصار دولته
 طعن الصدور وضرب الهام عندهم
 فيح الوغى عندهم حسن وراحتهم
 وحر جاحمها برد العشية في
 ايا امام الهدى ان البلاد لكم
 وان يجادل بالمنصور ذو جدل
 وان يقل انا عم فالجواب له

ص 167

وافى الموفق لاذت منه بالهرب
 عنها بنو جشم من مائها الاشرب
 فلم تضرها وجدت بعد في الطلب
 فيها لما شربت ماء من القلب
 كأنها القبس الصيفي بالذهب
 فذا الموفق وصفا ليس بالقلب
 ما يبعثوا يقربوا للحسين والشجب
 لاقى الوبالين من حرب ومن حرب
 تحت الشعاع بشهب الهند لا الشهب
 فنال صاعقة لاواكف السحب
 فالترب يعلوه ما يرقى على الرتب
 وصار منتشبا في برثن النشب
 الصيف ضيعت جهلا حافل الحلب
 بجبله نالت الدنيا بلا نصب
 تلقى خلال رماد قطعة الذهب
 يمسى ويصبح معدودا من النهب
 وان تراكم غيم الزور والكذب
 يجهله يعلوه حد السيف والقضب
 محقق وبارث من أخ وأب
 من البرية أهل الدين والحسب
 ما كان عن رهب منهم ولا رغب
 ولا كتائب أهل البغي والصلب
 المطهرين من الادناس والريب
 انصار امر الهدى الباقي على الحق
 ماء الحيا شبها قد لج بالضرب
 ما نالهم في اعتلاء الدين من تعب
 روض عليل نسима غب منسكب
 شرقا وغربا فنائيتها كهقترب
 فنجل نوح ثوى في قسمة العطب
 عم النبي بلا شك أبو لهب

وهل يمت بشيء لا تمت به
 اذا عصاك مطيع ليس منتفعا
 ويرتجى العفو للمعاصي بطاعتكم
 ايمنح المرء والقهار يمنعه
 قدمت للدين تحميه وتحفظه
 بل زدت فخرا ملأت الدين للعرب
 يوم القيامة بالطاعات والقرب
 فانها سبب ناهيك من سبب
 ويوهب المرء والوهاب لم يهب
 من كل باغ وعاد عابد الصلب

ولما انقضت ايام المأمون بن المنصور وتولى الخلافة ولده الرشيد ورسخ قدمه في
 المملكة وصفي له الجو او كاد بتراجع الموحدين عن يحيى بن الناصر وانتظامهم في
 اياله وتساييلهم زرافات ووحدا الى حضرته ورأى الخلط الكلمة تنتظم والشعنت اوشك أن
 يلم والاحوال تستقيم والدعوة والاطمئنان قد اغتبط بها الراحل والمقيم آسفهم انتظام
 سلك الجماعة ورسوخ الطاعة لما يالفوه من الخوض والتضريب الذي به يعتزون على
 الدول وكانوا من الشم وشموخ الانف والاعجاب بكثرة الرجل والخيال وعظيم الدالة
 على الرشيد بحالة قد تجاوزت الحدود لما يرون أن بيعته انما تمت باصفاقهم وقواعد
 سلطانه انما ثبتت بالتوكى عليهم وكرهوا لذلك تراجع الموحدين واتصال اشيائهم
 الماسكين لعمود الدولة بخليفتهم الرشيد وحلروا مغبة انتظام الكلمة واتفاق الجماعة
 فبادر شيخهم المالك لمقادهم مسعود بن حميدان الى استفساد الكلمة وتخويل امر
 الجماعة فجرد من جموعه عساكرا ضخما من خلطه وانفذهم لقطع ما بين الرشيد وبين
 الموحدين المنحدرين من جبالهم مع موسى ابن الناصر أخى يحيى للوصول الى مراكز
 وأوعز الخلطى الى جموعه بالقبض على جميع الموحدين ورأى جسم العلة بملك انفة من
 انتظامهم فى سلك الطاعة * فسبق للقوم النذير فرجعوا من هنالك الى جبلهم واستفسد
 على الرشيد انتظام الجماعة فقام لها وقعدوعلم أن الاحوال تتعذر عليه بمكان الخلط
 من دولته فهجر مضاجعه واسهر اجفانه وجعل أهل شوره على التدبير على شيخهم
 مسعود واسدى فى ذلك والحجم مع خواصه حتى امكنته الحيلة فى الفتك به فى بابه من
 بعد محاولات يطول ذكرها كاد الخلطى ان يفلت من لهوات الرشيد من ضعف اصحابه
 ووهن رجاله حسبا هو مبسوط فى دواوين الدول فاغنى عن ذكره ولما نعى الى الخلط
 خبر شيخهم ومن قتل معه من اخوانهم وكشفوا وجههم فى الخلاف واعلنوا بالعناد
 وجالوا فى انواع الفساد واجهروا بدعوة يحيى ابن الناصر والاستناد الى بيعته والذب عنه
 والانصواء اليه وبعثوا اليه ارساليهم وكتبهم يجاجئون به واضرموا نار الفتنة وحشدوا
 حشودهم واجتمعوا من كل اوب وفج واستقبلوا الحضرة زاحفين الى الرشيد
 معلنين بطلب تارهم فاحدقوا بجنبات مراكز وخيموا باحوازها وشرعوا فى تلميز
 البحائر وقطع مياهها واشجارها وقد خلت امامهم المداشر والقرى الا من كان لهم عليه

سلطان من الرعية فانه استقر بمكانه وعظم غيهم وعيبتهم في الحوز وساحة الحضرة فضافت الارض بما رحبت على الناس لانقطاع المرافق والمواد وارتفاع الاسعار حتى لقد بلغ الربع من الدقيق من دينار الى ثلاثة دنانير ثم تكالبت الخلط على الرشيد في الحصار وبلغوا في التضييق الى الاسوار واحجمت جنوده عن مدافعتهم فلم ير وليجة دون الفرار عن الحضرة الى الجبل وتوقع اجلاب العرب عليه بخيلهم ورجلهم من قبل أن يتعلق بذرى ذرن واعتمل في الحيلة فأجمع أصحابه على أن يبعث رقاصين بكتب مفتعلة كأنها وصلت من عند جرمون شيخ عرب سفيان أعداء الخلط باقبالهم لنصرة الرشيد وبطاعتهم له وحرصهم على الوصول اليه وأوعز الى الرقاصين بالوصول الى جهة محدودة فينقلبوا بها قاصدين للحضرة مارين على حلة العرب معترضين لهم كي يأخذوهم ويتطلعوا على كتبهم فتمكنوا الحيلة وتمت المكيدة وقبضوا على الرقاصين وأقروا لهم بأنهم ارسال جرمون وانه بجموعه وجنوده على وادي أم الربيع مقبل لنصرة الرشيد فأجمعوا على ان قصده لبيدوا جمعه قبل انتظامه بالرشيد ولما تمت الحيلة للرشيد ببعد العرب في سبيل تبديد جموع جرمون ووجد منهم فسيحة الى الفرار من الحضرة والبلوغ الى مأمنه أفلح في عياله وأثقاله ومن معه من أجناده وحاشيته وجد المسير حتى نزل على مقربة من اغمات ثم طار الخبر لعرب الخلط فشنوا أغنتهم وطاروا اليه بأجنحة الخيل كالعقبان فادركه أولهم بمحلته فأخذوا * بمخنقه وضيقوا به وبالغوا في قتاله متكالبين عليه ثم أجفل ليلا للتحصن بأغمات فلم يخلص اليها الا بعد الاشراف على الهلكة من شدة ما لقي هو وأتباعه من المشاق ونالهم من المضر المفضية الى امتداد بعض الايدي ثم تلاحق العرب فأخذوا بأغمات وأعوزته الاقوات وكاد الجوع يقضى عليه وعلى أتباعه فاعتملوا في الحيلة وركبوا الليل وعميت أخبارهم عن العرب وما أحسوا بالخروج حتى تعلق الناس باطراف الجبال وطاروا الى الانقراض على الرشيد واوغلوا في أتباعه ومضايقته فلم يخلص منهم الى مأمنه من شوايق الجبال الا من بعد عصب الريق ومشاهدة الموت الاحمر وانقلب العرب وملكوا حصار مراکش وجاجاوا يحيى فأدخلوه اليها وكان من عيبتهم واضرارهم بالناس واقتحام الديار واستباحة الاموال والاستبداد على يحيى وامتهان حرمة السلطان واصطكاك ركب رعائهم بركب الخليفة في البساط والمزاحمة في المجالس ما كره الناس له الحياة وأقامت الدولة على الثبات الاحوال واختلاف الامور الى أن لقيت ما قدر لها ثم صار الامر الى السعيد من بعد الرشيد وكان من نجباء بني عبد المومن وأولى الشهامة والبسالة والهمة العالية وكان أخوه الرشيد عند زحفه من سجلماسة وهزيمته ليحيى بن الناصر والخلط ورجوعه الى كرسى خلافته بمراكش أقصى عرب الخلط الى السوس تفاديا من فسادهم فجلبهم السعيد لاول مصير الخلافة

١٦٩

اليه واستخلصهم لنفسه وقربهم من سلطانه واستدعاهم من السوس وغيره وضمهم الى
أجناده فكانوا جل عسكره ثم لما كانت حركته واحتفاله العظيم في زحفه الى تلمسان
وتحريكه على المزيد من بعدها الى افريقية ومن محاصرته ليفمرسن (1) في مكانه الذي
تحصن به منه ومن قتله أثناء ذلك بيد المنفضين عليه من بنى عبد الوادى قوم يفمرسن من
الشعاب حين صعوده للحصن ما هو مشهور معلوم كان هؤلاء العرب الخلط سبب الوقعة
وانجرار الهزيمة ولهم فيها أخبار شنيعة لانهم كانوا في أول الحال تأخروا عن السعيد حين
عزم على القتال واجتمعوا بجمعهم عند استماعهم بقتله فرجعوا لمحلته فاجفوا عليها
واستصفوها وأكلوا وقتلوا ونهبوا جملته وأهل دخلته وبعض أهله وقبضوا على أخت
السعيد وهى الحرة نجمة زوج الوزير السيد أبى اسحاق واستولوا على مالها وكان قد
حصل بأيديهم في تلك الكائنة شئ كثير من السقط . هؤلاء (2) العرب من الخلط ومختار
وسفيان وكلهم من جشم على ما ذكر نسبة المؤرخين كانوا شيئا لبنى مرين سائر أيامهم
ومتميزين بشعار الجندية في دولتهم حتى اذا جاء الله بهذه الدولة العلوية والدعوة الكريمة
النبوية وانبعثها لتجديد الدين ونصرة الملة وورثة الارض واهياء معالم الخلافة الدائرة
وجرى بينهما وبين مرين أمراء فاس من الحروب والوقائع ما أجلت فيه العاقبة عن
اجتثاث أصل الدولة المرينية واستيصال شافتها كان هؤلاء العرب ممن أبلى البلاء
الحسن في الدفاع مع بنى مرين وشمر للحمامات دونهم حتى ظهر عليهم أمر الله
وتقطعت بهم الأسباب فأصبحوا طعمة لسيوف الدولة الكريمة العلوية وأسرى مقرتين فى
الاصفاد * من قهرها وغلبها فاصطنعتهم الدولة واستنبعثهم واثبتهم الامام أبو الخلفاء رضى
الله عنه في مراكزهم من الخدمة وأقرهم في أوطانهم وأمضى لهم ما كان بأيديهم من
الاقطاعات ولم يغير عليه شيئا مما اترفهم به أمراؤهم بنو مرين حتى اذا كان زحف صالح
ريس من الجزائر بجنود الاتراك مع الاعور بوحيون المريني مستفزهم على حين ما كان
الامام رضى الله عنه منفردا عن جنوده أنصار الدولة بما كان أطلقهم منذ فتح مدينة فاس
لمواطنهم بالسوس ومراكش حسبما قمننا واكتفى بجنود بنى مرين الذين اصطنعهم
بمعروفه واصطفاهم لخدمته بفاس وكان هؤلاء الاعراب ممن عليه المداير منهم فزحف بهم من

ص 59

(1) يفمرسن بن زيان بن ثابت مؤسس الدولة الزيانية بتلمسان (631 - 681 هـ) .

(2) الانتقال الى صفحة 58 .

(3) بعد أن تم للمولى محمد الشيخ القضاء على الوطاسيين ودخول عاصمتهم فاس عام 1349 م فر الى
الجزائر ابو حسون على الوطاسى طلبا للمساعدة العسكرية ضد السعديين وقد وجد القادة الاتراك
في ذلك فرصة للتدخل وضم المغرب الى الامبراطورية العثمانية ، وجرى لاجل ذلك بهاركة حربية
انهزم على اثرها المولى محمد الشيخ بينما دخل الاتراك فاسا واعلنوا بيعه ابى حسون بها وذلك عام
1554 م ، الا أن الشيخ السعدى سرعان ما استعاد المدينة بعد انتصاره على الوطاسيين فى نفس
العام

فاس تلقاء العدو معولا عليهم فى الدفاع ومعتقدا بغنائهم عاملا على ما خولهم من نعمته واحتقارا لشأن الاعور بوحسون مستنفر الاتراك لخمول مكانه فى قومه وعدم أهليته التى يوم وانه ليس لها بكفء عند الناس كما قدمنا فلم يبعث لذلك عن أحد من جنوده ولا شهد معه الحرب من أنصار دولته الا ستمائة فارس التى خف بها ولد ابن أبى جمادى انفذه بها أبوه ليحضر بها مع أمير المؤمنين الامام رضى الله عنه حسبما ذكرنا قبل وعندما التقى الجمعان بكدية المخالى من ساحة فاس ودارت رحى الحرب فلاحبت بارقة الظفر والظهور للامام رضى الله عنه فزحزح الاتراك عن مراكزهم واستولى على مدافعهم لم ينسب أن انفضت كتائب بنى مرين من حوله فاطبة لانطوائهم على النكت وتواطئهم على الغدر فلحقوا ببوحسون وقلبوا ظهر المجن للامام رضى الله عنه وقد تركوه فى حومة الوغى وحده فى الفئة القليلة من أنصاره فكان خذلان العصاة المرينية شيب نكوصه رضى الله عنه ولحقه بمراكش وكان هؤلاء العرب من تلك العصاة الفادرة فاعتدوها عليهم وكان ذلك أول الجرائر التى أسخطوا بها الدولة وأسعفوا بها الخلفاء ثم كانت على تفتة ذلك واقعة بو ابراهيم الكائنة على المولى عبد الله حين نهوضه من مراكش بمن معه من جنودها لمزاحمة بنى مرين والاجلاب عليهم بفاس فى مغيب والده الامام رضى الله عنه لسجلماسة منازل اخيه المولى أبى العباس الثائر كان عليه بها حسبما قدمنا فكان هؤلاء العرب من أشد جموع بنى مرين يومئذ عادية وأكثرهم نكاية فى حرب السوس الناهضين مع المولى عبد الله بحللهم وناجعتهم فأساءوا الاحدوثة فيهم بنهب الاموال وسبى الذرية وكشف الحرم وشفعوا بذلك فعلتهم الشنعاء غلرهم يوم كدية المخال وأهاجوا بذلك غضب الامام رضى الله عنه فالتهب صدره حنقا عليهم وتربص بهم حتى اذا أتيت له الكرة على بوحسون فقتله واستأصل جموع بنى مرين واطفا بذلك ذبالتهم المشتعلة اشتعال الخمود وفتح فاسا فتحا ثانيا واستوى على كرسيها * لم يقدم شيئا على الانتقام من هؤلاء العرب فسرح اليهم القائد أبا عمران موسى بن أبى حمادى العمرى فانتزع خيلهم وأرجلهم كافة وضرب عليهم الخراج ونظمهم فى سلك الرعايا الفارمة جزاء بما اتوه من شنيع احدوثة فى الغدر أولا وثانيا وغرب أعيانهم وروساءهم كافة بأولادهم الى مراكش والقاهم بمضيعة منها فلم يجر لهم رزقا ولا أقطعهم وطنا ولا ضرب لهم بسهم واغرى بهم صروف الدهر وجوب القفر فأقاموا على تلك الحالة السوء الى أن ولي المولى عبد الله الغالب (1) بالله الامر فالتفت الى هؤلاء الاعيان بعض الالتفات واجرى لهم رزقا

(1) عبد الله الغالب بالله بويغ بعد اغتيال والده محمد الشيخ من قبل الاتراك عام 1557 ودام حكمه الى عام 1574 .

والحق لهم فرسانا فأقاموا يرتضعون أحلاف تلك الجارية القليلة وقبائلهم في عداد الرعايا الغارمة الى أن ضرب الدهر ضرباته فهلك الخليفة الغلب بالله وولى أمره ولده المتوكل وجاذبه جبل الخلافة عماه الخليفان أمير المؤمنين المنصور وأخوه الكبير الخليفة المعتصم وزحفا اليه بجنود الشرق (1) فغلباه على فاس فكان هولاء العرب أول من نزع اليهما عن صاحب المغرب وجنح الى الخلاف عليه فاغتنم ذلك منهم أمير المؤمنين فاستبعاهم ونظماهم في عداد اجنادهما واستغفراهم للزحف معهما الى الريحان لتكثير العدد لا للعمل عليهم في الدفاع فشهدوا معهما الفتح وصحبوهما الى مراكش فراعوا لهم ذلك وغفلوا عنهم فترك أمرهم سائر أيام المعتصم فوضى لم يتمحضوا للجندية ولا تناولهم التكليف بما تبدله الرعايا الغارمة الى أن كانت غزوة وادي المخازن المتقدمة الذكر فنهضوا أيضا مع أمير المؤمنين وزحفوا تحت راياتهم من جملة جنود الله قشيدوا الفتح وراعى لهم أمير المؤمنين أيده الله ذلك أيضا ولما وصل لفاس من مشهد الفتح ونظر في أعطاف دولته وكان من أول المهمات التي صرف اليها عنايته ارجال القبائل التي كانت الدولة تقصيههم عن مواطنهم بجهات مراكش والسوس الى بلاد ازغار من ممالك فاس بما كانت هذه القبائل تسربت الى بلاد وتراجعت القهقر الى اوطانها عند ظلام الجو واضطرام المغرب نارا وقتنة أيام المتوكل فسرح الى استرجاعهم واجهاضهم على الرحيل الى منازلهم بازغار ثم التفت الى عرب ذلك المواطن من قبائل الخلط هؤلاء المذكورون فاستنكف من اهمال أمرهم من ترك أحوالهم على ما كانت عليه أيام أخيه المعتصم ورعى لهم موات الانحياس اليهم أولا وحضور الفتح مع أمير المؤمنين ثانيا فراء أن يجازيهم على ذلك الجزاء الحسن فحرر أيده الله منهم النصف من بدل الخراج وضربه على النصف الآخر واطلقهم من اسار الغرامة واخرجهم من عداد الرعايا الغارمة وألحقهم بديوانه فتميزوا بشعار الجندية ولبسوا شارتها والحق رؤساءهم بطبقات القواد * وأقطعهم ما شاءوا من البلاد فبهت بذلك أحوالهم وكانت لهم به المزية الظاهرة على سائر اقبائلهم من الرعايا الغارمة فلما تراجعت القبائل الراحلة من عرب السوس وعرب مراكش بأمر أمير المؤمنين الى منازلهم المعمورة ومواطنهم التي اقطعتهم الدولة بازغار وجدوا أهل هذا الوطن من عرب الخلط وغيرهم من القبائل المذكورة قدموا جناحهم على تلك المواطن وبسطوا أيديهم على استغلالها عند مغيب هؤلاء العرب عنها ودافعوه عنها فاستنكفوا من اسلامها وزاحموهم فيها بالمناكب واعتزوا بما لبسوه من جلدة الخدمة وحدثتهم أنفسهم بمقاومة عرب السوس ومراكش الذين لهم فيها القدم الراسخة وأرهبوا لهم الحد وضايقوهم في

ص 61

(1) يقصد القوات التركية التي استعان بها المعتصم على محاربة بن أخيه المتوكل .

حدود البلاد فاستنكف عرب الدولة عن التجافى لهم عن شيء اقتطعه اياهم الخلفاء فشببت لذلك نار الحرب والفتنة بين الفريقين وجمع عرب الخلط وسائر قبائل ازغار لاولاد مطاع من عرب مراكش فأوقعوا بهم ونكسوا حللهم ولم يفلتوا الا برؤوس الخيل فامتعض لهم أمير المؤمنين وأجمع على الانتقام من الخلط وقبائلهم ففرض عليهم الوضائع الثقيلة وكانت تسعين ألفا عوضا عما نهبوا لاولاد مطاع وسرح لاقتصائها منهم فأعطوها عن يد ردعا وعقوبة وأبعد عنهم أمير المؤمنين أولاد مطاع فأقطعهم بلاد تالمقت ثم كانت حركة أمير المؤمنين الاولى لفاس عام تسعة وثمانين (1) فربح الخلط من سطوته وتجافى عنهم وأقرهم على أحوالهم فازدادوا بذلك استفسادا واغراء بالعيث والنهب والاجلاب على من يليهم من الاعراب بالنهب تارة مجاهرة وبالسرقه أخرى خفية وألحوا بذلك على عرب مراكش والسوس حتى شردوهم عن مواطنهم كارهين ثم تخطوا الى نهب الاسواق واضرام نار الفتنة ومصادمة الاحكام ونبد الاوامر وراء ظهورهم وحدث شأن الحركة وتجهيز البعوث الى تيكورارين من فاس عند مغيب أمير المؤمنين اليها المرة الثانية (2) والايقاع لعرب اليمن الذين أجلبوا على قائد البلاد سعيد بن الحسن وقتلوه حسبما قدمنا ففرض أمير المؤمنين على الخلط حصة قليلة من الخيل ينهضون بها صحبة البعوث المعدة الى تيكورارين فلم يستجيبوا لذلك وتثاقلوا فحق عليهم القول حينئذ وأجمع أمره على استنزالهم وارجالهم عن الخيل وانتزاعهم منها وردهم الى ما كانوا عليه من بذل المغارم والخراج جزاء على كفران النعمة والطغيان ووافق ذلك شأن خروجه لمسكره من ظهر الزاوية ساحة فاس قافلا الى الحضرة فتلوم به ريثما جرد محلة من عساكر الخيل والنار وعقد عليهم لخالصتيه القائد أبي عبد الله محمد بن ابراهيم بن بجة ومحمد بن سليمان قائد القواد اليوم عند ولى عهده وسرحهم موريا بعسكرتهم هناك * لحراسة

62

الثغور البحرية مما يخشى عليها من غوائل العدو ومفاجاته اوان الصيف وأخفى على الناس قصده في ذلك وأوعز الى اشياخ الخلط وأعيانهم بارحال خيلهم أهل النصف لمراكش ليأمنوا بذلك مكرا بهم مخافة ان يتفللوا من قبل الاستمساك منهم وصلوا العساكر بين ظهرانيتهم واستوصى القواد بهم وبمعاضدتهم وكتب لهم بذلك وامرهم بمصاحبتهم فسكنوا واطمانوا ولما عرست المحلة بوسط حللهم وامكنت الحيلة وتأت لهم الفرصة جمع القواد حينئذ الاعيان مورين بالمفاوضة معهم فلم يرعهم الا انقضاى الوزعة عليهم فصفدوهم فى الاغلال والسلاسل كافة وبتوا العمال فى سائر بلاد ازغار

(1) عام 989 هـ يوافق 1581 -

(2) تمت رحلة المنصور لفاس للمرة الثانية خلال عام 1587

وأرسلوا منهم عقباناً على الخيل فلم تمض أيام حتى جمعوا منها آلاف فلم يفلت منها حصان واحد وأرجعوا العرب كافة وتركوهم يديون على أرجلهم ديبب النمل وسلبوهم من جلدة الخدمة وشعار الجندية وضربوا عليهم الخراج وردوهم الى معهودهم من الغرامة وبشوا العمال لاقتضائها فنجعوا وطلبوا بطن الارض خوفاً ورهباناً مما فاجأهم وخمدت نار عيشتهم وزالت عن البلاد شواغبهم فكان ذلك من احدى الاهور الدالة على دهاء أمير المؤمنين أيده الله وصلاح نظره الكريم وتديبره المبارك السيد

ص 192

وكان (1) من شأن عفوه عن أهل بلاد الهبط * القائمين بدعوة الشقي ابن قرقوش النائر كان ببلادهم حسبما أسلفنا ما هو معروف أيضاً فقد كانوا لما وصل أيده الله لفاس منصرفه اليها عام سبعة وتسعين (2) هذا حدثان القبض على الشقي وقتله وتدوين العساكر لبلاد الهبط على انتزابه وممشى غوايته وارتجاع أهلها للطاعة والانقياد بسبب القهر وأقبلت وفودهم في عداد من قدم من وفود الجفات المثالة على باب أمير المؤمنين ليسألوا التخفيف عنهم باسقاط ما احده عمال الخراج وكان أمير المؤمنين أمتن على سائر الرعايا بترك ذلك فجلس لهم أمير المؤمنين جلوسه لامثالهم وبسط لهم أيده الله مهاده عدله وكساهم سراويل حلمه وأفاض عليهم أنوار بشره واذن لهم في عرض ظلاماتهم وذكر حوائجهم وجعلوا يعرضونها واحدة فواحدة وكلما ضرعوا اليه في اثر ما يلهم فيه بما لم يكن في حساب من الرفق والتخفيف حتى أتوا على جميع أغراضهم ولم يبق لهم حق يستلونه ثم قلب حينئذ أيده الله ظهر المجن وحاجهم بهفوة الخروج عليه مع الشقي ابن قرقوش بأن قال لهم هذه حقوقكم قد استوفيت وحوائجكم قد استقصيت وقضيت وأين حقى الذى قبلكم فقد رأيتمكم أعرضتم عنه ولم تعوجوا عليه فقالوا ما معناه يا مولانا أمير المؤمنين أجل وأعظم وأحق أن يقدم فقال اجيبونى عن ثورتكم مع الشقى ابن قرقوش وقيامكم بنصرته وخروجكم على للتعرض لشق عصى المسلمين والسعى فى افتراق كلمتهم فبأى شئ استحللتم ذلك وأى مستند لكم فيه وكان الشقى ابن قرقوش عند ثورته وخروجه قد تلبس للفوغاء بأحد أولاد الخليفة المولى عبد الله وانتمى اليه فقال لهم أمير المؤمنين لذلك محتجا عليهم رأيتم لو فرضنا قيام أخى عبد الله بنفسه فضلا عن ولده ويبعثى فى أعناقكم يسوغ لكم اتباعه فتكثروا وتصرموا حبال عهود الله ومواثيقه الشديدة العرى والنبي صلى الله عليه وسلم يقول من أراد أن يفرق هذا الامر وهو مجتمع فاضربوا عنقه كائننا من كان وقال صلى الله عليه وسلم اذا بويح للخليفتين

(1) الانتقال الى صفحة 191

(2) عام 997 هـ يوافق 1588 •

فاقتلوا الاخير منهما ثم انبرى ايده الله يقيم عليهم الحجة ويستطرد الادلة فافحم الملا وكستهم ذلة الانكسار والخضوع من وجوم الذنب فخرست الالسن ونكست الرؤوس وخشعت الابصار وطلبوا بطن الارض ولم يجدوا مخلصا غير المنزع للعفو وطلب المفرة فاكبوا على الثرى لاثمين وخاضعين ومتوسلين واعانهم من ضمه المجلس الكريم من مشيخة العلم وكبار الفقهاء فضرعوا الى أمير المؤمنين في الصفح والتجاوز فانبعثت في قلبه الرحمة ايده الله وعمل على شاكلته في عفوه الذي يعفى عن الصفائر والكبائر فقال لهم قوموا فقد وهبت * ذنبكم لله الذي اظفرني بكم وأظهرني عليكم فانطلق الملا 193 شاكرين وداعين ثم عرض اجتماعي في ذلك اليوم او بعده مع شيخنا العلامة أبي العباس احمد بن علي الزموري بالمنكابة التي في مجلس كتاب الانشاء في ديوانهم الكريم من قصور الملك بفاس فحدثني بشأن القضية لعدم اتفاق حضوري ساعتئذ اعجابا منه بأحوال أمير المؤمنين ايده الله وما أعطى من الكمال وفضل المقال فقال شاهدت اليوم أو أمس من كمال الاحوال وشرف الخلال وفصل الخطاب شيئا لا يصدر الا من بيت النبوة وقص على القصص على ما وصفت وسردت وهذا بالنسبة الى ما بقى من مآثره في هذا الباب ايده الله بعض من كل وقليل من كثير ولنقتصر على ما ذكرنا اختصارا

فارتحل (1) اليه ايده الله يوم السبت العاشر من رجب عام سبعة وتسعين (2) من بعد سرد صحيح البخارى بين يديه بقراءة العلماء بالقبة العربية من فساطيطه الكريمة على ما هو المعلوم في ذلك من سير الخلفاء رضى الله عنهم عند اسفارهم وسار ايده الله تلقاء 58 مراكش فبرز * منها ولده ووكيله كان بها في غيبته عنها المولى الامير أبو فارس في عساكرها للقاءه فخيم بها على نهر تانسيفت وقد ملات مجلاته الربى والوهاد وكست الاغوار والانجاد لكثرة ما أحلق به من جنود الله وكتائب الاسلام التي جمعتها دار الخلافة وتلوم بها على النهر الى أن نزل بساحة ركابه مولانا والده أمير المؤمنين يوم الجمعة الثاني من شعبان وقد احتفل اعزه الله للقاء واستكمل أهبطه فجدت الجنود وخفقت الرايات وامتدت صفوف النار في خرق من الارض حبالا واعدت رعود النار اشعارا بالسلام فاهتزت لها الجبال وزلزلت الارض ووقف أمير المؤمنين في موكبه على نسر من الارض لعرض الكتائب فجعلت تنثال عليه من موكب المولى الامير ولده ابي فارس اعزه الله أفواجا أفواجا مسلمة ومودية فرض التحية فئة تتبعها فئة على أحسن نظم وترتيب الى أن استكملت فرض التحية وتراجعت الى مراكزها فزحف اثرها المولى

(1) الانتقال الى صفحة 57

(2) رجب 997 يوافق يونيه 1589.

الامير أبو فارس أعزه الله في موكب الضخم وعسكره المجر وتقدم أمير المؤمنين أيده الله من موقفه للقائه اكراما وتشوقا لكثرة ما ألقى الله عليه من محبته فترجل المولى أبو فارس حتى حيا في الارض معفرا وجهه الكريم ودنى للشم القدم الطاهرة الشريفة فحنى عليه أمير المؤمنين حنا تنفتت الأكباد لرويته وعظيم مرحمته واستبركه فوقف من خلفه فساروا أيدهم الله سير الدراري تجاه المحلة السعيدة وقد اجتمعت جنود الله كافة تحت رايات أمير المؤمنين فهاجت الارض بمن عليها فكان اليوم ثاني اللقاء بظاهر فاس كما قدمنا مع ولي العهد حسنا وبهجة وفخامة وأكثر عددا وأوفر جموعا وجنودا أقر الله بهم عين الاسلام وأزال بسيفهم عبدة الاصنام وخلد الامر فيهم الى يوم القيامة بعزته وقدرته .

ذكر (1) ارتجاع مدينة أصيلة من يد المشركين

قدمنا ما كان في خلافة المولى عبد الملك المعتصم بالله رحمه الله من نزوع ابن تودة (2) قائد الفحص وبلاد الهبط الى أرض الشرك ومجاراته بالنصارى الى أصيلة على حين غفلة من أهلها واجهاض المسلمين عنها الى القصر فتملكها المشركون وأدال الله الطيب منها بالخبيث على يد من ذكر ولما توفي المعتصم بالله وأتى الله من مولانا الامام المنصور بالله أمير المؤمنين أيده الله بالجبل العاصم من الطوفان والممسك للارض من الرجفان واسد الحفيظة الذي (اذا ورد البحيرة شارباً ورد الفرات زيره والنيلا) (3) حمى أنفه واستشاط غضبه وعصفت عواصف الانفاس الابية منه لهذه الشنعاء التي رمى بها النازع الى أرض الشرك ثغر الدين فتركه ادرد والفعلة التي احدث بها في سد الاسلام فرجة فجرد أمير المؤمنين أيده الله صارم عزمه لاستخلاص هذه المدينة التي هي في الاسلام كاسمها أصيلة وفي الامصار النبيهة عقيله وأرهف لذلك حد تدبيره الذي اذا لاقى الصخر تركه زيماً فلم يزل أمير المؤمنين يسدى في أمرها ويلحم ويسرح ويلجم ويوعده ويعد وبنى ذلك على أساس من المكاييد كأنها لحصافتها بكل مغان القتل شدت ليزبل وضاق ذرع المشركين بها ورضوا من الغنيمة بالاياب ولما أراد الله انجاز وعده الصادق بعثوا بعثة الخداع في مستقرهم ليلاً * واستسلمها المسلمون منهم واجهضوهم مجفلين من الدعر فركبوا البحر ليلاً وطاؤوا بأجنحة الغربان الى منجاتهم ودخلها حزب الهدى وعاودها الايمان وخرست السنن النواقيس لارتفاع اصوات الاذان بالمئاذن وأقيمت فيها شعائر الاسلام ومراسمه ومحيت منها كلمة الكفر وطواغيثه وأصبح ثغر الدين

ص 65

(1) الانتقال الى صفحة 64

(2) هو عبد الكريم بن تودة صهر المتوكل الذي كان يحكم منطقة الغرب ، ولما التجأ المتوكل الى طنجة طلبا للمساعدة البرتغالية فلوّض ابن تودة البرتغال على احتلال أصيلا وتم ذلك فعلا وقد اتخذ البرتغال نقطة هجوم على المغرب قبيل معركة وادي المخازن .

(3) بيت شعر .

بارتجاعها باسماء بعد أن قطب وتجههم واستاق الله لأمير المؤمنين أيده الله هدى فتحها فيمن
نقيته وصالح رايه وتديبره واعتد مثوبة ارتجاعها ذخرا لمعاد وكان ذلك في ١٠ وافي
عشرين لدى قعده عام سبعة وتسعين ولما اطلعت على الحضرة طلائع البشرى بفتحها
اعملت منظوما مهتيا وموريا في البيت الثاني باسمها واسم العزيز ملك مصر على عهد
يوسف عليه السلام فقلت

بكر الفتوح لكم تهلل بشرها وافتر عن شنب المسرة ثغرها
وعقيلة الامصار وهي أصيلة انت العزيز أطاعك مصرها
وافى بها الفتح المبين يزفها لكم وليس سوى قبولك مهرها
شغفت ببدرك واستبائك حينها فتجمعت بكما حين وبدرها
كانت ليالى الكفر بها فيها دملا وبمعرك الاقوى تبين فجرها
خضعت لكم بخضوعها الدنيا وقد لبك من بطحاء مكة صخرها
أوطى جيوشك أرض أندلس فقد نذرت تطيعك كى يوقى نذرها
واحصد رءوس المشركين بها فقد ان الحصاد لها وارطب بسرها
واملك جميع الارض وهن وارثة اليكم بالفتح يسند امرها

ذكر قفول العساكر من نوات ونيكوراين من بعد التمهيد (1)

كنا أشرنا الى ما كان من انتفاض أهل نوات ونيكوراين واجلاب عرب اليمن
على قائد البلاد سعيد بن الحسن وقتله وما كان من انبعاث أمير المؤمنين لفلعتهم وتجهيز
العساكر من فاس والسوس الى جهتهم لنظره مولاه الذى كان فتحها الاول على يده
حسبما قدمنا القائد الصدر حم بن بركة الشيعي وتزاحفت هذه العساكر الى البلاد
متتابعة يقفوا بعضها بعضا وكانت الحصنة التي جهزها أمير المؤمنين من فاس صحبة
مملوكه قائد المراكب والطعن وصاحب المسرة سليمان هي السابقة الى البلاد ثم زحف
رديفا لهم جيش الخيل والاسل يقتاده علال بن محمد بن عب من فاس أيضا واعترض هذا
الجيش ناجعة أولاد عبد الكريم من الاحلاف بالقفر ما بين سجلماسة ووادي الساوره
وكانوا مجفلين من سطوة الاجناد بما كانت الدولة اسخطتهم على سوء أفعالهم فاستاق
غيرهم وامتلأت يده من سبيهم فكان ذلك فاتحة الظفر ولا نذر العرب ومن انغمس
مهم في الخلاف واضرام نار الفساد من أهل البلاد بزحف العساكر اليهم وجاءتهم بذلك *
من مكان بعيد وكانوا مخيمين بجمعهم على تيثميون محل ولات الامر من نيكوراين

63

(1) كان ذلك يوم السبت 20 قعدة عام 997 هـ الموافق 30 سبتمبر 1589 .

(2) يقتضى الترتيب التاريخي للأحداث الانتقال الى الصفحة 62 .

محاصرين لمن بها من الحامية لقلتها وعلموا أنه لا قبل لهم بجنود أمير المؤمنين أجفلوا الى القفر أمامهم وقذف بهم الرعب الى المفاوز على كل وجه فتركوا أهل البلاد الذين تماثلوا معهم على الفساد بين الناب والظفر ثم تلاحق ابن بركة في عساكر السوس وتكاملت جنود الامم بالبلاد وءاد المستمسكين بحبل الطاعة من أهلها وعجزوا عن القيام بأمرهم في العاوفة والارزاق فافترقوا لذلك محلتين توجه في احدهما سليمان مملوك أمير المؤمنين بعساكر النار ومعه علال بن محمد بحصنة الخيل التي لنظره وانحدروا الى توات ويهموا تيمى منها بما كان رئيسها أبو القاسم بن عمر هو الذى تولى كبر ذلك الفساد وأضرم نار الشقاق فاقتطعوا نخيله وخرّبوا منازلهم وعاثوا في دياره حتى تركوها بلقما واقادوا في جهات توات لتخريب منازل المارقين من أهلها وكانوا قد شردوا امامهم الى القفر بأولادهم وتركوا الديار والمنازل فعات فيها الاجناد ونسفوها نسفا وسمى القائد محمد ابن بركة في المحلة الاخرى الى الشط الظهراني من تيكورارين مدوخا وممهدا ومستاملا ومستاصلا حتى محى اثار النفاق وحصل من التمهيد على الغرض فانحدر الى جهة توات وتلاحق بالعساكر التي بها ثم تخطاهم الى قاصية البلاد مما يلي القفر ومجالات عرب اليمن للمبالغة في التمهيد والاستقصاء في التدويخ ومشارفة احوال العرب ليحاول فرصة ينتهزها فيهم ويستاصل شافتهم وتعاقد مع سليمان وجنوده على انتظاره والمقام حتى ينقطع اليهم ثم توغل في البلاد وطال على الاجناد الامل وأدرك الجهد أهل البلاد بما أرسل الله عليهم من الجذب والجراد والاجناد اثر ما أضرموه من الفساد فافتقدت الحبوب واعوز القوت واشتدت المصيبة وحذر سليمان اختلال أمر العساكر فارتحل الى المغرب ويهم مراكز دار الخلافة فاحتل بها لشهرين أو نحوهما من وصول أمير المؤمنين اليها من فاس وتناقل وراءهم ابن بركة بالحصنة التي معه من عساكر السوس وضرب أوتاد الإقامة حتى سكن روعة الساردين أمام العساكر من أهل البلاد فتراجعوا خاضعين وملتجئين من كل اوب ثم ضاق ذرع العرب بالانقطاع الى القفر وسثموا المفاوز وندموا على ما اتوه من اسخاط الدولة وعلموا انهم لا طاقة لهم بمقاومة عداوة مولانا الامام لما دهمهم من جنوده وراوا من عظيم احتفاله فمدوا يد الضراعة لابن بركة في قبول فئتهم وتمشت اليه رجالهم من أهل الصلاح وكانوا يثقون منه بالقول لما بلوه من صحة مذهبه وصدق عهوده وسألوا منه الامان فبئله لهم وانثالوا عليه وألقوا بأنفسهم عليه راغبين وراهبين فتقبل فئاتهم ووطأ لهم اكفاف البر والقبول وتراجع سائر الرعايا الذين تفرقوا في البلاد رعبا ورهبا الى قصورهم فسكنت الاحوال واطمأنت الامال وكمل التمهيد واعاد البلاد الى اعظم مما كانت عليه من بدن الفتح والتدويخ ورسوخ الطاعة واقتضى خراجها وأزاح علل اجنادها ورتب منهم فيها من

س 64

يقوم بحياطتها فى قصبة تينميمون وقفل فى بقية العساكر فاحتل بالابواب الشريفة بمراكش فى شهر صفر عام (1) ومعه وفود العرب وأهل البلاد من كل جهة فلقامهم أمير المؤمنين برا وكرامة واعترفوا بالذنب فعفا عنهم ووصلهم وخلع عليهم وعقد على البلاد لحم بن فارس أحد صنائع الدولة من بيوت احلاف الزركان وسرحه الى البلاد فى حصّة من العساكر

ذكر افتتاح بلاد السودان والاستيلاء على ممالكها المنتظمة فى سلك الايالة العلية .

قال مؤلف الكتاب بأى عبارة أفتاح هذا الفتح العظيم الذى طنت حصاته بين الخافقين وملا صيته البعيد مسامع المعمور وتخلل السبع الاقاليم من دائرة البسيط وكاثر بفرده الجموع من فتوح الاوائل والاواخر (وليس لله بمستكثر أن يجمع العالم فى واحد) وما عسى أن يقال فى خارق سياج العادة وغريبه لا تثبت الا فى الحلم فما قرع مثل بنانه صماخ اذن ولا تبدى مثل طرازه على حله فخار خليفة وملك ولا وشيت بمثل منقبته الجليلة صفحة ديوان فلو رقت اقلام البلغاء من الانامل على اعوادها وقامت خطباء بمحاسنه فى حلل مرادها وفقرت المحابر افواها لتلقينها وامتتها مما فى بطونها فضلت فى ليالى انفاسها * وكبت لفيها فى مجال قرطاسها وارت من الخضوع والعجز ص 66

تقلب وجهها فى الساجدين وناهيك بفتح بيوت الوهم يقف دونه قلم الحاسب بما انتظم من الاقاليم الفسيحة الاقطار الجليلة الاخطار المراسفة القرى والامصار والامم المتعددة الاجيال والافاق المستبحرة العمران والبلاد التى هى محشر العالم ومدرج الدر من بنى آدم والممالك المنتظمة مع خط النيل من عدوتيه انتظام السلك الجارية مع تياره فى طلق من لدن تخوم النوبة الى مصبه فى البحر المحيط من قاصية المغرب ما شئت من مدن القاهرة وقرى متراسفة ومروج نضرة واسواق بالخلق والنعم زاخرة كأنها انطلق أهلها من الحساب لكثرة من ينتابها من جميع زوايا المعمور من ركاب التجر وارباب البضائع الثقيلة الذين يضربون اليها اكباد الابل من كل فج عميق وتهوى اليه اقتدتهم من كل مكان سحيق وحسبك ببلاد اثرها الله واثراها بنهر الجنة ومنبع مياه الرحمة تسقيهم النهل والعلل بحجة ويجبى اليهم الثمرات والخيرات ثبجة وارض كرم الله تربتها وابان فضلها بما اختصها به من معادن الذهب الذى به قوام العالم واس الملك وبناء المجد وبالتفاوت فيه تفاوت اقدار قوة وسلطانا وجنودا وأوطانا فهى مثرات العديم ومجلب التبر الى المشارق والمغرب فى الحديث والتقديم فمن ملكها ملك الارض وجمع الطول والعرض لا يضطرر أهل الارض

قاطبة الى حمرائه واقتيادهم الى الاذغان لصفرائه الى ما اشتملت عليه هذه الممالك العظيمة من المرافق العجمة التي جاد بها كرم التربة وخصب البقعة فقد طم بها بحر الجيوب والاقوات والادم وسال بها سيل النعم السائلة المنبثة للتناسل في المزج النضر الممتد مع ضفتي النيل جناحا أخضر موشى البرود بوشيح النبات مغدق السقيا بالفيض المتراكب الموج الى محاسن لا تحصى ولا يأتى عليها قلم الاحصاء فكانت خبيئة فتحها فى طى العصور السالفة الى هذه الدولة الكريمة دليلا على عناية الله بشأن هذه الامامة الكريمة القدسية الاحمدية النبوية الشريفة اليها اظهر الله على يدها خوارق العادة وقلد منها جيدها الكريم ابيه قلادة وكانت هذه الممالك السودانية بما استدار بها من سياج القفر الافيح والمجهل البيداء التي تضل بها القطن الجون وتكل فى قطع مداها عواتم الشهب وتتقطع فى حفاقيها انفاس النسيم غاضت بها نطف التمداد وتلهب وهج سمومها وتموج رقرق سرايها فلا تعمل العملات فى شقتها النازجة الا وهى انضاء كلال ولا يكاد ينفذ طى ملائتها وخذ وارقال لم تسم قط همم الملوك الصافين لها الى غزو ديارها ولا جعل احد منهم ذلك غرضا لهم عزمه على اتصال الاماد * والاحقاب وكم انقضى من اجيال الامم الذين أوتوا الملك والبسطة فى العباد واستولوا على الاقطار الدانية والبعاد وقادوا العساكر الجرارة وطمحت همهم على الشهب السيارة من كل مقببل الدولة مرهوب الصولة مشهور البأس قوى الشكيمة طالما هب له النصر وخدمه السعد وساعده على ما اراد انقضاء القضاء وشق الممالك فى سلك سلطانه ومع ذلك زوى عن هذه الامم وجه الاعتزام ولم يعمل فى ذلك روية ولا ارتجالا واجال فيه قداح فكره تفاديا من مرامها الصعب ومراكبها الشמוש الابى وما منهم الا من ينظر منها الى حسناء لا تنقاد وعجما لو استنطقت قالت ارى العنقاء تكبران تصاد حتى ظن لذلك أهلها أنه لا يروع لهم سرب ولا يكدر عليهم شراب ولا يوقظ لهم من منام الا من جفن الى أن قيض الله تعالى لافتضاض عذرتها الاسد الورد المرهوب الشبى الدامى المخالب الحية الذكر والفحل الذى لا يقدح انفه ولا تسكن شقاشقه منبعت العزائم التى تقلق الصخر وتقتدح زناد الاراء المقتبسة الانوار من مشكاة الرسالة والشراك الذى قد قد من اديم النبوءة القرم الماضى العزيز القوى الشكيم كافل العلا وربى مهدها الناهض باعبائها حامى سرح المجد والمكارم علم العزم والمفاخر الذى رسخ ككبها وسمى كوكبا امام الامة كافل الارض كهف الاسلام تاج الخلافة مولانا امير المؤمنين سبط خاتم النبيين الممنون بامامته المقدسة على العالمين مولانا ابي العباس احمد المنصور بالله امير المؤمنين ايده الله فطمحت نفسه الشريفة التى لا ترضى غير الدراع متوسدا ونهر المجرة موردا الى امتطاء صهوتها وتسئم ذروتها واحتلال الفتح من الويته فى عقرتها وكان ايده الله تعالى قبل ذلك حسبما قدمنا قد

وطىء عساكره الامامية نخوم هذه الاقاليم ذات اليمين مع سيف البحر المحيط وشقت طرق هذا القفر البعيد المدى المديد الغاية النازح الشقة الى أن وردت خليج النيل حيث مسقطه من البحر المحيط وشدخت هنالك انوف عوالم وأمم تربي على الاحصاء والاستقصاء من السودان والاحياء البوبرية من العرب وصنهاجة سكان القفر ممن نشأ فى ذلك الجو وربى مع الرثال فى ذلك الدر فى عداد الاوابر الشوارد ينتجعون مساقط القطر بساعتهم فى تلك المراسى لا يدينون بانقياد ولامرت انفهوم على خزائن الملك ولا غضت شكائهم الاذعان من جماعهم فلا يفترون بينهم من حرب ضروس وبث غارة شعواء فهم الدهر بين غالب ومغلوب وسالب ومسلوب شأن العرب العرباء فى جاهليتها بعدا عن الاذعان وانفة من الانقياد فترامت اليهم العساكر الامامية وجابت اليهم المفاوز بجحافلها * ووطئت سنانها عقر ديارهم وعب عليهم عند اطلال راياتها المنصورة ص 68

قاصف الرعب فالقوايد استسلام فما عابت حتى ساقى فى ملائها طاعتهم حذارا من صولتها وتفاديا من هبوب عواصفها المنتسفة الاثار والاعيان فجابت العساكر من ارض فى هذه الامم ما بين وادى نول اخر اعمال السوس الاقصى الى شط النيل حيث ذكرنا ما يناهز تسعين مرحلة ثم تسامت هم مولانا امير المؤمنين ايده الله بعد ذلك الى الغلب على هذه الممالك الاخرى التى لا توازى لاجل معادنها الذهبية فخامة قدر واصالة ملك واتساع خطة وكثرة امم واتساع عمران ورسوخ امان واستبحار خراج حسبما شرحنا فشجد ايده الله عزائمه وارهدف حدها واجمع امره على اصطلام انفها الذى طالما شمخت به عزة وانفة وجمع جراميزه للوثبة عليها وثوب الليث الرابض فكان اول ما ابتدا به ايده الله عمله الناجح المسعى فى هذا الغرض واصاب فيه شاكلة الحزم الذى هو درعه السابغ ولامته الفضاضة تسريح عين له الى هذه البلاد فى صورة رسول اعنائه من نخبة الخدام اهل النبل والذكاء ليرتاد له البلاد ويسبر له عمق امورها ويمتلا من الاطلاع على سائر احوالها فسقطت منه فراسة مولانا امير المؤمنين ايده الله وحده الصادق على الخير فصيره لوجهته واحتل بعقوتهم وكان الرجل ساحر اللسان واسع المكر فتوصل بذلك الى مداخله آل سكية ملوكها والاختلاف الى اواوينهم وحضور مجالسهم وهو خلال ذلك قد طوى كشحا على ما اعمل اليه الطيبة وارجى المطية يستقرى الاحوال ويختبر المناحي فوجد فى البلاد فرصة الانتهاز وعاطل جيد قد تهيأ لاطواق الخلافة العلية فقفل ولم يدع من نفير ولا قطمير الا واحاط به فهما وقتله علما فقص ذلك على امير المؤمنين ايده الله وشجده به غرار عزمه فكان من احتفاله ايده الله وتجهيز العساكر اليها واجلابهم عليها على ما ذكره ان شاء الله تعالى .

ذكر تجهيز العساكر الى السودان والايقاع بجنودها وما يتخلل ذلك من الاخبار.

ولما ارتجع رسول مولانا امير المؤمنين ايده الله تعالى وعينه الذي بعثه لاستقراء احوال البلاد فكشف له عن عوراتها واشفاه في الجليل والحقير من اخبارها كما قدمنا وكان ذلك في سنة احدى وتسعين (1) تلوم من حينئذ يجيل في امورها قداح السراى وايمتاح قلب التروى استبراء للحقائق وانعاما للنظر .

وكان (2) اول شيء اغتنمه امير المؤمنين ونتج له عن نظره في جلب هذا العيص من ولد سكية (3) شأن الخراج الذى وظفه كان على معدن الملح بتغازى وكان من خبر فى ذلك ان تغازى وهى بلدة تتوسط القفر بين المغرب وبلاد السودان كانت فى القديم من ممالك سكية وتخم أعماله وبها معدن الملح الذى تمتاز منه سائر بلاد السودان ثم لما اشرق نور هذا الامر العزيز على الدنيا ومكن له فى الارض اجلب الامام رضى الله عنه على تغازى فانتزعها من يد سكية واستضافها للمغرب وعقد عليها لرجاله ثم رآ أن يتجافى عن بعض خراجها لسكية مقابلة تسريع بيع الملح الذى تستأمه العير الى بلاده من هذا المعدن فكان سكية يبعث من يحمل له نصيبه من الخراج دون أن يكون له قبض ولا بسط فى احكام البلد والمعدن وجرى الخلفاء من ولد الامام على سنته فى ذلك الى أن صارت الخلافة الى مولانا المنصور امير المؤمنين ايده الله واستفجلت الدولة اليوم لهذه الكريم وتفرقت التجارة وتضاعف خراج المعادن فرأ نصره الله أن المعدن لبيت المال وان اباحة ملحه بغير قيمة فيه تضيع لمال المسلمين وحقوقهم فيه (4) فوظف على هذا المعدن منها مثقالا على كل حمل على جميع الابل التى ترده وتؤمه من سائر الآفاق وتقصده وكانت بحرا لا ساحل له وبنى على ذلك المعدن حصنا انزل به من جيش النار من يحميه من الاعراب ومن الامتياز الا ان يؤدى الضريبة من جاء يسعى اليه وشحنه بالاقوات فرأ صاحب السودان ما يحصل من عظيم الربح والمنفعة فى ذلك لامير المؤمنين وحذر مغبته

(1) عام 991 هـ يوافق 1583 .

(2) يقتضى الترتيب الذى للاحداث الانتقال الى الصفحة 114 .

(3) يقصد داود بن على الذى سيتحدث عنه فيما بعد

(4) يمكن تلخيص مراحل تدخل المنصور للسيطرة على معدن الملح بتغازى فيما يل

1 - لما تولى المنصور كاتب اسكيا داود فى شأن التنازل له عن خراج معدن تغازى فاجابه اسكيا داود بان (بعث له عشرة الاف ذهاب هدية ... فكان سبب المحبة والوصلة بينه وبينه) (تاريخ السودان للسعيدى ص 111) .

2 - بعد وفاة اسكيا داود وتولية ابنه اسكيا الحاج محمد عام 1592/990 ارسل المنصور الى السودان وفدا للتعزية وللاطلاع على موقف الحاكم الجديد من التنازل عن معدن تغازى ، وقد حمل الوفد الغربى معه (هدايا عجيبيات) (تاريخ السودان - ص 120) فارجع اسكيا الوفد معه (اضعاف ما ارسل هو من الهدايا من لحام وستائر الغالية وغير ذلك ومن جملة ما ارسل لمانون خصيا) (تاريخ السودان - ص 120) .

3 - لما تأكد المنصور من رفض الحاكم السودانى التنازل له عن المعدن المذكور تدخل عسكريا بسان ارسل قوة مسلحة قوامها مائتا جندي لاحتلال تغازى ، وتم ذلك عام 994 هـ/ 1586 وقام بفرص مثقال على كل حمل .

ان تم له فيه تديره فسعى فى تعطيل ذلك وإفساده ونادى فى سائر بلاده باقتطاع ملح ذلك المعدن ومنع العير التى تمتار منه من الورد به الى بلاده(1) ثم ضرب الدهر ضرباته فقدفت الاقدار بهذا السبط من ولد سكية الى ايلة امير المؤمنين بتديره واعمال الحيلة كما وصفنا من حله (2) .

واما(3) ولد سكية صاحب كاغو من ملوك السودان فقد كان من خبر وصوله ان امير المؤمنين لما عزم كما قدمنا على تجهيز العساكر الى جهة سكية مرجعها من الحركة لسواحل السودان المتقدمة الذكر رءا أن يبعث من قبله أولا عيناً الى البلاد ليحتال على جلب بعض الاعياص من ولد سكية لينصبه لاستيلاف قومه ويرمى به البلاد مع العساكر واختار لاحكام هذا التدبير واتهام الحيلة فيه منصور بن الفلال شيخ اولاد سالم من عرب القفر لنباهته وعرفته بالبلاد لجلب الغارة اليها ولما كان له من المداخلة بملوكها لكثرة اختلافه الى ابوابهم وجلب التجارة الى بلادهم فسرجه الى ذلك ملبساً بالتجارة فوصل الى كاغو قاعدة ملك سكية فاسترابوا به اولاً وافضى به الامر الى أن سجنوه ليلتلوه بذلك ويمتنعونه فعالج الصبر على المحنة نفياً للريبة وتوصلاً الى اتنام الحيلة وتنفيق المكيدة فاسرها فى نفسه ولم ييدها لهم الى أن لاح لهم عليه من الشواهد ما يقتضى فى الظاهر من احواله براءاته فسرحوه من الاعتقال واستخدم واظهر لهم من نفسه المخالصة واقام لديهم ثلاثة اعوام يتقرب اليهم فيها بما يظهر من المناصحة مكرًا وخديعة واعتمالا فى اتنام الحيلة الى أن اتفق ما كان من موت الحاج محمد السلطان(4) كان حينئذ من ولد سكية وتحويل الدعوة الى بعض اخوته فافترقت عليه الكلمة بخروج احد اخوته عليه فدارت بينهما حروب أجلت عن القبض على الثائر فاغتنمها منصور رسول امير المؤمنين فتقرب فيه للسلطان بالمناصحة وحضه على تغريبه الى المغرب حسماً لداء الفتنة ودفعاً لما يحذر من مقبته وهو يسر حسوا فى ارتقاء مكرًا به فى ذلك فاصفى اليه وقلده ووكل به من اوصله الى والى الامر من قبل امير المؤمنين بتفازة فقيدا فاغدا به من

(1) أورد المؤرخ السودانى السعيدى فى (تاريخ السودان) ص 121 (وفى سنة اربعة وتسعين وتسعمائة فى سوال جاء الخبر بان لاذهب احد الى تفاز فمن مشى اليه فماله هدر)

(2) يقصد المؤرخ الفشتال وصول الامير السودانى على بن داود الذى وصل الى مراکش فى شهر جمادى الاولى عام 997 الموافق لشهر افريل 1589 وسيفصل الفشتال فيما بعد القول فى الطريقة التى وصل بها الامير السودانى الى المغرب .

(3) يقتضى الترتيب الزمنى لسرد الاحداث الانتقال الى الصفحة 113

(4) اكد صاحب تاريخ السودان بان ثورة قامت ضد اسكيا الحاج محمد فى شهر ذى الحجة عام 994 الموافق لنوفمبر 1596 . وقد يكون ذلك للموقف السلبي الذى وقفه الحاج محمد من احتلال المنصور العسكرى لعين تفازي ، وتولى فى محرم 995/يناير 1587 اخوه اسكيا محمد الا انه تولى فى نفس السنة وخلفه اخوه اسكيا اسحاق الذى تمت بيعته يوم الاحد 3 جمادى الاولى عام 996 الموافق 10 ابريل 1588 . وقد قامت ضد اسحاق عدة ثورات من أهمها ثورة أخيه على الذى انهزم والقى عليه القبض .

حينه الى مراکش دار الخلافة فوصل فى جمادى الاولى (1) واتصل خبر وصوله بأمر المؤمنين بفاس فاهتز له من اعداده سرورا باتمام حيلته واستبشارا بفتح البلاد على يد العيص من اسباط سكيه الذى اعتمل فى جلبه واعتدها الناس من مآثر * أمير المؤمنين فى الدهاء وبعد الفور فى الصبر على العاقبة لمدة من ثلاثة اعوام وحسن النظر فى اختبار الرسول الذى هو عنوان الملوك على النجاح واستقامة الرأى وصحة التدبير .

وراء (2) أن له بذلك التحكم فيما يشاء عند صاحب السودان فابتدر من انتهاز الفرصة فى تثير الخراج الموظف على معدن تغازى واعتمل فى اتمام ذلك بأن دس مع ولده المولى ابى فارس عنانها .

وقبض (3) ولد سكية الوافد على الحضرة فى مغيبه بأن يكتب الى أمير المؤمنين يرغبه على امداده بالعساكر ليجلب بها على السلطان اليوم بكاغو وطير به أمير المؤمنين لناحيته مع رسوله الى سكية صحبة رسالة خاطبه هو ايده الله بها من عنده يأمره بتسريح العير التى تمتاز الملح من هذا المعدن الى بلاده وتهدده بما انفذ اليه من كتاب اخيه المعتمد فى شأن الاجلاب عليه بعساكر المغرب وأراه أنه قد أملا له فى الجواب حتى يرى ما يبدو منه ويصل عنه يحاول ايده الله بما دبر من هذه المكاييد الحصول على غرضه فى تثير ذلك الخراج الوافر من غير كبير كافة ولا اعمال حركة ثم بدا له ايده الله أن يبنى أمر هذه الملاحه المعدنية على أساس من الشرع واقامة للحجة البالغة بذلك على صاحب السودان فاستفتى علماء حضرته وكبار مشيخة العلم وارباب الفتى بها فافتوا بما هو معلوم فى ذلك لائمة المذهب وعلماء السنة من ان للامام فيها النظر والاجتهاد وصرفها فيما يراه من وجوه السداد وسطروا بذلك فتاويهم فانفلها مع رسوله اليه صحبة رسالة اعذر له بها من انشاء شيخنا الصدر العلامة مالك زمام البراعة والامام الذى صلت وراءه ارباب الصناعة ابى مالك عبد الواحد بن احمد الشريف لمرض كان ألم به حينئذ عاقنى عن الانشاء والصعود للباب العالى فتوجهت الاشارة الكريمة لذلك الى شيخنا ابقاه الله يكتب الرسالة فاشكل عليه المصطلح فى استهلالها بما يليق فى حق خطاب أمير المؤمنين ايده الله بالنسبة الى المخاطب فتفادى من ذلك ابقاه الله بالاحالة على لتكرار الكتب اليه من انشاءى واقتصر على ما دون الصدر وكتب فى عرض المسودة الى أمير المؤمنين يعتذر له عن ذلك بما نصه ايدهم الله ونصر اعلامكم ان مخاطبة هذا الرجل

(1) وصل الامير السوداني على بن داود ال مراکش فى جمادى الاولى 997 لوافق لافريل 1589

(2) يقتضى ترتيب الاحداث الانتقال من السطور الاولى للصفحة 114 ال السطور الاخيرة منها

(3) يستلزم تنظيم المعلومات الانتقال الى الصفحة 54 .

الذى هو فى رتبة ممالك الحضرة المولوية أمر نعلم فيه لسانى ووقف عن خوض لجهته
بنانى وخفت ان يكبوا فيه طرف بنانى لان النأى عن هذه المحجة قد مد بينى وبينها
حجابا واغلق فى وجهى بابا فلا آمن أن افتحمته من الوقوع فى تفريط او افراط
وخير الامور لو علمته الاوساط لكن لا سبيل لمعرفة الا بعد علم الطرفين والعبد محجوب
عن ذلك دون مين فتركت ايديكم الله الصدر لمن هو به منى اقدم وتحاميت عقده لمن هو
له اعقد ابى فارس عبد العزيز الذى فاضت عليه انواركم واضاءت له سبل هذا المنحى
اقماركم والا قرعت هواتف لسان الحال سمعى بقوله

يا بارى القوس بريا ليس يحسنه لا تظلم القوس اعط القوس باريا

انتهى وحينئذ توجهت الاشارة العلية الامامية الكريمة الى العبد بانشاء صدر

الرسالة * وفصول أخرى فى مواضع منها ونصها الى رئيس كاغوا وكبيرها والقائم

بأمرها وتديرها اسحاق سكية بن داوود وصل الله لكم اسباب هدايته وتوفيقه وجعلكم

من انتهى الى حزب هذا الجناح النبوى الكريم وفريقه سلام عليكم ورحمة الله

وبركاته أما بعد فهذا لله الذى صرف لهذه الامامة النبوية الكريمة وارثة الارض ومن

عليها وجعل زمام الامة بيدها والنظر فيما لهم وعليهم موكولا اليها والصلاة والسلام على

سيدنا ومولانا محمد المبعوث من اطيب المعادن وأشرف من تنصرف اليه الوجوه من كل

ظاعن وقاطن والرضى عن ءاله الائمة الاعلام خلفاء الاسلام واصحابه الذين عزروه ونصروه

بالسنن والحسام وصلة الدعاء لهذا المقام العلى الامامى النبوى المنصورى الاحمدى

الحسنى الفاطمى بنصر تدور به الافلاك وتستنزل به الملائك وتخضع له الاملاك

فكتابنا هذا اليكم من حضرتنا العلية وكرسى اياتنا العلوية ومقر امامتنا الهاشمية الحسنية

مراكش حاطها الله ونعم الله على هذا المقام المنصور ضافية السربال وافية السيال

والاعتناء بحفظ نظام الدين وتشديد قواعده من كاسه العنوق والاصطباح والاهتمام

بمصالح الامة المحمدية مستغرق فيه المساء والاصباح وارسال سوابق الفكر فى تتبع

المصالح التى تتعلق بها اعلام التوحيد على اهل التثليث هو الدين فى القد والروح كل

ذلك علم الله لنقدم فى هذا الدين المحمدى المقام الشريف ونبرا على اكمل الوجوه من

عهدة التكليف فقد نيطت بنا التكاليف الشرعية التى لم تنط بغيرنا اى مناط

وارتبطت بنا اى ارتباط ولا مطمع فى التقصى من ربقتها والانفلات من عهدها الا بمواصلة

الجد فى السالكات والانا واعمال الحزم والعزم وترك الهوينا ومتى يقع الخلاص من اعباء

عرض حملها على السموات والارض فابست ووعدنا بالثواب عليها خالق العالم فتأبست

فاليه سبحانه نمد اكف الضراعة فى تيسير الخلاص من هذه الاثقال ومنه نستمد الامانة

التي بها تنال الامال وغير خفى على من ذاق حلاوة الايمان وخالطت بشاشته قلبه والقى

الى هواتف الشريعة كتابا وسنة سمعه ولبه اننا بهذه الانقال دون غيرنا مطالبون وبأعبائها مضطلعون اذ الناس في هذا الامر تبعو نحن المتبعون وان طاعة هذا الامر الذي تقلدنا قلالته مفروضة على اهل الارض وواجبة على كل من أحاط من اسياح المعمور على الطول والعرض لما اختصنا الله به من امامة الجماعة التي أوتيتها حكم الولاء والكفالة ووراثة الارض ومن عليها لا عن كلاله وقلدنا من حماية بيضة الاسلام والذب عن أمة نبيه عليه السلام وانى لمن بهذه المنزلة ان تطرق أجفانه سمة اغتماض أو يتأتى له عن رعى المصالح الخاصة والعامة * صدود أو اعراض وعدو الدين الى شق عصي الاسلام ص 36 وافساد بيضته على طول المدى فأغرفاه معمور الفكر والبال فارغ مما سواه ولهذا ومن أجله لم تزل بحمد الله سهام أنظارنا السديدة الى أهداف مصالح الامة المحمدية مفوقة وءارونا ولا كفران لله بحوله وقوته الى صوب الصواب موقفة نعتز منها على ما جر عليه قبل الايام ذيل الاغفال فأسدل دونها رواق الاهمال وكلما أثرتنا من مهامه الفيح فنصا وقعنا به على مهارق الاعلام والتعريف لكم ولغيركم ممن أوجب الله عليه الانصات لامرانا قصصا لتبلى في الاقطار والافاق دعوتنا اليه المطاعة وتعطى اشارتنا به على الانام ما يجب لها من الشهرة المقرونة بامثال والاذاعة ويشتهد به ازر هذه العصاة الاسلامية وهذه الجماعة ويحصل لها به بعد سبر غوره الفرح والاعتباط ولنا ان شاء الله أجر الاشارة به عليها والاستنباط هذا وان مما وقف بنا عليه بعد استخارة الله زائد الاختيار وسبرنا غوره من سديد النظر بمسبار وما تعاضدت شواهد الشرع على اعتباره واباحة اجتناء ثماره وانه من القلادة التي طوقتنا دلائل الكتاب والسنة طوقها وأسالت أرواح الاذن الالهى من سماء التمكين على أكناف ودقها وأوجبت عليكم خصوصا وعلى الناس عموما تلبية منادينا وانهاء التعريف بالقبول لها الى شريف نادينا وذلك هذه الملاحه المعدنية التي تضرب اليها أكباد الابل وتشد بسببها لبلاد تغاوى على الدوام الاقتاب والرحال وتعمل المظى اليها الوخذ والارقال وتشق البيد نحوها باحمال الثقال قد انطوى على مصلحة لهذا الجيش الاسلامي والاسطول الجهادى الذى جعل المولى سبحانه بأيدينا زمامه وصرف بفضلته الى احياء دينه طعنه ومقامه وشرق من أجله طاغية التشليث بريقه وضاق متسع الفضاء فرقا به وبجزبه وفريقه لا يصلح فى قانون الشرع أن تقابل بالاهمال ولا يبرى من عهدته الا البدار اليها والاعمال لما فيها من الاعانة لهذه الجيوش الاسلامية والعساكر المظفرة بالله الهاشمية الامامية وتقوية هذه العصاة النبوية التى بها يقع الدفاع عن الملة ويحمى حماها بسيوفها المستلة وصرفها فى اقامة أسطول الجهاد وفيما اعتدناه للرباط فى ذات الله من الصافنات الجياد مع ما فيها للامة المحمدية من المنفعة التى ان ضيعناها توقعنا فيهما ولانا الله من امرها تقصيرا

وزجروا بارتكابها وانتهاز الفرصة فيها من عظيم فضله أجرا كبيرا وذلك بأن وظفنا زنة مثقال تبرأ على كل حمل من العجبال التي تنشى هذه الملاحاة للحمل على طول المدى والزمناهم ذلك ما أعقب غدا بحيث لا يوسق رحل الا بعد اعطائه ونقده ومن تآبى * فليتيقن بصدده عن حملها وورده وها نحن قد انفذنا اليكم بما لأئمة المذهب فى هذه المسئلة على الخصوص وما لعلماء السنة فيها من الحجج والنصوص والبراهين المحكمة كالبنيان المرصوص لنعلموا أن للامام فيها النظر والاجتهاد وصرفها فيما يراه من وجوه السداد وبخاصة فى اقامة فريضة الجهاد وتستشعروا مالكم فى امثال ذلك من السعادة التي تجنونها ذخرا والفلاح الذي تفوزون بليله ان شاء الله دنيا واخرى وعرفناكم بهذا لتكونوا اول من ثنى اليه اعناق الرجال وأول من أحرى الاستماع اليه والامثال ومن شتمتم منه رائحة الانحراف عن هذا الامر العلى والازرار فقوموا اعوجاجه بثقاف الالءاء اليه والاضطرار فانتم احق الناس والحمد لله بحشر الناس لهذا الباب وما يذكر الا اولو الالباب انتهى وأسر مولانا أمير المؤمنين المنصور أيده الله الى حامل الرسالة من أبوابه الشريفة أن يكون أول ما يدفع من الرسالتين الى سكية عامل السودان هذه الرسالة الاخيرة التي الان له فيها القول لعله يتذكر أو يخشى وبني له الامر فيها على أساس الشرع فان استجاب وفوض الامر الى أمير المؤمنين فى أمر هذه الملاحاة فهو القصد والا دفع اليه حينئذ الرسالة الاولى لما تؤذن به من التهديد بالعساكر التي طلب أخوه على بن داوود الخالص للابواب الشريفة برسم الاجلاب بها عليه فان لم ينجح بذلك أطلعه بعد ذلك على كتاب أخيه بنفسه الذي كتبه بتدبير أمير المؤمنين يطلب فيه الامداد بالعساكر حسبما قدمنا فان لى بعد هذه الاعذارات كلها واستنكف فقد صدقت عليه الحجة حينئذ وحق عليه القول وشرع أمير المؤمنين الان بعد ارسال الرسول فى تجهيز العساكر الى تلك الجهة والاستعداد لحركتها بما تستدعيه الشقة الطويلة وطى المفاوز البعيدة من عظيم الاحتفال فاذا استوعب الاهبة جلست للوثبة على برائنها تنتظر ارتجاع الرسول (1) الى عام ثمانية وتسعين حتى مضى على بصيرة * من أمره ويقين من شأنه وكان قد انفذ أيده لاله خلال هذه المدة فى رسالة الى سكية صاحب هذه الممالك كان وطيرها مع رجل سبق له الفلو الى تلك البلاد فى سبيل التجارة ممن يليق بديل الدولة فى خدمتها وبمت نصائحها يخاطبه فى شأن الملاحاة الكائن بتغازى وهو الذى تمار منه الملح سائر بلاد السودان ويتثال عليه من أهل الوبر بالقبلة والجنوب والقاصى والدان وقد ر له فيها ما اقتضاه

(1) الانتقال الى الصفحة 68 .

سديد النظر الكريم من فرض مثقال للحمل على كل من يتناهب من القوافل وينتال عليه من القبائل لما أنهى إليه رسوله وعينه أن ذلك بحر لا ساحل له ليكون ذلك عوناً لجيوش الاسلام وامداداً لجنود الله على مجاهدة عبدة الاوثان والاصنام واطلعه على فتاوى العلماء ومشايخ الاسلام بما للامام من الاجتهاد فى المعادن فلما تادت الى سكية الرسالة الكريمة شق عليه امضاء ما اقترح فيها أمير المؤمنين من الخراج المفروض على الملاحة حسداً له وخشى مقبة الاستعصاء لامره فسوف بالرسول وبنى أمره على المطاولة به فتفطن أمير المؤمنين لما طوى عليه كشحه فاحفظه ذلك واستشاط غضباً على سكية (1) ونقم عليه اهمال جوابه والتسويق برسوله وعدم نفوذ ارادته فانبعث لذلك أيده الله وأجمع أمره على ما نواه وقبح زناد العزم فارواه وشد اواخى اهتباله واعتنائه فاشتدت وسدد سهام العزم الى غرضه فاشتدت وقدم أيده الله تعالى بين يدي مساعيه الناجحة استخارة الله تعالى التى يستضاء بقبسها فى غياهب الامور ويهتدى بمعالها فى مجاهل البید اقتداء بما ندب اليه الشرع العزيز وحث على استعماله والحيزة اليه تبسم اليه من وراء الغيب والنجم تحقق له على كل ثنية راياته سنة أجراها الله تعالى فى مقاصده وعناية ربانية تصحب خواتمه ومبادئه ثم عقد أيده الله تعالى مجلساً للشورى والمؤامرة امتثالاً لما أمر الله به رسوله عليه السلام ثم كتابه الكريم فجمع الملا من طبقات الاجناد وذوى الحل والربط وأولى البصيرة والحنكة وخبرة الامور لم يستثن مشار اليه ولا مشاور فصعد لهم أيده الله بذات صدره وفاتحهم بعزيمته وما أجمع عليه من تجهيز العساكر الى هذه الاقاليم السودانية والاصقاع الجنوبية معلناً لذلك الملا أن لا يدخر أحد رأياً ولا يمزج بالاذهان نصحا وانه ايده الله غير مسكتنف من حق يوضحونه بحجة ولا متوقف عن الرجوع الى صواب يتبثونه ببرهان يستنم الله فتنازل أيده الله لمجال الاحتجاج ثبرياً من الاستبداد بالرأى فأصفقوا اجماعاً لم يختلف فيه فتهم اثنان ان هذا غير داخل فى حيز الامكان ولا يتصور خياله الا فى الاذهان محتجين باعتراض المفاوز البید والمجاهل القفار دونها التى لاتشقها الرفاق القلائل الا بعد عصب الريق والافلات * من مغالب الهلكة فكيف بالعساكر الجرارة والمناقب الضخمة واحتجوا أيضاً أن من اجتاز بالمغرب من أهل الدول العظام أهل الشوكة ووفور الاجناد وامتداد ظل السلطان كسولة الملتئمين ومناهيهم الموحدنين ودولة بنى عبد الحق من بنى مرين ما عملوا فى ذلك خطوا ولا طاف بهم الامل حوله شوطاً ولا حاك لاحد فى هاجس ولا القى اليه طاعية وخصوصاً متهم الملتئمين الذين

ص 70

(1) أورد المؤرخ السودانى السعيدى بان اسكيا اسحاق قد رفض الاستجابة لمطالب المنصور (والتسليم فى ذلك المعلن بل قبح له الكلام فى الجواب وبعث له صحة جوابه حرشاً وتعليق من جديد) (ص 138) اشارة الى أنه بعد انتصاره على المنصور سيضعهما فى رجليه .

منشاهم من لصق ديارهم وانتشار رياح دولتهم من قرارة جوارهم ولو كان ذلك فى طوق امكانهم لكان همهم الذى يسرع اليه هو ابتدارهم فما أخذ بحجزتهم عن ذلك الا دخوله فى حيز التعذر فاما الاحتجاج الاول بالمقاوِز المعترض دونها اعتراض البحار فأجابهم عنها مولانا أمير المؤمنين أيده الله بأن هذه المقاوِز والقفار لم يتعذر بها السلوك من كل وجه بل هى سابلة للتجار ومدرج غلهم مدى الاحقاب والدهور وهم فى كل صدر يصدرونه يختلبون من الرقيق صنوفا وضروبا من صغير يهاز سن المراهقة وضعيف التركيب منحل البنية ممن لا يقوى القوة على المشى ومع ذلك فهم يقطعون عرض هذه السباسب سعيا على الاقدام وخطوا على الارجل بين احقاب رمالها حتى يخلصوا لبلاد المغرب ثم هولاء التجار الخائضون لغمارها المختلفون اليها يعبرونها بأوقار البضائع الثقيلة وأحمال المتاع الجمة بين صدر وورد وأما مولانا أمير المؤمنين أيده الله أقوى استعدادا من استعدادهم وأقدر على الاهبة التامة والاحتفال لذلك منهم وما يجهدهم ويعوزهم فهو عليه أسهل وأيسر بتضعيف العدد السفرية من مزاد الماء ووفور الاقوات والازودة والاستظهار بالمطى المضطلة بشق المهامه والرواحل المعتمدة الشديدة الاسر والقوى التى لاتنصر غصنها المراحل ولا يخذد أوصالها أو عث الجاهل فتبينت للملا حجة مولانا أمير المؤمنين أيده الله وسلمت مقدماتها اليقينية واما الاحتجاج الثانى بعلم انبعاث همم أولى الملك الى هذه الاقاليم واطراحهم بواعث العزم عليها فأجابهم أيده الله عنه بأن الدول الثلاث طول استقامتها ورسوخ عمود اعتدالها لاينفكون عن عيهة وحرب وارتباك فى اشراك المناضلة مع من يليهم من ملوك الافرنج بالاندلس واختصت دولة الموحدين زيادة على ذلك بمداقعة الميورقى ابن غانية الذى لم يزالوا يكفكفونه عن أقطار افريقية التى أضرمها نار فتنة واما بنو مرسى فاستغرقت أيامهم حروب بنى عبد الوادى بتلمسان ولم يغل قط جوهم من نزاعهم هذا على حين استفحال كل دولة وفى ريق شبابها فاما بعد أن رميت بدائها وتقلص ظل اعتزازها فهى تجود بدمائها لا دفاع لها * ولا حراك وقد انقضت كل واحدة منها وما فرغت من شواغبها ولا صفى لها مورد من مدر على ما تشهد به سيرتهم وإيامهم ثم لو خلا وجههم لذلك وصفى جوهم من الشواغب الاخرى فحجزتهم قلم عنه عائق اخر أكبر مما ذكر يقطع بهم عن هذه الغاية لا محالة وهو أن عساكرهم التى يستتبعونها القائمة بشوكتهم وخروبهم مع الالف أنما كانت عساكر الخيل والفرسان الرامحة وعضائب الرمات الناشبة ولم تستتبع اذ ذاك عساكر النار المرهوبة الصواعق القاصفة الرعود وغير خفى أن أجنادهم تلك لا تدوخ هذه الاقطار النازحة منها عضابة قليلة ولا طائفة نزره ولو انتهت شوكة ونجدة لأن سلاح الفريقين واحد وحربهم ضرب متفق فالقليل بكل تقدير منهم لا يقاوم الكثير من أمم السودان

ولا يتأتى لهم الغلب عليهم الا بالاستظهار بالعساكر المتناهية فخامة ووفور عدد ومثل هذه الجيوش لا يمكنها اقتحام هذه المفاوز البتة لما تستدعيه مؤنها ورحالها وأثقالها وأزودتها من الظهر الذى يفوت التقدير والحسبان ويكاد وجوده يخرج عن حيز الامكان بخلاف هذه العساكر الامامية المنصورية كلاها الله تعالى وحماها فانها عساكر قاذفة بشواطئ النار وحصباء البندق المنهل بسحائب من البارود مكروم تزجيته الرعود القاصفة والصواعق الراجفة تتبعها الرادفة فالحصنة منها تدوخ أقصى تلك الاقطار لعدم القدرة على مقاومتها والانتصار لمحاربتها وكان مما استطرد مولانا امير المؤمنين ايده الله تعالى فى ميدان ذلك الاحتجاج التنبيه على ما تقتضيه الماسية أيضا فى العساكر والاجناد من اصلاتها نار الحرب ورميها المأزق الجلال دوبا على الدربة بها وارتياضا على صدق المصاع فى ضنك المواقف وخوض غمرات الهيجاء وبعيدا عن التراب والاخلاد الى الراحة والركون والسكون الى الدعة لما يودى اليه فى ذلك من وهن عزائمهم ولين عرائكهم وقل شبي شوكتهم عند الحاجة اليهم هذا والاقاليم الافريقية والاندرلسية قد شغلت لهذا العهد بمن استولى عليها من العجم وعلى فرض خلوها حسب أحوالها مع الدول المتقدمة فصرفت الوجهة لاصقاع الجنوب وممالك السودان أحق وأولى بالتفات العزائم فهي وان كانت أصعب مراما وأشمس مركبا فانها أغزر نفعا وأجلى مغبة وأرحب مجالا وأوسع عمراننا وأوفر نشبا وأقوى بمعادنها وكثرة المشتاق من رقيقها يدا على الاستكثار من الاسطول لغزو عدو الدين والاجلاب عليه بحول الله وعزته فى عقر داره حسبما هو مبنى النية الصالحة الكريمة على أساس هذا المقصد الجميل بلغ مرامها وانجح بمئه فى كل ورد وصدر قصدها وامانها * ولما استضاء للملا نور الحق المبين فيما ذهب اليه امير المؤمنين وتبينوا عراقة رايه الحصيف فى انساب الصواب وتوفيق الله تعالى لانظاره فى اصابته المحز ووفاء جبلته الطاهرة وقطرته المقدسة بما لا تنفى به أفهم الناس وتكل فى ييدائه سباق العقول الراجحة حتى ليكاد يسبر أعقاب الامور الغائبة الى الاعيان ويحس الاشياء التى يسفر عنها الغيب ووفق فراسته الزكية كان قد رآ وقد سمعا

ص 72

نفث التوهم عن حلة ذهنه فقضى على غيب الامور تيقنا

اصفقوا كلهم حينئذ رجوعا عن رأيهم الى سيد رايه المصيب ونظره المكين الحصيف اذ لا أثر لنبراس مع طلوع ذكاء فعندما تمخضت زبدية هذا التدبير المبارك وافاض فحيح هذا المجلس المعقود الحى للمؤامرة والمشورة مشحوذ العزائم متيقظ الهمم انتضى مولانا امير المؤمنين ايده الله صارم العزيمة للاحتفال وشهر للجلوس له بنفسه فأطرح الهوادة فى الاستعداد والاهبة الفخمة وذهب فى مذهب الاحتفال أبعد شاو فكان أول ما صرف اليه عنايته استعداد الرواحل والابل اذ هى ملاك السفر البعيد ومركز مداره فوجه امير المؤمنين الى الاحياء

الظاعنة فى النواحي كفاة من أنجاد خدامه وعهد اليهم أيده الله فى اعتياد كل فدية
 ارجبية من البزول الشديدة الاسر والقوى التى افعم النخض اهابها واتمك سنانها
 مضطلعة بشق الفاووز البيد وقطع عرض الفلاة المديد مستقلة بنقل الاحمال ولم يسمح أيده
 الله لاحد قد تولى شيئاً من هذا العمل ان يأخذ ما خرج عن هذا الشرط ولا أن يقبل
 ما تبدى فيه وصم عيب أو رسمه عجف وانحلال بنية بل تقدم اليهم بالمنع والحظر
 عما دون ذلك وان عائد العهدة والدرك على متولييه ان جلب ما لا يرتضيه وبلغ فى ذلك
 أقصى مبالغ التشديد شأنه أيده الله فى معاقده أموره المنوطة بنهاية الاحكام والاتمام
 ثم عهد بعد ذلك باتخاذ ما تستتبعه من الالات بين رجال محكمة العمل وأوعية وعياب حصيفة
 وجدل مغارة الغتل وانتقى كل ذلك من علية جنسه ونجست الاقتاب وجمع لها أيدي العملة
 من صناع النجارة وتتبع فى اغفال المناابت شجر الخلاف فاستوعب ذلك كله هضاب
 فارغة وتلول هائلة قضى الناس العجب من مرأها واستقرب فى الامكان حملها برمتها
 خاصة فكيف بسواها مما هو المقصود بالذات وطوى بحر الاحتفال وزخر عبابه وجمعت
 الاسقيه والشنان الحصيفة الاديم وتخطت أعداد المئين الى الالاف حتى أن العساكر
 الامامية لما توغلت فى الفاووز التى نضبت بها المياه واعوزت قطف الثماد وبلالة الاوشال
 كانت تسيل على أكواز المطى انهار تطرد من العذب الزلال * وتجاوز الرأى الناس الى
 ما جنبوا من المقربات من غير مصابرة ظمأ ولا طى احشاء على غلل بحيث لم تفقد
 العساكر المنصورية خلال ذلك الدو وأثناء ذلك القفر شيئاً من أحوال الترب ولا غربت عنهم
 غصارة العيش القضة الافنان ولا أحسوا لبوس بهمس صنع الله المطرد فى كل مرام
 يروم مولانا أمير المؤمنين المقترن بالتيسير لزما كما ألزمت الاطواق الحمام وما ما
 استوعب من العدد المضاعفة والسلاح الشاك المظاهر وجهاز من خزائن البارود المتراكمة
 قناطره المقنطرة التى أوقت على أعداد المئين وأرهقت الالاف ومن خزائن الرصاص المعدة
 لحصى القذف وبندق الرمى ومن الانقراض الثقيلة الاجرام المعدة لارسال الصواعق
 القاصفة الدوى التى تستلب أقتلة الابطال من الجوانح وتقتنص أرواح الكمات وتندعر لها
 المقانب امصاف الوقائع وغمار الحروب فحدث عن كذب بيرين كثرة وقدره تقصر عنها
 قدر الاملاك وهمة شامخة أنافت على الافلاك :

أوفى بها صعدا حتى غدا زحل من تحتها بركان الترب من زحل
 الى غير ذلك من الاسباب السفرية المتكاملة الانواع والاجناس وأعمل فى نقلها العجل
 وءالة الهندام ثقل أوقارها حتى أن مما استعد وتوفرت به العناية الامامية وءالة

السفن والاساطيل برسم اتخاذ الفلك والجواري المنشآت لعبور النيل وامضاء غارب
بشجه استبلاغا في الاهبة والاحتفال واما الازودة والاقوات فأمر أخرس قلم الحاسب
وبعث المسهب الاقصار ولما تكامل الاستعداد وتم الاحتفال وتوافت العمال بالبحر التيار من
كرائم الابل على وفق شريطة مولانا الامام أمير المؤمنين أيده الله وعلى حسب اقتراحه
وسالت الى الحضرة باعناقها الاباطح من كل أوب فاجتمع منها سواد طم على الحسابان
اضطربت المجالات ضاحية بظاهر الحضرة وخفقت سياجات السراوقات ولاح في الجو
سنى القباب وعقد مولانا أمير المؤمنين أيده الله على هذه العساكر لمملوكه الشهم البهمة
الناهض لأعباء الاستقلال الموفى على كل ما قدم الله على مرتبة الكمال وشريف الخلال
الناشيء بهتذيب الامامة الكريمة والمتخرج بآدابها التي سبكت ابريزه وقوم ثقافها اوده
وقدح زناده السابق في مضمار النجدة المبرز في حلبة النجاة المنقطع القرن الذي شأ
الاتراب وبدا المساجل الداهية النناد وثلاثة الاتافى وثاني اثنين سبقا واستكفاء وتقديما
على من سواهما من المماليك والموالي العلوجى بدار الخلافة المعظم جودر باشى فأعطى أيده
الله منه القوس بارياها وصدق فيه الخبر الخبر فبرزت العساكر الامامية من الحضرة
العلية لمخيم محلاتها يوم الاثنين السادس عشر من ذى حجة عام ثمانية وتسعين
فى حفل بروز وافخموا وانتظموا * فى أوعب ترتيب وابدعه ممتدين سمطين من سدة
الخلافة الكريمة وانجفلت الدهماء لمشاهدتهم وغصت بهم فوها الشوارع واسترسلوا فى
مذاهب الاعجاب لكثرة ما كان الناس يتحدثون بغرابة أمور هذه الحركة من أولها وانها عندهم
من الغريب الذى لا يذكر والممكن الذى يكاد أن يصير من قبيل المحال لاستعظامهم لأمور
تلك المفاوز واقتحامها على بعد شقتها فلم يشاهد من نشاط الاجناد ولا من شره العساكر مثل
مارى فى هذه العساكر المظفرة فما ملأ لهم الهول صدرا ولا خافوا ولا نكلوا ما يتلقاهم
من اعتراض الهاق الفيج وانتزاح الدار وشحط الزار وشد مولانا الامام المنصور بالله أمير
المؤمنين أزر مملوكهم المذكور بثقات من كفاته وطماته من قواد الاسل (1) أولى الدهاء
والرأى المطبق لمفاصل الخطوب وذوى النجدة فى مضايق الحروب من كل وخطت فوديه
بقناع الشيب وقائع الامور وتمخضت البابهم امحاك التجاريب عتادا ودرا يرجع اليهم فى
مغض زبلة الاراء ومجال المفاوضة شدا لاواخى الحزم واحكاما لمرائره وجمعا لكل
شادة وفادة من اوابده وشوارده ولم يقرع صماخ احد ولا دون فى بطون القراطيس
حديث عسكر بلغ فى الاحتفال والانتقاء والانضباط على قواعد الحزم وتوفير العدد ما
بلغت هذه العساكر المنصورة وقوضوا الابنية عن فناء الحضرة العلية برصد سعيد وقران

ص 74

(1) ذكر المؤرخ السودانى اسماء القواد الذين رافقوا جودر باشا فى الحملة ضد السودان وهم مصطفى
التركي ، مصطفى بن عسكر أحمد الحروسى الاندلسى ، أحمد بن الحداد العمرى أحمد بن عطية ،
عمار العلمى أحمد بن يوسف العلمى ، علي بن مصطفى العلمى ، بوشبير العمرى ، ابو غيث العمرى
باحسن العلمى قاسم الاندلسى (تاريخ السودان • ص 138).

مبارك في صدر المحرم عام تسعة وتسعين (2) وصدر خطاب مولانا الامام المنصور بالله امير المؤمنين ايداه الله الى القاضى عمر بن محمود بن عمر قاضى تنبكتو السموغ الكلمة فى اجيال السودان فى منحنى اقامة الحجة وايضاح معالم التسرع والاحتجاج بالسنة والكتاب على وجوب تقليد بيعة مولانا المنصور بالله امير المؤمنين ايداه الله وافتراس طاعته على الاحمر والاسود والانخراط فى سلك الجماعة بالانقياد لدعوته النبوية والالتزام بامانته الكريمة ونص الكتاب الكريم النبوى الامامى المنصورى بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله ثم كانت العلامة الكريمة المباركة المذهبة المنيرة المشرقة التى خطت فيها يمين الامام وبنان سبط النبى عليه السلام اسمه الشريف المبارك الكريم بتدبير يبهز العيون حسنا ورواء وفخامة ويسع منفسح البياض المعد لذلك ما بين البسملة ومبدأ الخطاب الكريم وهو من عبد الله تعالى المجاهد فى سبيله الامام المنصور بالله امير المؤمنين ابن امير المؤمنين ابن امير المؤمنين الشريف الحسنى ايداه الله وامره وظفر عساكره الى القاضى عمر بن محمود بن عمر كم اسعدكم الله بتقواه وطاعته وعرفكم ببركة الانطواء الى حزب الهدى وجماعته * سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته اما بعد حمدا لله الذى جعل حركة احمد كلما انتصب حركة فتح وامره اذا جزم امر اقبال وعلمه بالغلبة على سائر الاعلام معرفا عند العرب والعجم فلذلك تنلى عند رفعه سورة الفتح قبل القتال والصلاة والسلام على نبيه الذى ارسله بالحق بشيرا ونذيرا الى الابيض والاسود وابتغته احمد الفاتح الخاتم فكان بالرعب منصورا على الاقرب والابعد والرضى عن آله فروع النبوة والرسالة وينابيع السماحة والبسالة اهل البيت والمشعر وكفلاء الابيض والاسود والاحمر والايمة الذين ان مكثوا فى الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وعن اصحابه الفائزين بسعادة المورد والصدور يوم تبيض وجوه وتسود وجوه يقول الانسان يومئذ اين المفر كلا لا وزر ومواصلة الدعاء لهذا المقام العلى الامامى الاحمدى المنصورى الحسنى الفاطمى بنصر لاتزال عزائمه مرهوبة وغنائمه مجلوبة ومجنوبة فكتابنا هذا اليكم من حضرتنا العلية دار الاسلام ومقر كرسى الامام مراکش حاطها الله وبركة هذه الدعوة النبوية الشريفة التى عمت الربى والوهاد وطبقت انوارها الساطعة الاغوار والانجاد تنسكب كالطر وتنسحب على البشر وتقضى بعبادة النصر والظفر وسعادة الورد والصدور بحول الله وقوته والذى نوصيكم به تقوى الله العظيم والعمل بطاعته وان توقنوا ان هذا الامر العزيز منصور اللواء هديد بجنود الارض والسماء موعود ان شاء الله بالظهور والاستيلاء

وانه المصيب المنصور المفتوح له لا يناوئه مناو أو يعانده معانده الا قصمه الله وخذله فهذا امر الله الذى وعد بالظهور ظهيره ولم يخف الخذلان نصيره فلا يغلب حربه ولا يستطيع حربه ومن يتوكل على الله فهو حسبه والدعوة التى قضى لمن اعتصم بحبلها ولجأ الى ظل ظليلها بالاثرة الدائمة والسعادة الابدية ولمن تنكب عن حربه وانتصب لحربها بالاسنة السمهرية والقواضب المشرقية بحول الله وقوته وعزته وقدرته هذا وانه وفقكم الله وسدد واعانكم على اتباع كلمة الحق وانجدكم فمما لا يخفى على كل مومن ومسلم موقن ان هذا الامر الذى نيطت بجيدنا الكريم قلادته وكان لاولنا ابداءه ولاخرنا اعادته وهو امر بغير عروتنا الوثقى لايناط وعقد بغير سلكنا المنتظم لا يتم له اتساق وارتباط اذ نحن باعبائه دون غيرنا مضطلعون والناس لنا فيه تبع المتبعون وفى الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال الائمة من قریش وقال عليه السلام لايزال هذا الامر فى قریش ما بقى منهم اثنان وقال * عليه السلام ان هذا الامر فى قریش لا يعاديهام أحد الا كبه الله على وجهه وقال عليه السلام الناس تبع لقریش فى هذا الشأن مسلمهم لمسلمهم وكافرهم لكافرهم وبهذه الآثار الشريفة وضروبها ظهر على الحق حتى درج سلفنا وعليه حتى تقوم الساعة بحول الله يمضى خلفنا ونحن مذ ولانا الله هذه الامانة العظمى التى قلدنا بها امامة الجماعة ووجب لنا بها سبحانه على الخلق السمع والطاعة وصرف لايائتنا الشريفة بها وراثه الارض ومن عليها حتى تقوم الساعة لم نغمد سيف الحق ولا ارحنا يوما فى مرابطها جيادنا المبارية للبرق وعساكرنا الهاشمية التى اذا ارعدت نيرانها ذكرت برجة الصعق نفتح البلاد المقفلة ارضا ارضا ونقيم من اعمال الجهاد ومصالح البلاد نفلا وفرضا حتى انفتح فى الجنوب الى من يليكم واقيمت دعوتنا الكريمة فى الاقطار التى تصافيكم وتدانيكم وعلمنا ان التناول لا يسع مع القدرة وان الله لا يقبل منا فى اهمال ما استرعانا من امور العباد والبلاد سوى معدرة فتعين حينئذ استصحاب العمل وتخطى المرعى من البلاد الى العمل حتى ينجز الله وعده الكريم فى استيلاء على الاقرب والابعد وملأه الاحمر والاسود وناتى بفتح الارضين ان شاء الله على الوجه الاكمل ولما كنتم بتلك المملكة مهيد بابها ومدبر احكامها الشرعية ومدبر اسبابها وانكم بالآثار الشريفة التى سردنا والاحاديث النبوية التى أوردنا وبحقوق هذه الامامة النبوية التى تجب طاعتها قطعا وتحرم مخالفتها شرعا اعرف من سواكم واعلم بالتى هى احسن لكم فى دينكم ودنياكم خاطبتاكم بهذه الرسالة الشريفة لتكونوا اول من لى داعيها واجاب مناديتها ولترفعوا بها عقيرتكم فى تلكم الاقطار وتوضحوا للناس هذه الحجج الساطعة الانوار حتى يعلموا منها ما اوجب الله عليهم من طاعة هذه الامامة النبوية الشريفة التى لا يقبل الله الا بطاعتها الاعمال ولا يتم لمسلم نفل ولا فرض الا باداء ما افترض الله على

ص 76

الخلق من الانقياد الذي تكمل به الفرائض وتتم الانفال وتشعروهم ان من كان بهذه المرشد مقتديا ولنداء هذه الدعوة الشريفة مليا ولاوامرها العلية المطاعة مقتفيا وتمسك بعصم طاعة من اوجب الله على الخلق الاستمسك بشريف طاعته والائتمام بواجب امامته فازاحت قداحه وتضاعفت من اقسام السعادة متاجره وارباحه فان ذلك عند ذوى الايمان اوثق العرى والدخر النافع الذي يجده كل موفق سعيد يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ولتقف ان شاء الله لندب الناس الى اداء ما افترض الله عليهم من طاعتنا على قدم وتعتقد ما لكم في ذلك عند الله وعند خليفته الامام من عظيم الاجر وجزيل * المغنم وتستشعروا ما قال عليه السلام لان يهدي الله بك رجلا خير من ان يكون لك بها حمر النعم واعتقدوا مع ذلك ان كل من امنتموه من عساكرنا الطالعة براياتها البيض على تلكم الاقطار السودانية ان شاء الله طلوع الفجر وكتائبنا المتلاطمة تلاطم امواج البحر فقد امناه ومن اجرتموه فقد اجرناه اظهارا لمزيتكم واشعارا بمكانتكم لدينا ورفعة وايدانا بجليل منصبتكم عندنا وسمو رتبتمكم والله تعالى يصل توفيقكم ويجعل الخير رفيقكم وحزب الهدى قرينكم والسلام وكتب في شوال عام ثمانية وتسعين وتسعمائة (1) وألعت العساكر لوجهتهم السعيدة يطوون المراحل ويشarfون كل قون ويقاع على السنن الاحب والجدادة الكبرى المفضية لوادى درعة ولم يزالوا يتعرفون في كل خطو وباع يعملونه عتيد التيسير والصنع الجم والاثار المباركة الشاهدة بالمغبة الصالحة والعناية الربانية باتمام ما ضمير مولانا المنصور بالله امير المؤمنين ايده الله في ذلك من القصد الكريم وزرت عليه طويته الزكية من لم شعث المسلمين ودعم دعائم الدين وتشبيد معالم الجهاد واخماد شرر الكفر المحتوم الضرام بعز الله وقدرته واغدوا في السير وتجشموا العقبة الكؤود من جبل درن المعترضة مسيرهم وتسوروا بين شواهقها مضائق طرق وتسمنوا حزونا وعزاذا لا يسهلون فيه كدمت ولا تنفسح فيه خطى النمل الدارج حتى صوبوا من ثناياه وعقابه للجهات القبلية وتسلمهم السهل من ايدي عنته ومع ذلك لم يرزاهم خفا ولا شبكا ولا عبث باوقار ركبهم دوحه المتناوح وملتف غابه الاشبه مع اعواز السلامة للرفاق القلائل في سلوكه فضلا عن المقانب الضخمة وزهاء الآلاف من ابل موبلة فما اشتكت وجى ولا طلعا ولا اخل بقواها نصب ومجرى العادة لا يسلم ذلك القدر في صحصح مرت فضلا عن خزن وعث وسار ذلك الجيش على وثيرة الانضباط يمرون في كل اوب وصوب برعايا مولانا الامام المنصور بالله امير المؤمنين ايده الله متفينة لظلال الدعة ممتدة الامال في كنف الهدوء مكلوة بعين حياظته

الساهرة لنامهم فما رزؤهم قدر بسيط حصر ولا سنبوا من اموالهم بقتيل لما عهد به مولانا الامام المنصور بالله امير المؤمنين ايده الله الى رؤساء الاجناد من كف عاديتهم عن الرعايا وان لا تنبسط ايديهم في نعيم او دمطير واوعاها أيضا من العساكر ادنا واعية وكما مدنوا عليه من الانضباط وهذبهم من نفاق السياسة حتى لو سيموا سم الخياط لوسعهم مجالا مع تناهى الشوكة والباس والشهامة سيرة دربوا عليها حتى صارت لهم سجية وغريزة طباع لم يتأت النسيج على منوالها والحذر على مثالها للملك اسلامي أو جاهلي اذ لم تزل الرعايا تلحقها معرات الجيوش ويجتاحها عيشها وخصوصا من اتضمت معالم غنائه كهولا واستمر * مبرهم على ذلك مع اتساق العمارات في سابلتهم وخصوصا لما خيموا باصقاع درعة فانه تراكم من العمران على واديه ما اربى على قرى النمل وانتظمت حفافيه انتظام الجواهر على السالك مع امده البعيد وامتداده واغراق أهله في مذاهب الاستكانة والدمامة فما امتدت ايديهم في قتيل ولا قدر قلامة حتى انفصلوا عنهم وقد اجهشوا بالدعاء لمولانا الامام المنصور بالله امير المؤمنين ايده الله بالنصر ولجيوشه بالظفر والثناء على علي مقامه وشكر عنايته الكريمة التي ضربت عليهم سياج الحياطة واناقتهم في وتر الهدوء وضربت دون ما يجتلب منساءتهم بالاسداد وخيم العسكر بمنقطع العمارة من آخر وادي درعة حيث مبدأ الاحقاف الرمالية ومثول تلوكه الهائلة وتلوموا هنالك ريشما استوعبوا الالهة واكملوا الاستعداد واثاب اليهم الشاد وانتهى معهم لهذا الموضع تشييعا حاجب الامامة الكريمة كبير الدولة الصدر القائد ابو محمد عزوز بن سعيد بن منصور الوزكيتي استكفاه من مولانا الامام المنصور بالله امير المؤمنين ايده الله في تثقيف احوال العساكر ومراقبة امورهم عند منتهى العمران وتجديد ما وهى وانبث من اسبابهم وغير ذلك من شؤونهم لم يستتم فيها الا لمثله من علية الخدام الاكابر الثقافات فتم التجهيز على اوعب ما يكون واكملة فحثوا الركاب وقوضوا الابنية في الرابع وعشرين من صفر العام(1) واستقبلوا الصحراء الافيج ولججوا من شطه قنار اذ ذاك جلدتهم من مكامنه فما خافوا ولا نكلوا ولا انتكشت لهم مزيدة صبر ولا فل لهم شبي عزم بل كانوا امضى شكائم وانفذ بصائر وأوثق يقينا بالعلق والظهور وطووا من هنالك المراحل على الطير الميامين وجناح النصر محلقة فوقهم موفور القوادم والخوافي تسوق معاطسهم ارج الاقبال في مهب الصبي وامايات الفتح الكبرى تتلى سورها وتجل صورها واعتسف الركاب غرض هذا المجهل الطامس العالم والآثار لا تشق الفتح الكواسر جوه ولا تستقل بها القوادم والخوافي في دوه اضاعت بها الشهب المسالك وثنت الحيرة

من 78

عنان سراها يناغى صداها هوج الرياح فانحت على كئيباتها المهيلة تنفسها ووسمت
 حر الوجوه بلفح حرها ومسموها وتغدى اخفاف المطى العقيق الاحمر من نجيعها
 وتغمرها بضحضاح ءالها وتشكلها اقالها فتستلى بدلها رثالها الى موارد الثماد التي
 تنزع ركياتها البكية وتمتاح بلالة اوشالها فلا تنفع اواما ولا تقوم برى سفر نزر فضلا
 عن الجيش اللهام والعسكر المجرطا لما اقتسمت بها المياه بالحسنى وتضافتها الركب بقدرما
 يغمر الحصاة ويبل اللهاة وينعش رحق الحياة على بون ما بين طرفى هذه المفازة وامستاد
 وعثها ودهاسها * فقد ذكر بعض من تكلم على حدود الاقاليم ومواقع خطوطها ما يقتضى
 ان عرض هذه المفازة اخذ عرض الاقليم الثانى كله ووصف بعض امرها المهول وخضبتها
 المعضل وان السفر غير متأت فيها الا بعد انكسار سورة القيظ واطلاع طلائع البرد
 وذلك فصل الخريف وان سير البحار فيها اثناء هذا الاوان انها هو طى فى النهار ووهنا
 فى الليل ويقيلون فى الهاجرة قال وهذا دأبهم الذى لا يعدونه أقول قد عارض هذه العادة
 خارق صنع الله لأمير المؤمنين ايده الله تعالى المسهل اقتحامها على مملوكه الفتى الشهم
 الليث العادى محمود باشى بمقنب منتقى اوان احتدام الهواجر وتوقد للرضاء واصلا
 سرى الليل بناويب النهار حسبما تقرّر ذلك ان شاء الله فى موضعه ودأبت العساكر
 الامامية على الاعداد فى السير اثناء هذا القفر المنكر الارزاء ولم يغب عنهم من الله تعالى
 فى كل شمس القياد اسعاد فى كل متجهم انبلاج وفى كل مبهم انفراج يستضيئون
 بمشكاة الميامين والتسهيل ويتعرفون لمهاد الصنع المنسكة الديم فى كل لحظة وائناء
 كل سكون وحركة فما شاموا له برقاً الا انهل عارض ولا ارتادوا منه روضاً انفا الا
 رتعوه جميماً وبارضايتهم بانهامهم وينجد بانجادهم حدث بعض الشقات من اعيان
 التجارة الذين اخلقوا بردة العمر وانفقوا عينها فى التردد فى هذه الطريق جيئة وذهابا
 وكان فيمن شيع عساكر مولانا الامام المنصور بالله امير المؤمنين ايده الله وأوغل معهم فى
 هذه المفاوز انهم وردوا منها منهلا عرفه قبل ذلك ينضح برشح نزر ينزحه اول وارد وينزف
 مجاجته فى أربعة اسقية لا يبقى فيه ولايلر حتى خيمت عليه العساكر المنصورية فالفوه
 معينا عدا فوسعهم نهلا وعللا واقعموا من مزادهم واستقيتهم ما ينامز الفا وهذا نبا
 مفرق فى الغرابة لولا ما حف به من شواهد صنع الله المطرد لمولانا امير المؤمنين ايده
 الله تعالى ونصره وهذا فى الحقيقة اذا قيس بسواه من نظمه قطرة من ركام ونفحة من
 تيار وما عسى ان يستوعب منه مشق قلم ولا تطرئ صفة مهلق فحدث عن بحر جاش
 عبابه ولا حرج ولم يزل شان عساكر مولانا الامام المنصور بالله امير المؤمنين ايده الله
 شانهم من اعمال الوخذ والارقال وطى هالة القفار تتسلمهم تنوفه لسبب كانما انحت
 عليهم ارهاقا لشبابهم وشجدا لفرارهم وسبكا لنصارهم وامحاضا للبابهم فالشوكة

شوكتهم والصرامة صرامتهم يتضاعف اقدامهم في تضاعيف هذه الشقة النازحة والنوى القذف التي غادر الوخادة الوسم وهي رازحة وتستحکم مرائد جلدهم فما فتت لهم مشقة في عضدهم ولا انتقص لهم مدد ولا عدد على وثيرة ما تعودوا من صنع الله تعالى الذي لم يزل * يظللهم غمامه ويجودهم ركامه لا تنخرم قواعده ولا تزال تتعرف عوائده متناسب الهوادي والاعجاز متى تلى نصا لم تلتبس له حقيقة بمجاز يحكى عن بعض الادلاء المهرة ممن صحب عسكر مولانا الامام المنصور بالله امير المؤمنين ايده الله انهم نزلوا منها لا يدعى اتشاي على تفتة خلد صهر من اصعب مسافات هذه المفازة المتكررة الموحشة وابعدها امتدادا المدعوة اصوادا ولم يكونوا عهدوا بالنهل المذكور على ركيتين بكتيتين هم ولا مما ادركوا من سلفهم على امتداد الاحقاب والاعصار ممن استفزع في هذه المسالك صبايات الاعمار ودأب عليها بين اقبال وادبار فما انسوا قط ان بهذه البقعة نيفا على ذلك بقياس ولا نقل اليهم في غابر الدهور ولا ماضى العصور نقل تواتر ولا اخبار آحاد حتى نزلت عليهم العساكر الامامية فقادهم رائد التوفيق وصادق الحدس والنطس الى أن صاروا يسبرون حوالى تلك الساحة فعثر بهم النحت على أربع وعشرين ركية انحنى عليها القدم وعفى معالمها ودرس رسومها وسوت كنبان الرمل بين جهاتها فاستخرجوا معينها العد ووردوا أعذب زلال فنهضت به حياضهم وافعمت به اسقيتهم وعم الرى افذاذهم وجملتهم فكان لهذا العهد اغزر مياه هذه البهيمة بعد أن كان انكرها وانزرها وافضوا منه الى ممالك الامم المثلثة المتصلة باقطار السودان فوطؤوها وقطعوا هذه المفاوز من لدن الثغور القبلية الى أن وردوا النيل فى قريب من ستين مرحلة (1) فكان من الثقاتهم مع سكية فى جيوش السودان وأممها واستمرار الهزيمة عليه وعلى جنوده ما نصف ان شاء الله تعالى

ذكر الايقاع بسكية جنوده

لما انتهى لسكية صاحب الممالك السودانية كان طريد سيوفه مولانا الامام المنصور بالله امير المؤمنين ايده الله وقتيل سطواته خبر اقبال العساكر الامامية تلقاءهم وطن بافاقهم ذوى زحفها ومرجت لها ارضهم واهتزت هولا ورجفانا أخذ الشقى فى الاحتشاد والاستنفار من كل قاصية وشاسعة وبعث فى المدائن حاشرين ونادى صريخا فيمن تحت اياته من أمم السودان والمثلثين واستجاش اجيال اقاليم الجنوب فانتالوا عليه حشودا من كل ثنية وطاروا اليه من كل أوب امتعاضا لهضيئته وذبا عن حوزة

(1) سلكت الحملة العسكرية طريقا عرف فيما بعد بطريق جودر * وهذه الطريق تنبع من مراكش نحو لاكتاوا فى اعالي وادى درعة ومنها الى تندوف فتغالى وتاودىنى قرية كابار التى تقع على نهر النيجر غربى العاصمة تمبوكتو (ص 434 P. Hespèris 1923)

ملكه وحماية لسرحه مهطعين اليه على الصعب والذلول واتوه بالضيح والريح فحدث عن
 رمل عالج وقطر الغمام وعالم النمر كثرة لا تضبط بحساب ولا يستقصى الاحاطة بها
 ص 81 التعداد * تألفت منهم دهماء احوالت صبغة النهار وأوهمت اليل الديقوجي متراكم
 الغييب مثلث على السهول جبالا واتهمت الهضاب واليفاع يجرون الشوك والمدر
 متظاهرين بالبأس والجلد موطىء النفس على خوض غمرات الحمام وورود الموت الزؤام بين
 فرسان مداعسة بالسهرية المطردة الكعوب مثقفين فروسية على المطهمة العرب مجيل
 اقلام الحظ في مهارق المعارك وما شقى اسطر الطعن المراك خطا على الجنوب والصدور
 وبين رميات ناشبة منكبي قسى عربية غير عاصم من رداها زحف لام ولا تنفع الا من
 الشفر غلل الاوام وبين رجل بايديها قصدقنى تساجل بها وقع السهام متترسين بالباب
 المحكم كأنما اجتمعوا للعرض بالمحشر يحكى عن بعض الادلاء الخريث الماهر على بن عيسى
 وكان لذلك العهد من اشياع العبد سكية المصطنعين لديه أن عدة ما حشد زهاء مائة
 الف على اربعة آلاف مقاتل وحدث ايضا بغربة من نوك هذا المعرور انه أرهف من
 سطوة الاجناد المنصورية وانه لا يد له بمقاومة قتالهم بالنار فأخبر أنه اعد لذلك
 همسا بسحر ونفثا في عقد يبطل عملها ويبعث خللها وهيئات السيف اصدق انباء
 من الكتب وهذا من الترهات التى لا تسولها سوى نفس ذاهبة فى الغباوة اقصى مذهبها
 ولما تقاربت الفئتان اعترضت العساكر المنصورية غابة اشبه ملتفة الشجر صعبة
 المسلك من اشتباك دوحها فلم يتأت لهم قطعها على التعبئة والانتظام بل سلكوها
 زرافات ووحدانا وما مرقوا منها الا وقد افوا العدو اخذ مراكزه بحومة الوغى التى
 بين يديها ونظم تعبته فعاجل العساكر الامامية بالقتال من قبل انتظام التعبئة وترتيب
 المصاف ليفت بذلك فى عضدهم فما أزهبهم منجز العدو ولا راعهم وثبتوا ثبوت الليوث
 الضراغم وبادر كل من العساكر مركزه والوقوف تحت رايته بما كانوا افوا نظم
 التعبئة ورتب المصاف والتجم للقتال وزحفت اليهم من العساكر الامامية ليوث خوادر
 وابطال بهم مساعير كل صنك المجال كم هتكوا اكلة القيام بمهفات الصوارم وقبوا
 أديمها بالاسنة اللهاذم وتضمخوا بخلوق النجيع واداروا أكؤس الحنف ادارة اكؤس
 الجريال واجتابوا السرد الجيك وسابغ اللام لايناظ باحسابهم ذم ولا يشربون الماء
 الا من قليبا دم ولاعدوا سوى النصر مردا والتأييد عددا من كل حلب اشطر الوقائع

ص 82 يلقى السيوف بوجهه وينحره ويقيم هامته مقام المغفر *

فمن راضته سياسة مولانا الامام المنصور بالله أمير المؤمنين ايده الله ومزنته
 على مئازق الجلال وصدق المصاع كم بر بهم من ملك متوج واستخرج بهم خنزواته راسه
 وداس بسنابكها معطسها الالم وغادره معفرا تحت النجوم وقنعه بالصغار والوجوم فثارت

حميتهم وجاش بأسهم ويرزوا لمصافهم على التعبئة المحكمة النظام وتزاحف الجمعان
فالتحم القتال وسطع النقع وضرب سرادقه على الجو وتراكم غبار البارود فسدى والحج
على الافاق ليلا أحم الجوانب وارزمت رعود النار وانقذح مارجها وانهلث على السودان
حواصبها بالموت الوحي وانسجم عارضها الركام وابتدر ثنيات الوغى ونازل حومة
النزال كل كفى معلم من أبطال العساكر المنصورية صادق الحملات دعسا بالقنى
الخطار وضربا بكل درب الشبابة فحمى الوطيس واحمر الباس واستدارت رحي
الحرب الزبون حدث بعض أكابر رؤساء الاجناد المنصورية وكان ممن حضر هذه
الملحمة وصلى بنارها أنه قضى العجب مما شاهد من شهامة العساكر المنصورية
وصرامتهم وذلك انهم لأول ما تراءى الجمعان شدوا على عنوهم سراعا خبيا وايضا شدة
الليوث على النقد والقوا كل سلاح عدى السيوف المرهفة شرى لقتال الاشقياء وانفة
أن يقفوا أمامهم نواق بكية قال فصار رؤساء الاجناد يكفكونهم كما يكفكف السيف عن
الانحدار حنرا من اختلال مصافهم وانحلال نظام مراكزهم فبعد لاي وجهد جهيد مارست
قواعدهم فكان الغوى سكية والاشقياء اتباعه ثبات كالجبال لرجة ذلك الزلزال وضنك
ذلك المجال وتهافت حماته وأبطاله على الحثف تهافت الفراش على الدبال واستمات
زعمائهم وعقلوا ركبهم كما تعقل البلسن توطينا لانفسهم على الافدام حتى لايتانى
لهم الفرار فصابر جنود مولانا الامام المنصور بالله أمير المؤمنين أيده الله وعالجوا الصبر
على شواظ نارهم حتى خرستهم الحرب وعضتهم أنيابها العصل فلم يكن الا كلا ولا
حتى هبت صبي النصر وخفقت رايات الاقبال والظهور وصدقتهم العساكر الامامية الحرب
وتدامر أبطالها وهجموا على سكية وجموعه هجوم الليوث على النعم وشدوا عليه
كالصخرة الملوثة فاستحر القتل فى الاشقياء وأذاقتهم جنود الله نكال الحرب وحكم الله
لرايات مولانا الامام المنصور بالله أمير المؤمنين أيده الله بالظهور فانكشفت جموع
السودان وولوا الادبار واجفلوا اجفال الاوابد الشوارد وتقوض منهم ليل غطى الاباطح
واليفاع وامتدت مسوح سوادهم * على تلك البقاع بعد أن احاطوا بالعساكر المنصورية
83 م احاطة الدار من جميع الجهات وقعدوا افواهم لالتهاهم فادال الله عليهم الدائرة وانجرت
عليهم هزيمة شنعاء لايلوى منهم أحد على شقيق ولا صديق حميم ونجى عميدهم
الشقى برأس طمرة ولجام بيادر الفوت سليب الحشاشة من الفرع قد خار الدعر
حشاه اذ رءا غير شيء فظنه رجلا واستلحمت السيوف الفئة المعقودة الركب واجلت المعركة
عن حصيد من القتلى مجلدين قد ضرجوا بدمائهم وضمحوا صاصح تلك البقاع بعلق
نجيعهم تغفرهم الخوامع والقشاعم قد مثلوا على الارض هضابا وامتد على اديمها منهم
أديم أسحم فلا تعثر قدم الا فى شلو قتيل ولا يدوس خف وسنبك الالهامة صريع كاثروا

الحصى واربوا على العد والاحصى واضحوا مثلاً في الغابرين وعظه للمستبصرين وكان قدر مصابرة الاشقياء لصلى الحرب من لدن الضحى الى قرب العصر فى كل ذلك أثبتوا فى مستنقع الموت أقدامهم وظاهروا أثناء هذه الغمرات بين لامة باسهم واقدامهم حتى لم يجدوا أفسح من خلفهم ولا عتادا سواء ادفع لحنفهم فانفضوا وقد أبلوا عذرا :

وما قصروا فى الذب بل كان باسهم يسد به ما بالمجانيق يثلم

لقد صبروا لو ان غيرك سامهم وقد دفعوا لو أن غيرك يقحم

وما كان ليتاح الغلب على مثلهم كثرة عدد وشدة باس ولاكن جند الله لا يد لاحد بمقاومته ومقالب أمر الله مغلوب وكان تاريخ هذا الفتح العظيم سادس عشر جمادى الاولى عام تسعة وتسعين وتسعمائة (1) فاتم الله أمره وأنجز وعده وخر عرش البغى حتى صار طلالا دارسا ومجيا عابسا وجاست العساكر الامامية خلال تلك الديار واجفلوهم عن قاعدة ملكهم وحضرة سلطانهم مدينة كاغوا واحتل بها الاجناد المنصورية (2) على الطائر الميمون وأقلع عنها العبد وحاشيته يعض سبابتيه تلهفا سليبها شديدا محتملا لما أمكنه من متاعه وذخائره وانتبذ ضاحيا لمنجاته ولحين صكت هذه الوقعة مسامح أقطار السودان ذل لها شواهدقها وصياصها وقذفت الرعب فى اذان ادانيها وأقاصيها وطير روساء الاجناد بخبر الفتح على النجيب الى سدة مولانا الامام المنصور بالله أمير المؤمنين أيده الله فعمت البشرى والمسرة الكبرى وسرت الطلاقة والابتاج فى الخاصة والدهماء وتناغت حلبة الكتاب والادباء فى رفع قصائد التهئة الى مولانا الامام المنصور بالله أمير المؤمنين أيده الله وتجادبوا أهذاب الاجادة * وهصروا أقانين الاحسان ورفعوا

العقيرة بها بين يديه أيده الله بين روية وارتجال فمن ذلك قصيدة لمولف الكتاب

جيش الصباح على الدجى متدفق فياض ذا لسواد ذاك محقق

وكانه رايات عسكري التى طلعت على السودان بيضا تحقق

لاحت واقتهم ليال كله كعمود صبح فى الدجى يتألق

نشرت لتطوى منه ليلا دامسا اضحى بسيفك ذى الفقار يمزق

ارسلتهن جوانصا وجوارحا فى كل مغلبيها غراب ينعق

وسرت وكان دليلهن اليهم مشحوذ عزمك والسنان الأزرق

ولهى الليالى قد جلا احلاكها نور النبوة من جبينك يشرق

ضعفت بهن وعود نارك صفقة رجت لصيحتها العراق وجلق

(1) كان ذلك يوم الثلاثاء 16 جمادى الاولى 999 الموافق 12 مارس 1591 .

(2) اعتمادا على ما جاء فى تاريخ السودان للسعيدى فان دخول جودر لكاغوا كان يوم 20 رجب 999 الموافق 13 ماي 1591 .

سحقا لا سحق الغبي وحزبه فلقد غدا بالسيف وهو مطوق
 رام النجاة وكيف ذاك وخلفه من جيش جوذرك الفضنفر فيلق
 جيش أواخره يبابك سيله عرم وأوله بكأغو محقق
 لم يشعروا الا واسداد الردى ضربت عليهم من فناءك وخندق
 كتب الاله على عداتك انهم قنص لسيفك غربوا أو شرقوا
 ضلت ملوك ساجلوك على العلا سفها وشاوك في العلا لا يلحق
 ان يشبهوك ولا شبيهه نرى لكم في الخلق أين من اللجين الزئبق
 بشر ملوك الارض انك فاتح بالمشرقى على الولا ما أغلقوا
 وبفاصل لك ذى الفقار مقرر ما جمعوه وجامع ما فرقوا
 دامت طيور السعد وهي غوادى بالمشتهى لك والمسرة تنطق
 ما دام ذكر علاك في صحف الثنا أصل الفخار وكل ذكر ملحق
 وقال الكاتب البارع الاصيل أبو عبد الله محمد بن علي الفشتالى وحاز فضل

الاحسان

بشرى تزف من الزمن المقبل لمنصة الجذل الذى لم يرحل
 خطت يد السعد بمهرق يمنها مهربه من الامام الاعدل
 المالك المنصور من فى سعده لو شاء طاعن رامج بالاعزل
 ذى همة منها مضاء السيف أو منها استعير صلابة للجندل
 ومن الى استيکار كل عزيمة وهولها العذل ابن معذل
 النجل فاطمة وكل مفاخر فهو يفاخر ذركم بالخرذل
 وابن الفطارفة الالى يتازرون من الثناء بالرداء المسبل
 قوم اذا لبسوا الحديد الى العدا لا يسالون عن السواد المقبل
 يصبون للحرب الزبون كما صبا الضليل فى يوم بدارة جلجل
 قرعت طنايب السواد بجففل جهزتموه فى سحاب القسطل
 فرماهم بصواهل ونواهل وصواعق عن فعلها لا تسال
 لولا ضياء المشرفية والقنا المجد ضل به بليلى اليل
 خطبت سيوفك فى منابرها مهم خطبا تديقهم نقبع الجنظل
 بزت بنى حام ثياب الابنوس اذ كستهم من ثياب الصندل
 فولت الادبار مثل خنابس يزيحها نور الصباح المتجلى
 من عثيم رمدت بعثير بعضه عين الغزالة فى الرعيل الاول
 لولا المواقيت التى قد قدرت ما طنت على الاقطار دورة مغزل
 قولوا لملك السواد اذ جمعت به جهلا سوابق غيه فى مجهل

ص 85

تلك العساكر مدها من ربهها والراى عند عميدها لم يمهل
 ان البغاث وان تكاثر عدوها ما شانها فى البطش شان الاجل
 لا تعجبوا من نصر كل جيوشه فالرعب بعض جيوشه فى جفيل
 لولا عمايتهم فكيف الملتقى بجيوش من ورث الشهامة من على
 يابن سنى الملك ولاكن ليتة دل بمدحك شعره فى مجفل
 كل الملوكة تصيب أو تغطي فى رائهم من مجمل ومفصل
 وانت سدك الله متى تسرى رايا يكن لك والنجاح بمنزل
 خاضت سيوفك من دم الابطال اذ كلفتها طهرا بماء المقتل
 لطفها بها فكانما ألزمتها فى قتلها الاعداء شبه تسلسل
 عودتها الاغمد فى هام العدا والحكم خرق عوائد لم يحمل
 وكل أرض قد قصدت ملوكها ضاقت بهم ذرعا بفرط تزلزل *
 جلبت بنو الاملاك منك بهمة جبلت على دفع الفساد المعضل
 فهم بمرضكم وكل واحد منهم يسمى بمالك بن مرحل
 فاحكم على الملوكة بما ترى من عطفة أو قطعة بالمنصل
 ودع المطيع أمير بعض جهاته يروى بماء العفو بعذب سلسل
 ولغيره يروى الحديث معننا ذكرى فيصبح فى سباق مسلسل
 منحتك ايكار الليالى وصلها حتى تنال بها كبير مؤمل
 وتضيف لك مشارق لمغارب عفوا كنظم جنوبها والشمال
 هالك أمير الهومنين قصائد فاحت محابر طيبها بالمتدل
 بهديح أهل البيت هزت معطفا هزوا بمدح جريرهم والاضطل
 لا زلت منصورا وسعدك راكبا لمنال سؤلك كل اجرد هيكل
 وبنوك فى الملك الكبير مساعدين من الاله بالزمان المقبل

وقال الفقيه النبيل اوحى الادباء ومقرض الدولة المنصورية بدر القريض أبو عبد الله

محمد بن على الهوزالى

المت وقد الوى على وصلها الهجر كما افتر اثر الليل عن ثفره الفجر
 وقد حل اذ لاحت دجى الليل وجهها كمانض سجنف الليل عن وجهه البدر
 تساقط لى در القيطا فريده فانجل سمع فيه عن غيره وتر
 تحدث عن مسرى سوار رمت بها مرام تفضل النهج فى فيحها الزهر
 تنامى هواها الطير من خشية الردى قديما واعيا الريح مسلکها الوعر
 وجشمها المنصور خرس كتائب تحمل ما يردى فيعمله الصبر

تقاذفوا صبها بكل متوج نمته الى عدنان آباؤه الفجر
على كل محبوبك السراة اذا جرى مع الريح فات الريح من علوه حصر
صوافن ينموها وجيه ولاحق مطهمة دهم ومنقورة شقر
بمرهفة ماثورة مشرفية تؤم غرايها ردينية سمر
لحدت تحمل الموت الزؤام يحوطها ويكتفها يمن يشيعه نصر
فجلت بارض السود لم يشن عزمها مهالك صد عن مسالكها الدعر
ورامت بنو حام لجهل بقدرها دفاعا فباتت فوق آناقها العفر *
همى فوقها وطف المنايا بحاصب طواهي عبال النبل من فيضه حمر
لقد ذكر الحبشان من وقعها بهم وقية يوم الفيل لو ينفع الذكر
كان قریشا جمعتها لتنتهى الى فخرها المنصور فهي له ذخر
الى ملك ما شام فارقة الطبى على ملك الاوحاق به القر
الى ملك لم يهد حد سنانه الى مارق الا ومورده النحر
الى ملك لولا لوايح رايه لما لقحت حرب عوان ولا بكر
من النفر البيض الذين اكفهم هواطل والافاق مظلمة غبر
اذا ما احتداها المعتفون تبجست فتفعل فى الافاق ما يفعل القطر
تري الارض تهتز ارتياحا بما همى على كل واد فيض ناثلها الفمر
هم الصفوة المحض التى لم يشب لها الى الجدم اسماعيل فرع ولا نجر
لها قصبات السبق فى كل محفل اذا استبقت يوما كنانة أو مهر
فلله بيت شد أطنا به اعلى الى فلك الجوزاء شيبة أو عمر
وبواه وفد الرسالة واهتدى بالجمة فى كل داجية سفسر
ايا خير من ام القريض فناء واعمل فى اطراء اوصافه الفكر
هنيئا امير المؤمنين فقد مضى على كل من ناواك أسيا فك الدهر
لئن اسلمت ارض الجنوب مقادها فعن كذب تلقى مقاليدها مصر
وتزور زوراء العراق فتتهدى اليكم واعناق العدا خضع صفر
وتخفق بالوادى المقدس راية عليك وتهوى فيه الوية حمر
قدم لفتوح يستحث لثيلها الى كل قطر منك ذو لجب مجر

وكتب (1) ايده الله الى الجهات والاقطار من ممالكه بالفتح وانهاء البشرى بما

(1) يقتضى الترتيب الزمني لتطور الاحداث الانتقال الى الصفحة 48 من المخطوط وقد تنبه المؤرخ الزباني الى نفس الملاحظة وسجل على هامش صفحة 48 الملاحظة التى اثبتناها من قبل .

أفاء الله عليه من هذا الصنع الجميل والمن الجليل من انشاء مؤلف الكتاب والرسم فى العلامة الكريمة على ما وصفناه =انفا ونصه بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه من عبد الله تعالى المجاهد فى سبيله الامام المنصور بالله أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين الشريف الحسنى أيد الله بعزير نصره وأمره وظفر عساكره * الى الشرفاء والفقهاء وكافة الاعيان من أهل كذا اسمعكم الله من البشائر ما يملأ صدوركم ارتياحا ويفرح قلوبكم انشراحا ويوسع أرجاءكم واكنافكم فى ظل الامنة انبساطا وانفساحا سلام عليكم ورحمت الله وبركاته إما بعد حمدا لله الذى شرف ملة الاسلام على الملل والنول القرشية على سائر النول وخصوصا الدولة الحسينية التى جعل الله يفيض سيوفها الفاطمية قاهرة لاعداؤها الصفرية وعبيدها السودانية وصدع بأنوار خلافتها النبوية دجنه سوداء طالما نعق غرابها مند حام ووصل بدعوتها الشريفة بين سام وحام والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد الذى خفقت أعلام هدايته على الربى والاكام وكأثر بثاياته الباهرة كنهور السحاب ومُنْجِسر الغمام والرضى عن الله خير آل مسادات الاقيال وءاساد الاغياي خلفه الاسلام وورث بالعدل وشرف الغلال وايمه الخلق الذين ذيلوا معالم النصر بالاكمال وفتحوا الاقطار على التوال وعن أصحابه الذين جاهدوا فى الله حق جهاده بالسيوف والنصال وواصلوا فى اعزاز ملته ونصرة دينه البكر والاصل ومواصلة الدعاء لهذا المقام العلى الاماد النبوى المنصور الاحمدى بنصر يكفل الاسلام وعز يخلع جماله على الايام واتصال البشائر تستخدم فى نشرها المحابر والاقلام قانا كتبناه اليكم كتب الله لكم من البشائر أسرارها الى النفوس امتزاجا وهداها الى الارواح مسرة وابتهاجا واقطعها فى الافاق سبلا فجاجا وارقاها الى السبع الطباق سموا ومعراجا من حضرتنا العلية مراكش حاطها الله وبركة هذه الامامة الكريمة تستمد الاقطار من مقاسها وتروى رواية الافادة والابادة من ضحاكها وعباسها والفتوحات الربانية تحتفل الملائكة لولائها واعراسها فله الحمد على نعمه التى لا يحيط الوصف بانواعها وأجناسها وعنايتها التى تضرب بعصاها الصخرة الصماء ممن عصاها فتبادر بانقلاقيها وانبجاسها لله المنة هذا وقد علمتم فسبح الله أملككم وواصل اسباب الخيرات قبلكم ما كان من تجهيز عساكرنا المظفرة بالله الى بلاد السودان لافتتاح القاصى من ممالكها بحول الله والدان وما كان من عظيم احتفالنا لذلك بما لم يعهد مثله ولا سلف لاولى العزم من الملوك بعضه فكيف كله من انتقاء العساكر والاجناد وأسود الحرب الذين دربوا على الطعن والجلاد ومعاينة السيوف والصعاد من كل أبناء حرب شرف فى انساب الوقائع جدهم ويرد الجموع الصحيحة الى التفسير مزدهم وامدادهم بما لا يحصى عددا وكثرة * وبما لا مزيد فوقه بسطا وقدرة من

مى 49

مى 50

قوة الظهور وصواعق الحرب التى تفرق لها صروف الدهر وغير ذلك من كل ما يقتضيه الحزم ويبعث عليه العزم ولما تكامل بحمد الله هذا الاحتفال والاستعداد واخذت اهبتها العساكر والاجناد واقبلوا فى الالوية وساروا على التعبئة ونصر الله تعالى يظللهم غمامة وتترأى لهم ثنية الاقبال أعلامه وتخفق عن يمينهم وشمالهم راياته وتبدوا لهم فى كل حركة وسكون آياته هذا وما كان يخفاكم ما سلف هنا بالمغرب من الدول العظام وممالك الاسلام ومع هذا فما كان أحد منهم ليروم فتح هذا البلاد بسيف أو تتناول همهم الى اغزائها ببعث ولا زحف أو يسموا أنفسهم بالمقدرة عليها وعلى الصمود بجنودهم اليها والحالة انهم أضخم ملكا واعمالا وافصح خطة ومجالا واوفر نفعا وأوسع أحوالا مما كان يشقهم وينفقون فيه أنفسهم وأموالهم ويستغرقون معاناته طول أيامهم بكرهم واصلهم وما ذاك الا بعجزهم عن مقاومتها وعامهم من أنفسهم عدم القدرة على مصادمتها وانها عند جميعهم غيل لا يزحم وعريسة لا تنجم وحسنة آبية لانتقاد العنقاء تكبران تصادلان البلاد كما علمتم قد توغلت فى الجنوب الى أبعد الاقاليم من المعمور واعترضت دونها من القفر وسرابه المتموج بحور وصحارى تضل القطا فى مهامها الفسيح وتكل فى جوب عرضها بل بعضها سوافى الريح كم اغتالت من أمم غولا وترد من حر الاوام وعولها وكم افنت من خلق جيلا فجيلا والقت على الرحال وأهلها كثيبا مهيلا تغلى من رمضانها الرعوس وتذوب من حميمها النفوس وتنزل شمسها على الهام حتى تكاد تلمس باليد ويشتهه على الخريت فيها اليوم بالغد لا ماء ولا شجر ولا ورد ولا صدر الا شرابا يعشى العيون ويقرب المنون واجاج يغلى فى البطون كغلى الحميم وهو اجر يصلى الناس من حرها الجحيم حتى ظن بذلك أهل السودان ان سربهم من أجل البعد والمقاوِز المعترضة دونهم لا يراع وليلهم الديجوجى لا يرجى لفجره انصداع وحمائم من هذه المشاق لا يطرق ولا يحام وبلادهم حتى بالوهم لا ترام فاستخرنا الله الذى لا يخيب من توكل عليه ولجأ فى عظام الامور اليه واحتفلنا لذلك بما يليق من الاهبة والاستعداد وبثينا الامر من الثقة بالله على أوثق عماد فجهزنا جنود الله تلقاءهم فى عساكر تحمل الاسل والنار واسودا تانف الدنية والعار فخاضوا اليهم بحار الال وصابروا فى قطع الشقة البعيدة عظام الاهوال ولما شارقوا البلاد وهم على ما كانوا عليه بحمد الله من شدة الحزام وسل الحسام لم تضعف لهم والحمد لله شدة ولا نقص منهم ما كابدوه من المشاق عددا ولا عدة زحف الشقى بكافة جموع السودان وحشودها وطلعوا فى الجو حنادس واقبلوا اقبال اليل الدامس فالتقى * الجمعان على ثلاث مراحل من كاغوا فأحرق منهم بعساكرنا المؤيدة بالله 51

سواد لا يعصيه الا محصى الخطرات والانفاس ومن احاط علمه بالانواع والاجناس فدارت رحى الحرب ووقفت على ساق واعدت رعود نارنا فرجت من صعقتها الافاق فثبت الاشقياء

لنزّلها ثبات الجبال الراسية واقدموا من الشدة والصبر على الموت اقدام الاسود
الضارية لا تشبه صوارم ولا اسل ولا يعرفون ما الخوف والوجل يتهافون على
النار من كل جانب تهافت الفراش على الذبال ويتسابقون للسيوف والصيد تسابق الجياد
فى المجال مع كثرتهم التى ذكرت بالحشر الثانى حشرها الاول ومغالبتهم كانت لذلك
من قبيل المحال لولا الثقة بالله سبحانه وتعالى وعونه السى كان عليه المعول فلم يكن الا
ان هبت ريج النصر والظفر وجاء نصر الله الذى هو لراياتنا حليف فى الورد والصدر
فانكشف الشقى وجموعه وولوا الادبار وركبتهم الاسنة والشفار وفضتهم جنود الله
فضا يهز الجبال زلزاله وتصيب النواصى احواله واستمر القتل فى الاشقياء وتركتم
سيوفنا الهاشمية حصيدا بالعراء ونفل الله عساكرنا ذلك السواد وكمل الفتح بحمد
الله بالاستيلاء على البلاد وانتظام ممالكها فى سلك الطاعة والانقياد والعاقبة للمتقين
والحمد لله حمد الشاكرين ولما استوى القدم بعساكرنا وفرها الله فى البلاد واصبحوا
فى دنيا لا تفى العبارة لها بكنه ولا تعارض بشبه ولا نظير لها فى الارضين بوجه ماشئت
من ممالك متعددة الاقطار متنوعة الاوطان والاطوار جمة المرافق والفوائد ومالف الوافد
والرائد لا تحد بغاية ولا تدرك لها نهاية محشر الامم وبستان العالم ومدرج الدر من
بنى ادم وملك ضخم لا تصل اليه الهمم لولا عنايته التى لا تقاوم وناهيك بممالك
يخترقها بحر النيل نهر الجنة ومدفع مياه الرحمة تسقيهم النهل والعلل بحجة ويجبى
اليهم الثمرات والخيرات بشجة الى اسواق تزخر بالنعيم واتصال عمران كالعقد المنظم
وبالجملة فهى غريبة لا تثبت الا فى الحلم وموهبة لا يفى بشكرها لسان ولا يحيط
بوصفها قلم وما عسى أن تبلغ العبارة فالامر اضخم والحال أجل وأعظم ولقد اجتمعت
اليوم بحمد الله بانتظام هذه الممالك كلمة الاسلام وارتقى الامر بحول الله الى الكمال
الذى دل منه حسن الابتداء على حسن الاختتام ولم يبق بحول الله الا صرف
العزائم الى جهاد العدو الكافر وان تلور عليه من سطى الاسلام بحول الله الدوائر حتى
نفزوه بجنود الله فى عقر دياره ومحل قراره ويعلوا حزب الله على حزب الشيطان وانصاره
بغز الله وتأييده ولما طلعت علينا بهذا الفتح العظيم طلائع البشرى والمسرة الكبرى بادرنا
تعريفكم بصنع الله * فيه الهنى الغريب واعلامكم بحديثه الحسن الغريب لتقدروا
صنع الله فيه حق قدره وتقبلوا بحمده سبحانه على هذا المن الجسيم وشكره فانه
فتح لم تله الايام ولا عوهد فيما سلف من دول الاسلام ولا علم نظيره فيما تقادم من
الاعمار ومضى من الاعمار بما جمع من هذه الممالك العظيمة التى لم يشتمل عليها ملك
ولانظمتها سلك وان خبيثته فى طى العصور السالفة الى هذه الملة الكريمة والنبوة الجليلة
العظيمة لدليل على عناية الله بشانها بما اظهر على يدها من خوارق العادة وجمع على

ص 52

عهدا الكريم من هذه الممالك المنتظمة في سلك الانقياد انتظام القلادة فاشكروا الله تعالى على هذه المفاخر التي اذخرها لعصركم وأظهر بها آية انجادكم على الاعادى ونصركم واغلبوا بما خولكم الله من هذه البشرى والمسرة الكبرى اتم اغتباط وتأخلوا بحظكم فيها من السرور والانبساط واتخذوا يومها الاغر المحجل عيدا ومهرجانا وقيموا لها سوقا من البسط نافقة سرا واعلانا واستشعروا عاقبة هذا الفتح العظيم فهو بكل خير شامل ان شاء الله كفيل وعلى ما وراءه بحول الله من الفتوح المتوالية عنوان ودليل وقيدوا نعم الله لديكم بالشكر للنعم قيد وعقال وعصمة بحول الله تومن من الزوال والله يكلؤا جميعكم فلا رب غيره ولا خير الا خيره والسلام وفى ليلة الجمعة سابعة شعبان المكرم عام تسعة وتسعين وتسعمائة(1)

ذكر ارتجاع العساكر من كاغو الى تنبكتو وما تغلغل ذلك من الاخبار

لما استولت العساكر الامامية على مدينة كاغو دار مملكة الملك السودانى وقاعدة ممالك سنغاي ومركز الدائرة من تلك الاقطار ورسخ بها قدمهم ورسى فى ارضها قواعدهم اشرفت بافقا انوار الخلافة العلية وسطعت بجوها انوار الامامة النبوية فمزقت باسعتها سدف البغى الذى طالما قد لبست منها اطمارا خلقه واختالت فى ملاة العزة القعساء وطويت عنها بزة المهنة طى الرداء ونزعت من قلب السعد بمفعم غرب واحصف رشاء فجليت عقلية غيداء واستقل جدها العاثر فبينما هى فى التراب فى درك اذ انافت على الارجح فى فلك واضحت خيسا لكل ليث مشبل من ابطال العساكر المنصورية وفجر عواليهم ومجرى سوابقهم فابتهجت ارجاؤها وزهيت اعطافها وشنفت الدعوة النبوية مسامعها فدار بها نطاق الرحمة وانهلث عليها مياها وخيمت بها العساكر الامامية والقوا بها عصا التسيار واعتاموها دار قرار ثم القوها مستوثة وخيمة الهواء منحرفة المزاج لا تقتنص بها الصحة الا بشرك علاج ولا يستشعر بها برد الصحة الا من الف جوها ودب من وكرها * وربى فى افقها واما الوارد عليها فقلما سلم من عادية وخامتة الا بعد استحكام صبغتها ولبس جلدها فطرقتهم بسبب ذلك الوعك وسرت فيهم الاسقام ودبت فى جميعهم او كادت الاوجاع والالام وحلدروا مغبة استيلاء الالام على جميع العساكر فلم يكن لهم حينئذ مندوحة عن ارتياد بقعة سواها وادالتها ووافق ذلك ارسال العبد سكية اليهم والقاء نفسه عليهم نزوعا منه الى السلم وتأميلا للخلاص من الهلكة التى ارتبك فى اشراكها واشرف على مهاويها واستبقا لرمقه ودماائه التى بلغ التراخى وربما زعم لبعض بنابة التى تقوضت اركانه فتطارح على العساكر الامامية وبسط كف الخشوع

مر 53

والرغب الى قائد العساكر مملوك مولانا الامام المنصور بالله امير المؤمنين ايده الله جوذر باشي ورؤساء الاجناد في تقبل فئة على خروج ثقيل يضرب عليه التزمه مسانهة وتحمل عبئه ونظم نفسه في خول مولانا الامام المنصور بالله امير المؤمنين ايده الله وعبيد جلاله البادخ وقدم بين يدي نجواه هدية مولانا الامام المنصور بالله امير المؤمنين تشتمل على عشرة آلاف مثقال ذهباً ومائتى من الرقيق وانبرم هذا العقد على شرط القبول من مولانا الامام المنصور بالله امير المؤمنين ايده الله وامضائه لعقدته وان المصير لرأيه الكريم في رد وقبول فانكفات حينئذ العساكر المنصورية اثر هذا العقد صارقة الوجهة الى تنبكتو(1) وخيموا عليها وطيروا شرح هذه الاحوال(2) الى سدة مولانا الامام المنصور بالله امير المؤمنين ايده الله وتلوموا ينتظرون جوابه الكريم ليستضيئوا بقبس رأيه السديد في مدلهفات الامور فثابت اليهم صحة ابدانهم وتراجعت قوتهم وذهب عنهم وعت السفر واخذوا في التمهيد وتسكين الشارد وتأمين الطريق وبسط الهدر وخفض الجناح حتى اطمأنت النفوس المستتة في مجال القلق واستقرت الافئدة الجائشة بما خامرها من الرهب والذعر الذي ملا احشاءهم وازاغ ابصارهم واشكت لرجبه مسامعهم من اجل جدة الدولة وثقل الوطأة وجلال السلطان في خلال ذلك تاب لقائد العساكر الامامية المنصورية افى الشهم جوذر باشي مملوك مولانا الامام المنصور بالله امير المؤمنين ايده الله رأى العمل على شاكلة أولى الحزم والحياطة للامور فاعتمل في انشاء الاساطيل والسفن لاقتحام النيل والعبور لعنوته القصوى خلال مدة انتظارهم لرجعة جواب مولانا الامام المنصور بالله امير المؤمنين ايده الله مخافة ان يفجئهم الرأى الكريم بنقض ما ابرموه مع العبد سكية فيجدهم ذلك على اوفى أهبة واتم استعداد لغزوه والانقضاض عليه بجوارح الاساطيل الامامية السريعة الطيران ولقد كان العبد الشقى لاذ بغيره منجاة من الرأى * الفائل ودفع بكيد ضعيف وتدبير تكسى رعيده ص 54 فجمع اقاويه واخذ بزمام سفنه على العبور والاختلاف بين جهتي النيل في اجتلاف المرافق .

يريد(3) ان يفت بذلك في عهد الاجناد المنصورية فشمير مملوك مولانا الامام المنصور بالله امير المؤمنين ايده الله قائد العساكر جوذر باشي المذكور لابطال كيد العدو وجمع

(1) ذكر صاحب تاريخ السودان ان دخول جودر تنبكتو كان يوم الخميس 6 شعبان 999 الموافق 30 ماي 1591 .

(2) حمل اخباد المغاوضات التي جرت بين جودر واسحق الى المنصور بشوط على العجمي كما ذكر ذلك صاحب تاريخ السودان في صفحة 146 .

(3) يقتضى الترتيب الطبيعي لسرد الاحداث الانتقال الى صفحة 114 .

العملة ارباب صناعة السفن لما قدمنا أن مولانا الامام المنصور بالله امير المؤمنين ايده الله قد امدهم بآلاتها وارباب صناعتها فما مضى غير برهة حتى * شأوا رجلوا في شأو صنعها واخترعت في نهاية الاحكام ونباهة الشكل فكانت سفن العبدى اخذت بطرف نقيضها قماء وصغر قدر وتفاوت شكل فتسئم كتد اللج منها واستقل على غوارب اليهم هياكل مائلة قد البست مدارع القار واذلعت الى الماء السن المجاذف وارسلت في النيل ارسال الاجادل المنقضة تقطع انفاس الرياح شدا وتستقل بالفيلق الجم والاقوار الثقيلة من البضائع فاغرقت تلك الامم الهمل في مذاهب الاعجاب اذ كانوا لانتباز الدار وشط المزار لم ينتشقوا لرسوم الملك نسима ولا وقف بهم على معالمها وخذولا رسيم وانحشرت عوالم من دهمائهم لمشاهدتها وارتاع لها اقاصيلهم وادانيهم وايقظت اجفانهم من سنة الهدوء وطرقت البائقة مضاجع امانهم وايقنوا أن لا محيص ولا فوات: **أين المفر والاله الطالب والاشرم المغلوب ليس الغالب**

ولما انتهى الخبر لمولانا المنصور بالله امير المؤمنين ايده الله ووعى جلية أمر عساكره المظفرة بادر لاملاء أجوبة خطابهم وتجهيز الامداد اليهم ونقم عليهم التنفيس من مخنق العبد سكية والافراج عنه من بعد استلابه من بزة عزه والاستقراء على دسته والحصول على كرسي ملكه وعرفهم بما في ذلك من اعادة أمره جدعا وان ذلك يشيب اليه قواء ويلم من شعته المبدد وعراه المنصمة ويقدّر ذلك يفت في أعضادهم ويوهن عزائمهم ويركد ربح صيتهم وغاية الامر انهم ان استوخموا البقعة وانكرهم هواؤها يصحروا قريبا منها في مخيم يرتادون فيه صحة الهواء فيسلموا من عواد الاسقام ولا يخلون بمصلحة وقرعهم بالتوبيخ على ما اتوه وصب على أمراء الاجناد سوط عتاب ونقض عرى صلح العبد ونبذ وراء ظهره فرجع بملء العيبة من الحسمة وهيئات الصيف ضيعت اللبن ولشد ما أغفل الامر السديد والرأى الحسن فندم حيث لاينفع ووقع ايده الله للعبد بينانه الكريم على ما بعثه من الهدية ورام من الصلح بقوله تعالى اتمدوننى بمال فما اتانى الله خير مما اتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون ارجع اليهم فلناتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها اذلة وهم صاغرون بالله من توقيع يقلقل رضوى وثبير ويرتد له طرف كل مصقع بليغ خاسئا وهو حسير فانظر الى هذا المنزع الكريم وتطبيقه لمحرز الاجادة واصابة شاكلة الصواب فأى هاجس يحوم على هذا الرمي البعيد وأى ثاقب فكر يفوص على هذا الدر الثمين وأى سقط دكاء يستضيء بانوار هذا المقتبس الاخطر مولانا الامام المنصور بالله امير المؤمنين ايده الله المقتبس من أنوار النبوة ومشكاة * الرسالة المحموده بصيب التقديس المغلق السقيا بمياه البلاغة المشتعل الذكاء المتوقد جمره الفطنة والدهاء فهو ايده الله فى هذا المضمار وسيوفه عن الاسلام ذائدة ودائمة وحرس ذاته الكريمة

من كل عين لإفغة ثم كان من استئناف الامر من أوله وفتح البلاد فتحا ثانيا ما نذكر ان شاء الله تعالى

ذكر انتهاز محمود باشا بالعساكر لمعاودة فتح البلاد وتوحيدها والابقاع بسكية وجموعة الوقعة المقوضة لركن الدولة .

قدمنا ما تقدم مولانا المنصور بالله أمير المؤمنين أيده الله على عساكره من الاجابة الى صلح العبد والافراج عن كاغودار ملكه وانه لما بلغه ايده الله ذلك قام له في ركبائه وقعد واعتنق الامر من أوله وجرد مقينا خفيف النهضة من ابطاله وكماة انجاده وعقد عليه لملوكه الفتى الشهر مدره الحروب وصفات الوقائع والحية الرقطاء والاسد الرئبال المتخبط نجدة وشهامة واقداما وحزما واعتزاما الفضنفر البهمة ومجلسي الخطوب المدلهمة فحل الكفية وسابق حلبة الممالك والمواالي بدار الخلافة العلية المهذب باداب السياسة الامامية المفرغ في مصفات ترتيبها وتدريبها القرم الباسل محمود باشى مملوك مولانا الامام المنصور أمير المؤمنين أيده الله فأفرغ ايده الله منه الادوات على الكمي وشجد منه عزائم نفذ من الحنثف على الاعداء وغزل به مملوكه جوذر باشى عن ولاية العساكر ببلاد السودان وكتب له بملك زمامها وأوعب تجهيزه بالمال واحتمل أكثر خراج اقليم درعة وخرج بلاد تغازى كله وشدازره بمولاه الصدر الكبير النجد المضطلع الشهم الحزامة والنجدة واصالة الرأى فى الامور ترب الكفاية المشعود الفرار بمبادر التجريب والحنكة والمصطفى بنار الوقائع صاحب فتح اقليمى توات وتيكورارين والمضى لعلزتهما القائد الاصيل أبى عبد الله محمد بن بركة عتادا للشورى وعصدا على الاستقلال باعباء الامور فقوض من الحضرة واستقبل خوض المغازة اللواء والمجهل البيداء أثناء فصل الصيف عند اشتعال نار القipzig واجتدام الرمضاء واشتداد وهج السموم فأغد السير ووصل الاسياد بالتاويب لايلوى على من تعلد حتى خلص منها خلوص البدر من السرار وانصلت من غمارها انصالات السيف من القرابة فى برهة خفيفة لم تزرأه عقالا فيمن نقيب مولانا * الامام المنصور بالله أمير المؤمنين أيده الله وسعادة جده وهذا أغرب ماثور وأعجب حديث مذكور وباقل من ذلك بذكر سليك بن السلكية دعار العرب ومصاليك صعاليكها الذين دربوا على خوض المهامه وجوب القفار اذ هى مساقط رعوسهم ومنبتت نبعتهم فضلا عن هذا الفتى الذى نشأ فى كنف الخلافة واكنته ظلالها ولم يتمارس بشق المهامه ففات فيها القطنى اهتداء وراكب فيها النكب الهوج وجرى فيها طليقا لم يلز فيه بغير النعام الربيد واوبد الوحش وهى الهمم الاحمدية لو رام بها الشعرى لحق والعزائم التى لو صرفها للبحر لانفلق فلم يك الا برهة حتى الم بالاجناد المنصورية الامام

ص 117

الطيب (1) قسب لهم الامل وشده ازرهم وشجده بصائرهم وازاح عنهم فمضوا على غلوائهم ولبي منهم نداه سميع مجيب سابقوه الى مطامح هممه البعيدة فارعب بهم التجهيز وشحن الاساطيل بعرا وجر الكتائب برا وسار تلقاء عنوه على أيمن طائر واسعد قارن والنصر باسم الثنايا والفتح قد اثلح جيده وتطلع محياه بين براقع البنود ولحظ باعين الاسنة الدرق ونطق بالسنة السيوف الحداد فطووا المزار تلقاء وجهتهم المباركة يؤمون مدينة كاغو وتوجه اليهم العبد سكية أوعب ما كان وفور حشوده وأتى بقض وقضيض واغتر بما جمع من سواده الطغام الذين أسلموه لوباله ولم يغنوا عنه من الاشياء وكان الغوى لم تندمل كلومه وعلى خبرة بكلال ساعده عن مساورة باس العساكر الامامية ولاكن أصغى لثرهات أوحى بها اليه بعض شياطينه وزخرفها الاغمار من اوليائه الاخدين بخطاهه الى عزائمهم قد نكت الوهن قواها وفل من شكائهم فرام أن ينتهز فرصة فكانها وطلب ثارا فما عدى أن ازداد ضغثا على ابالة واني أن ينتاش فريسة نسيبت بين الناب والظفر من أسد وزاد فساد يريد لقاء الاجناد المنصورية كلما تقدم فترا تأخر ذراعا وكلما أقدم قيد شبر نكص باعا يتحامل على الاقدام تحامل الهيظ ونظره الى منجاته ويستحثه السرى من أمام وهواء الى خلف طلب لافلاته والدعر يمسكه ويرسله والروع لم يقمه ويقعده فما هو الا أن أطل على العساكر المنصورية فالول جولة حن الى الفراريس النيب ونكص على عقبيه مدبرا ولم يثبت له فى موقف الجلال قدم ولا حمل قلبه الضلوع ضررا فولى بسعى مخفق يقرع سن الندامة واستمرت عليه هزيمة شنعاء تجل صغارها وشفع بها الاولى وأجلت الملحمة عن عديد من كهاته وابطاله قتلى مجندين تنتاب العوافى أشلاءهم احاطت بهم دائرة السوء وجنبوا لمصارعهم وقادهم تدبيرهم لتدميرهم فاعتاد الشقى * مدد النكة ومرى اخلاف رووس وكلما هم أن يقدر للاقبال زندا شح سقطه فلولى العنان تلقاء كاغو والعساكر المنصورية مبتوته السرايا خلفه تمزق أديمه وتنوش أشلاءه ثم التحقوا به ثالثة انهزامه وهو يعثر فى ذبول الفشل ويتميح بالاله صبر ناضب الوشل وانكفا عليه تيار العساكر المنصورية فانكشف لاول طليعة هو وفله ومر بصفقته الباتره وكرته الخاسرة يبادر الفوت لمنجاته (2) وقد كان لما صرف الوجهة تلقاء الاجناد المنصورية سولت له نفسه من عمل العزم أن أمر باخلاء كاغو ونسف اقواتها ولم يدع بها عدى نزر من عجرة الرعايا فتركها أفقر من جوف غير

ص 118

(1) حسب المؤرخ السودانى فان محمود باشا قد وصل الى تنبوكتو يوم الجمعة 26 جوال 999 الموافق 17 نشت 1591 .

(2) اعتمادا على ما أورده السفيدى فى (تاريخ السودان) فقد التقى محمود واسحق فى سهل بنب شمال النيجر بين كاغو وتنبوكتو يوم الاثنين 25 ذى الحجة 999 الموافق 14 أكتوبر 1591 .

خاوية على عروشها نظرا شديده فيما زعم أوأخى العزم قطعا لارفاق الاجناد المنصورية وأخذ يحجزهم عن ترف صبايته البقية وهيئات لن يغنى كيد فيمن أمد من الله بايد وظاهرته الاقدار العلوية في حل وعقد وكانت الاساطيل التي اتخنت سبيلها في البحر ألقاها اليم بالساحل من كاغو كما تبرز للرفش الصلال من احجارها فأرسلت على نفق الشقى المخلول فانكفا اليها فالفأها تتلمظ فاغرة أفواه الحنف اليه جالبة أسباب الحين عليه فرجع بخفى حينين واسلمه الحمام الى الحمام وولاه وراء ظهره ملء الجوانح أوصابا واللهوات علقما وصابا فامتطت الاجناد المنصورية صهوة كاغو عقوتها ووجهت منهم ضالة سعدا التي طالما كانت لديها منشودة وسكن حينها المتصل لن اقلعوا عنها فهشت لتطلع طلائعهم وسرى البشر والطلاقة في محياها واعتاضت من العي رشدا ونظرا في سد فرجها وتثقيف أودها فعصبوا مفرقها بولاية المتقضى لعذرتها الفتى الشهم ورغم معاطس السود عند الصدمة الاولى جوذر باشى مملوك مولانا الامام المنصور بالله أمير المؤمنين أيده الله مشهود الازر هراش الجناح بمولى أمير المؤمنين الصدر الكبير الشهير الصيت في النجدة والغناء القائد أبى عبد الله محمد بن بركة مع حصاة وافرة من عساكر الرجل والرمات حماية وردء للعلنوان يخالفهم اليها وتواعد محمود باشى مع النيل فى بقية العساكر اثر العبد سكية امعانا فى استيصاله وقطعا لندابره وكان المخلول آمن من الاتباع توها أن الاجناد المنصورية تشغلهم كاغو عن النهوض فى أثره ولم يدر

ان الاسود أسود الغاب همتها يوم الكريهة فى المسلوب لا السلب

فمشى الهوى وما راعه الا هجوم العساكر عليه وراء كاغو فأوقعوا به هنالك وقية قضوا بها سواده وركب ديدنه فى الاجفال وهيئات أن يقيه فرار الا أن يحل ببلدة لا يهتدى * اليه فيها نهار فكانت هذه الهزيمة احدى الكبر القاصفة لتمامته وفر بنفسه اللئيمة الفرع والارومة وافلت بها من شرك الحنف الناشبة بعد أن كادت تراسلا مرارا ولكل أجل كتاب وانتهت العساكر المنصورية الى القاعدة الشهيرة الصيت المدعوة كوكية وقطع الشقى هو فرصة المجاز من النيل لعدوته القصوى فكان من اجلاب العساكر عليه هنالك ما نذكر ان شاء الله تعالى

ص 119

ذكر اجلاب العساكر على سكيه بمنتبذه من وراء البحر

كان سكيه لما أوقعت به العساكر جهضوه عن كاغو ثم اجلبوا عليه لانبا فأوقعوا به وراء كاغو اجفل اجفال العير امام الاسد وتخطى النيل الى ما وراءه واتخذ خندقا لاذ بسياجه وأمل الاعتصام به من مساورة القساورة الغلب من الاجناد الامامية ولم يعلم

انه لوصل عقوة لانتحطه فيها مقل الشهب لانقضوا عليه من جوها انقضا من الجوارح
المقتنصة للمهج من بين الجوانح وكانت فرصة المجاز من هنالك صعبة المسلك تهوى
بها جرية النيل من أعلى الى أسفل ويصب منها تياره صب الميازب مع ما أضمره
ضخاها من الحزونة والوعث العادية التي ترد جميع الاساطيل الصحيح الى التكسير
مع ما عليه سفن مولانا الامام المنصور بالله أمير المؤمنين أيده الله أيضا من ضخامة
الشكل فجريها المستحكم في غمار المياه ورسوبها على ضد ما عليه سفن العبيد فانها
تطفوا على سطح الماء كالقذات لضعف تاليفها حسبما ذكرنا وارتسم للعبيد هذا الخيال
الفاقد فرقع سرحه في مرعى الامان وغفى جفنه الشاهد تحت افياء الاغترار فقيض الله
لاساطيل مولانا الامام المنصور بالله أمير المؤمنين أيده الله أحد الملاحين المهرة من
العبيد فدلهم على المعبر ونفذ بهم من ذلك المضيق فبغتوا العبد بغثة الحمام وأيقظوه
من خمار سكرته وسقط في يده وشام بارقة البوادر ودهمته داهية صيلم فانقضت خدمة
عشرته العائرة ونبذه أوباشه وغوغاؤه وأسلمه أشياعه وسيموا من النكبات التي
تشاوشهم والوقائع التي توالى عليهم واستحصدهم وكان ممن انخزل عنه في هذه
الوقية أخوه في نحو من ثلاثمائة من اخوته ووجوه عساكره وروساء دولته فكان من خبره
وخبير الايقاع بسكية واستئصال شافته وتثريد لارض الكفر ما نذكر ان شاء
الله تعالى

ذكر استئصال شافة سكية والاستيلاء على البقية من ذخائره وأمواله وأفلاته الى
ارض الكفر محل اغتياله *

ص 120

لما انخزل أخو سكية عنه كما قدما في حصة من اخوته وأهل دولته راسل روساء
أجناد المنصور ليصل يده بأيديهم موريا بالمظاهرة على أخيه وهو انما يسر بذلك
حسوا في ارتقاء ويبدى غير ما ابتغى ويروم التقاف الكرة من يد أخيه ودحرجتها اليه
لصولجان المماكرة والمخادعة يحاول بذلك اجتناب شارة الملك وإفراغه على عطفه لما
قبر من خلو الجو بتنحية أخيه وانها فرصة ينتهزها وفارك ناشز ابدت اليه حينها ولم
يدر لاية علة تركها أخوه لها خلفها سخين عين فائضة وجود برmq نفس فائضة وما
فارقها الا بحب الغارب والذروق وقد كان أقوى أيما وأيسر يدا ولما بنى هذا الفبى
أمره على هذه المكاييد المنحلة العزائم المختلفة المبادئ والخواتم جأجا بالعساكر المنصورية
وقلب ظهر المجن لأخيه وأظهر لهم الادهان وامحاض نصح شف من ورائه ما طوى من
دخل ورم الاصطياد تحت أجنحة العقبان الكاسرة ونازع في فرائس الاسد من بين
أثيابها الكاشرة فصار ماقون الراى مخفق السعى ولما أمكنت العساكر هذه الفرصة

بادروا اغتنامها ووطئوا هذا الغبي على ظواهر حاله وكالوا بالصاع الاوفى من مماكرته
ولكل امرئ ما نوى فجرد واسرية اعتماؤا فيها الكمات اليهم من كل دمر أغلب ذى لبد
هربت الشدق استار الحروب واطنار مئازق الجلال بين معتقلى الرماح ومقلبى اقالام
الخطية فى أسطر الكفاح على الجرد السلاهب المطهمة العرب تنقض أسنتهم على ثغر الاقران
انقضاض النجم المتكرر اثر المردة وبين فئسة للرجل للرمات المساجلة بحواصب المنية
الواء الغيوم الذين لم تزل آثارهم فى جباه الوقائع مسطورة وملاحم الكفاح بصيب بأسهم
مطورة يقدمهم كمن من انجاد الحماة طالما حلب أشطر الدهم وبني ناب الوقائع عرفناته
غمزا وتحجما مدفوع للعظام وصدع صفاها وقل غريبها وشباها يدعى قاسم روادى
الاندلسى فكان هذا الجيش المنتقى بما جمع من الحماة والابطال لو تالبت عليه أجيال
الامم الحامية وانكفات عليهم أقطار السودان بكل أسحم الجلدة لاستلقوا بحول الله باعباء
حربهم أجمعين ولجرعوه صابا بعلقم حتى يحيطوا بهم دائرة البوار ويهب لهم عليهم
عاصف القلب وسارت السرية على الطير السانح وعزم يبسم عن ثنايا الامل الناجح
متوجهين تلقاء معاطبهم كاس المظاهرة اخى العبد سكية لناع واجتمعوا به وكادوه بالنى
كادهم به من المصانعة والمجاملة والوازرة على عدوهم ووطئوا على الايقاع به والاجلاب عليه
وضربوا لذلك موعدا عند طلائع الفجر ثم أجالوا فى أثناء ذلك قداح المفاوضة * وأداروا
أقداح الشورى فتمخضت زبدة آرائهم ان امتزاجهم بعساكر السودان فى قتال عدوهم
اخلال بالحزم وتضييع لواجب الاحتياط اذ يكون العبيد طووا مكيدة وغنرا فاذا امتزج بياضهم
بسوادهم يميلون عليهم ميلة واحدة فراوا الانفراد بصدمة العبد أولى وأحزم فركبوا
اليه اليل جملا وفاجأوا بالبيات فلم يشعر الا بجلبة الخيل ورجة الوقعة فافلت من بين
ظفر وناب ونجى بعد لاي ولات حين منجاة برأس طمرة ولجام من بعد عصب الريق
وانشأب أنياب الخطوب الحمر منتبذا من خوله وصباة أجناده سلبيا شريدا لم يعلق
بأذياله عدى لمة من اغيلمه داره تناهز خمسة عشر مع أربع من حظايه نازع فيها ايدى
السبى وخلص بها من سور النهب فكانت هذه الدائرة خاتمة زواياه التى أودت غمارته
واستشفت بلالته ونسفت عينه وائره وانبسطت ايدى العساكر المنصورية فى نعمته
الضخمة واحتوت على ما يملك من نشب وأثاث وعالات ومقاع وحرم ورقيق ولم ينج
بزف نعام ولا قلت بقطير عدى نزر يسير كنفة من ثماد اعتبره بمسبار وقسه بعميار
فان عدة حظايا هذا العبد المختال بهذا النعيم أوان رسوخ قدمه فى سلطانه تنيف على
ألفى حظية فأين ما تستتبع من حلى وحلل وسواها من أسباب الترف والالة والخدم
ويسعها من المنازل أجمعين واشتملت ايدى الاجناد المنصورية من الدخائر على ما يقصر
عنه اسهاب المكث ويخرس له لسان المصقع وطارت بالعبد سكية جنون الإجفال فما أراق

من 121

النفس حتى احتل بدار الكفر (1) والشقاء مستلما بدمام الشرك ومحتما بحمي من
 جاد الله ورسوله وطوق عنقه ربقة هذه الموبقة واحتقب اثمها وطرز بها صحائف عمله
 من البغى ولا غرو فيمن شقى بمولانا الامام المنصور بالله أمير المؤمنين أيده الله وعثرة
 خاتم النبيئين ان يسلبه الله دينه وديناه ويحيط به دائرة السوء فى عاجله وعقباه
 وتلك سنة الله فى عصاته وتوهم العبد انه قد علق من أهل الكفر بدمام لا يخفى وانما
 سعى بقدمه الى اراقه دمه وسقط به الفشاء على سرحان واستجار من الرمضاء بالنار وكان
 ضعيفا لاذ بقرمله فلم يزد على أن ألقى قياده لمن فسى به نفسه ونفادى من تيار الهلكة
 بانلاف مهجته والسعيد من اتعظ بغيره فان روساء عساكر مولانا المنصور بالله أمير
 المؤمنين أيده الله تقلموا لطواغيث الشرك الذين ءاوه بالوعيد والانذار من حلول
 الفاقة بهم ان لم يسلموه فاستبصروا فى رأيهم ونظروا فى مخلصهم ولم يجدوا لانفسهم
 وليجة من دون سطوات مولانا الامام المنصور بالله أمير المؤمنين أيده الله وبوادره الا أن
 سقوه كاس الخمام وجرعوه غصص الموت الزعاف تفاديا من جلبة العساكر فهلك *
 الشقى وقضى نجه فى دار غربة تحت اسمار الحقارة الذميمة والحدث بتربة الكفر
 والشقاء رمت الرميمة فلم تبكه ارض ولا سماء عظه لمن استبصر وعبرة لمن اعتبر فتم
 الفتح وجلت النعمة وثل عرش السودان وخلص ملكها لمولانا الامام المنصور بالله أمير
 المؤمنين أيده الله ورسخت فى اقطارها دعوته الشريفة والارض لله يورثها من يشاء
 من عباده والعاقبة للمتقين واما خبر اخى سكية النازع فقد كان من امره ما نذكر ان
 شاء الله تعالى .

ص 122

ذكر اصطلاء اخى سكية الناكث بنار مكره ووقوعه فى انشطة غدره واستلحام
 بقية اخوته ومن دخل من الناكثين فى صفقته

كان هذا الشقى الناكث لم يزل جمر غدره ومكره منذ نزوعه عن أخيه يشف من
 تحت رماده وتسول له نفسه لمس النجم فى كبد السماء وجعل يسدى ويلجم ويسبح
 ويلجم ويستن فى مجال المكيدة التى اقتنص بشراكها ووقع فى بيرها ولا يحيق المكر
 السىء الا بأهله وقائد العساكر الامامية محمود باشى مملوك مولانا المنصور بالله
 أمير المؤمنين أيده الله يقارضه فى ذلك كله بصفقته ويرقص له على ايقاعه مكائدا له
 ومعتلا فى اقتناص بغائه كلما لاح له من تلقائه بارق خلب غالطه عنه بسحائب صيف
 وكانت العساكر المنصورية لما أوقعوا بسكية أخيه الواقعة التى انتسلوا بها عينيه وآثره

(1) حسب المؤرخ السودانى فان اسكيا اسحق قد التجأ الى (تنفى عند كبار كرم ... وما تبعه احد من
 أهل سقى) (ص 147) .

واحتوت أيديهم على ما ملك كان من جملة ما وقع الاستيلاء عليه أساطيله البحرية فكان أول ما أبدى هذا الناكث من كنين صدره وكمين مكره ان احتال على استرجاعها من العساكر واستخلاصها من أيديهم وأدلى بأنها ملك الرعية الذين شملهم كنف الامان وانه لا يحسن ان يهتضم لهم جناب ولا ينقض عليهم الامان المبذول لهم وكل هذا انما يحطب في حبله ويجر لنفسه فسادا روساء الاجناد ولبسوه على سوء دخلته وعلى طويته خوف استيحاشه واجفاله ثم شفع هذه المخادعة بالافتيات على أولى الامر بأن أخذ في تقليد الاعمال وتفريقها على رجاله وقسمتها بين خدامه وخيلت له نفسه انه قد فرع هضبة الاستقلال على سرير الملك وتأتى له انتظام السلك فنقم عليه أولوا الامر في ذلك واعتدوها عليه أيضا وقد كان مولى الامام أمير المؤمنين محمود باشى بعث اليه أولا أحد مماليك الخلافة العلية يدعى محمد بن عبد الملك وأوعز اليه بالقدوم عليه فتلكى وتناقل واعتل عليه بواهى العلل وتعلق بأذنان المعاذير وتلوم تلوم شعثه واستجماع عساكره ووقف الرسول على ما أخذ فيه من الاستعداد والاحتشاد والمظاهرة * بالعدد والسلاح وتبينت حينئذ خبيثته وحيلة كيد وانهطائه على ما يروم من الفتك والغدر بالعساكر المنصورية فكتب بذلك الى قائد العساكر مرسله محمود باشى وانذره بمغبة امره ليتدرع بلامة الحذر ويأخذ أهبة الاستعداد لوروده خوف أن يظنه سلما وهو حرب فايقل منه جفنا غير نائم وقعد له بالمرصاد وجمع للوثبة عليه جراميزه فقدم عليهم يجر الشوك المدر يقدم مقابله الهائلة وعساكره المتسائلة تناهر عساكر أخيه التى ناهضهم بها فى حروبه متظاهرين فى السلاح قد أخذوا أهبة الحرب مصرا على غيه طاويا فى أم رأسه الغدر عاقدا عليه ضميره وعزم على ذلك اذا شابههم باوشابه وخالطهم بسواه فوجد الاجناد المنصورية على أهبة قد استداروا بمعسكرهم واصطفوا له سباطين من باب معسكرهم وقاصية مضطرب قباهم الى مضطرب السراشق الاعظم المعد لنزوله فما لبث أن اقتنصته الشوك وانشبت به المنية أظفارها واستولى القبض عليه فى أربعة وتسعين رجلا من اخوته ووجوه أهل دولته وأودعوا السلاسل والاغلال وعضت عليهم ساودها السود ورقاه صليلها من وساوس جنونه وشفاه من داء كلبه وحكم الجند فى قلة اسياقهم فاستلحمتهم وجلل الارض فجيعهم ولحق هذا الشقى بأخيه مقاسمه غصص البوس فأصبح مثلا فى الآخرين وقد كان نفر سته من ابناء سكية تخطاهم أجلهم الى حين وقته لم ينتشبووا فى كفة هذه الحبال فلم يرضوا من الغنيمة بالاياب

ص 123

فانتبنوا لبعض الاطراف الشاسعة من هذه الممالك فكان منهم بعض عيث شبوا ناره (1) ودل عليهم عواهم الاسد الطاوية ضفادع في ظلماء يم تجاوبت قدل عليها صوتها حية البحر فجرد اليهم مولى الامام المنصور بالله أمير المؤمنين أيده الله محمود باشي ثقيلة الوطاة من مساعير الحرب وخائضى غمراتها فاجيلوا عليهم واستلحمت الملحمة اربعة منهم وجنبوا لمصارعهم لاول تيارها قتلى ونجى اثنان برمق بلغ التراقى متخنين بالجراح قاضت نفس واحد منهم على تفئة ذلك وكانت هذه الوقعة التى استأصلت شافتهم وقطعت دابر آل سكية فأصبحوا ما بين قتيل وحبيس ختام هذا الفتح العظيم الذى أدال الله به الطيب من الخبيث وشرف تلك البقاع بهذه الدعوة النبوية المظهرة القدسية العلوية وشنف بذكرها مسامع أقطارها وجاد ربوعها الصادية صوب قطارها فنافسها فى تقلد أطواقها العراق والشام وسياذن الله تعالى ان ينهل على تلك الاقاليم عارض رحمتها الركام ويصدق لافقها ما لمح من برق سعده وشام بعز الله وقدرته فله سبحانه عاقبة الامور وبيده تصارييف الاقدار لا اله الا هو جلت عظمتة ورفعت لمولانا الامام المنصور بالله أمير المؤمنين أيده الله قصائد * التهنة لتمام هذا الفتح الكريم

ص 124

والمن الجسيم

وجلس (2) للتهنية وانشد الشعراء بين يديه وكنت أول من رفع اليه كلمته وهى من قبيل البديهيات لضيق المجال قمت بها عندما غص المجلس الكريم بالجمهور ومطلعها

هكذا تحرز العلى والمعالى	وتدق الطلا بسمر طوال
وتقود السوابق الجرد اسد	هيج غابها وشيخ العوالى
من كماء الهيجاء تحملها فو	ق متون الجياد صم الجبال
ورماة تشب نار تلقى	جعلوا وقدها جسوم الرجال
سير العزم منهم جيش نصر	غمر السهل والهضاب الاعالى

- (1) فصل المؤرخ السودانى عبد الرحمن السعيدى فى (تاريخ السودان) أعمال المقاومة التى قام بها السودانيون ضد القوات المغربية الفاتحة ، واعتمادا على ما ذكره فان السودانيين قد بايعوا بعد مقتل اسكيا لاسحق اسكيا محمد كاغ الذى القى عليه محمود باشا القبض وقتله ، وتزعم المقاومة بعد ذلك اسكيا نوح الذى حمل لواء الثورة طوال سنوات حكم المنصور للسودان فى نحو ثلاث عشرة سنة والذى كبد القوات المغربية الكثير من الخسائر فى الارواح والعتاد واجبر المنصور عدة مرات على تغيير قيادته العسكرية بالسودان للانتصارات التى كان يحققها احيانا ولاعمال الفداء والانتقام التى قام بها ، وقد توجهت أعمال المقاومة أولا الى السودانيين المتعاونين مع المغاربة ثم الى قوات المنصور فانيا ، ومن الذين ذهبوا ضحية المقاومة السودانية القائد المغربى محمود باشا نفسه اذ نصب له كمين فى منطقة المن وال فلما رموه بالنشاب وطاح على الارض قطعوا راسه وبعثوه لاسكيا نوح وبعث اسكيا لكانت سلطان كبد فاقامه فى عود فى سوق ليك زمنا طويلا (تاريخ السودان ، ص 146) .
- (2) الانتقال الى صفحة 44 وقد اشتبه الامر على الناصخ واثبت القصائد التى مدح بها الشعراء المولى احمد المنصور عقب فتح السودان بعد تعرضه لفتح توات وتيكورارين .

وغدا يعبر الفلاة سبوحا رعدت في الجنوب منها رعود
صحبته منها صواعق ضجت منها فادرك مصر والعراق ويمم
ان شرق البلاد يرجو شوقا للامام المنصور أحمد أضحت
ملك زين الخلافة عدلا منها في المقطع

فهنيئا لكم بفتح جليل طبق الارض صيته المتعالي
اطلع البشر والتهاوى نجومها لحن في أفق العلى والمعالي

ثم تلانى شاعر الدولة وسابق الحلبة الفضية أبو عبد الله محمد بن علي الهوزالى

فقال

جرى بمناك الدهر ملء عنانها جارى بملء عنانها
ولاحت لنا في أفق يمينك غرة ولاحت لنا في أفق يمينك غرة
بشائر تاتينا ولاء كأنمسا بشائر تاتينا ولاء كأنمسا
فتوح جنى المنصور في عرصاتنا فتوح جنى المنصور في عرصاتنا
ولا غصن الا من قناة قويمه ولا غصن الا من قناة قويمه
ولا روض الا من حماة كماتها ولا روض الا من حماة كماتها
كتائب منصورية قذفت بها كتائب منصورية قذفت بها
تهيم بها الارواح حتى كأنها تهيم بها الارواح حتى كأنها
طويت بساط ارضها بقنابل طويت بساط ارضها بقنابل
سحائب من مراكش قد أثارها سحائب من مراكش قد أثارها
يوم بنا الصحراء يرتاد أمة يوم بنا الصحراء يرتاد أمة
فكم ملك قد رامها فتعصبت فكم ملك قد رامها فتعصبت
فلما همت تلك السحائب فوقها فلما همت تلك السحائب فوقها
فألفت عقاليده الامور الى الذى فألفت عقاليده الامور الى الذى
الى ابن الباتول المجتبى من نجارها الى ابن الباتول المجتبى من نجارها
الى ابن الهدى وابن الندى وردى العدا الى ابن الهدى وابن الندى وردى العدا
ابن الحسن السبط الزكى الذى خبت ابن الحسن السبط الزكى الذى خبت
فجاءت الى الالف القلوب التى غدت فجاءت الى الالف القلوب التى غدت

ص 45

هديت أبا العباس فينا كهدية
واطفيته بالسيف لا السلم بعدما
وكم وكفت من كف يملك ديمة
فلا زالت الاقطار تعطى مقادها
اليك أمير المؤمنين قلادة
مفصلة أقطارها بيوافيت
فرائد من اوصافك الغر صفتها

وتلاه صاحبنا الكاتب البارع أبو علي الحسن بن أحمد المسفيوي فقال

تجلى بسعد الجد مقتبل النصر
فمن همم أضحي الثريا لها الثرى
فقام ملوك الارض من سطواته
فهم شاخصوا الابصار نحو جلاله
فمن لم ينله ييلق من كمانه
فما دون أن يعطوا الانابة منزل
وتركهم صرعى بكل تنوفه سكارى
فكم سربل الابطال في حومة الوغى
فناحت عليهم كل غبراء طفله
كما فل غرب الروم سيف انتقامه
فهل خاب سعى السودا وقال رأيها
رعوا حقبة مرعى المملون واغفلوا عواقب ما يأتى به طارق الدهر
فما راعهم الا طلائع عسكر تزجى بأسد الغاب دامية الظفر
عليهم قتام يشهد الليل انه هو الليل والحرصان فيه سنى الدهر
وجرد كاسراب القطا ضمير الحشا ينلن (1) (I) لو انه قنه النسر
تشر بزغ (1) (I) كانها مسردة الارجد من نقط القطر
يسلدها المنصور فهي سحائب تجود العدى بالحتف من ويلها الغمر
فلا وزر من باسه غير حلمه فناهيك منه قابل (1) (I) والعدر
وناهيك من طلق الجبين كانما اسرته منها استعير سنا البدر
الى خلق لو كان للطيب نشرها لما انتسب الطيب الذكى الى الشمر

كذا خلق مهدية علوية توارثها الفر الكرام عن الفر
تقربك المهدى عينا وقبله الوصى بما اعقبت من طيب الذكر
بمن لو رمى صفين يوم جلاده لحلت بجيش الشام فاقرة الظهر
ليهنه ملك الارض موطوءة له سينتظم السوس القصى الى النهر
فما دون درب الشام الا التفاتة وما دون بغداد العراق سوى فتر
فان حاول الاعداء منه اعتصامها يبعد فقد راموا المحال من الامر
فلو انهم حلوا السماكين منزلا لبات الردى من خلفهم داثبا يسرى
ولو نازل البحر المحيط بعزمه لعادت يبابا حينها لجج البحر
عرك خير المسلمين ورثته فناهيك من ارث وناهيك من نجر
فلا زلت منصور اللواء مظفرا ودامت بك الايام واضحة البشر
فلا نعمة الا ومنك منالها ولا عرف الامن ندى كفكم يجرى

وقال الكاتب الحسن بن احمد السفى

فتح كمنبالج الصباح المسفر تجنبه من وقع القنى المتأطر
هذا محيى السعد باه باهر يدنوا اليك بطلعة المستبشر
ايقاوم الاعداء صولة بأسه هل للتمام يد بعاصف صرصر
لهديتهن كتابا نظمت على ظهر البسيطة كانتظام الاسطر
من كل در طالبا خاض الوغى صال بنيران الحروب مسعر
ريعت بها أمم الجنوب كانها نفر سوائم جفلت من قسور
شردت سور ظباك منهم بعدما نهلت وعلت من فجيج احمر
تعسوا ونالهم الشقاء كذاك من ناوى جلالك فهو انعس معشر
لم يبق حام من بنى حام ولم تورد من حرى صوارم بتر
قد اقفرت منها القمود فطالما طرحت لفى عنها ولما تعمّر
يبض مضاربهن ان يعثو بها فى ضنك حرب خطو عمر يقصر
وصواهل وصواعق وحواصب وكفت كمنهل السحاب الممطر
فملكك اقطار الجنوب وما سمت لئال ذلك همة الاسكندر
وتنال اندلسا يجود ربوعها برد النية من غمام العتيسر
فقد الجياد الى الضلال تسومها حكم الردى وتدوس معطس قيصر
ادرك بها اثار المنيم فطالما الوى به للدين رهط الاصفر
فكان عصر اعتاض من بعد المدي من جوهر بحسام بأسك جودر
فلسوف يطوى مغربا ومشارقا ويزور دجلة والفرات بعسكر

وتحل بالحرمين ربعا زاكيا مساوى لجذك ذى السجايا الطهر
لا بد من انجاز ما فى الغيب من ابراز موعود به وملخر
فمنناك اقرب مطلب لو انه لمس الكواكب ليس بالمتعذر *
فمتى طلبت منال ابعدا غاية القى مقاد مطاوع متيسر
فلأنت للعلياء كفء ماجد متيسر من عنصر متخير
تجنى ثمار العز من غصن القنى وترى قدود القيد قامة اسمر
اترى العلى ما شدته من صصارم او نلته تحت العلاج الاعبر
زاكى العروق مقدس الاحساب هامى الجود سامى العز ناجى المفخر
ابقى الماثور فهى ما امتد المدى غرر تخلد فى مجيا الاعصر
لا تقتنى الا جميل محامد وكذا اقتناء المجد رابح متجر
تهلى الرفاق حديث مجدك عنبرا وتشرفت بشناك ذروة منبر
لا زال ينتاب العدى لك عسكر يسرى وتتبعه عوافى الانسر
وتنال ما املت تملكه كلما دارت به فى الارض سبعة ابحر
وقال الفقيه النبيه ابو العباس احمد بن القاضى المكناسى من قصيدة مطلعها
بشراك بالنصر المتين المتاح قطفته بين القنا والصفاح
قد دوخ الارض واقطارها وعم بالصيت بسط البطاح
ومنها :

فليهنك النصر الذى حزنه دون الملوك فى مغانى الكفاح
واسعد فقد دانت ملوك الورى لما رأت فى الانقياد النجاح
للملك المنصور طود العلى واسطة العقدة وبحر السماح
رجب بلاد السود من جنده فافتحت بالسيف اى افتتاح
ومنها فى تاريخ الفتح المبارك

فتح مبين هو تاريخه ينمو على الارض مديد النجاح *
فمن(1) ذلك قصيدة الفقيه الوجيه الاصيل الجليل المشارك القائد ابي الحسن على
بن منصور الشيعى وهى

وافى كما طلع الا صباح تاييد لكن سرى ليله مع ذاك محمود
وكيف لا وهو فى مسراه سار على هدى لاحمد لا يعدو تسديد
ملك شفا الدين من ادوائه وكفى داء من الجوف فيه الكفر معبود

(1) يوجد بياض فى الاصل *

كذا شفى الصدر من داء الجنوب ولم يدع به اسودا تغنو له السود
قدم طعام على الجهل المركب قد نشؤا ودام لهم فى البغى تمريد
واستبدلوا الغنى بالرشد فقاتهم ربح ونجح وتوفيق وترشيد
ما زل منهم على وجه العلى كلف حتى اعتدى وهو بالمنصور محمود
وطالموا عبدوا الاهواء وزاغ بهم عن اتباع الهدى جهل وتقليد
ومنها

فقام بالجد لا يلوى على احد وكان منه لشمى البغى تبديد
وجد منه لتمهيد الهدى ملك اغر ابلج بالتأييد ممدود
مسدود الرأى منصور اللدى اسدشاكى السلاح حليف اليمن مجدود
فرع الرسالة محيى الدين ناصر المنصور من لم يجز علاه موجود
مهد بالقنا والبيض ما عجزت عنه الايام والشم الصناديد
مفتح من بلاد السود ما بعدت ديناراه وتبعت دونه بيد
ومنها

ولا يحوم العدا فى الما هناك وقد تلقى ابن داية فيها وهو مجهود
يا بعدها من قفار ليس يسكنها الا سعالى لها فيهن ترديد
ولا يجوب فلاها الصعب مرتحل ما لم تكن تحته وجنان قيدود
ومنها :

تلك القفار التى شق المرور بها ولم يفد معها الركبان تزويد
ومنها

رام الخليفة غزوا والمجاز بها للجيش فاجتاز عنها وهو معبود
رمى به عن قسى الرأى موترة بالعزم سودا بسهم الحق قد صيدود
فصادف الغرض المقصود من بعد منهم فلا عبد الا وهو معبود
سهم من الغرب قد اصمى الاساود اذصموا وهم حيث بحر النيل مورود
وقد دعاهم الى الرشدا الامام فلم يصفوا وهل تقبل الرشدا الجلاميد
وحين صموا عن الانذار سمعهم صواعقا بنداها الموت معبود
تراه ينفث من افواهها بردا ينقض حيث فؤاد القرن مرصود
مدافع بطلت للسود حكمتها فلم يفد معها نفث وتعقيد
وما استقاموا الى آن جردت لهم بيض واشرعت السمر الامالييد
وجاست ايضا على رغم انوفهم خلال ما سكبوه خمير قود

قد ركبتهأ كمة ان لقيتهم فى الحرب تلقاك ابطال مناجيد
فمن يرى الموت فى الهيجاء مكرمة وان قاتلى نجيع الحرب قنديد
ويبذل فى رضى المنصور مهجته وان تناهى اليها الفضل والجود
كجؤذر نشاة المنصور مبتكرا لفتح الذى كان فيه قبل تبعية
وصار الملك محمود الذى شرح الفتح وزيد به من بعد توطيد
من مهد القطر وارتفعت لسطوته السود وغادر سبيا وهو مظهر
وأنف عزته بالبيض مجتذع وسوده بعد فى الدنيا عبايد
رام النجاة هيهات وقد اخذت عليه فى البر والبحر المراسيد
والامر لله لا ينجو محاربه ولو يكون له للشهب تصعيد

ومنها

من كل حلف الامر العلى هوى ولم يفد فيه ابعاد وتهديد
مكتب منهم للحرب لوقفوا ما لا يحبط به وصف وتعديد
اما دروا أن هذا الامر ليس له الا قرش وفيها السر مقصود
وان سر الجميع اليوم جمعه ملك له فى مراقى المجد تفريد
خير ملوك الورى المنصور من صدقت عن جده المصطفى فيه اسانيد
فهو الذى جدد الدين وشيده فجاء طبق الحديث منه تجديد
يا بن النبى هنيئا ان سعدك قد اغنى وصار له فى الارض تمهيد
لغيره من فتوح الارض فانتفضن لها فانك بالتأييد موعود

126

ومنها

وذا أوان التهاني بالفتوح وقد جئت بها غردا اذراق تفريد
ومن يحد او يرم للامر غيركم فذاك قد فاته رشد وترشيد
فاضرب بسيفك من ناواك ان لكم على العداة بحول الله تأييد
لازال امرك بالتأييد مقترنا ما تاهت او جررت اذيالها العيد
ودمت تجنى ثمار الفتح يانة من ارض كل عدو وهو مصفود

وقال الكاتب البارع المجيد ابو الحسن على بن احمد السفىوى :

كدا فليكن مدرك للفخار كدا فليكن مجد حامى الدمار
فهل غاية فوق عز عتيد مشيد القواعد فوق الدردار
بعث بها شربا ضامرات ترامى لها بها الوحد بين القفار
على ثقة من بلوغ النجاح ولم تضرب التيه ضرب القمار
فما عاصم للعدى مهمه ولا مانع ثبح من بحار

فقل للاحايش هذا الصباح ذما للظلام بد بالنها
 فقد نزلتهم جنود الاله وسل على بفيهم ذو الفقار
 وقد وود النيل سانسى المزاج محيلا بماء الدماء الجوار
 فكم عارض صب وبلى الحتوف وللتقع ليل احم الاثار
 اذا ما تسامى سماء القتام فكوكبه كل ماضى القرار
 وان مارد رام منه استمراقا يبادره منه رجم بنار
 فن وردوا الحرب ورد اختيار فقد وردوا الحتف ورد اضطرار
 واضحوا سكارى بكأس الحتوف وليسوا سكارى بكأس العقار
 وراموا الفرار وانى السجاة من قدر معجز للفرار
 فدان الجنوب وهذا الشمال ستنظمه بعد فى قطار
 وقد كنت اعثرت جد الصليب ستعثره ضعف ذاك العثار
 وهادى الشئام وهادى العراق ستسمى لكم وهى دار القرار
 فما مانع منك بعد الديار ولا عاصم منك شحط المزار
 فانت حميد القديم الكريم حميد الحديث حميد النجار *
 ومن رام كيدك فهو الغوى خلايا ما فيه طوع اغترار
 فقد ان للحق ان يستبين ويخلص بدر الهلى من سوار
 وينجز وعد النبى الكريم فذا العصر زند لهذا السوار
 قدم ولك المجد فى الاوج باد وفى فلك العز سامى المدار

ذكر استدعاء محمود باشى (1) وادالة العساكر الاولى بالآخرى وثقيف البلاد
 بأهل الشوكة من عرب المعقل وجشم وقبائل المصامدة

لما خمدت ذبالة ال سكيه واستحصدت شوكتهم وجذعت السيوف العلوية
 المنصورية انف كل جبار عنيد وداست عرائين الخوارج المارقين وجالت العساكر خلال
 الاقطار السودانية وانبئت راياتها فى افاقها الشاسعة والدانية وسارت تطوى ممالكها
 بسيف التدويخ والتمهيد ارضا ارضا وغورا ونجدا وسهلا وحزنا حتى استوعبت التمهيد
 واقتضت الطريد وامنت الشريد ونامت تحت جناح العدل القريب والبعيد واقتضت
 الخراج وانتظمت ممالك السودان فى سلك الطاعة ما بين البحر المحيط من اقصى
 المغرب الى بلاد اكنو المتاخمة لمملكة برنوا فتفادى صاحبها من بوادرها وتدقق كتابها

(1) سبقت الاشارة الى أن محمود باشا قد دبرن له المقاومة السودانية كميناً وقتلته كما أكد ذلك المؤرخ السعيدى .

على ارضه انفاذ ارساله الى سدة مولانا الامام المنصور بالله امير المؤمنين ايده الله تعالى بالخضوع وتقرير الطاعة والقاء اليد واقتضاء اوامره العلية الشريفة الى العساكر له ولقومه بانحسار تيارها عنهم وكبح غنائهم عن وطء ارضه بسنابكهم فصارت مملكته بذلك في عداد الممالك التي تناولها الفتح وانتظمت في سلك الانقياد

ان خير الفتوح ما جاء عفوا مثل ما يخطب الخطيب ارتجالا وتنتهي مملكة برنوا هذه المنتظمة بما قبلها من الممالك الى بلاد النوبة المتاخمة لصعيد مصر فطينة مولانا الامام المنصور بالله امير المؤمنين ايده الله نافذة بحول الله وطوله فيما بين بلاد النوبة والبحر المحيط من قاصية المغرب وكان بالرايات العلوية بحول الله قد انتظمت اول الارض بشاخرها وتخطت السودان الى السد بعز الله تعالى وقدرته وكتب الى مولانا امير المؤمنين ايده الله مولاة قائد العساكر محمود باشى بما فتح الله لاميير المؤمنين ايده الله من هذه الفتوح العظيمة بسعده الذى لا يطاول وقدرة الله التى لا تغالب فرجع اليه حيثئذ الجواب الكريم ايده الله يأذن له فى النهوض والقول الى ابوابه العلية ويأمره باحتمال * خراج البلاد وعقد على الممالك السودانية لمولاه الشهم الفصنفر الفتى البطل جوذر باشى صاحب الفتح الاول ثم نظر ايده الله فى تثقيف احوال البلد وضبط اطرافها وجهاتها برجاله والجثوم على انف اهلها بنقل قبائل المغرب اليها وانزالهم عليها وادالة العساكر الاولى بالآخرى لاراحتها من طول المفيب ومعانات الحروب ومواصلة التدويخ والتمهيد لمدة ثلاثة اعوام (1) واستجمام قواها لئلتها من الفتوح وملاك البلاد الشاسعة والقلب على الاقطار البعيدة بعز الله تعالى وتأنيده فجلس ايده الله لتجهيز العساكر التى اوجف بها خيلا ورجلا على تلك البلاد وامداد القبائل التى نقل اليها وجتم بسكنائها على انف اهلها فاعقام لذلك من انتقاء من اهل السوس وبلاد حاحة اهل الشوكة والنجدة من قبائل المصامدة وعرب المعقل وقبائل جشم انصار مولانا الامام المنصور بالله امير المؤمنين ايده الله وعصائب الدولة الدين توكلات عند نهوضها على منساتهم واستحصص الدول والاقبال بشوكتهم وابتزت تيجان الملوك بسيوفهم الطوال والسنتهم من كل مسعر الحروب وخائض غمراتها ممن اجتاب دلاص الجلد مفاضه وتدرع سابغ الشهامة لامة اسد تحملها من الخيل العرب عقبان قد افرغوا على اعطافهم من كل زغف اللام سلخ حية يتنفضض فى اكفهم من كل لهلم ثعبان فداراش جناحهم وشد عضدهم بعساكر جرارة من جيوش النار الرمات الحمت اكفاء الاسود الخوادر ثباتا واشباه النمر جرارة تحمل صواعق قاذفة بالسسن

(1) اى ان القائد محمود باشا قد استمر بالسودان بين 999 - 1002 هـ .

من النار متلمظة ما تذر من شيء انت عليه الا جعلته كالريم فافاض عطاه فيهم وازاح
 عنهم وفرق عليهم العدد والسلاح المستكثر منه بخزائنه وامدهم بأسراب من خيل المقرب
 استاقوها مجنوبة تلوك الالج بروجها عتادا يرجعون اليه لقلة الخيل واعوازاها في
 البلاد وجزى في الاهبة والاحتفال بالظهور وانواع الاستعداد الى أبعد شأ فجهز هذه
 العساكر والامداد متتالية يقفوا بعضها بعضا وسرح امامهم للكتابة منتهى العمران من
 بلاد درعة لمولاه وكبير الممالك ببابه الصدر الكبير الشهير الجزم والاعتزام والنجدة
 النافذة السهام القائد ابي على منصور بن عبد الرحمن بيلار باى صاحب جيش
 الاصباحية وعساكر النار تشييعا لهم واخذوا بسنة الجزم في تثقيف احوالهم وشد اواخي
 اعتزامهم وتنبيه همهم كلما شيع محلة واقجمها في الصحراء تلقى اخرى فاردفها
 بالاولى وتسايلت لهذا العهد كتابها على هذا النمط متتالية ونصر الله يقدمها والتأييد
 يصحبها وعناية الله تحف بها من عن يمينها وشمالها واوعز مولانا الامام المنصور بالله
 امير المؤمنين ايده الله الى مولاه وعامله على البلاد جودر باشى بملك امر * معادن الذهب
 الثلاثة التي اكتنفتها هذه الممالك وأمره بالبناء عليها واختطاط الحصون الجائمة عليها
 وترتيب الجيش فيها لحياطتها وانتهت الاحوال اليوم الى هذه المراقى السامية من
 فخامة الدولة وجلال السلطان واتساع نطاق الملك بالاستيلاء على القاصى من الممالك
 والدان ولله العظمة والشان والانفراد بالحوال والطول

ص 129

ذكر ما اشتملت عليه هذه الممالك المنتظمة فى سلك الايالة العلوية المنصورية
 من الخصائص والمزايا والمفاخر التى لا توازى

أقول والله ولى التوفيق ان لهذه الممالك من جلاله القدر واصالة الذكر واتساع
 خطة القدر والاستثمار بمعادن التبر واصناف الرقيق المنيف على الدر والاشتمال على مرافق
 البر والبحر ما تقصر الاقاليم فيه عن فترها ويتضائل المشارق والمغارب بسببه لعظم
 قدرها حتى لو شاءت تشدت وانشدت :

فدع كل صوت بعد صوتى فانى انا الطائر المحكى والآخر الصدى

فهي الكريمة التى تعيشوا البلاد الى نارها وتستعبد الاحرار بدينارها والعقيلة التى
 تائف لصلفها ان تنقاد والخريفة التى لم يخلق مثلها فى البلاد طالما خطبت الكفء
 الكريم وخبطت سمراء الدهر ليحيى أملها الرميم ويذيل لها سعد الجد المنتج اختيال
 الروضة الغناء تحت رداء العشى الى أن تقبل الله دعاءها واجاب نداءها فاضحت مشرق
 انوار وروضة ازهار وتنقلت من اطوار الى أطوار واقتضت دينها المطول فى سالف
 الاعصار فتقلدت سمطى هذه الدعوة النبوية الساطعة الانوار وتشربت بالكفء الكريم
 العالى النجار والملك العزيز الذى دانت لنولتهم القاهرة امهات الامصار والامام الذى

تأتم الهدات به كأنه علم فى رأسه نثار فاستبدلت ثياب اليل بشباب النهار وتعدت خطايا الدهر بالاعتقار وزادت بما تجدد لها من العز والجلالة فخارا على فخار وها هى فى دعوى هذه المزايا لابسة ثوبى زور ولا مدليه بحج جيها على المفلة مزور اما انفساح الرقة وطيب البقة فهى معظم العالم ومدرج الدر من بنى آدم لم ينظم قط وخدوارقال بين طرفيها ولا استنفلت الخطى مسح اديها بين حادث الاعصار وقديمها تكل عن طى بردتها الشعرى العبور وتلقى الشهب السيارة فى عرض الافلاك دون غايتها عصى التسيار * وقد ساجل عليها انواء القيوم يسبح الليل المنساب وفى وهادها وحزونها انسباب الايم مخترقا بسائطها البعيدة منسكب الاتى غامر التيار فنقع صداها وشفى امحالها وعم بالخيرات أرضها وجبالها واذا استطردها الى ذكر النيل فلنلم ببعض ما قيل فى مبداء ومنتهاه ونشرح خصائص هذا النيل السودانى وفضيلته على نيل مصر فنقول ذكر بعض من تكلم على حدود الاقاليم أن نيل مصر يفرق عن نيل السودان فى الجزء الرابع من الاقليم الاول وذلك بلاد النوبة ونيل مصر يجرى من الجنوب الى الشمال ونيل السودان يجرى من الشرق الى اقصى المغرب وعليه جميع بلاد السودان او اكثرها ومبؤهما معا من جبل القمر الذى فوق خط الاستواء بست عشرة درجة وذلك انه يخرج منه من عشرة عيون فتصب خمسة انهار منها فى بطيحة وتخرج خمسة انهار اخرى فتصب فى بطيحة اخرى وتخرج من البطيحتين ثلاثة انهار فتمر باجمعها الى أن تصب فى بطيحة كبيرة جدا وهى فوق خط الاستواء مماسة له وفى اسفل هذه البطيحة جبل معترض شق اكثرها فيمر الى جهة الشمال مغربا فيخرج منه ذراع من النيل فيمر فى جهة المغرب وهو نيل السودان ويخرج من فتق الجبل الشرقى ذراع اخر يشق بلاد النوبة وبلاد مصر وهو نيلها فقد تبين لك أن امتداد جرية نيل السودان وسيحه فى اختراق الارض أطول مدى من نيل مصر فى البحر الرومى من الاسكندرية ودمياط ومسقط نيل السودان فى البحر المحيط فى اقصى المغرب وبون بعيد بين هاتين المسافتين فنيل السودان على هذا التقدير اوفى عمراننا وأكثر اما اذ مسافته بحسب امتداده لمنتهاه ثم خاصيته منيفة شف بها على نيل مصر وخام عن مداه ان الز فى مضمار مفاخرته وتميز بها دونه تمييز المجلى السابق على سكين الحلبة وهو انه يمكن اقتطاع الخلجان والانهار المغلقة المشعبة المدانب والجداول واعلى البسائط مناسبة الاراقم خلال الاباطح والوهاد التى تقل ضروب المزارع وتنظم عليها الجداول الغلب من البساتين ومفروش الشجر والثمار والادواح الاشبه ملتفة الاغصان والرياض المفوفة الخمائيل الموشحة البرود بضروب الزهر الغض والرياحين الانيقة التى يمكن اتصالها فراسخ وبردا فتعفى على واسطة الاقاليم زكاء نبت وكرم تربة وجموم اقوات

وحبوب وفواكه جنية قطوفها دانية واذا انتهت راية الخصب وغزر الحب والاب الى
 نيل مصر الذى هو بين مد وزجر فما بالك بهذا النيل السودانى الذى ساواه فى هذه
 الخصبة وأناف عليه برتبة شماء ومنصب شامخ وذلك أن نيل مصر ليس الانتفاع
 بسيحه الا أوان مده فاذا أخذ فى الانحطاط وغاص اتيه الفائض تلا ما نصب عنه
 بالازدراع والفلج واما أوان جزره وغور مياهه فى الشتاء * فصل البرد مما يليه
 فالانتفاع به متعذر فلا يسمح بتماد نزر الا بعلاج من نصب الدواليب على شطئه ينوأ
 بها المضطلع من الجوامس الايده يرمقون العيش فى ذلك على برض ويحصلون على
 علاه بعد عرق الجبين فتبين ان شطر الغل والانتفاع ناضب المعين مكدر الشرب بهذا
 العلاج الذى هو قرين النصب لزيه الجهد بخلاف نيل السودان فان مملوك مولانا الامام
 أيده الله محمود باشى أخذ فى انشاء نهر اجتلبه من غمره واقتطفه من تياره ويمكن
 ذلك من غير ما موضع منه وعن قريب ان شاء الله تعود تلك الامصار تزهوا على جلق
 وشط الفرات ويطير صيتها فى الخصب فتمير القاصى والدانى من أقاليم السودان
 ببركة مولانا الامام المنصور بالله أمير المؤمنين أيده الله وسعادة الاسلام بإيالاته
 الميمونة النقية واما جلالة القدر واصالة الذكر وفخامة الملك فأوضح برهان على ذلك ان
 السلطان أبا الحسن عظيم ملوك بنى عبد الحق من بنى مرين ويعسوب دولتهم وبيت
 قصيدتهم أوان استفحال دولته وشموخ انف سلطانه غاية ما سمت اليه همته مخاطبة ملك
 مللى من بلاد السودان ومهاداته واتحافه وجعله فى ذلك اسوة الملوك الاعظم الثلاثة
 لعهد الذين هاداهم وتاحفهم وأوفد ارساله عليهم وهم الناصر الملك محمد بن قلاون
 سلطان مصر والشام والطاغية ملك قشتالة ومنسا سليمان بن منسا موسى مالى من بلاد
 السودان هذه فجهز اليه ارساله وأسنى هديته اليه قال ابن خلدون فانتخب طرقا
 من متاع المغرب وما عونه من ذخيرة داره وأسناها وعكن رجالا من دولته كان فيهم
 كاتب الديوان أبو طالب بن محمد بن ابى مدين ومولاه عنبر الخصى وأوعز الى أعراب
 الفلات من المعقل بالمسير معهم ذاهبين وجاءين قشمر لذلك على بن غانم أمير أولاد
 جار الله من المعقل وصحبهم فى طريقهم امتثالا لأمر السلطان وتوغل ذلك الركاب فى
 القفر الى بلد مالى بعد الجهد وطول المشقة على ما به مرحلة فى القفر من ثغور ممالكه
 القبلية وليت شعري اذا استغرب الارسال والاتحاف وتجشم هذا القفر الطويل المديد
 بالهدية فكيف بالعساكر الجرارة واقتحام البلاد وافتتاحها بالسيف عنوة واقتضاض
 علرتها بالرماح السمهرية والصفاح الشرقية على بعد هذه المشقة التى لاتتجاوزها الشهب
 الا بعلية عاطل ولاكن الهمم الامامية الاحمدية المنصورية لاغرو ان ابتدعت فى المفاخر هذه
 البدائع وفرعت هذه الهضاب الشم :

ص 131

فلا كتب إلا المشرفية عندها ولا رسل إلا الخميس العرمم

ص 132

وهذا معيار ما بين الدول السالفة في المغرب ودولة مولانا الامام المنصور بالله *
أمير المؤمنين أيده الله وبهذه النسبة تفاوتت هممها اذ تنتهى اليها ارسال ملوك بنى مرين
واعتدوها منقبة ومفخرة ونزلوا أنفسهم لمنزلة الاكفاء لملوك السودان وأهلا للاتحاف
بهديايم ثم ما راجعهم ملوك مالى بالمكافأة عن هديتهم الا فى دولة أبى سالم بعد
انقراض أجيال من عهد أبى الحسن قال ابن خلدون وكان يوم وفادتهم يوما مشهودا جلس
لهم السلطان ببرج الذهب مجلى العرض ونودى فى الناس بالبروز الى الصحراء
فبرزوا ينسلون من كل حلب حتى غص بهم الفضاء وركب بعضهم بعضا فى الازدحام على
الزرافة اذ كان وفد السودان استصحبوها اعجابا بخلقها وأنشد الشعراء فى غرض
المدح والتهنئة ووصف الحال انتهى قلت فيما بعد ما بين المملوح على هدية ملك من
ملوك السودان وبين المملوح على استيلاق الملك كله هدية اليه بسيفه فان مملكة مالى
هذا لهذا العهد بعض من ممالك مولانا الامام المنصور بالله أمير المؤمنين أيده الله التى
تناولها هذا الفتح العظيم وجزء من تلك الاقاليم المنتظمة فى سلك ايالاته العلية والامم
التي دانت لعولته القاهرة على رغبة أو رهبة فما من تلك الامم اليوم سودانية أو مصرية
أو وبرية الا من ألقى يد استسلام ودان لطاعة مولانا الامام المنصور بالله أمير المؤمنين أيده
الله فهى اليوم مكلوة بعين حياطته نائمة تحت جناح عدله وخفارة سيفه معتجزة
فضفاض الالمية الوافية بحول الله من الحوادث الطارفة مثمولة بكنف العناية
الكفيلة بالسعادة الدنيوية والاخرية وهى على ذلك لهذا العهد الكريم وما يتلوها ان
شاء الله كعطف الفاء من الفتوح أوسع نطاق وأسلس انتظاما واتساقا لينجز الله وعده
الكريم بفضلته فهو الذى بيده تصاريف الاقدار وزمام اليل والنهار واما ما لها من
الخصوصية بمعدن الذهب الابريز وحد النضار الذى فغرت اليه أقطار الارض أفواها
واستماحت نوالها استماحة المقتدر المعسر ورمتها جلائل الامصار بافلاد اكبادها من غير
مزاحمة قطر من أقطار الارض لها فى ذلك بمنكب ولا مساجلة لها فى ذلك المضمار بلن
فبحسبك ما قاله ابن خلدون فى كتاب العبر له لما ذكر أن مجلبة المال ومشرات الامم انما
سببه عراقه الحضارة وامتداد ظل الدول الاماد البعيدة قال واعتبر ذلك بأهل الهند
والصين وسواهم حتى ان كثيرا من الناس توهموا أن ذلك لان عندهم معادن الذهب
والفضة وليس الامر كذلك لان معدن الذهب الذى نعرفه فى هذه الاقطار انما هو ببلاد
السودان وهى الى المغرب أقرب قلت ولاكلاء لبلاد استولت على مادة عمارة العالم وقوامهم
وفناط معاشهم التى تهوى اليه افئدتهم * من زوايا المعمور على شحط الزار وبعد
الدار ويركبون اليه اكوار الاخطار ويمتاحون أوशल البوس حتى يخلصوا اليه بعد جهد

ص 133

جهيد ورمق في الحياة زهيد فهم الدهر منقطعون من كل أوب وصوب .

ذكر ثورة الناصر بن الغالب بالله ومقتله

كان الغالب بالله عند انقسام الاعمال بين بنيه عقد لولى عهده على فاس وعقد لابی النصر رديفه على مكناسه ثم أسهم الى الناصر هذا بولاية تادلا فأدال له أبو النصر بمكناسه وان كانت تادلا أقل عملا وأصغر ولاية تفاديا من جوار ولى العهد لاستحكام النفرة بينهما ثم ضرب الدهر ضرباته وأسرح الفلك دوراته فهلك الغالب وطيّر بخبره الى المتوكل ولى العهد أولياؤه من مراکش من قبل فشوه واذاخته حسبما قدمنا فى محله فوافق حضور الناصر هذا لديه بفاس غب عيد الفطر لما جرت به السنة الى اليوم بين أبناء الخلفاء رضوان الله عليهم من حضور صاحب مكناسه لمواسم الاعياد مع ولى العهد بفاس تأدبا فاضطرب رأى المتوكل فى شأن الناصر وقد طوى عنه الخبر وزين له بعض أهل بساطه القبض عليه فأذهله الجزع فسرحه لاعماله ثم بدى له فى أمره فسرح اليه الملا من العلماء أرباب الفتيا والقضاء من بعد أن اقتضى لهم اليمين من نفسه بالوفاء له فتلقاهم الخبر على ظهر الزاوية بفرار الناصر الى جهة طنجة من ثغور العدو فاعترضته خيل صاحب القصر فقبضوا عليه واستاقوه لآخيه المتوكل فامتحنه بالاعتقال بذرعه ثم بتدلا ثانيا وقطع عمر دولة أخيه فى الثفاف الى أن أتى الله بالتى هى احسن من استيلاء مولانا الامام المنصور بالله أمير المؤمنين أيده الله وأخيه المعتصم على المغرب واستويا على كرسى ملكهم وحرزوا تراث مولانا الامام رضى الله عنه والدم فاقطعوه جانبا من العيش أخضر وخلص من عض الثفاف طول أيامهم فلم يسوموه خطة خسف ولا هوان ولا حمله على الادهم الذى حمله عليه ابن أبيه ولا التوى على مناقبه منه ثعبان أسود ولا لسعته منه أفعوان لا تنجى فى سمه الزعاف ترياق فمضى يغلوا ويروح فى ظل العافية ويختال فى أثواب الهناء ويسرح فى رياض النعمة والهنئة والخليفةان رضى الله عنهما يزدردعان صنعهما الجميل منه فى أرض سبخاء لاتنبث ولا تثمر الى أن أتاح الله الغزوة التى طنت حصاتها ما بين نقطتى الشروق والغروب وجلا عروس فتحها على صفحات صفاح مولانا الامام * المنصور بالله أمير المؤمنين أيده الله فى يوم مشهود ملائكة الرحمن شهود فكان الناصر هو آخر من شقى بالفرار من معسكر المسلمين ليلة بيات الملتين على المصاف فاعترضته البربر من الهبط فلم ينج لبلد أصيله وكانت ساعتئذ باقية على كلمة الكفر الا من بعد عصب الريق وهلاك بعض أصحابه فطلع على المشركين صبيحة يوم الفتح بطلائع النحوس وانطلق اليهم مع البوس يستبقان كفرسى وهان فوافى مع خبر الاستيلاء على سواد المشركين واطباق تيار الهلكة والاسر على جميعهم على قدر وكانها اجتمعا على وعد فكان ذلك أول طليعة فلت عزمهم وجبت

ص 134

سنامهم من طلائع شؤمه ولما ملك مولانا الامام أمير المؤمنين أيده الله قياد أهل مملكة برتقال لاستيلائه على أكابر دولتهم واقتاتهم وبطارقتهم وقمامستهم وأساقفتهم فبغوا له بذلك واستكانوا كان أول ما أشرط عليهم تغريب الناصر الى بلادهم واقصاؤه الى أرضهم ليخلوا منه وجه أهل الفساد والانحراف الذين أضمر أمير المؤمنين العزيمة على الفتك بهم من الجيش فأسرعوا الاجابة الى ذلك مهطعين فعبروا به البحر الى الاشبونة دار مملكة برتقال فنزل على طاغيتهم قرديال (1) القائم بتدبير ملكهم من بعد هلاك ابن أخيه بستان قتييل سيوف أمير المؤمنين بوادي المخازن المتقدم فما لبث أن هلك قرديال وثل بموته عرش ملك برتقال وزحف طاغية قشتالة (2) بعساكره الى الاشبونة فافتتحها عليهم عنوة وخلص اليه ملك برتقال فانقرضت دولتهم عند قران السوء الحاصل بمقدم الناصر عليهم فاعتدوا عليه هذه ثانية الاولى فتحاموه تحامى الحرباء ثم انتقل الى أرض قشتالة (3) فطلع عليهم بطلائع الخسف والتدبير ونزل عليهم بعهود التمس وسوء الادبار

رجع التاريخ ولما سيم الطاغية من مكان الناصر من بلاده وتبرم من مقامه في أرضه وطول مكثه وتطيره من طلعه على آفقه وءانس أيضا مع ذلك نار العزم تلتهب من جانب العناية الامامية المولوية المنصورية التهابا وبحر الاحتفال تضطرب أمواجه الزاخرة بكل عدد وعدد اضطرابا والهمم الشريفة قد همت بتجديد الاسطول وكلفت بالاستكثار من المراكب الجهادية والالات الحربية بما كان مولانا أمير المؤمنين أيده الله يومل من فتح جزيرة الاندلس وعبور البحر اليها بجنود الله وعساكر الاسلام لتجديد رسوم الايمان بها وافتكاكها من يد الكفر المتغلب عليها في أيام المستضعفين من دول الاسلام بالمغرب وحذر الطاغية مغبة ذلك وعلم انه اليه يساق الحديث والى أرضه بالخسف والتدمير تهفو الالوية وتخفق الرايات فاعتمل مكافاة مولانا أمير المؤمنين أيده الله على ما ءانس من تلقائه من الاسداء والالحام والاسراج والالجام بما أمل أن يفت به في عضد الدين ويسعى به في تفريق كلمة الاسلام فأمل الناصر لذلك ورمى به الى وراء البحر فكان من خروجه * بمليلة (4) ما نذكر

ص 138

(1) يعني الكاردينال هنري (1578 - 1580)

(2) يقصد ملك اسبانيا فيليب الثاني (1555 - 1598)

(3) بعد تولية المنصور اتجا الى البرتغال أميران سعديان هما الناصر بن الغالب والشيخ بن المتوكل ، وعندما أخذ المنصور يظهر التعاون مع الانجليز ضد الاسبان وأوى في مراکش الأمير البرتغالي دون كريستوف بن دون انطونيو المطالب بالعرش البرتغالي قام ملك اسبانيا فيليب الثاني بنقل الأميرين السعديين من تشبونة الى قرمونة Carmona بالقرب من اشبيلية في شهر ماي 1589 وأخذ يلوح للمنصور بإمكانية مساعدتهما للثورة ضده وقد ألقم الملك الاسباني على ذلك فيما بعد .

(4) الانتقال الى صفحة 137 - كانت مليلة إحدى قواعد الاحتلال الاسباني بشمال المغرب وذلك منذ عام 1497 م .

ذكر خروج الناصر بمليلة وإيقاع المولى الأمير أبى عبد الله محمد الشيخ به
وبجموعه على البغلة

لما عظم على الطاغية شأن ما أسفه من اسداء أمير المؤمنين والحامه وشحد عزائمهم
الماضية على ما يؤمل من نكايته وتدمير أرضه وأقلقه ذلك وحذر مغبته شمر للاعتمال فى
المكايد التى هى جنده الاقوى وحصنه الذى يلوذ به عند الشدائد فأملى الناصر لتفريق
الكلمة وتحريك حوار الفتنة به ليثنى بذلك عزم مولانا أمير المؤمنين ويشغله عن شأنه
ويكافيه على ما يعتمد فيه من نكايته فرمى به الى مليلة من سواحل العدو فنزل بها
لثلاث بقين من شعبان عام ثلاثة وألف (1) وجاد بالخروج الى تلك الجهة ليخرج بها
عن سميت الممالك الشريفة وعن حدود الايالة الكريمة حدادا من المباغثة والمعالجة بالعساكر
وليصل يده بالعرب الاجلاف اهل ذلك الوطن المستخطين الدول فى الحديث والقديم بالسعى
فى الفساد والخفوف الى القيام مع أول ناعق ينطق بالفتنة من الثوار وليجد وليجة
الى المروق من هنالك لجهة الشرق ان بدى له من أمره ما يكره فانصل به للحين أولاد
شعيب أهل وطن مليلة ثم لحق به سائر الاحلاف فالتفوا به وأعلنوا بدعوته وخرجوا
به الى احيائهم فصرخ الشيطان به فى اذان غوغاء تلك الناحية من أهل الجبال المصاغبة
لها فطاروا اليه من كل اوب وصوب وتسايلوا نحوه من كل فج عميق ومكان سحيق وساهق
منيف فالتف به منهم جموع لاتحصى وشمر ولى العهد صاحب فاس المولى الأمير أبو عبد
الله محمد الشيخ المأمون بالله ابن أمير المؤمنين أيدهم الله الى قطع دابره فبادر أولا
بتسريح ابراهيم ولد القائد كنيرس أحد قواد عساكر النار فى جيش من الرماة زيادة
على الحصنة المرتبة بها من قبل حدادا من مفاجأة الناصر لها على حين غفلة ثم سرح
على الاثر القائد أبا عبد الله محمد بن ابراهيم بن بجة فى عساكر من الخيل والنار وخزائن
الرصاص والبارود والكراع الحامل للزرع والطعام وقدمه أيده الله امامه الى جهة تازى
ريثما يزحف هو بجميع عساكره على اثرهم ويتخطى الى العدو وجموعه وكان الناصر
ينحرف الى التعلق بجبل مدغرة وغيائة ليتعلق بلروته ويجاجى بأهله الى الالتفاف
عليه ولما أحس به القائد أبو عبد الله بن بجة قد ثقلت خطومه بكثرة ما حمل من الخزائن
والطعام بادر بتسريح جملة من تلك الخزائن والطعام مع عبد الله اعراض فى جيش من
النار رجلا وخيلا ليمدوا بها من بتازى من العساكر فاعترضهم الناصر على فج
الفرس * فتغاذلت منهم فئة ومالت اليه ورجعت أخرى لابن بجة بخزائنها وظهرهم

ص 139

(1) أبحر الناصر من مالقا يوم 7 ماي 1595 ومعه قوات جرارة معظمها من المورييسكوس ونزل بمليلة يوم
الثلاثاء 27 شعبان 1003 الموافق ليوم 9 ماي 1595 وأعلن منها الثورة ضد عمه المنصور

الناصر الى تازى فى جموعه من العرب وسائر الحشود وجيش النار النازع اليه فنازلها يخادع حاميتها وألقوا باليد فدخلها وأقام بها يومين أساء فيهما الإحدوثه بما تحدث الناس به الى اليوم بمصادرة أهلها وامتحانهم على امال ومطالبتهم بالمكس على سنة النصارى معجبا بسيرتهم مقتفيا اثرهم حتى كان يقول لهم ان النصارى يفرمون حتى على البيض على سبيل الاحتجاج عليهم فيما يصادرهم عليه ويمتحن عليه يهودهم ومسلميهم وخلد لنفسه فى تلك البرهة القليلة من سوء السيرة شنائع جللته العار واكسبته المقت عند الناس وتعرفوا منه عنوان أمره ولما دخل تازى وتسامع به المغتر بأباطيله الواهية الباء من قبائلها واخماسها وأهل جبالها وأوباش عامة تلك الجهات وغوغائها تسائلوا اليه ينسلون من كل حذب فتكاثرت جموعه وحشوده والتفت عليه منهم عالم من العرب والبربر يخص به الفضاء ويكثر الرمل والحصى واجتمعت اليه من عساكر النازعين عن أعراص بالخزائن والاقوات والنازلين عن حكمه على تازى جيوش وافرة فلاح له من ذلك بارق خلب اكذبه امنيته فقوض عن تازى وتخطاها الى أمام فنهض اليه المولى الامير أبو عبد الله محمد الشيخ ولى العهد أيده الله من فاس نهوض أمثاله من الملوك العظام أولى الحزم والنجدة فى أحكام التعبئة واستكمال الاهبة ومضاء العزيمة وصمم نحوه فى العساكر والاجناد تصميم الليث العادى وقد جر اليه الانفاط القاذفة بصوت النار وسار على التعبئة يطوى اليه المراحل تلقاء فالتقى الجمعان على عقبة من سفح جبل مدغرة وقد اتخذ الناصر موئلا يستند اليه فدارت رحى الحرب بين الفريقين ثم صدقهم المولى أبو عبد الله محمد الشيخ أيده الله القتال فاندفع للهجوم بنفسه على العدو لفرط شجاعته واقدامه وعظيم ثباته وصبره وجميل بلائه وحسن غنائه فى ذلك اليوم هجوم الاسد على الرئال فتماسك المحدثون بركابه من الموالى بعنانه ولم يسلموه تم أهم بالترجل عن فرسه مرارا لو أسلموه ليزحف على قدمه مع الرجل من الرماة الموالين لوجه القتال لالتقائه بنفسه فى منتظم أمواجهم ومضطرم نيرانهم وقعقة رعودهم ووقوفه بارزا عن موكب الخيل فى قلب مصافهم المتراصف فبعث بذلك حفاظ عساكره وأجناده فتهالكوا فى الموت عليه وشددوا على العدو وألحوا عليه بشواظ النار وارسال صواعق الانفاط فأحرقوهم بسعيرها وتدافعت الكتائب وعظم زلزال الحرب وخرق بابها الكاشر ودلف الموت الاحمر وخان الصبر الاشقياء المارقين فأنكشف الناصر وذوبانه وولى على أعقابته * مدبرا وقد أصابته رصاصة اسفل الركبة فحطمت منها ساقه وأدركته المشية فاحتمله العرب فى الهودج وطأروا به مضجورين مع سيران الفلات مدعورين مما شاهدوا من ضنك المقام لايلوى أحد على أحد وتفرق الحشود اياذى سبا واستلجم السيف كثيرا منهم ومن العصابة

النازعة للعدو ومن الرماح وانكفا المولى الامير أبو عبد الله محمد الشيخ أيده الله بنصره لا كفه له واقبال لا يعدل به وطير بخبر الفتح والظهور على عدوه لمولانا أمير المؤمنين أيدهم الله والده وقد كان برز في العساكر والاجناد من مراکش لأول ما طرق الخبر باجلاّب الناصر على تازي وعزم على الزحف بنفسه أيده الله بعساكر مراکش للمغرب فبرز بروزا فخما أوائل شوال عام ثلاثة (1) وزجرت له يوم خروجه على عادة الشعراء الفال الحسن بأبيات شد عن حفظي بعضها وهي

مقابل أمر الله لاشك مغلوب	وباغى استلاب ما تملكتم مسلوب
ومن تنوه بالحرب من أجل بفيه	فعنك بأجناد المقادير محروب
فلا تكثر بما يلم فقد طوى	لك الله في المكروه ما هو محبوب
عدوك كان البحر يلقاك دونه	قاملا كي تغتاله وهو محبوب
تبرم من ذل الصليب كان به	يرى وهو فوق الجذع في الجومصوب
تجرع من أيدي التوائب صابها	فان رام تصعيدا أتى وهو تصويب
يرى لك فضلا في اراحة نفسه	ففي الموت للمحروم سهل وترحيب

فكانت أصدق قال لموافقة الحال كما سندكر بعد وتلوم مولانا أمير المؤمنين أيده الله بعسكره من باب أغصات أياما ريثما استكمل العساكر أهبة السفر فارتحل لنهر تانسيفت ولقية البشير من قبل النزول بخبر هزيمة العدو وظهور مولانا محمد الشيخ ولده أيدهم الله عليه (2) ثم ترادفت البشائر بكتب ولي العهد بوصف الحال على السنة الحاضرين من أجناده للقتال فعظم الفرح والسرور وتمت البشرية وتضاعف السرور لمولانا أمير المؤمنين بما تواتر عن ولده أيدهم الله من حسن البلاء ومصابرة الحرب وجهيل الغناء ورسوخ القدم في مستنقع الموت وكمال المعرفة بالحروب وردا وصادرا والاضطلاع بدفاع الاعداء وحمد الله على صدق النظر والاجابة في اختياره لولاية عهد الاسلام واعتيامه لكفالة الامة من بعده واقام أيده الله على نهر تانسيفت من بعد ورود البشرية ريثما فرق اغلات والعساكر على الجهات للانتقام ممن بدى منه عيب في السبل وخاض في فساد من الرعايا والقبائل * مدة الالتفات للعدو ثم انكفا للحضرة مسرورا 141 ص

دار بن مشعل وقد أوهنته رجله المنكسرة من الرصاصة فاقام هنالك يتجرع الامها

(1) أوائل شوال 1003 يوافق الأسبوع الثاني من يونيو 1595 .

(2) جرت المعركة التي انهزم فيها الناصر يوم الخميس 26 قعدة 1003 الموافق 2 غشت 1595 كما جاء ذلك في الرسالة التي وجهها المنصور الى قواده بالسودان .

وأوصابها الى أن كان من الايقاع به ثانيا على فاس وقطع دابره ما نذكر ان شاء الله

ذكر ايقاع المولى الامير أبى عبد الله محمد الشيخ بالناصر على فاس ثم القبض عليه وقطع دابره

كان ما قدمنا من ايقاع المولى الامير أبى عبد الله محمد الشيخ ولى العهد أيده الله بالناصر على عقبه فباله واجفال العرب به الى مأمته من دار بن مشعل من جبل بنى يزناسن من ايلة الترك معتصما بها أجمع السلطان مولانا أمير المؤمنين أمره أيده الله على النهوض بنفسه بالعساكر والاجناد من مراکش الى المغرب وعلى الإقامة بفاس وتجهيز العساكر منها مع ولى عهده أيدهم الله الى اقتحام جبل بنى يزناسن على الناصر غير مكتوث باولى الايلة عاملا على الاجلاب عليهم وعليه ان راموا النصر له والوقوف للدفاع دونه (1) فصمم عزائمه الماضية على ذلك واحتفل له احتفالا عظيما وأخبر ولى عهده أيدهم الله بما بنى عليه عزمه فأهاج حفاظه الهاشمية واستنكف من نهوض أمير المؤمنين بنفسه ولج فى الايلة له والمنع مما عزم عليه وهون عليه أمر الناصر ومن لاذ به وتكفل له باقتحامه وقطع دابره ودابر كل من يقف دونه ونهض لانتصاره من الاتراك الذين ءاوى لايالتهم وانه كافى فى ذلك ومفن فيه وحتى عن الامداد له بشىء من اجناد مراکش وجيوشها لاستغنائهم بعساكر فاس وجنوده بها وبالف فى ملاطفة مولانا أمير المؤمنين أيدهم الله وجعل يقتل فى النورة والغارب حتى كسر من سورة انبعائه فسكن وهدأ وأسعفه الى ما أراد فانبعث ولى العهد أيدهم الله للوفاء بما شرط وشمر لذلك تشمير أولى الحزم فاضطرب معسكره على فاس فجلس للعطاء وبذل الاموال فى عساكره واجناده وبعث الحاشرين لجيوشه من سائر أعمال العرب التى لنظره وكفالتة فجمع واستكثر واحتفل بما لم يعهد ثم هجم فصل الشتاء فنزل عليه الثلج بمعسكره وكان العام شديد القر بقلب البرد وتوالى ارسال السماء بمدارها فصابر أيده الله تلك المشاق ومطاوله الإقامة على معاناتها بمحلاته لمدة من ثمانية أشهر حتى انصرم فصل الشتاء الذى تتعذر فيه الحركة * من شدة البرد بالغرب فانبعث حينئذ بحر احتفاله وماج وقد أخذت العساكر أهبة الاحتفال والاستعداد وتراكت الخزائن واستوعب الظهر والكرع فقوض أيدهم الله تلقاء العدو فى جيوش ضاق بها وسع اليباب وعظمت النجود والوهاد وطار

ص 142

(1) كان التجاء الناصر الى الجزائر الثمانية اما لتغلب الاسباب عنه او لطلب العون من الاتراك ، وقد كانت وضعية الاتراك فى الجزائر جد مضطربة لاستعداد ثورة القبائل مما اجبر السلطان العثمانى على تولية عدد من الباشوات دون جدوى وهكذا لم يكن فى وسع الاتراك تقديم المساعدة للناصر ضد المنصور وفى الوثائق التاريخية ما يؤكد التقارب الذى ظل الاتراك والسعديون حريصين عليه للظروف الخارجية المشابهة ومعاداة ملك اسبانيا فيليب الثانى الذى كان يساعد الحلف المسمى باوروبا الشرقية ضد الاتراك ويمد بالعون الناصر فى المغرب ضد المنصور

دوى زحفه أيده الله فملا مسامع الخافقين وتزلزل الشرق ومضى على التعبئة حتى تخطى بلاد تازى الى مجمع الطريقين الاخلة على تافراطا ذات اليمين والاخلة على جارت ذات الشمال فرأى أيده الله بمقتضى حزمه واحتياطه انه ان سلك على اليمين لربما يعقب الناصر على جارت الى جهة الريف فيتعلق بجبل غمارة وان سلك على ذات الشمال فربما يخلفه على تافراطا الى جبل مدغرة وغياثة فاحتاط بأن جرد من عساكره محلة وافرة من عساكر الاسل والنار عقد عليها للقائد أبى عبد الله بن بجة وعزز به جماعة من القواد أولى الرأى وتدير الحروب فسلك بها على جارت وارتحل هو أيدهم الله سائر جنوده على تافراطا ذات اليمين ليسد بذلك مسالك النجاة على الناصر وكان أيدهم الله قد نمت الى قبل ذلك بمراسلة بين جيش الشراقة من جيوشه وبين الناصر على سبيل الاستمالة والانحراف فاتهم ذلك واعتقد بعده عن الصديق لما يرى ان القوم ممن ارغد له فى العيش وبسط بالنعمة وأوفى به على مراتب الاصطفاء للخدمة والاعتزاز بعز الرماية تجبى اليهم ثمرات كل شىء فيسبيل عليهم منها سبيل العطاء فيسقيهم علا ونهلا ولا يد عليهم للناصر وسابق خدمة ولا سابق نعمة ولا مجرد معرفة حتى بالعين وما فيهم من حصرهم طرفا من دولتهم فى أيام أخيه وأبيه ومع ذلك فما أضاع الحزم فى أمرهم بل أوسعهم حين نمت الى ذلك عطاء ونشر فيهم نعماء ووطأ لهم أكنافه وأفاض عليهم سجال هباته وطيب نفوسهم من ذلك بما يستميل به العدو الى الصدقة فكيف بمن يمتري اخلاق نعمته لعشرين سنة ثم استوثق منهم بعد ذلك بالإيمان الغليظة عرضوا على المصحف والبخارى بها واحدا فواحدا عرض البيعة فزحف بهم حينئذ أيده الله حتى اذا افتترقت المحتلتان اغتتمها الاشقياء الذين منهم مع ابن بجة فثاروا بقائدهم من مهاليك الامير أبى عبد الله ولى العهد أيدهم الله فقتلوه ثم وثبوا على ابن بجة أيضا فعلته سيوفهم ثم نجاه الله من كيدهم وطار الخبر الى الذين فى محلات ولى العهد منهم فركبوا اليل متسايلين لاختونهم فميز الله الخبيث من الطيب وجعل الاشقياء وجوههم الى الناصر وكانوا زهاء خمسة آلاف كلها من عساكر النار فلما سدى للمولى أبى عبد الله الشيخ أيدهم الله ما كان من غدر الاشقياء وانتزاعهم * للعدو ورأى أن يرجع لفاس حتى يستأنف الاهبة ويعاود النهوض فانقلب بسائر عساكره على هلو وسكون لم يتضعضع له بنكث المارقين جلد ولا طاش له خلد ولا تخرم من جمعه السالم سبد ولا لبد حتى نزل على فاس واضطرب معسكره من ساحتها على كدية (1)

فبث العطاء فى الاجناد ثانيا واذاح عللهم وارهدف للصدمة حدهم وجلس للوثبة على

(1) يوجد فى الاصل بياض

برائته ينتظر مثال العدو وكان الناصر عندما اتصل به جيش المارقين الاشقياء وراءهم عصابة قوية وظن انهم معظم شوكة ولى العهد من عساكر النار فحسبها فرصة آتحت له ومددا سيق اليه ولم يعلم أن الله تعالى خدله بهم فبعثهم اليه حتى يكونوا له قادة الى حتفه وسببا لاستنزائه من معتصمه واستخراجه من جحره بادر النهوض فيهم فأقبل يطوى المراحل لفاس ووجد ولى العهد أيدهم الله فى جنوده له بالمرصاد فحساد الناصر عن جهته فنزل يوم الخميس على وشتانه وارتحل ولى العهد الى مقابلته فنزل على دار الرجاء فكانت يومئذ بين عيون الفريقين مناوشة كان الظهور فيها لعصابة الحق أصحاب ولى العهد ثم أصبح الفريقان يوم الجمعة على هدو وسكون لم تخفق للقتال فيه راية ويوم السبت وهو السابع عشر من يوم غدر الاشقياء كانت المناجزة وكان من مدد الله تعالى فيه لولى العهد أن مولانا الامام أمير المؤمنين أيده الله كان لما بلغه عيث اولاد حسين بجهة أسايس بقطع السبل على الرفاق عند مفيب ولى العهد عن فاس فى نهوضه للعدو بجبل بنى يزناسن جهز أيده الله وصيفه قائد باب قصبتهم السعيدة بمراكش مسعود بن مبارك فى جيش من عساكر النار مع جيش هكسيمة قواد خسان من جيوش الاسل وأوعز اليهم أن يخيموا بجامع الحمام لقطع عادية المفسدين العابثين وحماية الطرق للمارين ثم حدث ما كان من غدر المارقين ورجوع ولى العهد لفاس فوافق وصولهم ساعة رجوعه عن تازى يوم السبت واطلوا عليه برايات النصر والاقبال وحضروا معه القتال فكانوا أعظم عصابة الحق يومئذ بلاء وغناء وصبرا واقداما ونصر الله بهم حزبه ومدد سبحانه بهم ولى العهد من غير قصد عند احوج ما يكون اليهم وكان من وصف القتال انه لما كان يوم السبت اصبح ولى العهد على التعبئة فجند الكتائب ورتبها وخفقت الرايات وتزاحف الفريقان والتقى الجمعان بمنزل حاجب وكان ولى العهد ايدهم عندما شاهد رايات العدو أقبلت وتراعى له حزب الضلال وجموعه شد على فرسه فى راياته المظفرة واجناده المنصورة شرها الى العدو حنقا على عصابة * الغدر الطكتين فانصب عليهم الجنود انصار الحق انسياب الجيال على نعم الوهاد والغيطان وتنافست العساكر فى احراز خصال الصبر والاقدام فتهالكوا فى الشجاعة والهجوم على العدو فاشتبك الاسل والنار بالنار وبرزت الحبال والفداری المخدرات عالية على اساطح فاس تشاهد الحرب وتنظر منافع الموت وكانت مع العدو جموع وافرة مما كتب الله عليه الشقاء غطت النجد والوهد وتراءت على السفح تعجب راياتها عين الشمس لكثرة ما التفت عليه من قبائل اهل النفاق والانحراف لم يتقاعس عنه احد من مشاهير قبائل الخلط واعيان عرب الغرب قاطبة وكانت قبائلهم تتسائل اليه الى ساحة الحرب فتوافى منهم اولاد ييسى وشهدوا معه الحرب كافة وقبائل الحيانة اهل جهة تازى وكانوا من

حربه واولى السبق اليه لاول ظهوره وشهدوا معه الواقعة الى غير هؤلاء من قبائل الشظفة
 وعرب الصحراء مع عصابة الغلز من عساكر النار فلما اشتد زلزال الحرب وتهاكست
 عصابة الحق في الشد على الاعداء هبت من الله ريح النصر لولى العهد فمُنحه الظفر
 ونكص الناصر على عقبه في خيل له قوى وجموعه الادبار مهزوما وترك الاشقياء المارقين
 بين الناب والظفر فاستلحم السيف الكثير منهم وابتلع الاودية والشعاب والغيطان من
 تخطاه الموت منهم الى اجل وانكفا ولى العهد ايده الله بنصر لا كفاء له ثم طير في الحين
 وراء الناصر جيشا من الاسل وعززه من عساكر النار بجيش اخر اركبهم خيل
 البرادع وجهر عليهم مملوكه مصطفى كبير المماليك ببابه والقائد ابا محمد عبد المومن
 بن ملوك والقائد بن بجة وجماعة من وجوه القواد وروساء الاجناد فلحقوه بلجابه وقبضوا
 عليه وقتلوه لحينه واستاقوه لفاس فوجه ولى العهد براسه وجثته لامير المومنين والده
 ايدهم الله بمراكش فنصب الراس حتى شاهده الناس تنكيسا للفساد واخمادا لنار
 الفتن الناشئة بسببه ثم امر مولانا الامام امير المومنين ايدهم الله بموارات الجثة
 وراسها من يومه وتم السرور لمولانا الامام امير المومنين ايده الله وقد وافته البشرية
 بمعسكره من باب أغمات وكان من خير خروجه انه لما بلغه كتاب ولى العهد ايدهم الله تعالى
 بخبر نزوع جيش الشراقة الى العدو وقام لها في ركاييه وقعد اجمع امره على النهوض
 بما حضر من جيش مراكش وان يحمل الرجل من عسكر النار على خيل البرادع
 فيجد السير يطوى المراحل لفاس لياغث العدو والناكثين ثم عد من تاريخ الكتاب الى
 يوم وصول السفير به فوجد ثلاثة عشر يوما لتناقل المجده * من فساد الطريق عند
 اقتراب الملتقى فجزم بأنه لا يدرك الملتقى ولو طار بالارض فاخذ حيثئذ ايده الله في
 أهبة النهوض بسائر العساكر عاملا على اقتحام فاس على الناصر ان قدر له دخولها وانه
 لا يشنيه عنه تان حتى ينشب به اظافره ولو ابتغى نفقا في الارض او سلما في السماء
 فوجه ايده الله عن ولده الامير زيدان أن يستحثه بمن معه من العساكر من سجدلماسة
 وكان قد جهز اليه في جيشه بتدلا واهده بجيش آخر من عساكر النار من مراكش
 وسرجه اليها لمداغة الناصر عنها ان رام النهوض اليها من دار ابن مشعل وليسد في
 وجهه وجوه المسالك الى السوس او القبلة ان رام الخروج اليها على الصحراء ثم وجه عن
 عساكر السوس وكانت مخيمة على انسى بالمرصاد للاجلاب على الناصر ان زلت به
 الاقدام الى الانحدار للسوس من ثنية الصحراء ثم وجه عن العساكر التي بحاجة
 وبلاد دكالة وتامسنا وسائر العساكر المتفرقة على الممالك في سبيل الردع والانتقام من
 القبائل المثيرة للفتن وقطع السبل والمجاهرة بالنفاق والسعى في التهويل عن القوة عند
 صرف العزائم الى الناصر فتوافت الاجناد وتوالت الامداد واخفست في

النهوض العساكر من كل بلاد فتكاملت الالهة وعظم الاحتفال من الاستعداد وبادر الخروج ايده الله ثالث يوم ورود الخبر بنزع الناكثين وكان ايده الله ساعته بين يدي خروجه رؤيا صادقة على عادة مرآيه الصالحة وانه على قصر بمحلة عالية على هيئة افراك وهو القصر المعد لمنازلهم ايدهم الله بمحلاتهم السعيدة ذو السياج المحيط بالخيام والقباب من كتان مترف قال الا ان برج ذلك في مكان باب الصرف من افراجنا نحن اليوم لم يختلف الا في هذا الوصف قال ايده الله فقبل لي هذا قصر المنصور ابو جعفر فدخلت فوجدت صاحب القصر واقفا لي في البرج كان ينتظرني فظهر لي البش والترحيب ثم رفع الرواق دون القصر فاذا فيه من النضرة والبهاء ما لا يبلغه الوصف ولا يخطر على القلب ووقعت عيني داخل القصر وفي منتهاه في مقابلة باب البرج على صورة امرأة لم تقع عيني قط على اجمل ولا ابهى ولا احسن منها وعليها من الحل والحلل وفاخر الزينة ما لا عين رأت فقال لي اقم هنا خمسة ايام ويأتيك قال ايده الله فاستيقظت فتاوت أنها دنيا وبشرى تأتي فقال لأهل شوره عند الغد ليس الا العزم بالخروج لعل الرويا تصدق بموافات البشرى بالمحلة ونحن في قصرنا فخرج ايده الله يوم الخميس ثامن عشر رمضان عام اربعة (1) ثم وافته البشرى يوم الاربعاء فلم تمض من بعد يوم خروجه ايده الله * الى يوم الخميس الاخر الا خمسة أيام كما ترى ووافته البشرى وهو في افراك وجلس للوارد بها من قبل ولي العهد في برجه على نحو ما رآه الرؤيا المباركة كفلق الصبح جلاء وظهورا وصدقا وعدت من مرآيه الكريمة التي هي اصح من روية العين فكان ذلك اليوم من ايام الدنيا بما عم الناس من اسرور وشمل من الفرح للخاصة والجمهور وبرز مولانا امير المؤمنين ايدهم الله اثر ورود البشرى بل عند ورود القبض على الناصر على تفتة ذلك الى فسطاطه الاعظم المعد للديوان العام ذو التاج المذهب الفاره اللامع البروق لشمائمه على بعد فجلس للتهنية وانتال الناس عليه من العساكر والاجناد واهل الحضرة فازدحموا على الفسطاط ازدحام الحجيج على البيت وبرزت ارباب آلات الفنا من الحضرة على اختلافها وقرعت الطبول وارتفعت اصوات آلات الملك فامتزجت وملا دويها الخفاقين وضم المعسكر محشر عظيم ودوى هائل فكادت الارض تميد بمن عليها هاء وسرورا واطمئنانا ومحبة في امير المؤمنين ايده الله وشحا بايامه السعيدة وضناة بدولته الشريفة التي أثرت العديم واكسبت المحروم ولقد حدثني من اتق به انه شاهد ناسا من النظارة يوم بروزه ايده الله من الحضرة الى معسكره من باب اغمات يبكون حشية ورافة ومحبة وارتفعت الاصوات في المساجد والمكاتب شيوفا وولدانا ونساء

ص 146

وصبياناً وحتى شرعت النساء وراء حجبها وحجالها عن ظهر غيب بالدعاء له ايده الله
وعلى الناصر المثير للفتن التي بعد العهد بها فاجاب الله دعاء عباده وحكم له سبحانه
بعدله بما شاء على وفق علمه ليتم عليهم نعمته ويهنئ باتمام الحق امته ورفع الشعراء
والكتاب الى مولانا امير المؤمنين قصائد هم يهنئونه بما صنع الله له من الفتح على يد
ولى عهده ايدهم الله بعضها في الوقعة الاولى والبعض في الثانية فمن ذلك قصيدة الهوزالى
وهى

هو النصر يجنى من ذوابل مران خياشمها يرعفن بالعلق القانى
وبيض صفاح بتريمنية وهقدرة شقور سواهم غران
عليهن من شعت اللوائب فتية نما هم الى العليا معد بن عدنان
تسامت بهم غاي المدى وتوقلوا ذرا النسب الوضاح من قيس عيلان*
أهاب بهم والجو بالنقع حالك يغطى دياجى ليله شهب حران
اغر رحيب الباع من سرها شم سليل الملوك الصيد من آل زيدان
فروى صوادى السمر من ثغر العدى ومطعم سيدان الفلا هام اقران
هو الملك المامون ميمون غرة تكتنفها لليمن واضح عنوان
حمى بيضة الملك الاغر وقد غدا من الدم عريان الطبا غير عريان
خطى فوق اشباح المنايا ولم يبل وللطن فى الهبات اريام ارنان
بيوم عبوس لو تقادم عهد لعهد مديد لم يصف يوم بسيان
اذا افتخرت بالشعب والجون عامر ولا عد فخرا يوم عبس وذبيان
ولا دثرت ذات الاصاد بفقدائها لقتلى بنى بدر لها ميم فتیان
الا سحبت ذيل اذدراء بقتلها بنى جشم بالخوذ هل بن شيبان
لقد جرد المنصور منه مهندا فرى كل ليث من عناد وعدوان
وهد به هضبار رواسى شمخا تكاد بها الدنيا تميد باركان
عشية سالت بالاحالف للوغى مهامه عادت بالقنا غاب غيطان
ولاحت عليهم كل زغف كانما افيضت على ابدانهم زرق غمران
فلاقوا دوين الورد كل مدجج يهز اليهم كل اسمر ظمئان
وبارقة للموت تحت سحابها صواعق تنلونها موارد نيران
يقيم لها الاحلاف برقا فامطرت عليهم بشؤبوب من الموت هتان
فكانوا يساقون المنايا واجفلوا لوقع الردينيات اجفال ظلمان
بلا فيهم المامون كل مصمم ولدان اصم جربا منذ ازمان
راوا فيما يقتاد من كل باسل مشوق الى الهيجاء اساد جطان

وجود ذىال العلاء فتهيجت حفيظة وراد المهالك غيران
تصلى بجمر الحرب حتى كأنما له بمناخ الموت مألوف أوطان
الا أيها المنصور بالله اذ عنت لسيفك اعتاق العدى اى ادعان
كفتك ظبى المامون كل ملمة ومبهم خطب مسدل ذيل اجنان
قدم فى سماء العز شمسا منيرة تضى لاقصى المغرب اقصى لان
ولازال ملثوما ثرى عرصاتكم لافواه املاك معفرى تيجان *

ومن قصيدة صاحبنا الكاتب ابى على الحسن بن احمد المسفيوى وهى هذه

وافاك فتح واضح الاقبال اربى على الماضى مدى استقبال
وتلوت آى النصر وهى كتائب ورويتها امرا وهن عوال
لله اية عزمه مصمية فى خيث تنبو مصميات نبال
ما للتهام وهيبة الباس التى قصفت جنوبا بعد قصف شمال
كم ذا عزمك من عنو قبله فصدعته صددع الرداء البالى
واذا انتحاك الجمع منه فانه وقف على التكسير واستيصال
فجعلت من علق لحائمه الظبا وردا وسيهم من الانفال
وادلت اشوس صاغرا فاعتساف من شمم المعاطس موكس الاذلال
وتركت اربعهم نهابا للبلى درس المعالم سجد الاطلال
ما عاصم من دونهم هرب ولا ينجى سريع الوخد والارقال
ينقض جرح كيده فى اثرهم اهدى اليهم من قطا ارسال
لو انهم سلكوا المجرة لم يكن مجرى النجوم اذن بعيد منال
وبعيد مطمح همة لا يقتنى الا دلاصا سابغ الاذبال
ويرى العلا ما يقتنى او يجتبى من صارم او ذابل عسال
طب بتلقيح الحروب مجرب شهم ابى مدرك الادخال
من زاغ عن رشد فان بكفه ماضى الشباب مقدم الضلال
كم صك سمع الخافقين بوقعة صارت بها مثلا من الامثال
ملكته مهابة القلوب وما زجت حبا كمزج الماء بالجريال
وله مآثر سائرات دونت سير الكيما تحتلى بمشال
وله المعالى النيرات الزاهرات الظاهرات الباهرات خلال
اغنيتنا عن نصب تمييز لها ودليل اثبات ووصف الحال
من ذا يساجل مجده بل اين من طامى العباب بلالة الاوشال
من ذا ينافس قدره وجلاله انفاس شمس ظهيرة بدبال

فهو الحقيقة فى المكارم والنهى وسواه احقاب وطيف خيال
وهو المقدم حائزا قصب العلى وسواه فيها مقرف أوتال *
ومشيم بارقة المنى من بشر يجلو الخطوب الجون وهى ليال
لله فيك مغيب يوتى لهذا الدين يوما عازب الآمال
عما قريب سوف ترغم قيصرنا ويجود اندلسا سحاب وبال
حتى تسربل ذلة احزابه ويصير رهن القيد والاغلال
لازلت منصورا ودمت مؤيدا تختال فى دعة وأمن زوال

وللقائد ابى الحسن على ابن منصور الشيطمى

هاكذا هاكذا تكون المعالى مسندات عن العلى والعوال
وكذا تعطى الفتىح أول شئ حركات المنصور وفق اقتبال
هل يرام المنصور بالله من قد بطلت معه حيلة الابطال
من اباد العدى وظهر منهم فى الجنوب البقاع او فى الشمال
فسئل الركن والمخازن عنه اذ جد الخطب عند ضحك المجال
ايعانى عزمات ذى الملك الشهم سوى نكسن اجهل الجهال
او يدانى عرينه الا شبب الحمى الا معرض للوبال
فلو ان السماء ذا الرمح ناواه لامسى عن رمحه فى اعتزال
او نوى النسر طائرا عنه منحى لغدى وافعاله فى جبال
ضل من ظن أنه منه ناج فى فضا بعد حرب او تلال
ولو أن القطا اعارتته ريشا أو اقلته أرجل الاوعال
اكثرت أم التائر المتلى بفرور لحربه أو ملال
لم يقم حتى اقعدته رماح للمرضى الشيخ الليث طود المعالى
غره برق خلب قد اشارت فى جهام به نوى الامحال
من بغات تساقطوا كفراش فوق نار للحرب ذات اشتعال
اوقدوها فاطفاتها دماهم من سيور للشيخ سمر طوال
غادرتهم وهم على الترب صرعى بعراء مستوحش الربع خال
عبث الطير فيهم والسيد والاسد باشلائهم وبالاوصال
وقضى بالشق الاله عليهم وبنصر المامون افضل وال
عملة الامر عاند الصلة المرفوع فى الابتدا وفى كل حال *
فمر التم من اتاه كمال قبل عشر او قبل الاستهلال
واتانا منه الزمان بفرد متغال فى فضله متعال

فلمعري لو كان بعض سناء لهلال لانفك نقص الهلال
ذو وقار يسبى النهى وثبات دولة القطب او رواسى الجبال
حاز رشد الرشيد فى هدى مامون وعليه على الوصى المفضل
يا رعى الله منه ابي همام قد اذاق الهموم حزب الضلال
وحمى بالبيض وسمى العوالى حوزة الملك من اذى كل قال
وكفى اوكت يداه خطوبا هائلات تموج بالاهوال
وارانا شفى الغليل بفتح نعم فتح المولى العلى الجلال
مرحبا المامون به واتانا معلما بالشفاء والاكمال
فهنيئا لكم امام الهدى ما منح الله من جزيل النوال
ذاك فتح قد جل قدرا واعيا وصفه مقولى وفكرى وبالى
رستمونى سهما ونبلمونى فارتياشى من عندهم وانتبال
وبكم قد ردت الصعاب ولانت لى القوافى الممكنات الحوالى
دمت بالمامون حسامك تحمى بيضة الدين والعدا فى اختلال
وادام المولى للملك نصرا لا يرى فى الدنيا له غير تال
ثم لازلت بالمسرة تجنى ثم المشتهى بكف الكمال

وكنى شرعت ساعتئذ فى قصيدة اساجل بها القوم فتجاذبتها مع الاشغال المثالة
حينئذ فغلبتنى عليها من بعد الجهد فى المكافحة وانا هورد ما خلص لى منها وقد وريت
فيها بمنزل صاحب مكان اللحمة والتورية فى عدة ابيات منها بما كان مولانا الامام امير
المومنين ايد الله يرى ان الكلام الخالى من محاسنها المتعارفة عند أهلها كلام لا تشره اليه
الاسماع ولا تنقل له بالطبع الطباع وهى

الفتح من حركات احمد واجب	كل العواهى فى العدالة طالب
يعنو الى السنون من اسيافه	قلب المعاند وهو قلب واجب
ايروم احزاب الضلال سفاهة	غلبا لحزب الله وهو الغالب
اودى بجمع مكسر جمع له	تعنو الجموع اعاجم واعارب
جمع له فى الحرب اى وقائع	اضحت على الاعداء وهى نوايب
ملات باشلاء النفاق تنائفا	اضحى الوهاد بهن وهى اهاضب
قد حلقت للنصر فوق سمانها	من كل فتحة البنود عصائب
صببت على السودان منه صواعق	فهمت على اسحاق وهى مصائب
فهو الذى من جبره او جلبه	تلقاه اما جابر او جالب

يروى عن المنصور فيه محمد ما اسندته الى الوصى مناسب
اسد هريث الشدق يفقر فكه نحو العدى فكانه متساوب
يفرى الكتائب سيفه ولرعبه جند يغير على العدى وكتائب
سيف به جب السنام لخاسر فى صفقته وجب منه الغارب
لكس لـ (1) (1) المناجس منزلا لفعته عيناه وقطب حاجب

وكان مولانا الامام امير المؤمنين ايدهم الله كتب اثر الفتح الاول عند انهزام
العدو وجموعه على عقبه قبالتة الى الامراء على ممالكه السودانية والى اجناده وعساكره فطار
الى ممالك بلاد القبله بانهاء البشرى ووصف الحرب والاعلام بما اتاح الله على يد مولانا
ولده ولى العهد ايدهم الله من الفتح وهو وما بعده من التعريفات بالفتح وما يتعلق
به كلها من انشاء العبد مؤلف الكتاب سمح الله له ونص المكتوب الى كبير المماليك
المقتسمين لاعمال الممالك السودانية وهما منصور باشى وجوذر باشى اسمعكم الله من
البشائر ما يملأ صدوركم انشراحا ويوالى لديكم مسرة وافراحا سلام عليكم ورحمت الله
تعالى وبركاته اما بعد حمد الله الذى ايد الاسلام بمحمد فأصبح وهو فى كيد الاعداء
مامون وحمى الحقيقة بسيفه الذى لاتزال جماجم الاعداء ساجدة لحدته المسنون والصلاة
والسلام على نبيه الكريم الذى سطع به نور الحق المبين واقام به أود الدين فاصبح
وحبله قوى متين والرضى عن ءاله الشيم العرانيين واصحابه اللاتدين بسيوف الحق
دعاة الباطل فاضحى الهدى منهم فى حرم امين والدعاء لهذا المقام العلى الامامى الاحمدى
المنصورى بنصر يطوى الارضين ويوسس الدين على دعائم التمكين ويروى صدى
السيوف من قلب * قلوب المشركين وأولياء حزب الشيطان المارقين الملحدين بعزه
وعنايته فكتابنا هذا اليكم على معسكرنا السعيد على نهر تنسيقت والا جديد بحمد
الله الا ما عود من عوائد النصر والاقبال والبشائر تنتاب اسراب العلية فى الصباح
والمساء وتنتال هذا واللى نهيته الى جهتكم من الانباء المثيرة للفرح والسرور والبشائر
الثلجة للافئدة والصدور اعلامكم ان الشقى الناصر حليف الصليب وولى الطاغوت ورضيع
لبان الموالاة لدولة الاقنام والناسوت كان الطاغية خذله الله قلى به الى جهة مليلة
قلد النوات ورمى به رمى السلا عن الستات متعاميا للخروج فى جهتنا لما يظن ان العرب
اخف باسا والين مسا وكان بظننا ان النصارى خذلهم الله لا يفلتوه من ايديهم
او يسلموه للبعد عنهم وانهم انما يرمون به فقط مغالطة وزبونا منهم لاكننا مع هذا لم
نضيع شيئا من اسباب الحزم وموجبات العزم بل انفلنا فى الحين الى ولدنا الاجل بب

ص 152

(1) يبيض فى الاصل -

الشيخ اعزه الله تعالى أن يأخذ للوثبة عليه الالهة والاستعداد ويجلس على برائينه للأجلا ب عليه بالعساكر والاجناد وبرزنا نحن بعساكرنا المراكشية حماها الله الوافرة واجنادنا المؤيدة بالله الظافرة بحال من الاحتفال والاستعداد تسر الاسلام وتسوء عبدة الاصنام مما كان الا ان اقاده وباله لما فيه حممه وسعت به الى اراقة دمه اقدامه فحمله الجهل بعواقب الامور والدوائر التي عليها وعلى من التف معه من الاحلاف ومن تبعهم من اهل الفساد تدور فاقبلوا حتى تخطوا تازى وراءهم واتخذوا جبل غياثة ومطهرة موئلهم والتجاءهم وما كرهنا نحن منهم التوغل الى حيث لا ينجوا منهم احد ولا يخلص لهم مال ولا ولد ولا سيد ولا لبد فلما اتاح الله فيهم الفرصة بادر بب الشيخ اعزه الله تعالى انتهازها وركب الى الاشقياء جسر السعادة الربانية ومجازها فما راعهم الا انتقاضه عليهم بجنود الله الاسود الابطال وليوث الحرب والنزال وضراغم الهياج الذين تزول لصدمتهم رواسى الجبال من كل رام بشرر وضرب بالنبل والوتر وشهم يقيم هامته مقام المغفر وبطل يقدم اقدام الغضنفر لا ياكل السرحان شلو صريعهم مما عليهم من القنى المتكسر فصبح بهم اسعده الله الاشقياء فى يوم اغر محجل وطلع عليهم بالرأى تحمله السيوف والاسل فصدقهم القتال وهجم عليهم هجوم الاسد على الرئبال وهم اعزه الله مرات عديدة بالرجل عن فرسه زاحفا مع الرمات فى مستنقع الموت على قدمه فاغرا لالتهم الاعداء الاشقياء فكى فمه فيعزم عليه الانكسارية اصحابه بالركوب فيمتنع عليهم * ولا يكاد الا بعد الالحاح العظيم يلتفت اليهم وتبدى منه اعزه الله فى ذلك الموقف الضنك من الصبر والشجاعة والاقدام ما قرت به عين الاسلام ولم يكن الا كلا ولا حتى منحه الله الظفر فولى الشقى وجموعه الادبار واستاصلتهم السيوف والنار واخذهم الله تعالى على يد ولدنا اسعده الله تعالى اخلة رابية وانت عليهم سيوفنا المشرفية ورماحنا الردينية فلن ترى لهم من بقية هذا من بعد أن لم يال الشقى وجموعه جهدا فى الاحتفال والاستعداد بما لا مزيد عليه عدا وعددا ورجال فقد زحف معه عرب الشرق بحللمهم وأولادهم كافة ما عدى اولاد طلحة خاصة ثم أخماس تازى عن اخرها وهشهور البربر بحذافرها وست عشرة مائة من عساكر النار وغير هؤلاء من الحشود الذين اضلهم الله وقادهم غويهم لدار البوار فاتى السيف عليهم بحمد الله اجمعين فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين وكان ذلك يوم الخميس السادس وعشرين من ذى القعدة (1) والعاقبة للمتقين والحمد لله حمد الشاكرين وعرفناكم بما سنى الله من هذا الفتح العظيم والمن الجسيم لتأخذوا من السرور بشارته بحفظكم

ص 153

الوافر وتشكروا صنع الله فهو الكفيل بالزيادة للشاكرين وتبشوه الى من هنا لكم من عساكرنا المويصلة بالله والاجناد والى سائر أهل مملكتنا الشريفة بتكلم البلاد حتى ياخذ الجميع ان شاء الله بحظه من السرور بهذا الفتح المبين والى الجسيم ويطمئنوا بما عود الله لمقامنا العلى من عوائد النصر والاقبال ومساعدة والايم والليل حمدا على ما أنعم وشكر لما كمل وتمم ثم اعلّموا أن بروضنا بمحلتنا السعيدة لساحة حضرتنا العلية ما كان الا لمجرد استشراف احوال ولدنا أسعده الله تعالى لاغير والتطلع لما لا ياتينا من تلقائه من أخبار الخير واليوم لما أجمل الله العاقبة بما منح من الظهور على الشقى الذى أراح منه العباد وطهر منه البلاد واطمأنت برسوخ الهناء والعافية الجهات والاقطار والقرى والامصار هانحن بحمد الله داخلون لدارنا العلية لناخذ فى شأن ما أمدكم به ان شاء الله من العساكر والاجناد ونجهزه تلقاءكم من سائر العدد والامداد فان ذلك عندنا هو الشغل الذى نعمل به الوقت فى الحال ونصرف اليه وجه الاعتناء والاهتبال وكتب فى السادس لى حجة الحرام المبارك متم عام ثلاثة وألف (1) ولما أجزل الله المن وشفع الفتح الاول بالثانى واتى بالثى هى أحسن من قطع وأسر العدو واستيصال شافة المارقين الناكثين كتب أمير المؤمنين أيد الله الى سائر ممالكه الشريفة يعرفهم بتمام الفتح وقطع دابر العدو ثم الى أهل فاس والى حواضره * وأهل الثغور من بلاد المغرب يشكر لهم الثبات على العهد والوفاء والمجاهدة بمناوات حزب الشيطان ومشاقته وعدم الاكثرات بطنين ذبابه ونصه من عبد الله تعالى المجاهد فى سبيله الامام المنصور بالله أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين الشريف الحسنى أيد الله بعزیز نصره وأوامرهم وظفر عساكرهم الى الجماعة التى نوايلها بمزيد الشفوف والايثار ونختصها من أهل ممالكنا الشريفة بخصوص المزية والاعتبار ونخلع عليها من عنايتنا الكريمة الملابس الساطعة الانوار ونمهد لها مهاد السكون والاطمئنان فى كفالة سيفنا الماضى الفرار والصفوة التى نعرف لها صفو الوداد وخلوص الاعتقاد فى حالتى الاعلان والاسرار جماعة الفقهاء والشرفاء والاشياخ ونواصل لديكم بالمسرات الغبوق بالصباح سلام عليكم ورحمت الله تعالى وبركاته اما بعد حمد الله الذى وعد بنصر من ينصره فكفى به وليا وكفى به نصيرا جامع كلمة الاسلام فمن أراد تفريقها بآء بفضب منه وساء فصيرا والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد الذى نصره بالصبا فكانت له ظهيرا وابتعته أحمد الحاشر فكان بالرعب منصورا والرضى عن ءاله الذين اذهب الله عنهم الرجس وظهرهم تطهيرا وعن اصحابه الذين أرغموا أنف قيصر قسرا وتركوا جناح كسرى

ص 154

(1) يوم 6 حجة عام 1003 يوافق 12 أغسطس 1595 .

كسيرا والدعاء لهذا المقام العلى الامامى الاحمدى المنصور الفاطمى بنصر يوسع الاولياء حماية والمارقين الملحدن تدميرا فكتابنا هذا اليكم كتب الله دوام العافية واتصالها وعصمة لاتزول وان زلزلت الارض زلزالها وحفظ لكم وللإسلام من حفاظ هذه الدولة الشريفة الاحمدية حامية لا تورد الا قلب القلوب نصالها ولا توخر عن اليزاد والبلاد مصالها من معسكرنا السعيد بظاهر حضرة مراكش حاطها الله ونصر الله تعالى قد ملأت الخافقين أجناده وتوالت مع العشى والابكار امداده وارعدت بالصهيل الى الكفاح والجلاد جياته وسيفنا المنصور بالله قد تنفض تنفض الشعبان فلا تكاد تمسه حنقا على المارقين الاشقياء اغماده هذا وانه بلغنا أنجدكم الله تعالى ما أنتم عليه من طروق الخيال الذى ما ألم حتى قوض والبار الذى خبى عندما أومض من رسوخ نياتكم وصفاء طوياتكم ومضاء غزواتكم وما كان من عدم اكترائهم بطنين ذبابه * والاستكشاف من الانصات الى لمع أسرابه والاهتمام من عواء ذبابه الى ما بدا لنا من الاستماتة على كلمة الله العليا وتصميمكم على حزب الله المفلح فى دار الزلفى ودار الدنيا واطباق صغيركم وكبيركم على المحبة التى لاشرط فيها ولا ثنيا والمجاسر بمناوآت حزب الشيطان ومشاقته وبلل كل أحد جهده على حسب طاقته حتى عرفكم الله عاقبة النجح وجلا على صفحات ولدنا وولى عهدنا وكافل الامة ان شاء الله من بعدنا عروس هذا الفتح واستأصل بحمد الله بسيوفنا شاقة المارقين الطغام وأباد بها الاشقياء أولياء عبدة الاوثان والاصنام والى هذا فالذى ينقرر لديكم حرسكم الله وأنجدكم وفسح فى الهناء أمركم انه ما كان ظننا من قبل فيكم أهل ذلك التفر المحوط والبلد المحفوظ الا مثل هذا وأكثر واجل وأكبر ولا نعتقد فيكم الا اعتقادا يفيد القطع بمحبنتكم ونجدتكم فى كل مورد ومصدر ولا نراكم لهذه الدولة الشريفة الا الشعار والدثار ولا نعدكم الا حيث نعد الاولياء والانصار وانكم عندنا ممن لا يوتر عن هذا الجنب العالى ولا ينخدع بخلب بارق ولا بلمع سراب فهذه المنزلة المكيئة من ضماثرنا الشريفة انزلناكم وعلى هذا المحمل الجميل من معتقدنا الكريم حملناكم ولهذه الخصال الجليلة والوصاف الجميلة أهلناكم الى أن كشف بهذه الخصلة التى أحرزتموها الفطاء وبرج الخفاء اتضح حينئذ بحمد الله مصداق ظننا فيكم اتضح النهار ولاح للعيان بارقة المستطار وتضوع فى سائر الافاق نسيمة المعطار فازداد بذلك اعتقادنا الجميل فيكم تصميميا واربى حسن ظننا على ما كان من قبل به عنكم زعيما ولاح للبادى والحاضر دليل ما كنا نقطع به عنكم من الوفاء حديثا وقديما وانها لخصلة مهدت لكافتكم جميل الرضى بعل هذا المقام ووسيلة لا نزال نرعى لكم بحول الله مواتها مع اتصال الايام ومزية تقضى لكم من على مقامنا ان شاء الله بنباهة المقدار والعناية السامية المنار وجميل الرعى وجزيل الايثار والشفوف

ص 155

الذى تسنى لكم به المزية على سائر أهل الحواضر من ممالكنا الشريفة والامصار وركابنا انعالى على أهبة الرحيل ان شاء الله من العناية التى تشملكم سرا واعلانا وتلقون من صنع الله تعالى لديكم وصنعنا ما يقربه أعينكم دهورا طائلة بحول الله وائمانا فلتنبسط بذلك آمالككم وتزرون أحوالككم ويطمئن بالكم بعز الله وعنايته وقد عاينتكم نور الله ببصائرهم ان هذا الامر العزيز عند الله بمكان وشانه لديه سبحانه * لا يوازيه قدر وشان فعناية الله محفوفة ونصرته له معروفة وامداده له على الدوام من قوته واحسانه اليه متزايدا واختياراته له فوق ما ينتهى اليه اختيار الرائد لا ينال منه كيد كائد ولا يخضده خذلان خادل ولا عناد معاند عصمة من الله لا تخشى بفضله ومنه انتقالها ونعمة نوصيكم أن تجعلوا استدامة الشكر عقالها فان حبل اعتصامكم بحبل هذه الامامة الشريفة مربوط وهنالك بهناء أيامها السعيدة موصول ومنوط وزمنكم بزمانها الممتد الاعصار بحول الله وقوته مرموق ومغبوط وسربكم بكلاءة الله تعالى وكلاءتها مع اتصال الايام بحول الله مرعى ومحوط والله تعالى يوزعنا واياكم شكر نعمائه ويصل لنا موصول صنعه الجميل بصلة اياديه الجسام والائه وهو المسئول سبحانه ان يحفظ رجاءكم ويصدق فى فضله الجزيل وصنعه الجميل رجاءكم ومعاد السلام الاتم عليكم ورحمت الله تعالى وبركاته وفى يوم الاثنين ثالث عشر شوال المبارك عام أربعة وألف من الهجرة (1) النبوية الكريمة ولما تكاملت هذه الفتوح الجليلة وفرغ مولانا الامام أمير المؤمنين أيدهم الله من تدويخ أهل الزيغ والانحراف واطمانت البلاد وهذا الاضطراب ورسخت قواعد العاقبة وقفلت العساكر والاجناد من الجهات أهم أيدهم الله بالجهاد وأخذ الاهبة له والاستعداد ومجازاة عمو الدين على ما كان اعتمل فيه من كيد الاسلام وتفريق كلمته والعزم على استرجاع جزيرة الاندلس من يد الكفر وتطهيرها من خبث الشرك فكتب الى أهل الخير والدين وأولى الصلاح بكل بلاد يلتمس منهم أيده الله التوجه الى جنبابه العالى بالادعية الصالحة والابتهالات الناجحة وطلب الاعانة والامداد من ملك الارض والسماء على ما أهم به وعزم عليه وتوجه بنيته الصالحة اليه فمناها الى صاحب مكة والمدينة وأرض الحجاز السلطان حسن بن أبى ندى من بنوهم الشريف آل الحسن رضى الله عنهم ونصه من عبد الله تعالى المجاهد فى سبيله الامام المنصور بالله أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين الشريف الحسنى أيد الله بعزیز نصره وأوامرهم وظفر عساكرهم الى الاصاله التى تبججت من ذوابة هاشم فى صميمها وتوغلت من عرصات حرم الله ما بين زمزمها وحطيمها وتمتعت من عرارة نجد بانتشاق نفحاتها الاربعة

(1) الاثنين 13 شوال 1004 يوافق 10 يونيو 1596 •

157 م وشميمها أصالة السلطان الأثيل المثيل الاسنى الاسمى الأزكى السلطان حسن بن أبى تهمى
 أبناكم الله والبيت ذو الاستار تتفيئون ظلاله وتلثمون من الحجر الاسعد خاله سلام عليكم*
 ورحمت الله تعالى وبركاته أما بعد حمد الله معز هذه المثابة العلية الامامة النبوية العزيزة
 الانصار السامية المحتد والتجار صاحب اذبال عزها الوريث الظلال على أهل البيت السامى
 المنار بحر القسطن من برها وولائها لحيها سكان الحمى والذين تبوءوا الدار والصلابة
 والسلام على سيدنا ومولانا محمد الذى اطلع شمس الهداية الساطعة الانوار والرضى
 عن الله الذين تضائل لمجد هم السامى المقدر الشمس والاقمار وعن أصحابه الذين
 استاصلوا شافة الكفر بمواضى الشفار وصلة الدعاء لهذا المقام العلى الامامى النبوى
 الابدى المنصورى الحسنى بنصر تجنى الفتوح من قصب رماحه وتجرى الاقدار على وفق
 اقتراحه فكتابنا هذا اليكم من حضرة مراكش حاطها الله وصنع الله تعالى لهذه الدعوة
 النبوية مفعم السجال واسع المجال والايام بعز صولتها ويمن دولتها بهذه المغارب باسمه
 الشفور مودنة باتصال امرها العزيز بحول الله الى أن تطوى ملأه الدهور بعز الله
 وعنايته هذا وان شيخ الركب المغربى وهو المرباط الخير الحاج محمد بن عبد القادر لما
 أزمع الى المعاهد الشريفة الرحيل وهب له من حرم الله نسيم يميل وءان للمطايا ان
 تعمل الوخذ والدميل مد الى على مقامنا أكف الرغبة فى كتاب كريم يتشرف بحمله
 ويتعرف منه السعادة بحول الله فى مقامه ومرتحله يتضمن الايصاء به اليكم فى المورد
 والمصدر ومدة مقامه بجواركم من حرم الله تجاه البيت والمشر فحملناه هذه العجالة
 لترعوا له ان شاء الله عنها المعتبر وتوالوه من جانبكم بما يصدق فيه الخبر والخبر ويدنى
 له من اماله قطوف كل فنن مهتصر ثم مما نكلفكم النهوض لاجل حقوق الاخوة باعبائه
 ونطالبكم لوشائج الرحم التماس دأه المساهمة بالدعاء مع الاحيان تجاه البيت
 الحرام وعند الملتمزم والمقام أن يويدنا الله على عدو الدين بفضلته ويعجز لنا وعده الصادق
 فى اظهار دين الحق على الدين كله ويسهل علينا بفضلته ومعونته أسباب فتح الاندلس
 وتجديد رسوم الايمان بها واحياء اطلاله الدرس حتى ينطلق لسان الدين فيها بكلمة
 الله التى طالما سكت عنها بدائه وخرس وشرق بريقه فقص واختبس فداء دعاء لايرد
 لانه جرى من أهله فى محله ومعاد السلام الانم الانم عليكم ورحمت الله وبركاته ومنها
 الى قاضى القضاات المالكية بمصر الشيخ بدر الدين القرافى ثم الى كبير مشايخ الاولياء
 والعلماء علم الطريقة اليوم بالديار المصرية الشيخ الاستاذ زين العابدين بن الشيخ
 القدوة محمد بن أبى الحسن البكرى الصديقى وكلاهما * من أهل ود هذا الجناب العلى
 النبوى وأوليائه محبة وصادقة يفتاحون مولانا الامام أمير المؤمنين أيده الله على تتابع
 الاناء مع كل ركب برسائلهم وبهداياهم من كتب العلم التى هى أنفس الدخائر عندهم

أيدهم الله فكتب اليهم مع صاحب الركب عامد في معنى الجواب والتعريف بالفتح والتماس الادعية الصالحة منهم ومن أهل الخير والصالح هنالك بالحرمين الشريفين على أيديهم ونص الخطاب الشريف من عبد الله تعالى المجاهد في سبيله الامام المنصور بالله أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين الشريف الحسنى أيد الله بعزیز نصره وأمرهم وظفر عساكرهم الى الفاضل الذي اعتجر بلباس التقوى وهو زين العابدين وتحلى بحلى المعارف الربانية وملك حلية العارفين والسابق الذي برز في الطريقة وسلك على المجاز الواضح الى الحقيقة ففاوت شاو السابقين والعارف الذي تجرد عن رعونة الاهواء النفسانية فكان سلوكه على التجديد الى حضرة الواصلين الفاضل السرى العارف الربانى سلالة العلماء سبط الفضلاء الشيخ أبى عبد الله زين العابدين بن أبى الشيخ السامى المقام قصب المشايخ الاعلام فخر علماء الاسلام الشهير البركة فى الانام تاج العلماء قلوة الفضلاء كنز الاولياء علم الطريقة أستاذ الشريعة والحقيقة الشيخ أبى عبد الله محمد بن أبى الحسن البكرى الصديق أبقاكم الله وأرواحكم تتعطر برياحين الانس فى حضرة القدس وتتشمس النفحات الهابة من رياض المشاهدة الى مدارج النفس ومعارج النفس سلام عليكم ورحمت الله تعالى وبركاته أما بعد حمد الله يفيض أنوار عناية أحمد على صاحبه الصديق مظهر كنوز المعارف الربانية جيلا بعد جيل من بيت عتيق والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد الذى اختار لمرافقته صاحبه فى الغار والعريش والطريق والرضى عن ءاله ائمة الخلق وسيوف الحق وأصحابه الذين فاضت أنوار هدايتهم على الغرب والشرق والدعاء لهذا المقام العلى الامامى النبوى المنصورى الاحمدى بنصر تنسق به الفتوح اتساق الاسلاك وسعد تدور على قطبه دائرة الافلاك فكتابنا هذا اليكم من حضرة مراكش حاطها الله وصنع لهذه الدعوة الامامية مفعم السجال واسع المجال وعزوماتها الماضية تبعث الى العدى رسل الاوجال وتسرى اليهم سرى الاجال والايام بعز صولتها ويمن دولتها بهذه المغارب باسمه الثغور مؤذنة بانتصال أمرها العزيز بحول الله الى أن تطوى ملاء الدهور هذا وانه اتصل بعلى مقامنا كتابكم الذى صدحت على أفنان البلاغة * سواجهه وعذبت فى موارد المحبة الصديقية مناهله ومشارعه ولطفت فى كل معنى من المعانى أسالبه ومنازعه وتالفت على الاجادة فى كل مقصد من المقاصد مواصلة العلبة ومقاطعه واينعت بأزهار المعارف الربانية اباطحه الفيحاء واجارعه ومعه المنظومات التى سجت بالحكم ديمها ورسى فى البلاغة قسما وربى فى منبت المواهب الربانية يراعها الفصيح وقلما فحل من نفوسنا موقعها العجيب محلا من دونه الثريا فى مطلعها والبلور ليلة تمامها اعجابا بها وتنويعا بمهديها وابتهاجا بالخوارق التى أطلق الله على لسان مبيديها والى هذا فيحيط بعلمكم أن هذا المقام العلى

ص 159

مقام تنفق فيه على الدوام ان شاء الله سوق بضائعكم وتنموا فيه مع الايام سعود مطالعكم
وتسموا فيه على كل مقام مقاماتكم وتستوضح فيه على المحبة الصحيحة اماراتكم الواضحة
وعلاماتكم فعلى هذا تعقد منكم الخناصر وتشد الاواخي والاواصر بعز الله ومنه ثم
مما نستطرد لكم ذكره على جهة البشرى واهداء المسرة الكبرى اعلامكم ان عدو الدين
طاغية قشتالة الذي هو اليوم العدو الاكبر للاسلام وعמיד ملل التثليت وعبدة الاصنام
لما انس من تلقاء جنابنا العالى نار العزم تلتهب التهابا وبحر الاحتفال تضطرب أمواجه
الزاخرة بكل عدد وعدة اضطرابا وهممنا الشريفة قد هممت بتجديد الاسطول
والاستكثار من المراكب المتكلفة للجهاد ان شاء الله بقضاء كل دين مهطول وعلم أن
الحديث اليه يساق والى أرضه بالخسف والتدبير بحول الله يهفوا كل لواء خفاق رام
خذه الله مكافاتنا على ذلك بما أمل أن يفت في عضدنا الاقوى وعزمنا الذى بعناية الله
يزداد ويقوى فرمى بمخدول من أبناء أخينا عبد الله كان ربى لديه وطوحت به الطوائج
منذ ثمانية عشر عاما الى مليلة أحد ثغوره المصاغبة لغرب ممالكنا الشريفة التى الى
كفالة ولدنا وولى عهدنا كافل الامة ان شاء الله من بعدنا الامير الاجل الارضى صارم
العزم المنتصر وحسام الدين الامضى الامير أبى عبد الله محمد الشيخ المامون بالله وصل
الله لركائبه الظافرة التاييد والظهور والعز الذى يستخدم الايام والدهور فالتف عليه
ممن بأباطيله الواهية البناء من أوباش العامة والغوغاء ومن قضى له من اجناد تلك الناحية
بالشقاء جموع تكاثر الرمل وتفتت الحصى والنمل لاح بها للشقى خلب بارق اكذب
منيته فصمم نحوه ولدنا اعزه الله تعالى بجنود الله التى اليه وبعساكر تلك الممالك
التى القينا زمام تدبيرها فى يديه * فما راع الشقى الا انقضاضه عليه من جوه انقضاض
الاجل وتصميمه اليه بعزائم تلك الطود وتفلق الصخر والجندل فاستولى عليه بحمد
الله للحين وعلى جموعه الاشقياء فى يوم أغر محجل وساعة انزل الله فيها على الخوارج
المارقين العذاب المعجل فاستأصلتهم الشفار وحصلت هشيمهم المصدح السنة النار وقبض
على الشقى فى يوم كان شفاء للصدور ومنتزها لحملة السيوف وربات الخلدور
وأحرز الله تعالى فخر هذا الفتح العظيم والمن الجسم لولدنا اعزه الله تعالى فى
خاصة أجناده ونهض وحده بأعبائه ونحن على سرير ملكنا وادعون مطمئنون فلم يحتج الى
انجاده من قبلنا ولا امداده والعاقبة للمتقين والحمد لله حمد الشاكرين وعرفناكم لتأخذوا
بحظكم من السرور بهذه البشرى التى أسرت الاسلام وأساءت بحمد الله عبدة الاوثان
والاصنام وتعلموا مع ذلك ما عليه الاحوال اليوم بحول الله لدينا من خفق رايات العزم
وشجدة اراء العزم واعمال عوامل العزم الى مجازاة عدو الدين ان شاء الله على فعلته
التى عادت عليه أسفا ولهفا واعادة ما كان أسلف من ذلك ان شاء الله بالمكيال الاوفى

ص 160

وقد منا اليكم التعريف لتملونا ان شاء الله بادعيتكم الصالحة أوقات الاجابة وتحرصوا على التماسها لنا هناك وبالحرمين الشريفين من كل ذى خشوع واثابة ان يويدنا الله على عدو الدين بفضلله وينجز لنا وعده الصادق فى اظهار دين الحق على الدين كله وسهل علينا بفضلله ومعونته أسباب فتح الاندلس وتجديد رسوم الايمان بها واحياء اطلاله الدرس حتى ينطلق لسان الاذان فى أرضها بكلمة الله التى طالما سكنت عنها بلدائه وخرس وشرق بريقه فقص واحتبس فبيده الحول والقوة وعنايته العناية المرجوة ثم نوصيكم بحسن الوقوف لاصحابنا فيما يشتري من الكتب العلمية يرسم خزانتنا الكريمة الامامية العلية ثم الاتحاف بديوان الشيخ والدكم التماسا لجميل بركاته وتمسكا بما سبق من الاجازة العامة وسائر منظوماته وموضوعاته ومروياته وهذا موجبه اليكم وسلام الاثر معاد عليكم ورحمت الله وبركاته فى ربيع النبوى عام خمسة وألف (1)

ذكر الايقاع بعرب الغرب أهل النكت والانحراف

قدمنا ما كان من استلاب هؤلاء القبائل من ميزة الجندية التى كان البسهم اياها أمير المؤمنين وأخوه المعتصم عن الزحف تحت راياتهم الى مراکش وما كان من انتزاع * الخيل منهم على يد القائد بن بجة ومحمد بن سليمان وردهم الى الاثارة التى دربوا عليها من لدن اسخطتهم السولة فى أيام الامام رضى الله عنه على الانحراف الى الاعور بوحسون واستنزالهم من رتبة الخدمة الى الانخراط فى سلك الرعايا الفارمة فانطواوا لذلك على الضغن للدولة من حينئذ وتربصوا بها الدوائر الى أن كان ما ذكرنا من ظهور الناصر وهبوب ريجه الراكدة فاغتنموها وحسبوا فرصة أتاحت لهم للافساد على الدولة فانبعثت ضغائنهم من مكانها وكشفوا وجوههم فى الانحراف والخلاف وتسابلت رجالهم الى الناصر واكبوا على شراء الخيل والعدة والاستكثار منها وتشاغل عنهم أمير المؤمنين وولى العهد أيدهم الله حين صرفوا الغزائم الى العدو فما فرغوا من حسم دائه واقتلاع جرثومة بفيه حتى غلظت شوكة هؤلاء القبائل وتكاثرت خيلهم وتجاوزت حد الاحصاء جموعهم لتراجع خارجهم المفرق على البلاد من ضغط المغارم وهبوبهم الى اوطانهم من كل أوب وصوب حتى ضاق عنهم نطاق الوطن وتراكمت حللهم السود تراكم السحاب المرزم فانبسطت فى ازغار وارخت على جوانبه سئول ليلها البهيم من سفح جبل لطة الى البحر والى سلا فغطت السهل والحزن وملات الشعب والادوية وحضر معهم مع الناصرين من خفت نهضته من جموعهم القريبة من فاس وشغل الآخرون من يليهم من الاجناد التى نقلها مولانا أمير المؤمنين من عرب مراکش والسوس انصار السولة الى

أوطانهم وأنزلهم بين أظهرهم ضغطا لهم وحذارا منهم من مثل هذه عن الحضور مع
ولى العهد لينقصوه حصتهم ويزيد بمثلها فى العدو فكانت بينهم حروب مدة أيام نهوض
ولى العهد بالعساكر لجبل بنى يزناسن ورجوعه لفاس الى حين الايقاع بالناصر
وأضرموه الاوطان وراءه نارا وقتنة فاسفوه بذلك أيدهم الله واحفظوه فجهز اليهم
العساكر اثر الايقاع بالناصر مع القائد أبى محمد عبد المومن بن ملوك ثم حدث له ما
استدعى اليه القائد أبا محمد المذكور من الامور التى لا يطلع عليها الا خاصة مثله فبعث
عنه وأمر العساكر بالاقامة بمحلتها وبمكانها حتى يعود فبعثه سفيرا الى أمير المومنين
أيدهم الله فى شأن ما عرض لهم من المصالح المهمة فزددت بذلك قبائل الانحراف جرأة
وأوهمتهم أنفسهم فى استدعاء القائد أبى محمد والاخذ بحجزة العساكر عن الزيادة
اليهم وقبض عنانهم عن الاجلاب ما لا يطيقون فتداعت جموعهم الى الزحف تجاه قبائل
مراكش والسوس أنصار السولة الذين جاذبوه الوطن وفغروا أفواههم لالتهامهم
فجندوا جنودهم وتدافعت حللهم المائجة بسواد لا يحصى فكاثروا العرب * أنصار
السولة وشمروهم عن البلاد التى أقطعوهم وادى بهت فاستندوا الى سلا وبلغ الخبر
الى أمير المومنين بمراكش فاستشاط غضبا على أهل الانحراف وجرّد عسكريا ضخما من
عساكر النار رجلا وخيلا من جنود مراكش مساعير الحرب الذين طالموا اصطلموا
بجمرها وعززهم بجيوش جرارة من أهل الاسل وعقد على الجميع للشهم البهمة القائد
أبى عبد الله بن بجة فارتحل بهم يطوى المراحل وأفئدتهم تلتهب حنقا على الاعداء
الناكثين وعهد أمير المومنين الى ابن بجة أن لا يبقى منهم ولا يدر فلما اطلت رايات
عساكر مراكش اسود الحفائظ المبتزين لتيجان الاملاك على سواد الاشقياء الناكثين
وقد كانوا جندوا الاجناد وكتبوا الكتاب وتجاوزت جموعهم حد الاحصاء ويقال كانوا
زهاء ثمانين ألفا عشرين خيلا وستين رجلا وأعجبتهم كثرتهم فلم تفن عنهم شيئا أجفلوا
أمام الرايات اجفال الرئال امام اساد الفيل وقوضت حللهم تقويض الليل البهيم وانبثت
فى البسائط تبغى النجاء ولات حين نجاء فركبتهم العساكر ولصقوهم لصق الزرورة
للغارب فأمطرت عليهم السماء بموارج النيران وشهب الرجم وانقضت عليهم الخيل انقراض
الجوارح على الكراكى وأوغلوا فى اتباعهم مستلين لارواح ومكتسحين للسرّح
ومنتسفين للزرع ومدمرين للوطن ولاذ الاشقياء بالاذعان وطلب الإبقاء فسدت العساكر
فى وجوههم الثنايا والفجاج وجثموا على أنوفهم واقتعدوا لتف راياشهم فتبعوا الخيل
أولا فارجلوهم عنها ذكرانا واناثا فاستيقوا للحضرة اسرابا اسرابا فقصت بهم الحضرة
وساحتها وضافت بهم مرابط الملك ومزارع السلطان وأقنا منهم الموت وبعث منهم الى
ممالك السودان وتوزعتهم أيدى التفريق على الاجناد ثم طالبتهم العساكر بالناض فنفضوا

ص 162

منها أكياسهم نفص الجراب ثم اكتسحوا الاموال والانعام ورضوا الازودة من الطعام ثم استلبوهم من الحلال والحرام وطووا البيوت والخيام فكانت هي الباقية على الاشقياء فانتبلوا بالعراء حفاة عراة جياعا كأنهم سكارى من رجة الصعق ثم انثوا في البلاد متفرقين في سبيل السقاية والرعاية والحراثة بالخمس يتكفون الناس واققر منهم الوطن فلا تلقى به اليوم منهم انيسا ولا تسمع رغاء ولا صهيلا الا وعوة الدياب في الاودية والشعاب وأصبحت مساكنهم خاوية على عروشها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين وكان من سر الله تعالى ومن أعظم الايات الدالة على عنايته بهذه الدولة الشريفة النبوية أن طوائف من هؤلاء الاشقياء كانوا عند تشتيت * شمل قبائلهم وتفرقهم على البلاد أبادى سبا الى وطن تامسنا لخصبها يعالجون المعاش وينتعشون بالحراثة فلما جاء الصيف أرسل الله عليهم نارا استاصلتهم بالحريق ورعت زروعاتهم رعى الهشيم فكانت تطلبهم في بطن الارض لالقاء انفسهم في المطامير فتفيض انفسهم من لهيبها وتتبعهم يتخطفهم لسانها من بين من جاورهم يمينا وشمالا حتى اذا استأصلت جوبهم وافنت كثيرهم أطفالها الله من عنده فلم تعد على أحد سواهم على افراط خصب الوطن وكثرة من ضم من شعوب وقبائل وعجل الله لهم عذاب النار في الدنيا ايذانا بعذاب الآخرة فكان خارقا عظيما أظهر الله به صنعه لهذه الدولة الشريفة فيمن شقى بعصيانها وسعى في خذلانها وضرب به مثالا لاولى الابصار

س 163

(أوضاع أوروبا الغربية في السنوات الاخيرة من القرن السادس عشر (1)

فأظلم (2) الجو بالفتن على طاغية قشتالة منذ نزوله عليه وتهالكت في مشاقته ملوك الامم النصرانية فكان أشدهم تكالبا عليه وأكثرهم جراءة على الاجلاب على ممالكه والتضييق عليه والاخذ بمخنقه ايزييل (3) سلطانة ممالك بلاد نكلطيرة لاغراء مولانا أمير المؤمنين اياها بمناوآته وشجع غزائمه على عداوته ومظاهرتها على مغالبتها بما أمدها به من النحاس لتفريغ مدافع النار واطلاق ملح اليارود لها بالشراء من ممالكه الشريفة وامدادها بالمعادن التي اعوزتها ببلادها فنصبها أيده الله في وجه علو الدين وقيض له منها أيده الله بمقتضى حزمه وواسع تدبيره وشدة احتياظه شاملا يشغله تفرغا واستجماعا الى ما كان أيده الله صرف اليه وجه غزائمه الماضية من تجهيز العساكر

(1) اقتضى ترتيب المعلومات وتنظيمها وضع هذا العنوان، وللإشارة الى الاحداث التاريخية الهامة التي تضمنها المخطوط والمتعلقة بأوروبا الغربية في أواخر القرن السادس عشر مما يندر وجوده في مصادر أوروبية معاصرة .

(2) الانتقال الى صفحة 134 .

(3) ايليزابيث ملكة بريطانيا (1557 - 1603)

الى بلاد السودان التي فتح ممالكها وملك ارضها فتم له ايده الله في ذلك تدبيره وكمهل في نكاية عدو الدين مراده وقصده واغترت صاحبة بلاد نكلطيرة بمظاهرتة * وطاوعته على ما اغراها به وتوكلات على منساة الاسناد الى عالي جنبه والاعتضاد بعظيم سلطانه والاستمداد من شريف اياته وضخامة ممالكه وقاومت بذلك الطاغية على ضيق خطتها فسمرت لمساقتة ومضايقته فنازلت اولا بعساكرها الاشبونة (1) قاعدة بلاد برتقال من ممالكه ثم رام مناهضتها واحتفل في تجهيز الاسطول لئنازلتها فأوقعت به اساطيلها وارتد على اعقابها مفلولا فازدادت بذلك جراءة عليه وبالغت في الاحتفال له فملأت عليه البحر اساطيلها وجرت عليه هزائم واتيح لها عليه الظهور واوغلت في مضايقته حتى هجمت اساطيلها على أسطوله بمرسى قادس (2) من سواحله فنالت منه سبيا وتغريقا وملكته عليه البحر اجمع فكادت اساطيلها تقطع عنه منافع الهند ومجابهيه وعطلت على بلاده مراقق البحر والتجر وضاق منها مخنفه الى اليوم ثم ساجلها الافرنج في الانتفاض عليه والمجاهرة بمساقتة والاجلاب على ما يليهم من اطرافه وممالكه وذلك أن ملك الافرنج كان في القديم من اضخم الدول وافخم الممالك واوسع الايالات خطبة واعمالا ثم رجع القهقري شيئا فشيئا حتى ضاق نطاقه وتوزعت ممالكه فغلب على بعضها طاغية قشتالة عند ركود ريج الدولة الافرنجية وتقاصر قدرتها بالضعف العارض للدول عند هرمها ووافق ذلك ما كان من تحويل جمهور أهل تلك الممالك الى الدين الحادث في الامم النصرانية المعروف بالاثريان (3) فكان ذلك اعون على خذلان ملك الافرنج لاطباق رعاياه على الانتقال لهذا الدين فصمم هو على دينه الاول ورام رعاياه يسوقهم بعصى القهر الى دينه فاستعصى عليه شأنهم فتجافى عنهم وتركهم ودينهم مداجاة وهوادة وليس له مع ذلك وارث يرث ملكه ذكرا والبنات لا يرثن الملك في دينهم كما يرثن عند غيرهم من النصارى فلم يكن اقرب اليه واحق بآرثه من ابن عم له سلطان اهل نبارة (4) الوارث لملكهم من طريق الخؤولة وكانوا كلهم على دين

(1) قامت القوات البريطانية اثر انهزام الاسبان في الارمادا بحملات عسكرية بحرية ضد لشبونة خلال ماي - يونيه 1589 ولكنها فشلت ، وتشير الوثائق الانجليزية المعاصرة بان فشل الحملة يرجع الى تراجع المنصور عن تقديم المساعدات التي وعد بها والواقع هو أن المنصور قد استغل الصراع الاسباني - الانجليزى للضغط على خصمه فيليب الثاني ملك اسبانيا الذي اشترى حياذ المنصور بالتخل عن مدينة أصيلا يوم 13 سبتمبر 1589 . ومن الجدير بالذكر هو أن بالوثائق المغربية رسالة للمنصور تتضمن معلومات هامة وقيمة عن معركة الارمادا البحرية التي جرت بين الاسبان والانجليز صيف 1588 .

(2) تم احتلال الانجليز لمدينة قادس خلال يوليو 1596 وما أورده الفشتال من معلومات قيمة عن المضاعفات الخطيرة التي ترتبت عن احتلال قادس يدل على سعة افق مؤرخنا ومدى اطلاعه على مختلف الاحداث والتطورات المعاصرة .

(3) يعني الحركة اللوثرية نسبة الى مارتن لوتر زعيم المذهب البروتستانتي

(4) يقصد امارة Navarre الفرنسية

لاتريان فطمع لذلك طاغية قشتالة في ملك الافرنج لانقطاع وارثه وتحول دين اهله فاعتمل في التصريب بين سلطانهم وقومه واغرى بعض اهل بارس قاعدة ملكهم بالفتك به فاستحكمت النفرة بينهم وبين سلطانهم وتوجس في نفسه من ذلك فانتقل عن بارس الى روان (1) احدى ممالكه ووصل يده بيد ابيه عمه صاحب نبارة (2) ثم عاود باريس منازلها فدرس اليه اولياء طاغية قشتالة من اهلها بالغدر على يد قسيس قطعنه ثم غلبه السلطان المطعون على سلاحه فقتله به في الحين ثم هلك هو من طعنته فصار بسبب ذلك لصاحب قشتالة من مملكة افرانصة برطانية ويرجوم (3) والبعض من نبارة وصارت باريس بعد خروج صاحب افرانصة عنها ليجيه (4) ومعناه جماعة تدير الامر وصاحب قشتالة معهم في تلك الليجة كأحد تلك الجماعة وكان يمدهم بجيشه الذي بافلائس (5) ثم ملك صاحب نبارة ابن عم السلطان الهالك باريس واتصل أهل افرانصة وانضم بعض الى بعض فقويت شوكتهم واستفحل امرهم وتعاضمت صولتهم فسمت همهم الى استرجاع ممالكهم ومعاودة سلطانهم وشمروا لمغالبة طاغية قشتالة على ما يليهم من ممالكه فصمدت عساكرهم الى باريس فنازلوها واجلبوا على أعماله وممالكه وزاحموه بالناكب ولاحت لهم بوارق الظهور عليه فتهاكوا لهذا العهد (6) في مضايقته ووقفوا له بمدارج النفس فضاق منهم مخنقه وتكالبوا عليه مع صاحب بلاد نكلطيرة كل من جهته ثم عززوا بثالث الاتافي من أهل فلنضس (7) وهم أهل مملكة الطاغية القديمة التي منها أصله وقد انتقضوا عليه وصاروا عليه الباء مع الافرنج وأهل بلاد نكلطيرة فاضرموا عليه جهات ممالكه نارا وفتنه وصلى بنار حروبهم برا وبحرا فظهروا عليه ظهورا أطمعهم في انتشار سلكه ومقاسمته في ملكه وفي هذا التاريخ صمد اليه اسطول سلطنة بلاد نكلطيرة في مائتي مركب ونيف مشحونة بجيوش وافرة وعساكر النار على احتفال عظيم يقدمها دون كسطوبان (8) الذي كان اوفده على امير المؤمنين والده دون انطون سلطان برتقال النازع الى بلاد نكلطيرة عند تغلب طاغية قشتالة على الاشبونة حسبما قدمنا وطارت لنوى زحفها طيارات الطاغية واغربته الناعقة وتضاعدت من الضر الى اوكارها مشرقة ومغربة حذارا من انقضاخ الفتح الكواسر عليها من مراكب أهل نكلطيرة

ص 136

(1) مدينة Rouen الفرنسية

(2) يقصد Heurl de Navarre

(3) يقصد

(4) يقصد بكلمة ليجيه La ligne

(5) يقصد Flandres

(6) يعني عام 1596

(7) يقصد ثورة الاراضي المنخفضة

(8) Don Gristophe بن Don Antonio المطالب بالعرش البرتغالي

المائلة لعظمها وجفانها على تيج الموج كالمعاقل الحصينة فاجابت على مدينة قادس من مدن سواحل قشتالة وهى الباب الاعظم الى ممالك الطاغية ومثوى التجائر الثقيلة من بلاده ومحط رحال الاموال الطائلة من ارضه ومرسى اسطوله وفرضة المجاز الى ممالكه والعقيلة المائلة على كرسيها فى بحر الزقاق انفة وعزة وتحصينا فافتض عذرتها اسطول الانكليز واستباحوا حماها وكانت اغربة الطاغية الاندلسية واسطوله المعد لسفر الهند جائزة عليها ومحامية دونها فأوجف عليها اسطول الانكليز ولم يكن لا من قبل بمدافعته فأوقع بها وكانت فيما زعموا خمس مراكب للطاغية مشحونة بالاهوال يقال فيها من السلع النافقة بارض الهند النامية الارباح يساوى المئين من الالاف فاتيح للانكليز الاستيلاء عليها والظفر بها واكتسحوا الاساطيل ثم اضرموا أعوادها نارا فاتي عليها التدمير تغريقا وتحريقا ثم اقتحموا المدينة عنوة واستولوا عليها بالسيف غلبا وقهرا فاستباحوها * واطلقوا أيدي العيث فيها فحصلوا من أموالها الطائلة وذخائرها المستبحرة وتجارها الثقيلة على ما لا يضبطه قلم حاسب ولاذ التجار من أهلها وأكابرها وحاميتها بقصبتها فاحاطت العساكر ونصبوا عليها مدافع النار وشاهدوا الموت الاحمر فالقوا باليد واستأمنوا وطلبوا الابقاء على مال بداره فداء يقال انه مائة وأربعون الف دقة ويقال مائتان وبعثوا الى قومهم باشبيلية فأعطوها عن يد فاخرج عنهم عساكر الانجليز فخرجوا متسايلين الى ارضهم ناجين بانفسهم من بين الناب والظفر ومقتنمين الابقاء عليهم واجتمعت على المدينة العساكر وسائر عمارة الاسطول وتهالكوا فى تخريبها واضرموا بيوتها نارا فاصرعوها الى الارض والصقوا مبانيها وقصورها بالرغام فأصبحت اطلالا دارسة كان لم تغن بالامس واقاموا عليها ستة عشر يوما منادين هل من مبارز فأعطاهم الطاغية الاذن الصماء وقد عظمت فيه النكاية وحلت به المصيبة وقد تصاعد أسطول الانكليز لهذا العهد من بعد تخريب قادس مع بحر الزقاق للعيث فى سواحل الطاغية وتدمير ارضه والاجلاب على ممالكه والتضييق عليه والمبالغة فى نكايته وهو متظامن لصولتهم ومستكين لا ينبس له عرق بحركة ولا يختلج منه خافية ولا قادمة لنهوض ولا مدافعة والبسته هذه المرة الشنعاء الدل والصغار وجللته الهوان عند الملوك اضداده فاطمعتهم فيه وفغروا أفواههم من كل جانب الى التهامه مكن الله منه بعنايته وعزته حزب الاسلام وجعل ملكه نهبة سيوف مولانا الامام

ص 137

ومازال(1) ايده الله تتوالى بها نزواته على أرض الكفر وطواغيث الشرك فتقتاد

(1) الانتقال الى صفحة 303 حيث يشير الفشتالى الى عزم المنصور على استرداد الاندلس وما قام به من محاولات لاستقلال الصراع القائم بين الاسبان من جهة والانجليز والفرنسيين والهولنديين من جهة أخرى وكيف أن الاسطول المغربى قد أصبح قوة يفتشى بأسها فى الدفاع والهجوم ، وقد قام الاسطول المغربى بهجمات على جزر كناريا وأحرز انتصارات عديدة بها كما يؤكد ذلك الفشتالى .

السبى والانفال ولا كالجزائر الخالدات التى ضرستها بانبيائها واضحت مشمرات اليد بما تستاق كل عام من سبيها المغرب بالطباء والعفر من نسائها العربيات الاصل والخلق يسجن الاذبال ويمشين مشى قطا البطاح تأود ارهب الحصور رواجج الاكفال وهو اليوم ايدى الله لهذا العهد بصدد الاكثار من الاساطيل رغبة فى الجهاد والاستظهار على عدو الدين قوى الاسر بحمد الله وافر العدد والمدد مراش الجناح بما اتيج لسيوفه المظفرة من الاستيلاء على الممالك السودانية المعينة بخراجها المستبحر ومعادن الذهب على التوسع فى الانفاق الذى لا يخشى عيلة ولا فقرا وبالسواد الاعظم المستاق من رقيقها على تسخير المجاذيف الثقيلة بالاساطيل كاجنحة الطير خفقانا وسرعة وطيرانا كمل الله تعالى قصده وأنجز وعده فانه احد وجوه الحيل التى كان بنى ايدى الله على أساسها الوثيق نيته الصالحة عند انبعاث عزيمته على تجهيز العساكر لبلاد السودان فى تلك داءه ونصر لوائه ان يجيب فى هله نداءه ويشحد عزائمهم الماضية وارهه حتى يبلغ امل الاسلام فى الجهاد ويفتح من أرض الاندلس من اقصى البلاد والاقطار البعاد بعزته وقدرته

واذ(1) جرت بنا جياذ الاقلام فى ميادين التقيد الى هذا المدى البعيد عن دولة مولانا الخليفة حامى بيضة الاسلام امام الامة كافل الملة تاج الخلافة مركز دائرة الامامة مولانا * الامام المجاهد ابنى العباس المنصور بالله امير المؤمنين ايدى الله فقد ان لنا أن نختم هذا السفر بمئاته الشريفة المنيفة التى وعدنا اول الكتاب بسوقها الى أن يسنى الله تعالى بفضل على يده من الفتوح والظفر الممنوح ما يستفتح به ان شاء الله سفرا اخر متصل موصول الاخبار المتقدمة بصلة من اخباره الحسان وعائدة من مآثره الكريمة الباقية مع الايام وبالله نستعين وبجبل عضده نعتصم واياه نستغفر من زلل القول والعمل انه هو الغفور الرحيم .

ص 170

(الناحية الادارية) (2)

واما(3) العدل الذى قوام الملك ونظامه فقد اجمع أنه ماري من ملوك العصر اعدل منه ايدى الله وما فى الارض اليوم مملكة جارية على حكم طريق العدل وقوانين الشرع ومناهيج السنة احسن من مملكته ولا سلطان اعدل من سلطانه ولا وطن اكثر رحمة واسلم اعتقادا واوضح مذهبا وامتن ديننا واكثر لاهل الخير والصالح جمعوا وابعد عن البدع والناكر نزاهة واعتصاما اجمل من وطنه المبارك واياته الكريمة الامامية وهما بحيث يعترف

(1) الانتقال الى صفحة 169 .

تبدأ من هنا دراسة المظاهر الحضارية فى عهد المنصور .

(2) اقتضى امر تنظيم المعلومات الحضارية فى عهد المنصور وضع هذا العنوان الخاص .

(3) الانتقال الى ص 193 .

به الصديق والعدو ولا يجحده منصف والمكابر منقبة خص الله بها هذه الايالة النبوية والامامة الكريمة الحسنية ليدل بها على شرف النجر وكرم المحتد وطهارة الاغراق ولما ورد أن الخلافة انما خص بها من يشاء وشرعها فيهم لكونهم مجبولين على العدل الذى هو اقبح الرذائل حسبما نص على ذلك أئمة المذهب وعلماء السنة وقد صدق في ذلك الخبر الخبير لما شاهدنا من سير الخلفاء رضوان الله عليهم ومعدلتهم فى رعاياهم واماننا ايده الله اجراهم فى ذلك على سنن والده الامام رضى الله عنه الذى هو واسطة عقدهم والقطب الذى عليه مدار فلکهم ولذلك كثيرا ما نراه ايده الله يؤثر سيرته الحميدة ويجهد نفسه فى سلوك طريقه القويمة وجادته المستقيمة ويمضى رسومه الكريمة على الاطلاق ويأمر لى انا عبده ومن خصه من كتاب الانشاء ببابه العالى بكتب ما يجد بعلامته الكريمة من رسوم اسلافه الكرام والاوامر القديمة بالتجدد على كل ما يرفع الينا من كتبه رضى الله عنه على الاطلاق من توقف ولا اعمال نظر فى مضمونها ايثارا منه ايده الله للعدل وعلمنا منه بأن الامام رضى الله عنه فى ذلك ثالث العمرين وفاروق زمانه بلامين ومثائر امير المؤمنين ايده الله فى ذلك يضيق عنها حجم الكتاب خصوصا ما يرجع الى المحافظة على حدود الشريعة فلقد كان * ايده الله فى ذلك صلب العود قوى الشكيمة أشد الخلفاء انقيادا للشرع منصفا حتى من نفسه فيما يتوقف عليه حكم الله ومن اغرب ما يحكى فى ذلك من مثائره ايده الله على حسن معدلته ايده الله وشرف انصافه قضية البغل وكان من خبرها ان رجال قائد رواء امير المؤمنين والقيم على مراكب الخلافة العلية عثروا على بغل عليه سمة دواب امير المؤمنين التى تمتاز بها فرفعوه الى قائد الرواء وادعى الرجل ملكيته فترافعا الى قاضى الجماعة الشيخ الفقيه العلامة الاوحد ابى الفضل قاسم بن على الشاطبى فى يوم القعود للفصل بالمحكمة من ديوان الخلافة العلية فادى قائد الروى بدعواه محتجا سمة لامير المؤمنين التى على البغل فعارضه الرجل فدعى الملكية وطالبه القاضى بالبيئة فلم يحضرها فاستفهم حينئذ قائد الرواء عن البغل أله أم لامير المؤمنين فقال بلى هو لامير المؤمنين فقال اذن يحلف امير المؤمنين على بغله يمين الاستحقاق وحدثنى القاضى ابو القاسم هذا أنه لما رفع القضية لامير المؤمنين وعرفه بتوجيه اليمين عليه سر ايده الله وامر من حينه باسلام البغل الى الرجل من غير أن يبلو عليه شيء من تخليل الانقباض للحكم عليه ولا لاحت عليه شواهد الاتفة التى تلحق جابرة الملوك الذين لا يميزون حقا من باطل وحاليا من عاقل قتل والولد سر ابيه فقد روى ان امير المؤمنين على بن ابى طالب رضى الله عنه تحاكم مع رجل فى حدود ارض كانت بينهما الى القاضى شريح رحمه الله فانكر الامام رضى الله عنه ما ادعاه خصمه فقال شريح لادمع الك بيئة فقال لا فقال لعل كرم الله وجهه اذن تلزمك اليمين على نفى

س 194

دعواه فقال على رضى الله عنه الحمد لله الذى ارانى من أمة محمد صلى الله عليه وسلم من يقضى لمساكينها على خلفائها فكانت هذه المنقبة الجليلة التى لمولانا الامام امير المؤمنين ايده الله بها الاسوة الحسنة بجدده الامام على كرم الله وجهه اعظم منقبة تروى واية تلى وماثورة على منصة الاشتهار تجلى ومن مشهور مآثره فى العدل أيضا ايده الله غلظته على جبابرة العمال المشهورين بالحيف وارتكاب الجور وموالاة تكلمه عليهم وشمولهم بأنواع العذاب والانتقام وقذفهم فى السجون والمطابق مقرنين فى الاصفاد ومصادرتهم وغلق أبواب الشفاعة دونهم حتى يهلكوا تحت العذاب أو يصيروا بتوالى الاحقاب ونسج عناكب النسيان عليهم فى عداد الاموات كما فعل ايده الله وأجزل مثوبته بأصحاب صاحب الشرطة بالحضرة عند أمير المؤمنين وكان رجلا منبوزا عند الناس بارتكاب الجور والحيف وقساوة القلب واستحلال أموال الرعايا بالنهب لا يرقب فى مومن الا ولا ذمة حتى شهر بذلك وجلب اليه مقتا * أوجب منابزته واطراحه وأقعد به عن الاستعمال فى الخطط الى هلم وكان آخر الاعمال التى أوبقته وابارت صفقته وجلبت لسوقه الكساد وكسته مذلة العز أن أمير المؤمنين ايده الله كان سرحه فى عام ثلاثة وتسعين من معسكره بتانسيقت فى الاجناد مع مولاه قائد الموالى الملعوجى من عساكر النار بحضرته محمود بن على زرقون لاستيصال شافة أهل الدعارة والفساد بدكالة وبلاد حاحة وتمهيد السبل وانتزاع خيل العرب وتدوين المنحرفين عن الطاعة وجعل أمر الجيش لمولاه والنظر فى أمور الرعايا لداود بن على فأساء السيرة وأطلق على الرعايا من عماله النار الموقدة واستباحهم بالنهب ولما قفل للحضرة تعلق بأذياله أصحاب الظلمات واجتمع منهم عالم كبير فقصت بهم أبواب قصور الخلافة واقنية دور الملك وشوارع الحضرة وارتفع للسماء ضجيجهم ضارعين شاكين فامتعض لذلك أمير المؤمنين ايده الله واشتد غضبه لما وقد فى صدره من الشفقة على رعاياه فأمر بداود فاحضر بين يديه وقرعه بالتوبيخ واللامة فتنصل من العهدة وبرأ منها الى العمال المباشرين للرعايا فالزمه أمير المؤمنين بإحضارهم فجاء بهم كافة قتل بهم الى السجن فنظمت فى أعناقهم السلاسل والاغلال وضربت على أرجلهم القيود ثم جلس أمير المؤمنين ايده الله لسماع شكايا الرعايا وأذن لهم فى رفع ظلاماتهم فكان يوتى بالعمال أيام قعوده للفصل مقرنين فى الاصفاد حتى تقضى منهم حقوق الرعايا بمجلس الحكم فيعودوا الى محبسهم واستمر الامر على ذلك أياما عديدة يباشر أمير المؤمنين ايده الله النقض والابرام بنفسه احتسابا لله ووفاء لحقه فى عباده الذين امترعاهم له وجعل اليه كفالتهم حتى استوعب ايده الله المنظر فى أمور أهل الظلمات وانصفت الحقوق وردت المظالم وجبرت القلوب فارتفعت الاصوات وامتدت الأكف بالدعاء له والضراعة الى الله فى استدامة أيامه وكريم امامته ووارث ظل

ص 195

عدله ثم شفع ذلك أمير المؤمنين فاسقط على كافة من استعمل عليه داوود عماله من الرعايا تطهيراً لدولته من إثمهم وتكفيراً لذنب استعمالهم متقالاً عن كل نائبة فاعتاض لهم أمير المؤمنين من عنده ودفع لهم خراجها من بيت ماله وكان الواجب في ذلك أموالاً عريضة فارتفع بذلك النداء بكل مصر وفى كل أرض باسقاط ذلك تخفيفاً ورحمة فانطلقت السنة الشكر وارتفعت إلى الله الكلمات الطيبات الذكر داعية لأمير المؤمنين بما نرجوا الله أن يطرز به صحيفة أعماله وبره ثم جعل أيده الله فئة العمال وديعة السجون ورهينة القيود فضرب عليهم بسور من الإهمال والأعراض * لا تخترقه شفاعة حتى هلك جلهم تحت عذاب السجون ومحنة الثقاف إلى أمثال أمثال هؤلاء ممن يشق حصاه من جابرة العمال وقسات القلوب اللئ استصفيت أموالهم واصطلت نعمتهم وغودرت ديارهم بلاقع واودعوا بطن الرمس من طول الثقاف وتوالى السجن اراحة للبلاد والعباد من سوء ملكتهم نفعه الله وأثابه على صالح نيته ومن مناقبه الجليلة التي اشتهر منها أيده الله فضله ووسع الوري عدله الزامه العمال غرم ما تحلف عليه الرعايا انهم جاروا عليهم فيه وانتهبوه منهم حيفاً من غير احتياج إلى إقامة بينة احتياطاً منه أيده الله على الرعايا وكسرا لشوكة العمال جارياً في ذلك على ما ذكر صاحب المازونية في قضية الفقيه الامام الصالح عبد الرحمن المعروف بشبظون بفتح الشين والباء الموحدة الاندلسي وعلى ما ذكره أيضاً الامام العالم أبو العباس أحمد ابن يحيى الوئشريسى في القضية نفسها في كتاب الفائق له رحمه الله وعلى ما استحسنته امام المذهب مالك بن أنس رضى الله عنه فجراه عن الاسلام والمسلمين خيراً وكان أيضاً أيده الله قد سوغ للقاضى توجيه الحكم على من يتعين عليه حق في داره الكريمة وكم شاهدنا من اماء استاقها عمال الخراج هدايا لداره العلية فاذا قام من الرعايا من يدلى بحق في بعضها ولو بعد حين أمر أيده الله باخراجها من قصره لدار القاضى حتى تستحق وربما وجه القاضى في ذلك من عنده من غير مشورته ثقة بما يعلم من عدله إلى قائد القصر وكبير الموالى العبدى بأبواب دور الخلافة عنبر الخصى فيامره باخراج من يتعين فيه من رقيق دار الخلافة فيمثل أمره عملاً على ما تقدم من اشارة أمير المؤمنين أيده الله ولو بسطت الكلام في هذا الباب لاستقل منه تأليف وحده بعدله أيده الله الذى جدد به اثار من مضى من الائمة الخلفاء أشهر بحيث لا يخفى وأما سيرته الكريمة أيده الله فى ملكه ورعاياه وخروجه ودخوله وجلسه وركوبه فأقول كانت سيرة الخلفاء رضوان الله عليهم من أول الدولة إلى أيام المتوكل عفى الله عنه سيرة مطلقة لم تحفظها قوانين ولا قيودتها ضوابط بل كانت الامور مسترسلة وجارية على مقتضيات الحال بما كانت الدولة عربية ساذجة غير مرتاضة للقوانين التي تملك زمامها وتمسك عن الاسترسال عنانها إلى أن صار الملك والخلافة للمولى عبد الملك

أمير المؤمنين المعتصم رحمه الله فجئح بالدولة الى السيرة العجمية بما كان تقريرها رحمه
 الله على السيرة العربية كما قدمنا وحمل الناس عليها حملا غنيا فشق عليهم ذلك
 لتنافر الطباع واضطربت الاحوال لتغيير العادة وايناس الامور الغير المعتادة ثم جله
 الله * من مولانا الامام المنصور بالله أمير المؤمنين أيده الله بالطبيب الماهر والحكيم
 من 197
 المدير الباهر الذي يحيل الصبغة ويولف الطباع الشادة فلم الشعت وجبر الصدع
 وسكن الهيعة ورتب الالقاب وواخى بحسن سياسته وحميد سيرته وجميل معدلته بين
 الشاة والذيب والضرب والنون والغير والبغير وجعل بين العرب والعجم رحم الخدمة
 الواصلة وقربى الصداقة الجامعة وندب لكل منهم أهل بلواه من الصنفين فاختص رؤساء
 العرب واکابر الدولة منهم بالمشورة والتدبير وقيادة عساكر الخيل الزينية واصطفى من
 العجم موالى انبتهم نعمته ودربتهم تربيته فنجبت طوائف عديدة ليس منهم فتى الا
 أضخم حالا وأعظم شأنا من أمكر ناحية فمن الاكابر المشاهير من الطبقة العليا منهم الذين
 لهم مزيد الحظوة والمكانة والتقدم على الجماعة كبيرهم سنا مول أمير المؤمنين أيده
 الله ولزيم بابه العالى من قبل الخلافة منصور باى لان باى لفظة عجمية معناها قائد القواد
 وهو لقب يختص به عندهم قائد جيش الاصباحية من جيوش النار شرقه أمير المؤمنين
 وميزه بتسميته تنويها لا رقا له هذا العهد من قيادة الانكشارية كانت له أولا الى قيادة
 الاصباحية ثم للفتيان الخاصان المقدمان على سائر الموالى بأبواب الخلافة العلية أبو الشاء
 محمود صاحب خزائن الدار وقائد جيش الموالى المملوجى من عساكر النار المعروف
 بجيش الانكشارية وصاحب فتح ممالك السودان الفتح الثانى ثم جودر قرعه فى
 الحظوة والمكانة وقائد جيش الاندلس من جيوش النار وصاحب فتح الاقطار السودانية
 الفتح الاول والمخصوص بمزيد الاستعمال فى الولاية وتقليد الخراج والجباية ويلحق
 بهما الفتى عمر رديفهما قائد جيش أهل السوس من عساكر النار بحضرة الخلافة
 العلية وتلى هذه الطبقة فى الجلالة فئة أخرى ردفا لهم فمنهم حيوان وبختيار ولبيب
 وبغا وفلان وفلان من أمثالهم ومن دونهم من ضمه الحجر المتخذ لهم بايوان الخلافة العلية
 وكانوا عددا جما يضاعف أمير المؤمنين منهم مؤن بما كان أيده الله عنى لعهد الكريم
 بجمعهم والاستكثار منهم وتفريقهم واحتوائهم واستكفائهم فى خواص أمور الملك والثقة
 بأمانتهم على المهجة وانتقامهم للتصرف بين يديه وخدمة بساطه ومناولة طعامه والوقوف
 على رأسه وموالاته ركابه وتجميلين بالملابس الجميلة والديباج وسائر أنواع الحرير
 والمناطق المذهبة والسيوف المجلاة والعمائم الضخمة الموكلة ببديع الصنعة المحكمة على
 رؤوسهم كالصواريخ فصاروا لذلك أبهى حلل الملك وطرزا على ملابس الدولة واتخذ من
 هنا الجنس الذى هو جنس العجم الصنف المسمى * بالبياك وهم أهل القائنس الصغرية
 من 198

المذهبة ذوات الاعراف من ريش النعام الملون يقفون سماطين أمام قبة جلوسه من الايوان فى الحضر وأمام فسطاط جلوسه فى السفر والصنف المعروف بالسلاق وهم أهل القلانس الطويلة البينة مسبوغة على المناكب ويناط من أعلا الجباه جعاب صفرية مذهبة يقف هؤلاء خلف البياك سماطين ايضا من خلف البياك الصنف المعروف بلبردرش أهل اللقايف وهى رماح قصار غليظة العصى مغطاة بالحريز وغير مغطاة وهرصة بمسامير بيض وغير مرصة ركبت عليها اسنة عظام وزجاج هائلة تنبت من ريشتى كل سنان منها أضلاع مستقيمة وغير مستقيمة يقف هؤلاء خلف السلاق سماطين أيضا ثم الشنشرية وهم الذين يتولون مناولة لطعامه وصنعا ورفعها وغسلا ومسحا جعل نظرهم لقائد سفرته وقيم جفانه وهرتب صحوف خوانه بختيارهولى أمير المؤمنين ومن سباياه بوادى المخازن ويقال انه ولد القنت دون ثم القبجية وهم حفظة الابواب وحراسها قدم عليهم حاجب بابه العالى ونشاة دارهم الكريمة القائد مولود مولاه ثم خدمة سريره الكريم وانماط جلوسه وسدنة كرسيه كل هؤلاء لا يحصوا من غاشيتهم أبواب الخلافة وأواوين الامامة يتداولون بها وظيف الخدمة وملازمة الابواب الشريفة كل يوم مناوبة وتزيد القبجية على من سواهم بمبيت طائفة منهم تحرس الابواب ليلا وتطوف على مسايف السور المحيط بقصور الخلافة ثم الشسواس وهم الطائفة التى تتولى ضبط الجيوش عند المصاف فى حرب أو سلم على الكتب السى الجهات والاقطار بانهاء خبر أو نفوذ أمر أو تقرير ظالم أو جائر أو تصفيد خارج ولا مكان فى المناوبة بين الطبقات المرتبة لملازمة أبواب الخلافة العلية وكل هذا مما زادت به دولته الشريفة على سائر دول أسلافه الائمة الكرام وخلفاء الاسلام بل وعلى سائر الدول بما جمعت من ربي العرب والعجم والفخر الذى ما اتفق لاحد من الامم وان كان أخوه المولى عبد الملك أمير المؤمنين المعتصم بالله قد عانى شيئا مما وصفناه لآكن كانت أيامه من قصر عمرها وكثرة أهوالها كخيال طارق وخبب بارق لم تستقر فى شىء أحواله ولا تمت فى كل ما يروم أعماله رجعا الى ذكر سيرة مولانا أمير المؤمنين أيده الله وكان اذا ركب أيده الله فى العيدين للمصلى أو خروج الى حركة أو دخول منها أو ملاقاة ولى عهده وهى الايام التى فيها الاحتفال وتظاهر بها جنوده فى زياها الذى هو شعار الاسلام وزينة الايام جندت الجنود وكتبت الكتابات وتمدت العساكر * أمام موكبه العظيم جبلين يتقدم الجبلين لواء من كل واحد منهما عند منتهى الجبل وكل قائد من قواد عساكر النار يقف عند انبعاث جبل جيشه تحت ألويته محفوقا بجيش من روساء جنده أهل الخيل الذين يدعون باكباشيات فاصلا بذلك بين جيشه وجيش من يردفه من خلفه وهكذا متقهقر الى اول انبعاث الجيش من تلقاء أمير المؤمنين وكل يعرف مركزه ورتبته لا يتعداه الى غيره بتقديم أو تاخير ولا يجد السبيل الى ذلك

ص 199

لوارد والترتيب الذي جرى عليه العمل في عساكر النار بالحضرة أن يتقدم لولا جيش السوس ثم يردفه جيش الشراقة وكل واحد من هذين العسكرين ينقسم حبلين ثم يردفهما العسكران العظيمان عسكر الموالي الملوحي ومن انضاف اليهم وعسكر الاندلس ومن لبس جلدتهم ودخل في زمرتهم وهذان العسكران المجران يسيران صفين متساويين لتعادلهما واتحاد رتبتهما واستواء منزلتهما في كل شيء حتى في التقديم على سائر الاجناد عند العطاء فتارة يتقدم هؤلاء وتارة هؤلاء مناوبة غير أن جيش الموالي الاعلاج يحظى بالمسير في الميمنة لمزية الولاء وكلاهما يحظى بهولة ركاب أمير المؤمنين يتقدم عليهما قائداهما الفتيان الخاصتان الجليلان محمود وهو قائد الموالي وجوذر وهو قائد الاندلس ما لم يقب أحدهما أو كلاهما في زحف لتمهيد أو فتح بلاد أو اقتضاء خراج فيخلفهما الاعلى من الطبقة الرادفة لهما من خواص الهوالى والماليك وترفع على رأس كل واحد منهما الاولية والرايات ويحفه عسكر مجسر من بلكباشات ثم يتصل بهذين العسكرين الداخلة العظيمة الفخمة الهائلة وهى المؤلفة من البياك والسلاق ولبردروش على ما وصفناه انفا من زيهم وترتيبهم فاما البياك وهم أهل القلانس الصفرية ذوات الاعراف الريشية فهم الذين يلون ركاب أمير المؤمنين يحف به بعضهم يمينا وشمالا ويرفع البعض رماحه اليزنية المنصورية امامه ومنهم صاحب مظلله العظيم المرفوع على رأسه كالقمامة يحمله حالة ركوب أمير المؤمنين القريب منهم درجة لقائدهم برويز مولى أمير المؤمنين والموالى له رتبة واذا كان أمير المؤمنين ماشيا على قدميه الشريفين حالة مروره الى المسجد الجامع على مقبرة سلفه الكرام للباب النافذ الى جهة قصوره او متقلب برسم الراحة فى المشتهى وهو الروض المتصل بقصر البديع الذى من اثاره الشريفة تولى قائدهم برويز رفعها بنفسه ويسير عن يمينهم وشمالهم السلاق وهم أهل القلانس الطويلة البيض المرسلة على المناكب ذوات الجعاب المذهبة المنوطة بها من أعلى الجباه * ويزيد هؤلاء على الحزام على ما كنا وصفنا من زيهم قبل بأجنحة طوال يوافونها أيضا من ريش النعام الباقي على أصل خلقتة (1) المتوسطة بالقلانس من أعلا الجباه ويرسلونها الى وراء ويسير عن يمين هؤلاء وشمالهم لبردروش أهل اللقايف وتتكيف من الجميع صورة هائلة تبعث للمهابة فى الاعين والرعب فى الصدور وتسير الجناث فيما بين سمطين هذه الداخلة مجنوبة صفا صفا الى الوية عساكر النار ومنبعث حبا لها المرودة يقودها صنف يدعون السراجة ركبانا وكانت جنائب الخلفاء من قبل يقودها الرجل من الوزعة فكان هؤلاء احسن زيا واكثر نلعا عند الحاجة اليهم فى الحروب ونحوها وجيش الاصباحية العرمرم

ص 200

(1) يياض بالاصل

الذى لنظر بساى لارباى(1) ينقسم كتيبتين عظيمتين تسير احدهما ذات اليمين والاخرى ذات الشمال أمام الموكب ويرفع اللواء العظيم الابيض الذى هو علامة على شعار الدولة المدعو باللواء المنصور على رأس أمير المؤمنين أيده الله يستامه من خلفه ثم من سائر الالوية عدد كثير أكثرها حمر وامامه الطبل العظيم الذى يسمع دوى صوته على البعد ومن خلفه الطبول الاخرى التى يقرع مع المزامير المعروفة بالغيطات واحدها غيطة يتولى النفخ فيها قوم من العجم أساتيد يتعلمونها فتنبعث منها أصوات وتلاحين لاتحرك الطبع ولا تبعثه على شئ سوى الحرب حكمة فلسفية ومزامير أخرى وجعاب طوال صفرية على مقدار النفير تسمى الطرنبطات مما أحدثه أمير المؤمنين أيده الله أيضا فى دولته ازدادت بها تلك الالة حسنا ومزيد فخامة ويردف هذه الالوية والالة من خلف أمير المؤمنين موكبه العظيم يمد على الارض جناحا من خيل الاسنة بالجمال والتتميمات وكم رأينا كافرين ترك دينه والتزم دين الاسلام ابتغاء عرض قليل من الدنيا يناله وكم قد سمعنا من مسلم فى أرض الشرك ارتد افتنانا بعرض يسير من عرض الدنيا وأخلق بخصلة يترك الانسان لها دينه الذى يبدل دونه نفسه أن تكون جليلة القدر عظيمة الخطر وأحوج الناس اليها وأفقرهم الى عطف القلوب عليه وصرف الوجوه اليه وهم الملوك والولاة انتهى

ثم(2) كانت الغزوة العظمى التى اقتطع بها أهل الشفر حامية سبته من أحزاب الشرك واقتادوا من سبيها نحو أربعمائة نفس ثم شفعها الله بارتجاع مدينة أصيلة واغلاق الكفار عنها اغتناما لفلته من لهوات أمير المؤمنين أيده الله ثم صرفه همته أيده الله الى اتخاذ الاسطول برباط سلا أمنه الله فتعددت مراكبه وعقد على رياسته لرجل من أهل المغرب يدعى الرايس ابراهيم الشط المثل المضروب فى الشجاعة والمعرفة بأحوال البحار والحصون وكتب له بذلك أيده الله تقليده الشريف من انشاء الكاتب أبى عبد الله محمد بن أحمد بن عيسى على رسم المصطلح الذى كان الانتقال عنه ونصه هذا ظهير كريم رفع للجهاد أعز منار واستل لاعزاز الله عسبا ماضى الفرار وهيا للجوارى المنشآت ثبح البحار أمر به عبد الله تعالى أمير المؤمنين المجاهد فى سبيل رب العالمين أبو العباس المنصور بن أمير المؤمنين محمد الشيخ بن أمير المؤمنين محمد القائم أيد الله تعالى أمره وأعز نصره للرئيس الانجد الاحظى الامضى المجاهد الاوجه الاكمل أبى سالم ابراهيم الشط ولما كان ممن علمت كفايته واشتهرت فى الجهاد عنايته وارتبت فى البر والبحر على الغايات غايته وأحاطت بتصاريف ذوات الالواح والدرر درايته رأى أيده الله أن يقلعه قيادة الاسطول ويقضى به لوظيفه الجهادية دميثة المظول ويسند اليه

(1) بايلر باى او بكتر بك قائد القواد

(2) الانتقال الى ص 302 .

رياسة القطائع والشواني ويحط زمامها من يده بيد الحازم اليقظ الذي لا يلم به الكسل والتواني فقدمه * أعلى الله قدمه وعرفه الخير والبركة في كل ما توجه إليه عزمه ويممه (1) على العمارة البحرية والقطائع الجهادية فليتقدم لذلك بما لديه من الجهد والبضيا والكفاية التي يستمد منها الصارم المنتضي عاملا بما يقضى له من الله الثواب ومنا مزيد العز ومزيد الرضى وأنا نسئل الله له توفيق الاعمال والبلوغ في هذا القصد الى أقصى مراتب الكمال بيمينه وكرمه فمن وقف عليه فليعمل بمقتضاه ولا يتعداه والسلام ولما كمل بناء حصن الفتح الذي هل به أيده الله تعالى باب البحر ومتبوا السفين من مرسى العرائش نقله اليه وانزله به توثقا بمكانه واستنامة الى حرمة وضبطه وصحة عهده ونصحته ووفائه وأدال منه برجل من العلم هاجر لمالكه الشريفة يدعى الرايس شعبان فهو اليوم قبطان الاسطول الامامى الجهادى ورئيس الجماعة من رؤساء المراكب الجهادية والقطائع البحرية

ومن (2) المآثر التي حسنت فيها أيده الله سيرته وحمدت طريقته تقسيم زمانه الى أيام الديوان وهي التي يجلس فيها للجُمهور والوفود وأحكام الجند ومناولة أمور المملكة بالنقض والابرار وخص بذلك يوم السبت ويوم الاثنين ويوم الاربعاء وكذا سيرته الكريمة أيده الله في كل يوم منها أن يخرج بعد الفراغ من وظيفته وقراءة ما كان يلازمه من الاوراد الى ايوانه الكريم وقت الضحى غالبا وبين يدي حضور الطعام فيؤذن للناس في الدخول على طبقاتهم وأولا قاضى الجماعة بحضرتهم ثم المفتى بها ثم من يحضر من كبار الفقهاء ومشايخ العلم ثم الحاجب وقائد القواد والكتاب ثم سائر أكابر الدولة وروساء الاجناد ووجوه الناس على طبقاتهم وعلى حسب مراتبهم فيأجلون مجالسهم بين يديه ثم يومر بالطعام فيؤتى به ويشرع الباب للماخيلين ويغص الايوان بالخلق ويواكل بيده أيده الله بقية الامراء الكرام ومن يخص من القرابة وكبار العلماء الذين سميناهم انفا يوترهم بذلك اجلالا للعلم وتعظيما لاهله فاذا أكل وضعت موائده أيده الله بين يديه وينادى بأهل البساط وأكابر الدولة للاكل منها تشريفا وتنويها ثم تتبع بجفان جمه وموائد أخرى متتالية ويدعى سائر الناس اليها طبقة بعد طبقة ومائدة اثر مائدة حتى يكتفى جميع الحاضرين ويفضل من الطعام ما يكفى أكثر من ذلك وكان أيده الله يعجبه الاكل بيديه ويدعو اليه الناس وينقبض لانقباضهم عن القيام للاكل وربما عنف على ذلك بالقول شيمة حسنة وخلق كريم في الفضل فاذا قضى ذلك وقام ودخل وأفاض ذلك الحجيج

(1) بيان بالاصل .

(2) الانتقال الى ص 204 .

وانصرف الجيم الفغير لمنازلهم وجلس اهل الايوان وأرباب المناصب وأكابر الدولة الذين عليهم مدار الامور يرقبون خروج أمير المؤمنين ثانيا فاذا حاز وقت الزوال أو كاد يخرج للجلوس وابراسيم أمور ملكه وسلطانه فيحضر خواص بساطه الكريم وكاتب سره ويناوله ما ورد على أبوابه الكريمة من الكتب من سائر الاقطار لكتب ما يخصه منها وتفريق غيره على الكتبة وتعرض عليه القضايا ومهمات الملك ثم يؤذن لسائر الاكابر والكتاب وأولى المناصب في الدخول فيأخذ عند ذلك أيده الله في العلامة ان كان اليوم يومها فتارة بيده الكريمة ان كانت الكتب أجوبة أو ظواهر وتارة بالطابع ان كانت مظالم أو براوات الاشغال والعطاء أن يأخذ في املاء الاجوبة على الكتبة أو في سماع ما يرفعه أهل الديوان من المسائل مناوبة يستمر على ذلك حتى يصلى الظهرين غالبا يوم الناس فيهما فيدخل الى قصره أيده الله * ويتفرق الديوان وهذا أيده الله دأبه غالبا في الحضر والسفر وربما عرض له ما يوجب انقباضه عن الخروج للغداء فيستنيب ولده الاعز عليه والمترف بالسكنى لصقه في حضرته المولى أبا فارس أعزه الله عند مغيب شقيقه ولى عهد أمير المؤمنين وخليفته من بعده وكبير بنيه الامراء الكرام المولى الامير الامام الاعظم أبى عبد الله محمد الشيخ المامون بالله أعزه الله تعالى والى أيام الراحة وهى التى تتخلل أيام الديوان لا يحضرها الا الندمان من الخاصة أو من ينادى من غيرهم لخدمة تعرض أو مشورة تتعين ان كان من أهلها واذا كان يوم الجمعة صلى أيده الله بالمسجد الجامع من قصبته السعيدة المنسوب الى يعقوب المنصور من بنى عبد المؤمن من خلفاء الموحدين وجلس اثر الصلاة على ضريح الامام والده رضى الله عنه بالروضة المشرفة الكائنة بقبلى المسجد الجامع حتى يقار الحزابون بين يديه سور الملك وما يتبعها من الآى وخواتم السور الى الاخلاص والمعوذتين واية الكرسي وخواتم البقرة وكل ذلك من أوقافه على ضريح الامام والده قدسه الله ثم يدعوا أيده الله وينصرف الى قصره الكريم من الباب النافذ على يسار الخارج من الروضة المشرفة وربما جلس هنالك لسماع المشتكين والنظر فى المظالم وأكثر ما يكون ذلك فى ايوانهم الكريم رضى الله عنهم يوم الاثنين غالبا وربما استناب على ذلك ولده المولى الامير أبا فارس أعزه الله عند مغيب شقيقه ولى العهد المولى الهمام أبى عبد الله محمد الشيخ المامون أعزه الله تعالى واذا عرض من مصالح الامة والنظر للمسلمين ما يصرف وجه عناية امير المؤمنين وعكوفه عليه وعين ايده الله لملزمته ولده وحضور مجلس حكمه قاضى الجماعة ومفتى الحضرة وصاحب المظالم وما اشكل من القضايا رفعه الملا الى امير المؤمنين ايده الله بالديوان الكريم فيقضى فيه قضاءه المصيب وينظر فيه نظره السديد واذا انصرمت من الزمان مدة تلتد ايده الله السجون وامر الملا المذكورين بالغدو الى ابوابها والنظر فى احوال المنكوبين وذوى

الجنايات فمن بان وجه تسريجه سرحوه وما اشكل رفعوه الى امير المؤمنين ايده الله وعرضوه والاحوال اليوم(1) جارية على هذه السنة الحسنة والطريق السوية كتب الله تعالى لمولانا امير المؤمنين اجرها واجر من عمل بها من اعقابها الكرام من بعده ومن الامور التي يتأكد حرصه ايده الله عليها ويصرف وجه اهتمامه اليها بعد الاطلاع على ما عليه احوال رعيته وعماله ويتفقد جهات ممالكه واعمال النظر فيما يتكفل المسلمين بصلاح احوالهم وبسط اموالهم وكلما انس احدثه محاسنها او ثلثة تلافى سدها لا يشغله عن ذلك شاغل ولا يصرفه عنه صارف واما معرفة اخبار الافاق الشاسعة والاقطار البعيدة والاطلاع على انباء الملوك اضداده واوليائه وبث اصحاب الاخبار في البلاد دانيها وقاصيها واذكاء العيون في سائر جهات ممالكه من داره الى اقصى المغرب بل والى قاصية السودان اليوم(1) من ممالكه فهو في ذلك ايده الله اية باهرة وعصمة للاسلام ظاهرة فله من رجاله المصطنعين على كل مراقبة رصدة وعلى كل ثنية نقباء وفي كل خلوة او جلوة عيون اذكاهم موكلين بنقل ما يحدث من خبر او قصة او يدور على اللسنة وله في كل صنف عين كائلة واذن واعية وطلائع مرتبة فكانت الاخبار لذلك تسبق اليه قبل بروزها للناس بايام وباشهر وربما استأثر بعلمها وطوى ذكرها عن الناس كافة ولايكاد يخلو له يوم من ورود وارد بخبر على بر أو بحر وكان عمال ثغوره وولاة الاطراف من ممالكه وبلاده يجهدون انفسهم جهدها ويذكرون على كل ثنية لعلمهم يحظون لديه بانها الاخبار اليه وتطيرها لجناحه على أول موردتها وانبعاثها ثم لا تكاد ارسالهم ورقاقصهم تصل اليه الا وقد الفوا الخبر قد تقرر لديه وسبق اليه باوعب مما كتبوا واشفى مما سمعوا فيقفوا موقف الحيرة والبهت وربما تهكم ايده الله تعالى على بعض اصحابه في الجواب عن خبر يظن انه قر اغرب به وهو قد سبق اليه بامد بعيد فيقول له ما معناه لايزال على هذه العناية المشكورة من انها الاخبار والمسارة بها والمسابقة قبل كل احد الى ابوابنا نفاذها وهذا باب لم يزل يعنى به قديما وحديثا اولو الحزم من الملوك لما يبنى عليه من جلب المصالح ودرء المفاسد والاستعدادات للامور قبل هجومها وامير المؤمنين ايده الله اشد حزمًا واعظم تيقظًا واكثر ضبطًا ممن رىء وسمع به في ذلك من الخلفاء العظام والائمة الاعلام ولقد بلغ به الاغراق في مذاهب الحزم ايده الله الى ان اخترع لهذا العهد (1) اشكالا من الخط على عدد حروف المعجم يكتب بها فيما لا يريد الاطلاع عليه من اسراره ومهمات اموره واخباره يمزج بها الخط المتعارف فيصير بذلك الكتاب ملعًا مستغلقًا فلا يجد المطلع عليه بابا يدخل منه الى فتح شيء من معاني الكتاب ولا الوصول الى فهم

(1) يوافق ذلك عام 1002 هـ

سر من اسراره حتى لو تلف الكتاب أو سقط أو ضاع أو وقع في يد عدو لامنت غوائل
الاطلاع على اسراره فكان في ذلك آية اعجز بها الوري ثم نوع ايده الله هذا الخط الى
انواع يخص ولي عهده منها بنوع يرجع اليه في فك معمي كتبه ثم اذا جهز احدا بالانسائر
أو بعثه سي غرض رسالة أو قلده جانباً من أطراف ممالكه ونغوره * ناوله خطاً من تلك ص 207
الخطوط يفك به رسائل امير المؤمنين ويكتب به هو من عنده فيما يريد تعميته من الاخبار
وخبيا الاسرار(1) فغتم بذلك ايده الله على اسراره ختما لا يقض بحدس ولا يدرك بمعنى
ولا حس ولا يرسم حده بنوع ولا جنس وصارت هذه المنقبة من اعظم آثاره في الحزم
وحسن الضبط ومن اشد اعوانه على الاضطلاع باباء سلطانه وشد اواخى ملكه وضبط
امور رعيته وبلاده امتع الله به الاسلام وخلد امره مع الايام واما السياسة فاقول هذا الباب
كالجامع لما قبله لكون حد السياسة من حيث هي تعم الجميع واما ما يرجع الى السياسة
الخاصة التي هي جبر القلوب واستيلاف الشمارد وتسكين المرتاب وارضاء الموالي
ومداحات العدو وجمع التفريق وتفريق الجمع وانتهاز الفرصة عند تأتياها والعمل على الحزم
والاخذ بالحذر وامضاء العزيمة عند تحقيق الظفر والدفاع بالتى هي احسن عند اشتباه
الامور فمضمار لا يبلغ فيه ايده الله شأوه ولا يشق غباره واما جبر القلوب فاشهد انه
ايده الله في ذلك وحيد الائمة وفريد الخلفاء الاجلة حضرت ليلة بين يديه ايده الله أنا
واخى بلدا ووطنا وصاحبى عشرة طويلة ورفيقى مدة مديدة منذ عهد الشيبية وزمان
انشاب مجالس العلم والاخذ عن مشيخته الكاتب الفاضل ابو عبد الله محمد بن علي
الفشتالى ومعنا الحاجب المعظم الصدر الكبير القائد اوبو محمد عزوز بن سعيد الوزكىتى
وقد كنا افضنا في الحديث مع مولانا امير المؤمنين ايده الله حتى جن الليل وانصرفنا
لننازلنا بالبلد فوجدنا قصبته السعيدة قد غلقت ابوابها فانقلبنا الى الايوان الكريم
وبتنا في ضيافة امير المؤمنين ايده الله وكرامته وبرز للعبيد ايده الله من قصره
الكريم ومتعنا بمسامرته ليلتئذ فاتفق ان استدعى منى ايده الله ومن صاحبى ما عندنا
من مهمات الاجوبة المكتوبة للجهات والاقطار فرارا من البطالة ومن تاخير عمل اليوم للغد
فناولته ايده الله ما لدى من السجلات ولم يكن عند صاحبى غير كتاب من امير المؤمنين
الى القائد الصدر ابي عبد الله محمد بن ابراهيم بن بجة يعزبه في ولد توفي له
فاعتذر صاحبى بانه لم يحضر غيره وانه ليس من المهمات التى تتكلف ليلا فرد عليه امير
المؤمنين ايده الله وقال له او ليس فى الكتاب تسليية المخاطب به وجبر قلبه وفى المبادرة به
دليل على الاهتمام بشأنه فقلنا جميعا بلى يا امير المؤمنين فقال ايده الله واى شىء

(1) فى مجلة الاسبيريس Hespèris لعام 1927 ص 221 نموذج للشيفرة التى اخترعها المنصور .

اوكد واهم من جبر القلوب فدعونا وفدينا وشكرنا وتناول ايده الله الكتاب فعلمه من حينه وهذا كما ترى * غاية في مكارم الاخلاق وجبر القلوب ومراعاة السياسة .

ص 208

(الناحية الاقتصادية) (1)

ومن (2) اعظم آثاره ايده الله تعالى التي تنقصر فيها اهل الدول العظام عن قرة ومسبار غورة حاشا مولانا الامام المهدي رضي الله عنه وقدره المعاصر السكينة التي ابتدع رسومها واخترعها ببلاد حاحة وشوشاوة من عمل مراكش وعلى مسافة القصر منها وهي من الامور التي اتفرد ايده الله بتدبيرها فجاء للناس منها بآية الاعجاب والغرابة اذ يرون ذلك مما تختص به تربة بلاد السوس التي اخترعها بها مولانا الامام المهدي والده قلته الله حسبما قدمنا فكان كل من تولى الخلافة من ذريته الخلفاء الكرام منه الى مولانا الامام امير المؤمنين ايده الله نجله يقطع بان ذلك لا يتأتى من جهة الامكان في غير ارض السوس ويعتقدونه مذهبا وقوفا منهم رحمهم الله في ذلك وفي غيره مع المألوف من الامور والمشاهد من الاحوال فسدوا باب القياس واعمال التجريب ووقفوا مع التقليد * فسدوا شأن الانبعاث الى اختراع الاشياء وتوليد الامور والتهم بما لم يمتص منها في سالف عصر ولا تقدم العمل فيه من زيد ولا عمر فسادا في العقل ولا خللا في حاسة الفكر واضربوا صفحا عن قول الحكماء كم (2) (الاول) (2) (الهمم ورضوا بالسهل وقنعوا باحراز الوجود الى ان جاءت دولة امير المؤمنين ايده الله فرفض التقليد واتسعت التوليد والاختراع واطرد قياس المشاهد على الغائب وعظمت الانفة من الاقتصار على الكفاية فجاءت الآثار بادرار الفتوح ونباله الصنائع وتحكم الحضارة ولطف الاختراع والتوليد وسعة الذرع وضخامة اشكال بحيث لا تشبیه بينها وبين ما تقدم زمانها ابقى الله ايامها ونصر اعلامها وحفظ على الاسلام امامها وشان هذه المعاصر شان الخوارق الخارجة عن طوق البشر جفاء وعظمة وتوطيد او تشييدا ما شئت من برك رحبية وجفان كالجواب وقدر راسيات ولوالب فلسفية وحركات هندسية ارتاد ايده الله للاولى منها البسيط الافيج بوادي وال من بلاد حاحة وانفذ اليها العرفاء بامور المعاصر وتصاريقها ومقاييسها ومقاديرها والتربة التي تركوها غروس قصبتها (2) (قدس اليهم اهل البلاد زعموا (3) في سبيل الملاطفة واعمال الحيلة في ل عزيمة امير المؤمنين واطعامه عنها فحدث الملا ايده الله عن تعنيف امورهم وتعسفها فاتهمهم وتلفظن لاذهانهم وتهتدهم وردهم ثانيا على اعقابهم وخالفهم بمن يتق

ص 280

(1) اقتضى تنظيم الموضوعات الحضارية وضع هذا العنوان .

(2) الانتقال الى ص 279

(3) بياض بالاصل

به صدقوه (1)) حينئذ النظر واخلصوا النية والعمل رغبا ورهبا فتمت الارادة ونجح
المسعى واحاط الحدس والتقدير بسائر امورها واعمالها وتصاريها ثم انطلق العمل
وغم الاغتراس بالقصب الاوطان (1)) ديار الطحن ومساكن العمل ومخازن الشعير
واهراء الحبوب والبرك (1)) تمتاز منها قدور الطبخ مياه السكر اوان الطحن ثم
افرغ القدور الراسيات والجفان والجوابى ووقع الاحتفال من ذك بما يوجب البهت
والحيرة ثم اجرى ايده الله لاستدارة رحاها العظيمة الاخشاب الجافية الاجرام النهر
المعروف باسيف انوال المخترق للبسيط الافيح يتسنىم ظهر السور السامى الذروة
القوى الاسر البادى الجناء الطامح العرف الى عنان السماء وتوصل الى امتطاء صهوته فى
سهل من الارض بتدبير احكمته الفلسفه والهندسة يتطاطا له حتى يركبه اولا على وجه
الارض من ذراع وذراعين ركوب الراحلة الداخلة الدلول ثم لايزال تسمو به نهضته
على التدرج متصاعدا الى السماء وقد تماسك باعرافه ولزقت بظهره حياته (1)) بين
أطمه حتى ينحدر عند مصبه من ميازيبه على لوالب الارحى من اربعين ذراعا ونحوها ثم
عززاها ايده الله بالثانية التى اخترعها على الرسم ببلاد شوشاوة * واذا القيت عصا
التسيار بمعصرة منهما رايت مجمع الورى وأول الحشر وقرية النمل وكورة النحل
ومدرج الدر لكثرة ما ضمت من العملة وحشرت من الخلق ولا تسأل عن
هولها ولغظ الاصوات بها تدل على عظمة شأنها وضخامة احوالها
على ضخامة الملك وسعة ذرع الدولة وقد قطعت معاودة الكراء فيها اليوم
لطائفة من اهل الدمة (1)) عن كل سنة وناهيك من امام يستنتج بسديد رايه
وصالح تدبيره ولطيف توليده هذا القدر من الخراج الوافر الذى لايزال بيت المال هنيئا
بمرى اخلافه مع الايام ان شاء الله بباب دار الملك وعلى عتبة حضرة الخلافة عفوا من غير
احتياج الى ما تحتاج اليه الجباية من تجهيز العساكر المعينة على انتزاع نواجدها وهو
اليوم ايده الله بصدد استحداث ثلاثة لصق اختها بشوشاوة قوى العزم على الاستكثار من
المعاصر حتى ينمو العدد ويتضاعف الخراج كمل الله تعالى مقصده وثبت قواعده واجرى
على ما فيه صلاح المسلمين مصادره وموارده .

ص 281

واما (2) ما يفرغ مع الايام من مدافع النار ومكاحلها بدار العدة المائلة قرب ابوابهم
الشريفة من قصبتهم المحروسة المذكورة بزفير الاكيار وزبر الحديد لفتح جهنم الى ما يجلب
مع الاحيان على يد المعاهدين من تجار الحريمين من السيوف الهندسية والقسى
الرومية والمكاحل النارية فشى غصت * به الخزائن السلاحية والديار العادية واذا

ص 304

(1) بياض بالاصل

(2) الانتقال الى ص 303 .

وصلت الى عضاب الاكر الحديدية والحجرية والرماس المائل كالجبال الراسية والبارود المنبت في الدهاليس الندية والمخازن الرحيبة رأيت ما يبلى الفكر ويوجب البهت ولقد بلغ الاعياء في الحزم لهذا العهد الى اتخاذ حصن دار الجلد من قصبتهم السعيدة لاختزان البارود وحب الجوف بعيد الغور ندى الارض بالغ اقصى مبالغ الضخامة والجفوة قد احاط به سوار الخندق الممنع البعيد المهوى الى قرارة الارض قد حتم عليه التحصين بأبطال الكيس واختصته الشريفة والهمة الكريمة الامامية باحتكار الفاضل عما تمتاز منه الثغور والحصون والمعاهد والاطراف والممالك القاصية والاقطار البعيدة الشاسعة كل ذلك عدة للجهد وحيطة على البلاد وحماية لبيضة الاسلام الوثيق العماد استل الله تعالى لمولانا الامام ظل الله في الانام مشىء الاثار التي عرف فضلها الاسلام بقاء يخلق اثواب الايام ونصرا تغفق بعزه الرايات والاعلام وتحصد سيوفه المناققين وطواغيث الشرك وعبدة الاصنام بمنه وفضله (1) .

الناحية الاجتماعية (2)

ذكر مآثر مولانا الامام المنصور بالله امير المؤمنين ايده الله واولا ما يتعلق بذاته الكريمة خلقا وخلقاً .

فاما الخلق فاقول وبالله استعين ان الله بلطيف حكمته فضل هذا النوع الانساني بأن خلقه في احسن تقويم ثم قسم سبحانه هذه الهيئة الحسنة والصفة الجميلة التي اخترعتها قدرته ودبرتها حكمته في سائر اشخاصه فجعل صورها تتفاوت فيه بالكيف والكم فمن ابيض واسمر واحمد واسود واعين واغور واقنى وأخنس ابلج واقرن وافوه واشفه واشبه وطويل قصير ومعتدل وجعل الكيفية الجامعة للمستحسن من هذه الاوصاف الجميلة سمة يمتاز بها من يشاء من عباده ليدل بذلك على ايثار من اتصف بها وعلى عنايته بشأنه لما جاء ان الله تعالى اذا أحب العبد حسن خلقه وخلقه ولما كان لهذا الامام ايده الله من الشأن عند الله ما شهد له بمغبة حاله من كونه حامى بيضة الاسلام وكافل امة نبيه عليه السلام وشرف الليالي والايام وامام الجماعة عند سائر الانام خصه تعالى بما اتاه من الكمال وحسن الخلق في الذات والصفات التي منها اعتلال القدر وتناسب الاعضاء وسبب الخلق وجميل الرواء ورقة البشر فجعل بذلك سبحانه صورته الحسنة قيما للبصار ومورد السوام والالفاظ ونهبة للاحلاق حتى انه بما اعطى ايده الله تعالى من تمام الخلق وحسن الطلعة ووسامة المخيا الذى يجول من تحت اديمه الشلال ماء النعيم من المهابة التي تفرق لها الاسود وتوهى الى الارض بالسجود بحال لو أبصره عليها

(1) آخر كلمة وردت في المخطوط

(2) اقتضى امر تنظيم المعلومات الحضارية وضع هذا العنوان .

مبصر في عالم من سرات الناس وساداتهم وهو لا يعلم من يكون لحكم لاول ما يقع عليه بصره انه اشرف القوم ومولاهم ومودع سر الله منهم لما قام ايده الله تعالى على ذاته المشرفة وطلعت الغراء من الشواهد التي لا يدانيه في وصف من اوصافها الكاملة وملاحها الجميلة الرائقة ولا سرى ولا سيد وسبحان مكنون الاكوان ومخترع الصفات والالوان في ابداع تكوين واحسن تقويم لا اله الا هو فتبارك الله احسن الخالقين واما الخلق فيتنوع الى الحلم وكظم القبط والدين والتوكل والصبر والعفو والعدل وحسن السيرة وجميل السياسة وكرم النفس والسخاء والشجاعة فاما الحلم الذي هو ميزان العقل ورأس العمل الديني والديوي فهو حلة مولانا الامام المجاهد المنصور بالله امير المؤمنين ايده الله تعالى السابقة ومنقبته الذي شهد بها وغلب عليه اسمها اجمع الناس قاطبة من عهد مولانا الامام المهدي امير المؤمنين والده قدسه الله الى هلم أنه أحلم الخلفاء كافة من أهل بيته الكريم واكثرهم اناة واملك لنفسه امساكا عند الغضب عن العجلة الموقعة في الخطأ عند اقامة الحدود والمواخلة بالجرائر ومذهبه الجميل ايده الله ادراء الحدود بالشبهات وتكفير السنة لعشر امثالها والتماس التاويل وقبول المذرة ورعى اللام فيمن لا يفضب الله والصفح عن كل ما لا يتعلق به من الذنوب حق غير حقه ولو كان مثل جبل احد ما لم يعد على المسلمين بضرر او يحدث في الامر من خرق فيشب حينئذ وثبة الاسد ويهجم هجوم القدر وتنسف عواصف باسمه الديار نسفا فلو لم يكن من مناقبه الشريفة ايده الله في هذا الباب ومثائره السائر المثل الا ما كان من تجافيه عن عبد الكريم بن مومن ابن يحيى الحاجب كان عند الخليفة الغالب بالله وكان بلى اللسان جموع العنان واغضائه عن جرائره التي احفظه كان بها يتنفي بذلك التقرب الى مخنومه الغالب بالله وكان بلى اللسان جموع العنان لكان ذلك كافيا وجميع مكارم الاخلاق لمولانا الامام المنصور بالله امير المؤمنين ايده الله ولقد سمعته ايده الله مرارا يقول ويقسم على ذلك (1) انه ما علم من نفسه اعتمد قط السطو باحد او تصدى الى نكبته لمجرد غرض نفسه وحظه او وتر له قبله قال ولو كنت اواخذ بذلك احدا واتبع الحسايف السالفة ما كنت لاقيل لعبد الكريم بن الحاجب عثارا ولا اهمل في القود منه ثارا وعلى ذلك فقد كان عندما صارت اليه الخلافة رفع محله ومكن في بساطه قدمه واثبته صدرا في دولته وجعلته بحى خلواته واضرب صفحا عن هفواته حتى كانه قد احسن فيما اساء وتلع من حيث ضر ثم اسف على فقدته عند انقضائه لايعبر عنه لما يعلم من نصحه الذي شفع له لديه وسمعته لذلك ايده الله يقول في حقه لو

كان يفتدى * لبذلت فيه الطارف والتأليد من كنوزى وهذا كما ترى خلق عظيم لا يوتاه إلا من اتاه الله شرف الخلق والتكوين من معدن النبوة وطينة السرى والمعجونة بماء الرسالة وأما الدين والتقوى وخشية الله تعالى والتنهل من الحول والقوة اليه وإظهار التعلق لعظيم قدرته والخضوع لجلاله والتواضع لكبريائه وعظيم جبروته فذلك شعاره أيده الله الذى يمتاز به ومذهبه الذى به يدين نفسه وعلمه الذى يروض عليه جوارحه وسيفه الذى يغالب به سلطان شهواته آخذاً نفسه أيده الله بأداء حقوق الله وفرائضه الواجبة التى منها حضور الجماعة والسعى للجمع وإداء الفريضة المكتوبة فى وقتها المختار شديد الحرص عليها كثير التأسف على فواتها ومماطلتها بوقتها حتى لربما عتف لذلك مؤذنه على اغفال التنبيه وتكراره أن عن له من أمور المسلمين المتدبرة ما يشغله ويصرف سمعه عن الاضغاث للنداء وكان سبيله فى ذلك أيده الله أن يوم بالناس كافة أيام الديوان المعقودة لتناول أمور المملكة بالنقض والإبرام وحضور الجُم الغفير وبالندمان خاصة أيام الراحة ومنها قيام رمضان وأحياء لياليه المباركة بالاشفاق ينتقى لذلك مشيخة القراء والاساتيد المبررين فى السبع وحسن الأداء والتلاوة ويستنفروهم لشهود رمضان معه فى الحواضر كالشيخ الحافظ أبى العباس أحمد بن على الزمورى المصلى كان الإمام والده من قبله منذ عام الفتح بفاس ثم بسائر بنيه الخلفاء من بعده إلى هلم جرا وغيره من مشاهير الاساتيد والقراء فكان أيده الله يقوم معهم ليالي رمضان كله ثم يبرز صباح كل يوم من أيامه لسماع الحديث الكريم أيضاً وسرد الجامع الصحيح للبخارى بين يديه يعقد لذلك مجلساً حافلاً من أهل العلم ومشيخته يرسم المذاكرة والتفهم فى أسرار الأحاديث النبوية ويحضر لذلك من كتب الفن بقصد الرجوع إليها فيما اشكل حصة وافرة من تأليف غريبة وكتب جمة النفع مما ضمته خزائنه الكريمة المشتتة على علم الأولين والآخرين فإذا حاول العلماء بميدان المذاكرة فى فهم مسألة شاركهم بغزارة علمه وملكوته وربما تناول رأيه السبق إلى فهم المسألة فيطبق المفصل بما يقر العين ويشفى الصدر ويبهت الحاضرين فإذا كان عشمى النهار وبرز للايوان وقعد للرمى بين يديه للسهام يجلس لذلك الموالي ومن فيه دروبة من كل صنف وتوضع لهم دأهم معدة لذلك فمن أصاب الغرض بسهمه وقرطسه شاد بذكره المشيد وصدع باسمه فيتناول الحصة المعلومة لذلك فتنبعث المنافسة الواقعة * بين القوم فى ذلك على مزيد التدريب والتخريج فى الرماية وهذا دأبه أيده الله فى رمضان كله حتى ينصرم والقصد فى ذلك كله جميل والنية صالحة (1) معه الله وأجزل (1) وإذا كان فى ليلة الأحياء قل من يستطيع

قيامها معه وكلما صلى فيالقيام لا بالقعود لما ورد أن صلاة القائم تفضل صلاة القاعد بسبع وعشرين درجة وكان يصلى صلاة الصبح بوضوء العشاء وأكثر ما كان يتفق له ذلك ليالى المسامرة ولطالما قطعنا معه الليل معشر الممتعين بمناذمته حتى يطلع الفجر فى بعض الاوقات أو يكاد فاذا انطلقنا الى مراقدنا تطارحنا سكارى من الكرى فيأخذ هو أيده الله على رسله الجلوس حتى يصلى الصبح بوضوء العشاء غالباً حدثنا بذات مرارا على سبيل التهكم بنا حيث يرانا تتمايل بين يديه من سنة الكرى وهو أيده الله أقوى من سمعنا من الملوك جسرا على المسامرة حدثنا أنه ما غالبه النوم قط بل ربما استدعاه يشرد عن عينه لايلافهما التيقظ والهجوم وهى خصلة شريفة خصوصا فى حق الملوك لما تدل عليه من شرف الهمة وصرفها عن الالتذاذ بالمقام الىالالتذاذ بأعمال الفكرة فى الامور العظام وكان مع ذلك أيده الله مواظبا على صيام الايام المستحبة عند العلماء فى كل شهر وله أيضا أوراد من الذكر ووظيف من السبحة أدمن عليها والتزمها منها مسبغات مولانا الامام والده رضى الله عنه الى أدعية أخرى جمعها هو ونظمها فى سلك أذكاره وسلسلة أوراده من ذلك الجزء الذى من تأليفه جمع فيه الادعية الماثورة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى كل ما يستعمله الانسان من العبادات والعادات ويقوله عند جميع الحركات والسكنات استقروا ذلك وتتبع جمعه واستخراجه من كتب الائمة التى منها جمع الجوامع للامام الحافظ الاسيوطى وسأذكر هذا الجزء عند ذكر تأليفه أيده الله وأورد هنالك خطباته البارعة التى من املائه أيده الله بنصها وكانت له أيضا نية صالحة ومذهب جميل فى حب أولياء الله وزيارة مشاهير الاموات منهم والرغبة فى لقاء من علم فضله ومثانة دينه وصحة تقواه من الاحياء اذ كان أيده الله بفضل علمه ووفور عقله وسعة درعه فى المعرفة و (1) فى الدهاء لاينخدع بتمويه المتومسين ونصب المحتالين الذين ياتون الدنيا من طريق الاخرة فهؤلاء أخس الناس صفقة لديه وأسقطهم فى عينيه أما الاموات الذين كانيتعاهدهم بالزيارة فالشيخ أبو عبد الله الهزميرى بأغمات أعمل الحركة الى جهتها مرتين من الحضرة وكتلاهما فى ابان الربيع وازدهار الارض بزخرفها بقصد زيارة ضريحه المبارك ولجده المقدس والتبرك بما هناك * من مشاهير الاولياء أمثاله كالشيخ عبد المجيد المدفون بباب قصبته وكان قبره قد غمره الردم وجر عليه الخمول لذلك ذيله حيناً من الدهر الى أن دل عليه رجل رءاه زعموا فى النوم فى قضية مشهورة عند الناس وعرفه بمحل قبره فشهد الرجل ونحن عند الردم حتى خلص الى القبر الى أمثاله من مشاهير الاولياء كالتونسى وغيره ممن ذكره صاحب كتاب

ص 174

(1) يياض بالاصل .

التشوف الى رجال التصوف فأما حركة مولانا الامام امير المؤمنين أيده الله الاولى اليها فقد كانت يوم الاثنين عاشر شعبان في عام اثنين وسبعين وتسعمائة وكانت حركة زيارة وراحة فاحتفل لذلك أيده الله بأفخم زى وأكمل بهجة وأرغد عيش وكنت يوم خروجه أيده الله من الحضرة تأخرت وراءه هنيئة فخرجت اقتفى اثر الركاب العالى فبينما أنا فى أثناء الطريق وقد اصفر الاصيل وهى على الارض طرازه المذهب وتراحت لى قباب الخلافة العلية تلوح من بين شرفات السياح وهو قصر اتخذته مولانا الامام امير المؤمنين أيده الله من الخشب المولف ذات الالواح بعمل عجيب موهو فيرتمل به فى الاسفار القريبة حسبما ياتى ذكره ان شاء الله اذ أدركنى شيخنا العالم العلامة السرى الفاضل الحسيب مفتى الحضرة الشيخ أبو مالك عبد الواحد بن أحمد الشريف الحسنى فارتجل نصف بيت عندما وقف على فى معنى التشويق وشكوى البين ومفارقة الاحباب وهو (أبا فارس بان الخليط وودعو) وقال اجز يا فلان فقلت (وولوا وحسن الصبر شيعوا) ثم قال (وغرد حادى البين وانشقت العصى وكاد فؤادى للنوم يتقطع) فقلت (الى الله أشكوا فرقة منهم وقد تجرعت من كأس النوى ما تجرعوا) ثم زدت فتخلصت للمدح فقلت :

لئن شرد السلوان عنى بعدهم ففى صحبة المنصور انس أجمع
ثم قال :

تدور عليه هالة لقبابه ومركزها قصر الخلافة يلمع
وقلت

سياج به بحر الندى متموج ومن أفقه شمس الامامة تطلع
فانتهينا الى المحلة السعيدة عن أبيات سبعة أو ثمانية وعمدنا الى بساط مولانا امير المؤمنين أيده الله ونهياً لنا الدخول الى مقامه الكريم فعرفته خبر الابيات وسردتها عليه فارتاح لها واستحسن ثم ارتجل أيده الله فغضب مخيماته بساحة اغمات وتلوم بها يومين وقصد للثالثة من يوم نزوله لزيارة مشاهير الاولياء فاعتمو ضريح الشيخ ابنى عبد الله الهزميرى وعاج على ضريح الشيخ عبد المجيد ونصل الى مشاهير الاولياء بالجبانة الكائنة خارج المدينة * تجاه المصلى فدعى بكل مقام منها وفرق على ذوى الحاجات 175 ص
هناك أموالا جمة على يد قاضى الجماعة أبى القاسم بن على الشاطبى والامين الفقيه أبى الحسن على ابن سليمان (1) حملوا الحقائق بالبركة والثواب وكان ممن صحب ركابه العالى أيده الله فى تلك الحركة المباركة شيخنا العالم العلامة قاضى

(1) بياض بالاصل .

القضاة بفاس الشيخ أبو مالك عبد الواحد بن أحمد الحميدى بما كان مولانا الامام أمير المؤمنين أيده الله استفدته عامئذ من فاس برسم القراءة معه حسبما أذكر ذلك عند ذكر علومه الكريمة ومشايخه الدين أخذ عنهم وكان لودعيا خفيف الروح حلوا الشمائل فاتفق أن بعث اليه الفاضل الكاتب أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله العنابى من أصحابنا بكبش وعسل أتخفه به فكتب اليه القاضى يداعبه ويمدحه بأبيات من نظمه ورفعها الكاتب أبو زيد الى شيخنا العلامة أبى محمد عبد الواحد الشريف وسأل منه أن يجيب عنه القاضى ويهزم لسانه عليه العذب الماضى فاستجاب أبقاه الله وانتدب وقدم لذلك مقدمة رفعت لاهل الاداب ومن اشتملت عليه المحلة المنصورية السعيدة من الشعراء والادباء والكتاب راية خفاقة وأقامت للبسط والدعابة سوقا نافقا وسال جميعهم أن ينسجوا على منواله ويحلوا حلوه نعاله وصاغ الكل من أشجاعه الرائقة ودرره المتناسقة قلادة حلا بها جيده وجلا من فقرها أ بكر القول وغيره فتباروا فى ذلك الميدان تبارى الجياد يوم الرهان وأنا أصف الحال وأذكر منظوماتهم على نسقها لما اشتملت عليه من غرر الادباء وحسن الفكاهة التى تصقل النفوس والارواح وتهدى اليها البسط والارتياح ونصها قال شيخنا العلامة أبو محمد عبد الواحد الشريف أبقاه الله تعالى الحمد لله فائدة لما تقرر فى الفطر السليمة والسنة القويمة ما يجب على العلماء من التعظيم وعرف اطراد ذلك بين الناس فى الحديث والقديم أهدى الفقيه الاجل سلالة الصالحين ونجل العلماء العاملين أحد كتاب ديوان الخلافة ومن له فى السكون والوقار المزية والانافة أبو زيد عبد الرحمن بن الامام علم الاعلام سيدى أبى محمد عبد الله العنابى رضى الله عنه ونحن بمحلة مولانا الامام المنصور بالله أيده الله لزيارة اغمات عسلا وكبشا لسيدنا قاضى الحضرة الفاسية العالم الامام العلامة وأحد الفئة وصدر هذه المائة ذى الاخلاق الحميدة والمذاهب السديدة أبى محمد عبد الواحد الحميدى استجلابا لمودته وصالح أدعيته فكتب سيدنا القاضى المذكور الى الفقيه أبى زيد المذكور ابيانا فتح بها الى

المباسة والمداعبة بابا على عادة الافاضل أمثاله فقال : *

أيا كاتب السر يا من بانى مخاسنه فى الورى باهره
هديت الى الشفا فأكرم بها منحة ماهره
وتبشبا سميننا له كلوة تفوق الكلى نعمة زاهره
فلا زلت تثبت كتب الانام سيوفا لاعدائه قاهره

ولما دارت هذه الابيات بين من بالمحلة المنصورية من الكتاب وتلقوها بالبر والترحاب فلهج بها الشادى والبادى وغرد بها فى أئر الركائب الحادى فوقوا الى مداعبة الامام ناظمها سهائر القوافى وطاروا لمباسطته بالقوادم والخوافى فاوجفوا على أبياته بخيل

البديهة والارتجال وقاموا لذلك على قدم الاستعجال فقال أقصرهم في ذلك باعا وأقلهم
بهذا الفن اضطلاعا عبد الواحد الحسن

اشيخ الجماعة يا قطبها ومن في العلى مركز الدائرة
شمنت بأبياتكم غارة فاحييت لى همة غابره
وذكرتنى مربعا لم تنزل قديما به مقلتى ساهره
وحركت فكرى بعلم غدت بصدرى مراسمه دائره
فهذا جواب لابيائكم الى ابن بدور العلى السافره
سليل الافاضل حقا ومن محاسنه فى الورى ظاهره
ثم قال وقال صاحب القريحة الوقادة والمحاسن المألوفة منه والمعتاده صاحب القلم
الذى تزرى شبانه بشبا السنان وتوقظ فقره من السنان الوسنان المثقف بثقاف الاداب
المنصورية أبو فارس عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم القشنتال يعنى مؤلف الكتاب سمح
الله له

أبحر علوم طمت زاخرة وشمس معارفها الباهره
لك الفضل عقدا فقد أصبحت كئائب نظمكم ثائره
وهزت صوارم ابداعها فصلت بها صولة قاهره
بقيت تشنن بها غارة لتنشر أمثالك السائره
وأردفتها بفقرات من النثر فقلت فخذها أعزك الله على عجل تسعى لجلالك العالم على
قدم الحياء والخجل وتقف فى مجال الاجادة دون طرف بلاغتك الاغر المحجل والسلام
ثم قال وقال الفقيه الكاتب المجيد والاديب الذى يبدى فن المحاسن ويعيد صاحب القلم
الذى يصيب من الاغراض كلاها ومفاصلها وتعترف له بقوة امضاء * من الصوارم ص 177
مناصلها والفقر التى رفعت للبلاغة لواء وارتدت من المحاسن رداء وضرب بها المثل فى
العدوبة ولقلوب الادباء خلوية أبو عبد الله محمد بن على بن عبد الرحمن القشنتالى
نسجت أبا مالك حلة بصنعاء أفكارك الحاضره
وأجريت ماء الربيع الى رياض فكاهتك الساحرة
وأخفقت قيد المعانى على مواكب أغراضك الظافره
عيون البيان ولاكنها لغير النهى لم تكن ناظره
فخذها بديهة من قد غدت وجوه فهاهته سافره
ووصلها بنثر يقول فيه فدونكم أعزكم الله هذه القطعة وقد طاهرت بين ثوبى وقصور
وسترت وجه عوارها ببرقع العجالة التى هى محل انخضاء فحول المنظوم والمنثور ولا غرورة
وانتم أرباب النظام وأمرء الكلام ان استنتجتم عقيما واستقرضتم فى هذا الفن مزجى

البضاعة عديما بقيتم تقيمون للعلم رسوما وتثبنون للمعاني حدودا ورسوما والسلام
ثم قال شيخنا وقال الفقيه المتفنن ذو الفهم القديم والادراك المستقيم قائد المسائل
العويصة بنواصيها ومستنزل عصم القوافي من صياصيها شعلة الذكاء والنير الذي
يزرى سناه بذكاء أبو عبد الله محمد بن علي الهوزالي حفظ الله مكانته وحرس مجادته

أيا تحفة الدهر يا ناظره وطرفة أيامه النادرة
وبدر العلوم التي قد نضت دجى الجهل أنواره الباهرة
ومن كرمعت في حياض المعاني له بديهته بالدكي ساخره
أنظمك أم قرقف بابل ولفظك أم نفثه الساحره
تعلل أرواحنا مذ عشانا بأرواح روضاتك الزاهره
أمن دارن قد سرى موهنا أم ارتاح أخلاقك الطاهره
فككتهم به عن أسارى القوافي قيودا بأرجلها دائره
فلا زلت يا شيخنا يهتدى بنورك في الليلة الساهره

ووصلها من نثره بقوله لاغرو أعزك الله أن جاءت لحضرة جلالك تمشى على
استحياء فقد راعها ما راقها بمحلك السامى من سنى وسناء ياله من علا لو سابقت
بديهة في العلا في ميدانه وكبى في الثناء عليه جواد بيانه ونبا عن المضاء في وصفه
كاشح لسانه وشبابة سنانه لازلت في أفق الجلالة بدرا يلوح للهداة التياحا وبحرا
للفضل ترده * الامال فتتمايل انشراحا وتشمل ارتياحا والسلام وقال شيخنا وقال
الفقيه المتفنن المشهور الاديب ملتقى راية الادب باليمين والمنتان أن لا يشارك في نيلها
باليمين من قصرت عن مجاراته من أرباب البيان الخطى وتسمن غارب الاجادة دونهم
وامتطى قيد اللواحق ببيانه وبنانه ومستوقف الطرف بلسانه وسنانه مجرى أنفاس المحابر
على صفحات المهارق ونجيع الكلمات على صفاح الصوارم في المأزق أبو الحسن على
ابن منصور ابن سليمان الشيعظمى أبقاه الله طول المدى محفوظا مما يتقى كلما راح
واغتدى

ص 178

أيا عالم العلم يا ناشره وحامل رايائه الظافره
وقاضى القضية التي فاخرت به الشرق مغربنا الظاهره
وناظم عقد المعانى التي جرت دونها المثل السائره
وازرت بفضل الطلا بالنهاى كذا بشدا الروضة الزاهره
وظلت تردد حسن الثناء ترويه عن نفسك الطاهره
وأخلاقك الفر لها قصدت عن النزر بالدرر الفاخره
وأيقظت عمدا عيون البيان من كل فتانة ساحره

تشير بمعنى لطيف الى محاسن اخلاقك القاهرة
وتبنت سحر البلاغة فى مهارق ظلت لكم شاكره
رويدك نبهت سرب المعانى بعيد الكرى فاهتدت حاضره
ونبهت كم من بليخ بها جديد الذكى نافذ الباصره
يطبق منها المفاصل غير هيابة ذى قوى ظاهره
تصرفت اقلامه بالكلام كالريح بالمزنة الماطره
ولولا المضاء بلا نبوة لشبهتها بالظبى الباتره
فلله درك من ماجد محاسنه جمه وافر
ومن سيد جامع للذكاء حلو الشمائل والـ (دره

ووصلها أيضا من نثره بقوله اليك أيها السيد الذى اهتدى بمصباحه واعشق الى
غرره وأوضحه بنيات أفكار تمر الى كفالتكم يد الافتقار ملتزمة منكم نيل القبول والاعضا
والنظر اليها بحسن التجاوز والرضى فمثلكم من كفل وصفح عن العى والخلل واستقرض
فارضى وسامح فى الاقتضاء أبقاك الله للادب نحوك حله وتجمع يقاصيله وجمله *
وللقريط نقطف زهره ونجتلى غرره ما ذر شارق ولاح سنى بارق والسلام قال شيخنا
وقال الفقيه الاديب الكاتب الذى ارتفع صيته فى دماء الاخلاق وسما وغدا بين النظراء
فى عذوبة الشمائل علما وحصل من الادب على حظ وافر ونصيب ورمى الى غرض
الاجادة فى منازعه بالسهم المصيب وتدرع من حسن الخلق جنته لانتقلها سهام الانزعاج
والقصب ونسلت القلوب الى محبته من كل حذب أبو عبد الله محمد بن عمر بن أبى
القاسم الشاوى أبقاه الله تضرب به فى رين العريكة الامثال وتتهاداه لفضائله وفواضله
أندية الملوك والاقبال

ص 179

أمحى رسوم القضا الدائره وانسان مقلته الساهره
ومطلع شمس المعارف من مغاربنا حكمة ظاهره
وبحر العلوم التى أوجبت له الفخر والعز فى الآخرة
وقاضى عساكر ملك غدت لآخضه السبع كالساهره
ودانت له الارض طولا وعرضا فارسال أملاكها سائره
الى بابه تبتغى وطاة وأمننا لسطوته القاهرة
كفاك افتخارا أبا مالك حضورك أيامه الزاهره

أتتك أيها السيد الذى يقتدى بعلمه ويهتدى الى معرفة الصناعة الادبية بمثوره

ومنظومه بأسطة اليك أكف الاحتقار ومسفرة لجلالك عن وجه القصور والاعتدار وأنتم أعزكم الله محل التجاوز والاغضاء والنظر اليه بعين القبول والرضى أصلح الله بطول بقائكم عامة المسلمين ونفع بعلومكم مولانا أمير المؤمنين أيد الله سلطانه ومهد أوطانه ثم قال شيخنا قال الفقيه الجليل المقدار والكاتب الذى طار صيته فى حسن التوقيع وسلامة الصدر كل مطار الفاضل الذى لا ينسج الا على منواله فى السكون والوقار والاخلاق التى لا يستفزها العقار صاحب التوقعات المنصورية الكفيلة برد المظالم والاخذ بشبها قلمه بثار المظلوم من الظالم مفيد الاوابد الادبية بعقال والمعمل فى نيلها الوخذ والارقال حتى لاح بدرا فى سمائها واثلق وجاز عن سابقه فى مضمارها خصل السبق ذو المناقب الفاضلة والمزايا ومحط رحال الشكايا أبو محمد الحسن بن عبد الكريم بن عبد العزيز بن على أبقاه الله وأزمات الملهوفين لا تنكشف الا من يراع بنانه ولا يهتدى فى كشف كربهم الا بيانه *

ص 180

أشيخ العلوم التى قد سرت بدائع أبياته السائره
طلعت وكنت كنجم الصباح وسدت باخلاقك العاطره
إذا ما نويتم طلاب العلى فكل المعالى لكم سافره
أتتنى بالامس أبياتكم رياض المعانى بها زاهره
معا شعركم ذكر عبد الحميد وأضحت فصاحته دائره
فلومه فى عمر البحترى لا عجب من فطنة باهره
علوت وفقت قضات الورى فدم هكذا مركز الدائره

أطال الله بقاء سيدى وأجل ذخائرى وعددى اننى علقت هذه الايات والاشغال
تكتفنى وكذا الخاطر بأسباب شتى تقسمنى ووراء ذلك كلال الدهن وجمود الطبع
ونقصان الخواطر عنون الابداع واستمرار البلادة التى هى من لوازمنا عادة من لى
بمساجلة من لا يدرك مضماره ولا يشق فى ميدان البلاغة عباره

ولا عار ان قصرت دون مبرز سعى الناس قبل سعيه وشئان

انتهى ولما قضى أمير المؤمنين وطرا من الزيارة أرسلت السماء على محلته المنصورة
بمدارها واسترسل صبها الغزير أياها تباعا حتى أجهضته على الرحيل وما تملأ من
الراحلة ولا استكمل اربا من النزهة فقفلى الى الحضرة لثمانية أيام نفه ()

واجزل مثوبته وأما ركته الثانية اليها فكانت فى جمادى الاولى من عام ستة وتسعين
فطاف أيدى الله على مشاهير الاولياء على سنته الاولى ودعا بكل مقام وبذل الصدقات

وفرق الاموال وقفل ماجورا واحتجب محملا مبرورا وكان قد تناقل أيده الله في مفداه
 لاغمات من الحضرة ومنقلبه وتلوم شهريين أونحوهما يتقلب في البسيط الممتد من الحضرة
 لاغمات حتى قضى وطرا من النزهة وتملا من الراحة وفي مقامه أيده الله بمحلته السعيدة
 على أغمات صدرت عن جلالة العالی آيات من نظمه البارع الذى يسلب الوقار ويفعل
 فعل العقار فى الاعتبار عن ترك الوداع وهى

تبدى وزند الشوق يقده النوى فتوقد انفاسى لظاه وتضرم
 وهش لتوديعى فاعرضت مشفقا على كبد جرى وقلب يقسم
 ولولا ثواه فى الحشا لاهنتها ولاكنها تعزى اليه فتكـرم
 فاعجب لاساد الشرى كيف تحجم على انه ظبى الكناس ويقدم *

ص 181

فانتال عليه من بالمحلة السعيدة من كتاب حضرته وشعراء دولته انتال الهيم
 على الورد والنحل على الشهد وتباروا فى تدييها ونظم حصيانهم فى اكليلها ونص
 واراها غبارا ثم قال الحقوا وكان اول الحلبة فى ذلك الميدان واحرزهم لراية
 السبق يوم الرهان شيخنا العالم العلامة مفتى الاسلام وعلم الاعلام ابو مالك عبد الواحد
 بن احمد الشريف ابقاه الله فقال

واعجب من ذا طور صبرى عندما تجلى فـدك والجنان متيم
 تحمل فى القلب فى شرك الهوى وحل اصطبارى وهو من قبل مبرم
 وغادرنى مضنى حليف صباية وقدا تبغد بين خليك ومفرم
 فله عينا من راءنا وبيننا رسائل شوق لا تبين وتكتم

ثم تلاه شاعر الدولة ابو عبد الله محمد بن على الهوزالى فقال

اخوض عباب اليم فى حومة الوغا وسمر القنا بين الضلوع تحكم
 واصدع قلب الفيلق المجر عنوة ويصدع قلبى احور العين افحم
 واحمى دمار الملك شرقا ومغربا ويحمى فؤادى وهو فيه محكم
 واكتم ما انويه حتى عن الحشا واودع من بلواه ما ليس يكتـم

ثم تلاه صاحبنا الكاتب ابو على الحسن بن احمد المسفيوى فقال

تواى به ما بى اسى وصباية طواها قببات البين عنها يترجم
 فهاجرنى اودى بحسن تبصرى وذا جلدى نهب لـديه ومقـم
 ليهنهم مشوى الضلوع فانه سليم على حكم الصباية مسلم
 فان يك تعذيب المتيم فى الهوى فان فؤادى فى هواهم منعـم

ثم تلاه مؤلف الكتاب سمح الله له فقال :

الم يك هذا الخشف يالف وجرة فما باله بالنحنى يتلوم

صحت اخاه البدر فى اليل ساهرا يمثله فى الهوى والتوهم
وقالوا نظير الخير ران قوامه فقلت غلظتم انه منه اقـوم
لقد وسع الارضين صدرى فسيحة فضاـق احتمالا بالذى منه يـكتم .
قلت اردت بالمنحنى منحنى الضلوع فوريت بالمكان المعروف ورشحت ذلك بذكر

س 182 وجرة وتلانى صاحبنا وبلدينا الكاتب ابو عبد الله بن على الفشتالى فقال : *
خضوعى حاكم الغرام قضى به وشان القضاة بالشهادة تحكم
فلو لم ير العدلانى دمعى وزفرتى لما كان فى رسم القضية تعلم
غزال يمسى خوط بيان واننى لا نجد دابا فى هـواه واتهم
فهبنى اروم كنم نار صبايتى فان لسانى الحال عنها يترجم
ثم تلاه الفقيه الاصيل الفاضل نادرة العصر ونخبة الدهر القائد ابو الحسن على
بن منصور الشيعظى فقال وقد تخلص من الغزل الى المدح وتخطى القطعة الى القصيدة على
عادته ابقاء الله فى الاكثار

فيطلع قرص الشمس من تحت دجنة يمد بها املود بان مقدم
غزال على الاقدام جـراه النوى بقلب جرىـ للهوى فيه يعلم
يصول فيردى الضد وهو مصمم وتثنى الهوى منه العنان فيحجم
امام على كل الكمال قد احتوى فلا فضل الا وهو فيه متمم
لئن شغف الارام حبا فقد بسى فؤاد المعالى وهو فى الغيب مكتم
وشاق كذا بكر الخلافة فارتمت عليه جهـا والمفاطس رغم
فعلتها بين الصوارم والقنا وكانت شهودا والصدائق التقدم
وحلى لها جيـدا وساقا ومعصما بنصر عزيز يزدهيها ويعصم
تخطت اليها الخاطئون ولم تكن لتعدل بالمنصور والله يعلم
ولو لم يصلها لاستمرت مشيخة عن الفير او تبقى الدنى وهى ايم
فلم لاتجر الدليل فخرا وقد سمت به حيث لم تسمو شـموس وانجم
اليس هو المنصور من وطء العلا وذـب عن الاسلام والخطب مظلم
ومهدد بالهند وانى والقنا وما اسس الرأى السيد المعلم
اليس الذى حاط البرية واغتدى به الدين مرصوص المباني ملغم
وتلل عرش الكفر عند احتزابه وغادره بالبيض وهو مصرم
فدانت له صيد الملوك واصبحت ممالك تـمضى كل ما هو يلزم
وطاع له الدهر الكؤود واجمعت عليه السعود تتـجيه وتخدم
فشيـد ما شاء العلاـ ولم يدع من المجد طراما يفوت ويتهم

واحیی رسوما للقلوب قد احتوی علیها العفا فهي به الیوم تنعم *
وقام بها یجلی جلاها مطبقا مفاصلها والفهم فی ذاك صیلم
یبت علیها ساهر العین کائنا لسلطانہ فی الرأی یسلی ویلحم
خبیر بما تحوی الدفاتر مخبر ولاکنه مغری بذلک مفرم
علیم بأسرار الدیانة عامل وقوف علی حد الشریعة قیم
امام له ارث النبوة والهدی دوین الملوك ان ذاك مسلم
سلیل رسول الله والمحتد الذی تقر له بالفضل عرب واعجم
فمد ظفر الاسلام منه بصارم تیقن ان الشریک لاشک مقصم
کما اننی منذ اتصلت به سمت بی الحال واثال الغنی حیث تعلم
واصبحت اکنی ثم لولاه لاغتدی سمی کذا عند النداء یرضم
ولو لم افز بالسبق منه لما اعترت عیون المعانی فکرتی حین انظم
ولا صاغ لی صوغ القوافی ارومها فتاتی سریعا وفق ما اتحكم
ولا طاع لی حر الکلام یزینه مدیج الامام حیثما انکلم
ولانقاد لی جیش النظام اقوده فیتبعنی من خلف وهو عرمم
ولا تنف صنع له الشکر فیہ لا الی فانی عن نهائ معلوم
وما الشعر الا جوهر لا تناله من ابخره ذات الاعارض علم
ولو نیل بالایدی لهان ولاستوی بلیغ یجید القول فیہ ومفحم
ولاکن بغوص الفکر بعد ارتیاضه زمانا باداب تعین وتفهم
لقد رضته الی ان انقاد واغتدی یسلم لی فیہ حبیب ومسلم
وها اناذا قد جئت فیہ بمدحہ فان قصرت فالامر من ذاک اعظم
وان صادقت قصد الامام فانه مرامی والامر الذی کنت ارام
فخلها امیر المومنین عقيلة تروم رضاکم فهو للفوز سلم
محبرة تروی احادیث مدحکم فتطرب عنها النفس اذ تترنم
محلاة بالمح مدحک قد ضفی علیها یمان من ثنائک معلوم
لذبت لها من بعد ان زنت صدرها باربعة تعلو من یتمم
فجلدت بوجه المدح غرة ادهم وتلك تجر الذیل زهوا وتفخم
تهنیک بالزور الذی نلت اجره ویعقبه بالله فتح معمم *

ویمن واقبال وجد مجدد ونصر وتمکین مبیین ومفهم
بقیتم بقاء النیرین وملكکم مدی الدهر بالنصر العزیز مخم
ولا عدمت منک الخلافة ناصرا فانت لها دون الانام القلم

ثم ذيل القطعة الامامية ثانياً بأربعة آيات آخر اظهر للقدرة وكمال التصرف وجريا
على سنن الجماعة فقال

ويعجب منها الحجال فيغشى عليها ويمضى حكمه وتسليم
ويشرع رمحا من قوام وينتفر ظبا من جفون في النهى تتحكم
ويقدم تيبا وهو بالحسن صائل فيبهر من ذاك الاسود فتحجم
وتشفق مع ذا أن ترى ومكانه من القلب مستوى عليه التالم

واما من كان يرغب في لقائه ايده الله من كبار الاولياء والصلحاء الاحياء لاشتهار
فضله وقوام طريقته بما كان ايده الله لا ينخدع بتمويه اهل البدع وتمويه اهل
الحيل حسبما قدمنا فجماعة منهم الشيخ الولي الصالح البركة العالم العلامة * امام
المحدثين وكبير الاولياء وقطب العلماء العاملين بالمغرب ابو نعيم رضوان بن عبد الله نزيل
فاس احد مشايخ مولانا الامام امير المؤمنين ايده الله الاتي ذكرهم وكان رحمه الله احد
رجال الكمال علما ودينا وغاية في الزهد والورع والاستمسك بالسنة والتجرد من
ملابس البدع شديدا في احواله منجزا منقبضا ذوقا كان امير المؤمنين ايده الله
لذلك يؤثره ويعتقده ويعظمه وكلما صعد لبابه العالي لرواية يرويها او لشفاعة يرفعها
هش للقاءه واقبل عليه بوجه البر والترحيب ومهد له الجلوس بازائه تعظيما واجلالا
واختصه بمزية الخلوة حتى ينصرف مكرما ومعظما ومشفعا ومنهم الشيخ العالم البركة
الصالح الواعظ الصوفي عالم مكناسة وخطيبها والمعظم عند الخاصة والعامة من
اهلها احد بها ليل الجنة الشيخ ابو بد الله البصري المكناسي وكان من اولياء الله
الصادقين علما وقدا ومن ابيله البهائيل اهل المقامات والكرامات وكان امام اول الامر
بمكناسة في المواسم والاعياد وخطيبا بالجامع الكبير منها وشيخ الفتيا بها والوعظ وكانت
تصعبه رضى الله عنه غفلة جرها عليه علو السن وطبيعة البله فكان يطرح لذلك الادب
المستعمل مع الملوك في القول والعمل ولا يبالى بما قال او فعل ولقد شاهدته يرتقى
على نمارق امير المؤمنين ايده الله مستنيدا ومتملا ومتمرغا فكان امير المؤمنين ايده الله
على خنزوانة الملك وشمم انف الخلافة يحمل ذلك منه ويخفض له جناح الدل من الرحمة
ويليق له في القول حتى ينصرف راضيا ويمضى شاكرا داعيا ومما يلحق بمئاته
الشريفة ايده الله في هذا الباب ايضا تعظيما للعلماء الذين هم ورثة الانبياء واجلالهم ورفع
منازلهم على سائر رجال الدولة واشاره اياهم بيزيد القرب في الدخول عليه من قبل
الجمهور ايام الديوان والتودد لهم بمواكبة المشيخة منهم واهل المناصب يدا بيد في
المائدة كقاضى القضاة بحضرته العلية العالم العلامة الصدر الاوحد ابى الفضل قاسم بن
على الشاطبي ومفتيها الشيخ الامام العالم العلامة الصدر الفاضل ابى فالك الحسيب

السرى عبد الواحد بن احمد الشريف وافقيه الفاضل السرى وبنى سعيد الشريف
احد اعلام تلمسان وعلماؤها المهاجرين الى الخلفاء رضوان الله عليهم وكقاضى الجماعة
بفاس الشيخ العالم العلامة الاوحد ابى مالك عبد الواحد بن احمد الحملى والفتى بها
الشيخ الامام العالم العلامة المحقق ابى زكرياء يحيى ابن محمد السراج والشيخ العالم
العلامة ابى العباس احمد بن على الزمورى الى امثالهما من مشيخة العلم بفاس. كشيخ
الجماعة * الامام الاوحد الحافظ القدوة ابى العباس احمد بن على المنجور والمجتهد
الحافظ العالم المعلم الصدر ابى العباس احمد بن على الزمورى وقاضى الجماعة بالحضرة
المحمدية قاعدة السوس الشيخ الامام العالم الزاهد الورع البركة المسن ابى عثمان سعيد
بن على الهوزالى والفتى بها الشيخ الفقيه العالم الفاضل السرى ابى عبد الله محمد
التلمساني وكل هؤلاء ايده الله يؤثره بالمواكلة معه فى مائدته متى عن حضور بعضهم او
جميعهم فى الحضر والسفر ويتاحفهم بهداياه وطرقه الى منازلهم وبياتهم وكل ذلك اجلالا
للعلم ومحبة فى اهل الخير وتوددا لاهل الدين واما احسانه ايده الله الى من دون
هذه الطبقة من طلبة العلم واقباله على كل صنف منهم وتضعيف الجرايات لهم واشار
المجتهد وذوى الفهم منهم بمزيد العناية والاقبال فعناية اشرفت على جميع العلم انوارها
وعمت كافتهم جدتها حتى لقد تنافس الناس لهذا العهد الكريم من اجل ذلك فى اقتناء
العلم والاحتراف بصناعته الشريفة لاعتزاز أهله وسعة ارباقهم حتى كثر حاملوه
واستبحر جهابذته فتعددت المشايخ وكثر التلاميذ ونبع التأليف والتصنيف حسبما ياتى
بسط ذلك فى محله وكل ذلك بعناية امير المؤمنين ايده الله وشريف همته وصالح
نيته كتب الله له اجر ذلك واجزل له ذخره يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا
واما شانه ايده الله فى التوكل وجميل الاخلاص وحسن التواضع لعظمة الله وجلاله
والتداب مع قدرته التى امسكت السماء ان تقع على الارض وبها اختراع الكمل والبعض
فمقام الخاصة من اوليائه الناظرين الى صور الاشياء بعين الحقيقة والانظار الدقيقة وحالة
من يعلم ان العزائم وان فلقت الصخر والاجناد ان ملأت السهل والوعر والسيوف
وان ارهقت الاسود وملكت البيض والسود وانجابت لوهيضا الخطوب السود واوشكت
ان يفتح بمفاتيح اقفالها السد السود لا تغنى فتىلا ولا تملك من الامر دبرا ولا تبىلا ما لم
ينهض لها من عناية الله وتاييده عضد عاضد وساعد مساعد ولهذا لن تراه ايده الله على
انقياد الدهر لحكمه وتضاؤل الافلاك لنعله وامثال الايام لامره ومثول الدنيا بيباه الا
منتصبا على حال الاستسلام ومتحاميا لحمى الربوبية ان يستام خائفا على فوار بر التوكل
ان يتصدع وعراها ان تفصم لذلك اذا شمر لامر من أمور سلطانه يتوكل على عصا
المشيئة وينهض على منساة التوكل وعمود الاخلاص ويتجرد من لباس الدعوى والانلة

ص 186

ولهذا كان كثيرا ما يحضنا ايده الله معشر كتاب الانشاء ببابه العالى * على استتمسك
المشيئة والاكتار منها فى الكتب الكريمة الصادرة عن مقامه العالى الامامى شرفه الله
وقد فعل وربما عنف على تركها عند عرض السجلات بين يديه وتصفحها بحضرته فيلحقها
مرارا بيده الطاهرة فى محلها من الكتب حرصا على استمرار عادة التادب مع الله وسلب
الارادة عن نفسه للقادر المريد والفاعل المختار الذى اذا اراد شيئا ان يقول له كن فيكون
لا اله الا هو جل اسمه وتجده ايضا اذا امتدح بنظم او رفع اليه الشاعر كلمة يتدبر
معانيها ويعرض على محك اختباره مبانيها فاذا وجد لفظة ينظر اليها النقد بطرف خفى
لخروجها عن سياج التادب مع الله ولو باقل شئ مما لا يقدح فى عقيدة ولا يحدث وصمة
فى الدين تورع عنها وخرج الى الله بالبراءة من عهدتها واهر بنبذها وادالتها باسهل منها
وربما اصلحها على قائلها اذا كان زمام القول ايده الله بيده فمن ذلك ما اتفق لعبده مؤلف
الكتاب فى ابيات اربعة كنت صنعتها باقتراحه ايده الله لتتنقش على بعض ابواب قصره المبارك
السعيد الطائر الذكر الشهير بالبديع الاتى ذكره ان شاء الله يتضمن البيت الاخير منها
تاريخ المبنى فقلت على لسان القصر

هذه وفود السعد نحوى تنتهى وطلائع البشرى لبابى ترتضى
وسمت الى عفات عرفك مثل ما يسمر الحجيج الى سقاية زمزم
خطت بمصر عن السعود بشائرا لاحت على الشرفات مثل الانجم
واوان صنعى ان تقول ولا تبلى فبديع احمد جنة المتنعم

ولما رفعتها الى جلاله العالى وعرضت على اختياره وبحر معرفته الذى لا ملامح
تشطط وانتهى الى محل التاريخ من قولى فيها فبديع احمد جنة المتنعم باستخراج
مالها من الحساب بعد اخراج ما نسل فى تلك الجملة استنكف ايده الله من اطلاق
الجنة التى هى دار النعمة الباقية على قصره الذى هو دار النعمة الفانية ورغب لذلك
عنها تورعا وتادبا مع الله ذى الجلال والاکرام فأوجب ذلك الانتقال الى غيرها واين هذا
من يلقب مبانيه بالخلد ويسميها بالفردوس ويطلق عليها دار اسلام كما هو مشهور
لخلفاء بنى العباس فى مشيداتهم ببغداد ومن هذا المعنى ما اتفق للعبد ايضا وقد نظمت
قصيدة اخرى باقتراحه ايده الله لتكتب فى مباح القبة الخضراء من قباب قصره السعيد
المذكور فقلت منها اصف القباب

من كل سامية العماد فتاجها بسنا النجوم مكلل ومرصع

ثم قلت مشيرا الى القصر *

نلقى به زمر الملائك عكفا يسجدون فى حرمى حماه وترجع
فانتقد على ايضا ايده الله من جهة الورع اطلاق الحرم على قصره وتاكيد ذلك بذكر

الملائكة وعكوفها على السجود والركوع ثم حاول ايده الله اصلاح المعنى على فارشدني بفضل معرفته ولطف اشارته الى ما يناسب ذلك في بيوت الله كالساجد وما في معناها من الاماكن المتعبد فيها ليسهل ما قصدت ويصلح ما اردت فقلت حينئذ بيتا اقتحمته بين البيتين وهو

وبكل زاوية بها متعبد خلع الوقار عليه ما لا يخلع
واردفته بقول

تلقى بها زمر الملائك عكف يسجدون في اكنافهن وتركع
فنسبت عكوف الملائكة على السجود والركوع الى المتعبد واضربت عن ذكر الحرم صفحا فاستقام حينئذ المعنى وزال الاعتراض وازداد الكلام بهجة ورواء فاستفدت منه لذلك ايده الله في هذا المجلس اديين ادب الدين وادب اللسان الذي هو مراعاة جانب التناسب بين الكلام والالتحام بين المعاني حتى يصح الارتباط ويقع الاغتراب وينبعث النشاط وهذا امر لا يجاريه في مضماره ايده الله فرسان هذا الشأن حسبما ياتي من كلامه البارع ايده الله ما يدفع عنها تهمة الميل ودعوى الاطراء (1)

ومما يحكى في هذا الباب قضية الثلج الذي ارسل الله على معسكره ايده الله حسبما قدمنا ذكره - انفا منصرفة من الحضرة لفاس في صفر من عامنا هذا وهو عام سبعة وتسعين فقد كان الواقع فيها جلا والخطب عظيمما ولولا ما تدارك من لطف الله الذي شأنه ان يتدارك به المضطرين من عباده وكان امير المؤمنين ايده الله اشد الناس فيه بلاء وامتحانا لافتراقه عن وطنه واثقاله وسياجه وسائر خيامه وخزائنه من وهن الظهر وانسداد المسالك بالثلج المتراكم بعضا على بعض فلم ينتظم شمله الا بعد ايام فكنا نشاهد منه ايده الله خلال تلك الشدائد وملاقاة تلك المشقة من عظيم الصبر والتجلد وجميل الاحتمال ما يشهد ان ذلك غريزة وسجية كريمة جبل عليها ايده الله ولو تتبعنا جزئيات هذا الباب وما شاهدناه او سمعناه من حين نشأته ايده الله الى هلم من جميل صبره وحسن رضاه لشدت عن الحصر والاحصاء وضاق عنها نطاق الاستقصاء فانه في ذلك ايده الله المثل المضروب ضاعف الله اجره وأجزل ذخره وأما العفو والتجاوز عن هفوات المذنبين فاقول اعلم ان هذا الامام ايده الله ورضى عنه * أعظم الخلفاء عفوا وابعدهم فيه شأنا وربما كان أعظمهم قدرا وأرفعهم صيتا وأكثر في أفواه الايام ثناء وشكرا ولو فصلنا المجل من عفوه وحللت الكليات الى الجزئيات لضاق حجم الكتاب عن وسعها ولاكن اتى ببعض الجزئيات لتكون عنوانا على ما وراءها ان شاء الله فنقول قد قمنا في

ص 191

(1) الانتقال الى ص 190 .

باب الحلم ما كان صفحه وتجاوزه عن عبد الكريم ابن مومن الحاجب كان عنده وعند الخليفتين أخويه المولى عبد الملك والمولى عبد الله فيما كان سلف منه من الهفوات التي أحفظه بها أيام أخيه المولى عبد الله الغالب بالله فاعنى ذلك عن الحادثة ومما يحكى عنه أيضا أيده الله فى هذا الباب من الخصال العظيمة والمناقب الكريمة عفوه عن أهل السوس فيما كان سلف منهم أيام المشاقة والعصيان السالف فى خلافة أخيه وصدرا من خلافته هو حسبا قدمنا فظهر منهم من المجاهرة بالخلاف والزحف لحربه تحت رايات عدوه والمظاهرة عليه بالانفس والاموال والافحاش عند المقابلة فالذى الذى يغرس فى الصدر البغضاء ويزرع الغل ويوقد نيران الاحقاد ما لاتحمله كل النفوس ولا يتغاضى عنه الملوك عند الغلب والاستيلاء فما كان الا أن مكته الله تعالى وأظهره عليهم فدوخت سيوفهم دانيهم وقاصيهم واستنزلت من صياصيه عاصيهم وانتالت وفودهم على بابه العالى ضارعين خاضعين ناكسى الرؤوس من وجوم الذنب واطهار اللياد بالعفو منه والتوسل فالقى الله فى نفسه أيده الله عند ذلك من الرحمة والشفقة والعطف ما يجده المرء على ذوى رحمه فقابل جميعهم بالعفو وخفض لهم جناح الذل من الرحمة وبسط رواق حلمه عليهم ورفع سيفه عن سفك دمائهم وتجاوز لهم عن كل ما سلف منهم من سوء المشاقة وقبح المقابلة فأصبح جميع اقليم السوس أمنا مطمئنا وهو على ما هو انفساح خطة وكثرة شعوب وقبائل فكم اشتملت عليه من خلق وضم من ضعفاء وصلحاء وعلماء يكتب الله أجر كل واحد منهم على انفراده ثم شفع لهم أيده الله فضيلة العفو والتجاوز مما لم يكن فى حسابهم فاسقط عنهم مغارم ثلاث سنين رفقاً بهم ورجاء أن يخلف الله عليهم بما كانت حروبه السالفة مع المتوكل أفتتهم واصطلمت نعمتهم وأقوت مخازنهم وخربت عمرانهم فتلاشى أمرهم وانتالت أحوالهم حتى راشت العافية وتمهيد الدولة لهذا العصر الكريم جناحهم ببركته أيده الله ويمن تقيته وشمول عدله واطمئنان الدولة لعهد (1)

ومولانا أمير المؤمنين أيده الله المثل المضروب فى هذه السجية الكريمة والخصلة الشريفة ولو تتبععت ما له أيده الله فى هذا الباب من المآثر وعظيم المفاخر وشغلت الفكر بتذكاره والقلم باحصاء سحائبه الغدقة وأمطاره لنفذ البحر قبل أن تنفذ كلماتى وأنا ألم ببعض ما على البال من ذلك ما وقع لصاحبنا الكاتب الفاضل اللوذعى الحلو الفكاكة الجميل الدعابة أبى عبد الله محمد بن عمر الشاوى ما (2) لطول الاغتراب

ص 192

(1) الانتقال الى ص 200 -

(2) بياض بالاصل -

بالجزائر في خدمه المولى المعتصم بالله عبد الملك أمير المؤمنين بمطرح * اغترابه منها وقد كانت عند صاحبنا ابن عمر فرقة من قبائل مسفيوة أهل الجبل المثل من درن على الحضرة سوغوه أيدهم الله تعالى مقرمها طعمة مكافاة على الهجرة وتناول الاستثناء عشر الزيت من مقرمها لاستئثار خزانة السلطان بها في سائر الافق المراكشي فما كان الا أن تدبر ابن عمر أبياتا شعرية تناهز الخمسة يهز بها جلع كرم أمير المؤمنين أيده الله ويسئل منه صرف عشر زيت أصحابه عليه لينفرد بمقرمهم جملة وكلن الشعر أنجح الوسائل عند مولانا أمير المؤمنين أيده الله فقبل وسيلته وسوغه ذلك أيده الله تعالى وهو عدد كبير من القناطر المنقطرة وما زال يبيع منها في كل عام بثألاف من الذهب العين حتى صار بذلك في عداد الاغنياء وأهل الثروة والرفاهية ومن كرمه الذي كاد أن يكون كالسنة الجارية الصلات والعوائد التي يصل بها أيده الله خاصته وأهل بساطه غالبا عند المواسم ودأبه في ذلك انه اذا كانت ليلة العيد أحضرت النخوت ونضدت في سباني من الوشى ونثرت على من حضر من أهل البساط وربما رفعت الى من لم يحضر من الخاصة وأكابر الدولة لا يكاد موسم يخلوا من ذلك يختص القاضي منها بخلة يتجمل بها للخطابة به أيده الله في كل يوم عيد الفطر وربما شفع الخلع ببضائع من العين حضرت مجلس الخواص من بابيه العالي أيده الله ليلة عيد الفطر من عام ثلاثة وتسعين وقد استدعاني لشغل تعين وكتب تأكد فألفت القوم ينتظرون الخلع الموسمية لوعده سبق لهم بها وتقدم من قبل أن أخرج فبرزت اليهم ونثرت عليهم فقلت في ذلك أخطب مولانا الامام المنصور بالله أمير المؤمنين أيده الله :

يا اماما شاد مجدا أقصا وعلى هام الثريا عرسا
ما لريقى لم يجد بطحاء عارض من راحتك انجسا
أمطر الخلق تخوتا وكسى مطرا جودا وعندى احتبسا
أفلا عبدك عبد جاءك من ثناء لعلاكم سندسا
فاذا ما اختال غيرى في ملا قد كسته الفخر ابهى ملبسا
فلدى المنصور أرجو نائلا يثقل الظهر ويشنى الارؤسا

ثم ما زال ينثال على بعد ذلك من شئيب احسانه أيده الله المتواليه وسحائب

(1) الهامية ما أقصم الكيس واثقل الظهر والرأس ومما يحكى في هذا الباب

ايضا من مناقبه الشريفة أيده الله ومناثره المنبة قضية الفقيه الفاضل السرى الحسيب * المسترسل النشأة عن الفطرة والسداجة صاحبنا الحاج أبى العباس احمد بن أبى

العافية الشهير بابن القاضي وهو لقب غلب على هذا البيت القديم السرور والاصالة وكان من خبر الحاج أبي العباس انه لما ارتحل الى المشرق في عشرة الثمانين لقضاء الغريضة ولقاء مشيخة العلم والاخذ عن الايمة اقام بمصر وروى عن علمائها وحمل اجازاتهم الى المغرب ولحق بمستقره من فاس ثم وفد من بعد ذلك على مراكش وتلطف حتى وصل الى مولانا أمير المؤمنين بمدخله أهل بساطه من العلماء والكتاب وكان يحضني الود من بينهم فكنت سفير وسائله ومنفق بضائعها حتى نجحت وحصل على الامنية من خدمة أمير المؤمنين والانتظام في سلك أولى المراتب المرعية ثم تاب له رأى في معاودة البلاد الشرقية للتطوع بحجة أخرى واستزادة العلم والتحصيل وكانت له نية بالغة في نشر مآثر مولانا الامام أمير المؤمنين أيده الله في الافاق فجمع من مفاخر الدولة وأمداحها وفتوحها ومآثرها ما أملى بثه في الاقطار ونشره في المشارق لو ساعدته الاقدار واستأذن مولانا الامام أمير المؤمنين أيده الله فأذن له ووصله وتوخي الطريق على البحر فركب السفين من ثغر تيطاون فاعترضتهم أساطيل العدو في بحر الزقاق فأسرتهم وحصل في ورطة عظيمة لولا ما دأركه من الطاف الله تعالى وشمله من عناية مولانا أمير المؤمنين أيده الله التي تجلي الخطوب المدلهمة وتفك عن العناء قيود النوائب المليمة وطير الى أبوابه الشريفة كتبه من أرض العدو ضارعا ومتطارحا عليه ومقدما وناشد اللوات التي لاتحفر ذمامها فانبعث لها أيد الله وحفظ له عهودها ووصل أخوه العدل الشهير من صنف الحضرة بفاس بوفور العقل وكمال الدهاء محمد شقرون بن القاضي في جملة من أهل بنيتهم بفاس وأشفق وترحم ووعده بخلص أخيه وهناه مما اهمه من أمره وكتب في شأنه أيده الله الى قائد تيطاون والى الامين على أخماسها ومفانمها التاجر الارضى أحمد فظل يحرضهم على السعاية في اقتدائه وصرف العناية الى استخلاصه بكل وجه يمكن وكان الكفرة قد توسموا فيه مخائل السراوة وتنسموا منه رائحة الحسب والاصالة فانبعثت مطامعهم اليه وشططوا في الفداء وبعث الى أهله في ولد لنصراني معلم ماهر قد نصبه طاغية قشتالة لصناعة اكوار الانفاط وعمل السلاح بحجرة بادس فكان له بذلك عندهم خطر وبال وزعم النصراني لابن القاضي باقتدائه بولده وكان من أسرى الجانب العالى الامالى ومن سبى وادى المخازن فتقدم بنو القاضي الى مولانا أمير المؤمنين أيده الله * فيه وكان لديه أيده الله من أهل المدينة والمقاطعة بالاموال الطائلة فدفعه اليهم ولم يكن شيء أسهل عليه من بذله على خطره فذهبوا به لفاس لينطلقوا به الى تيطاون للموعد الذى ضربوا بها مع والده فوافق ذلك ما كان من خلاص أخيه الحاج أحمد وخروجه من سبته الى تيطاون بتدبير التاجر الحاج الفلوس من أهل مكناسة كان في بلاد العدو منذ اعوام يخاصم في مقاطعات بعض الاسارى

ص 203

غدره بها علج ارتد الى دينه الاول وممر في طريقه راجعا على جبل الفتح بالحاج أبي العباس فاحتال وتلطف حتى قاطعه بمال لم يخل عن رفيق لمكايد اعتمل في استخلاصه بها فلم ينتظن بها الكفرة الا من بعد عبوره الى سبته فأدركتهم التهمة وطيروا السفن اثره فأقلت من حبالها ابن القاضي وحصل في انشوطتها الحاج الفلوسى مستخلصه فلم يتخلص منها الا بعد عصب الريق وبجاد أمير المؤمنين وعنايته واغلاظه على من تحت اياته من أساقفة الكفرة وقسيسيهم الذين على يدهم مفادات أسارى المشركين فعمل الحاج أبو العباس وقومه وجوههم الى مولانا أمير المؤمنين أيده الله يسئلونه الانعام عليهم بما تقاطع من المال لبقاء الحاج الفلوسى رهينة فيه هو وسلعه بسبته فلقاه أيده الله برا واكراما وأمر بتلك العدة من المال فدفعت اليه من حينه وشفعها له بصك سوغه به أيده الله ما حصل منه على ربح عظيم أورثه الثروة وكان صاحبنا الحاج أبو العباس يزعم أن جملة المال بما بذل له أمير المؤمنين أيده الله في المقاطعة وبما حصل عليه من الربح بسبب ما سوغه وبما أطرح عنه من اللازم بعنايته وجاهه تناهز عشرين الفا بعدها عدا ويفصلها تفصيلا وهذه منقبة عظيمة ومئاتر جليلة جسيمة لو لم يكن ليحكي من مناقبه مولانا أمير المؤمنين أيده الله في هذا الباب الا هي لكانت كافية وبجميع المفخر واقية لما تدل عليه من عظيم الكرم والجود وحسن العهد والوفاء ورعى ذمام الخدمة والوفاء وعلى انها بالنسبة الى غيرها بعض من كل وقيل من كثير واما صلاته الجزيلة أيده الله تعالى وهباته الجسيمة الجليلة للشعراء ومن يقد على حضرته العلية من وفود الاعيان والعلماء وذوى الحاجات المشائين على بابه من كل قطر وفي كل وقت فأجل من أن يحصى أو يأتى عليها العد والاستقصا فان حضرته أيده الله كانت لاهل الارض قبله تؤمها الوفود وتنجع اليها القبائل والمران اليزنية تفوت الرمل والحصى عدا ويفمر بحرها الارض غورا ونجدا وكل ذلك على أحسن نظم وأبدع ترتيب وأفخم زى واكمل بهجة ورواء وبحالة تفر بها اليوم والمئة لله * عين الاسلام ويخلع قلسوب الكافرين من عبدة الاصنام (1) .

وأما مسائلته أيده الله عمن يعقل أو يمرض شيء من اهل بساطه واكابر دولته وعبيد حضرته واربياء نعمته واظهار الشفقة لهم والصفانة بهم والجزع عليهم وعيادة الخاصة منهم بنفسه وتعاهدهم بارساله وانفاد أطبائه اليهم على القرب والشحط وتمشيه ما يليق من الادوية والاشربة لهم من داره وحضور جنازة من يموت من خاصته واركاب بنيه الامراء الكرام للطبقة التى من دونها قشيمة تستعبد الاحرار وسياسة تأخذ

بمجامع الابواب وتبعث على بذل المهج فى جانب رضاه الكريم وما عسى أعد من مناقبه الشريفة وأشر من مآثره الكريمة فى ذلك فحدث عن رمل عالج كثرة لاكنى أذكر بعض ما يحضرنى ليكون عنوان على ما وراءه مرض لصاحبى ووللى الكاتب أبى عبد الله محمد ابن على الفشتالى صبى صغير مرضا أشرف به على الاياس واتفق أن جاءه يوما بالديوان الكريم النذير من منزله بأشراف الولد على الفوت فأرهقته الشفقة التى تجد الوالد على الولد وأزعجته الى منزله فلما ثم عرض بروز مولانا أمير المؤمنين أيده الله للايوان الكريم فاستدعانى وأملى على من المهمات ما تتعين فى كتبه المشاركة والمعاودة قصدا للانجاز والمبادرة وسألنى عن صاحبى بما كان ظهيرا وردا لى عن الانشاءات التى اختصتنى وإياه العناية الامامية بالتهووس بأعبائها والامانة على أسرارها وكنت جهلت السبب الذى أزعجه وخفى عنى وجه العذر فاستشيط مولانا أمير المؤمنين أيده الله غضبا لغدوه من قبل أن يحين الروح وبعث عنه أيده الله مستحشا له فلم أشك ان وصل أن يصب عليه من العتاب والملامة سوط عذاب واهمنى ذلك شفقا على صاحبى من موقف الخجل والارتباك فوصل وأعرب عن حاله وأبان وجه عذره فما كان الا أن رق أيده الله للحال واستحال من حينه الغضب الى الرحمة وجعل يسائل أيده الله عن حال الصبى ومرضه سوال مشفق وبالحق فى ذلك الى أن قال له أيده الله ان أمراض الصبيان قلما ينجح فى علاجها الا طب العجائز ولا كمجائز دارنا فابعث لهن من يسألهن ومن هذا المعنى أيضا ما اتفق لعبداهم رضى الله عنهم مؤلف الكتاب وهو ان ولدا كان لى صغيرا يناهز السنتين مرض فقضى فوافق أيام الديوان التى يتعين فيها البكور الى الابواب الشريفة لاقامة وظيف الخدمة فتأخرت لمؤارة الصبى وكتبت لحاجب الباب أعرفه بالقصة ليقم المعذرة عند السؤال عنى فما كان الا أن خرج مولانا أمير المؤمنين الخروج الثانى المعقود لعرض مهمات وإبرام أمور ملكه * وفقدنى فى خدمة بساطه فاستفهم عنى فأخبره حاجب الباب بالحادث الذى أخذ بحجرى عن الطلوع للديوان الكريم فتأسف للرزء أيده الله أسفا نبه على فريقين بين عبيده وشاد لى الفخر على صنفى من خدمة أبوابه وأطال أيده الله فى السؤال عن الولد وعن مرضه وهل لدى ولد غيره ثم هل هم لام واحدة أم لامهات وأطنب أيده الله فى السؤال ووللى أبو عبد الله يعجب عن الحال اطنابا أشعر الحاضرين من الخاصة بما (1)

ص 209

الخدمة ووسائل التربية حتى أرسل الى أحد الخاصة ممن يانف من انتباب الابواب بولده عن ساعتها بولده يعزىنى عن المفقود فاستحالت التعزية الى التهنية بسبب ما شرفتني به عنايته أيده الله من الاهتبال بشانى والاهتمام مما أهمنى والتأسف لما

(1) بياض بالاصل .

أسفنى ولا بكرت على العادة للابواب الشريفة فى الديوان الثانى ووافق ذلك انقباضه
أيده الله عن البروز للناس يومئذ من أجل ألم خفيف ألم بذاته الكريمة شرفنى بالدخول
الى حيث مقر ذاته الشريفة أيده الله بالقصر الذى هو من مشيدات الامام والده قدسه
الله لكثرة ما كان يالفه ويوثره على غيره من قصورهم العالية من قبل اكتمال مباني قصره
البديع المعفى على آثار الاولين والاخرين حسبما ياتى فى محله فافتتحنى أيده الله
لاول ما اطمأن بى المجلس بين يديه بالتعزية عن الوليد الناشئ فى نعمته مظهرأ أعلى الله
أمره وأطال للاسلام عمره غاية الشفقة والاسف وانبرى يسئل فى الحضور عما سأل
عنه فى المغيب وأربى واستقصى حتى كلت أناشئى بين يديه خجلا وسرورا بما شاهدت
وأما ما قابلتنى به عنايته أيده الله عند انغماسى فى العلة المتطاولة لآمد من حولين
كاملين وشملتنى (1) واهتمامه وحنوه على ومواصله سؤاله وانفاذ أطبائه
وارساله وطورا بحاجب بابيه ومتاحفتى بالمربيات والاشربة المعنمة لداره فشىء
لاتهض العبارة بأعباء شكره وبحجم البيان عن استيفاء قلبه فضلا عن كثره والله تعالى
أسأل أن يحفظ على الاسلام مهجته الكريمة ويحلى جيد الدين والدنيا من دولتهم الغراء
بالدرة الثمينة اليتيمة وأن يجعل أسياهم المؤيدة المنصورة لحماية الله والامة جنة وارفة
وافية وتميمة وأما الكرم والجود والسخاء الذى لايلحقه شرف وهى أعظم الخصال
وأشرف الخلال وأكرم السجايا التى لها عند الله وعند الناس البال فأقول يحق أن أقدم
هنا فصلا استفتح به الفهرى هذا الباب ليكون تذكرة لاولى الباب قال رضى الله عنه وهذه
الخصلة الجليلة قدرها العظيم موقعها الشريف موردتها ومصدرها وهى احدى قواعد المملكة *
وأساسها وتاجها وجمالها تعنوا لها الوجوه وتذل لها الرقاب وتخضع الجبابرة وتسترق
بها الاحوال ويستمال بها الاعداء ويستكثر بها الاولياء وتحقق بها الدماء ويحسن بها
الثناء وتملك بها القرباء والبعداء ويسود بها فى غير عشائهم الغرباء وهذه الخصلة
بالغزائم الواجبات أشبه عنها بها مساقط وبل الجود قد ارتحلت اليها الشعراء من الاقطار
القاصية والافاق الشاسعة وضربوا الى بابها أكباد الابل وكان ممن أزجى مطيته الى
حضرته العلية مادحا ومسترفدا شاعرا المشرق والمغرب لوقته بلا مدافع الشريف السرى
الفاضل أبو عبد الله محمد بن أبى الفضل المكى وفد على حضرة أمير المؤمنين أيده الله
من مكة وخاض اليها حشى الديمومة وشبح البحار فسقط على المغرب فى عام ثمانية
وثمانين واناخ على ولى العهد بفاس المولى الامير الهام أبى عبد الله محمد الشيخ المامون
ابن أمير المؤمنين أيده الله فأكرم وفادته ووطا له أكناف القبول وبسط عليه النعمة ثم
وصل صحبة ركابه العالى الى باب أمير المؤمنين أيده الله عند مقدمه عليه بمعسكره

ص 210

(1) يياض بالاصل .

على نهر تانسيفت فى جمادى العام حسبما أسلفنا ذكر هذا الملتقى المبارك فمدح أمير المؤمنين أيده الله بقصيدتيه الطنانتين وهما اللامية التى أولها (1) والدالية التى مطلعها

أترى زمان الرقمتين يعود ومذيب جسمي بالبعاد يعود
ثم بقصائد آخر وتوشیحات مذهبات تضمن جميعها ديوانه المجموع فى امداح
امير المؤمنين ايده الله المروع فى خزانته الكريمة حسبما ياتى ذكر هذه المنظومات
فى محله ان شاء الله فوصله ايده الله فى تلك التوبة بالف اوقية وخلع وحملا
وانقلب صعبة ولى العهد أعزه الله تعالى لفاس فاقام بها مكلوا بعنايته مشمولا بمبرته
مغمورا بعوارفه الى ان تحرك مولانا امير المؤمنين ايده الله على تفتة ذلك بفاس حسبما
قدمنا ايضا فليكه هذا الشاعر فى جملة وفد اهلها بقصيدة لامية موصولة اولها :
قدومكم بالسعد غنت بلابه واخره محمودة اوائله

وستاتى ان شاء الله ايضا عند ذكر شعره فكان يتمشى له فى كل شهر من لدن
مقدمه الى حين منصرفه تسعمائة درهم وكانت مدة اقامته نحو من سنتين فلما اذمع
القفل الى * المشرق وصله مولانا امير المؤمنين ايده الله ومولانا الامير الهمام ولى عهده ايدهم
الله تعالى بنحو اربعة آلاف اوقية دون الخلع والكسى وشقاق الملف ورقيق الكتان فذهب
مملوء الحقائق موفى الرغائب وحمل معه سجلا كريما بخاتم امير المؤمنين ايده الله الى
ملك بلاد الروم من بنى عثمان عرض فيه ليقلدوه قضاء صنعاء
اليمن فنجحت فى ذلك وسائله بعناية مولانا امير المؤمنين ايده الله
ونفوذ ارادته عند ملوك الارض وكتبوا لابن الفضل التقليد فقوض الى اليمن مجبورا ثم
عاجل بدره السرار من قبل التمام وانسبت به المنية اظفارها فطرقة المرض بالبحر عابرا
الى الاسكندرية ففاضت نفسه رحمه الله وقذف به فى الموج فعادت جواهره النفيسة
الى معدنها وبيعت تركته بالاسكندرية واشتمل عليها ولاة الروم بها قدسه الله تعالى وغفر
له واما اكرامه ايده الله لصنف العلماء الذين يجلبهم الى حضرته من الافطار برسم التحليق
للمذاكرة فى مجلسه الكريم وللأخذ عن المشيخة الاعلام منهم وانتفاع طلبة الحضرة
بهم فشىء لم يعهد فى غير خلافته الكريمة وايامه السعيدة وكان كل من وفد منهم على
بابه الكريم لا ينقلب لاهله الا بالاف من العين واوقار من الملف والكتان وانواع
الملابس واما وراكب حتى كان شيخنا الامام العلامة شيخ الجماعة وصدر العلماء ابو
العباس احمد بن على المنجور رحمه الله كثيرا ما يقول ما عهدنا بلذ المثين فى الصلات الا
فى ايام الشرفاء ولا عهدنا بلذ الالوف الا فى ايام مولانا الامام المنصور بالله امير المؤمنين

(1) بياض بالاصل .

اذ كان رحمه الله ممن ادرك دوله بنى مرسى فلم يكن ليعهد فيها بذل المثين فضلا عن
الالوف وعظاياه ايده الله للواردين على حضرته العلية ووفود القاصدين من العرب
المصطنعين وجماهير القبائل المنشالين على ابوابه الكريمة من كل اوب وصوب وما يبذله فى
سبيل الخير وطريق الزلفى لو تعرضنا الى عده وتفصيله لضاق عنه حجم هذا الديوان
ولقد رأيت كثيرا ممن يتبجح من المؤرخين بمفاخر ملوك قطره واولياء نعمته يعد لهم من
بعد المبالغة فى الاحتشاد والاستقصاء ماثرا لو قابلنا جميعها بمفرد من ماثرا مولانا الامام
امير المؤمنين ايده الله ما رجح بوزن حصاة من ماثرا الحجة من ذلك ما ذكر ابن حيان
فى تاريخه ان المنصور بن ابي عامر اعمل غزاته الثامنة والاربعين الى مدينة شنت ياقوب
وهو تغيير اسم يعقوب كبير الحواريين الاثنى عشر اصحاب المسيح عليه السلام
بلغت كساه فيها الى الفى كسوة وذكر ذلك على سبيل الغرابة وليت شعرى * اى نسبة
بين هذه الجزئية التى وقعت وانقطعت وبين اضعافها مما يبذل امير المؤمنين فى سبيل
الخير كل عام ويجرى على يده مرتبا من الكسى سانهة على الدراع فقل ان تصحوا
يوما ابواب ديار العشر ومودع السلع من غاشية اهل الاعانات واولى التفضل والانعام
الذين يتحينون اوقات الملابس المرتبة زمرا تتبعها زمر دون ما يبرز من قصوره الكريمة
احيانا الى الاشراف والصدور ووفود الملوك وارسالهم من المتاحفة بمفاخر الخلع والتخوت
ونبيه اللباس وربما شفعت بالمراكب العتيقة والحلى الثقيلة والاموال الطائلة الجسيمة واما
ما يجهزه صحبة بعوثة الى فتح الجهات والاقطار وعساكره التى يرمى بها اقاصى
الممالك البعيدة فاتحة ومدوخة فشى لا يحمله الا البعير ولا ياتى عليه حسان ولا
تقدير فحدث عن كتب يمرين كثرة

ص 212

ذكر الاحتفال للميلاد الكريم والتنويه بموسمه العظيم

هذا الموسم الكريم النبوى ومشرق انوار الطلعة النبوية ومجلى عروس الكون ومظهر
كنز الله فى العالم وسره المنتقل فى اصلاب النبيئين عليهم السلام من آدم خير من طلعت
عليه الشمس صلى الله عليه وسلم صلاة يتهادها فم الى فم وقلم الى قلم حتى تظلنا
فى اعسر من عنايته الراية والعلم هو مطرح الهمة الكريمة الامامية النبوية الشريفة المنيفة
ومرم اعتنائها وعظيم اهتبالها واحتفالها واکراما والاجلالا ولئن كان الخلفاء رضوان
الله عليهم لم يجدوا ايامهم ومددهم من احياء سنته التى ثابروا عليها خلفا عن سلف
والاحتفال لوليئته العظمى التى تحضرها ملائكة الرحمان ويهتز لعظيم شأنها الملوان
فلقد اربى عليهم مولانا الامام امير المؤمنين ايده الله تعالى فى صنعها الجسيم والاحتفال
ليلها العظيم ويومها الكريم بمقدار ازدياد بحره الطليق على نهرهم وامتداد باعه الرحيب
على فترهم حياها الله من همم هاشمية * وشيم نبوية ونفوس كريمة علوية كم لها من

ص 281

ص 282

فخار عظيم ومآثر تلوح غررا في جباه الايام وهى كمآثرة يرضون بها الرب فى كل عام وتقر بصنيعها عين المصطفى خير الانام عليه اطيب الصلاة واذكى السلام والرسم الذى جرى به العمل (1) لاحتفال هذا الموسم النبوى الكريم انه اذا طلعت طلائع ربيع الاول طلّعت هذا النبى الكريم صلوات الله عليه وسلامه توجهت العناية الشريفة الى الاحتفال له بما يربى على الوصف ويقف دونه همم الحاسب فيصير الرقاع الى الفقراء ارباب الذكر على رسم الصوفية من المؤذنين النعارين فى السحر بالاذان واصوات رهبان فيهوون للدعوة من الاماكن الثائية ويعكف على خدمة رياض الشموع التى تجلو الحاسن هذه الجهابذة الذين يبارون النحل فى نسج اشكالها لطفًا وادماجًا حتى اذا كان ليلة الميلاد الكريم وقد اخذت الالهية وتسم الاستعداد وتناهى الاحتفال واقصى مبالغ الكمال وتلاحقت الوفود من مشايخ الذكر والانشاد وحضر وقت زفاف العارى فى رياض الشموع الى الابواب العلية الشريفة وحضرت الآلة الملوكية والافلاك المؤلفة من الاخشاب لحمل جنوعها يحملها اسارى النولة وأولو الطرق من الصحافيين المحترفين بحمل خدور العرائس عند الزفاف يتقدمهم عريف الاشغال بالباب العلى مصلحًا لشأن افلاكها ومعدلاً لسيرها

— مشايخ الوزعة وخدام الشرطة ومشايخ البلد انتظم عالم من النظارة سماطين بحافى الطريق من ابواب الخلافة العلية الى حيث مثوى الشموع من منزل اولى صنعها وخدمتها قد جللوا جنبتي الطريق وركبوا الاسوار والاسطاح وبرزت ربات الجبال من اعلى المنازه والصروح فضخمت الجملة وعظم الزفاف وبرزت جنوع الشموع كالعذارى يرفلن فى حلل الحسن والضخامة والجلال واحتملت على افلاكها يقفوا بعضها بعضا فى عدد كثير كالنخيل فارتلعت اصوات الآلة وقرعت الطبول وضج الناس بالتهليل والتكبير والصلاة على النبى الكريم وتتصاعد على الوصف من الزى العظيم والزفاف الجليل حتى تستوى على منصات الشهرة بالايوان الشريف ثم يقع البيات على التغليس لحضور المشهد الكريم فاذا حضرت صلاة الفجر برز مولانا الامام امير المؤمنين ايده الله فيصلى بالناس ثم يقتعد اريكة قبته وسرير ملكه وعليه خلع البياض شعار الدولة الكريمة وقد ازدهى المحفل وضخم الحال وتناهى الجلال واصطفت امام القبة جنوع الشموع المبارية للمآذن والنخيل ضخامة اجرام وطموح اعناق واصطفاف العذارى المختلفة الالوان فمن بيض كالدمى وحمرة جلبيت فى ملابس ارجوان وخضر سندسية * الغلائل وقد تقسمت طول جنوعها قباب مستديرة بها استدارة اركان المآذن وتفننت فيها الصنائع نسجًا وقادت بين الارجل الضخمة والافلاك المضاعفة تنوء بها العصبة اولوا القوة متعددة المواعد والمشاكى كانها هضاب نرجس نهر ذوائبه ايدى النواسم واستحضر من انواع الحسك امام الحضرة كل توراء مصنوعة من النشب اخذت مدمج خصوصها التفافيح

ص 283

(1) بياض بالاصل .

النافذة النقش قد ركزت في انابيها المجوفة وغير المجوفة عمد ملبس الجسوم من الشموع طوال القدود طاعة في الجو باسنتها المذهبة مولوية بالسنتها الدقة تضرب باشهارها الجنة من اولى الدربة بقطف انوارها فتقطفها بالاجلام المحززة والمقطعات المجوفة التي تمسك ما ابانه الحلاق من شعورها فلا يسقط منها شرر ولا يوم لها قنار وملئت امام الحضرة الامامية لوقود العنبر آلة ضخمة الشكل فضية الصوغ بديعة النقش مظلة بالغطاء الدمج الشباك يناول مولاة وقودها العنبري الى انفضاض المجلس قيم الاثاث في تسهيل من الظرف والخصوصية لا يغيب عن امدادها بالوقود فتتصاعد فوق المشهد منها غمامة عنبر قد سدت افق الشمس وضربت دون سماء القباب سرادقا جونا فتملأ المعاصم وتعلق عمائم الاطواق والجيوب واللبب وتسائل الناس من البلد على طبقاتهم مفلسين من شرفاء وقضات وفقهاء وكتاب وشعراء وقراء وخطباء واجناد وروساء واشياخ نيهاء وعمال ائراء الى من تعلق باذياهم من اللفيق والغمار بما يعين التنخل ويعجز التامل فاذا استوى الورود واصطفت الصفوف الاجناس وتآلفت الاشكال ورضيت مقاعدها السرات وخلص من زحام الابواب الضيق وعصى الرياد عن كتب الله سلامة ثوبه وحفظ بشرة وجهه فكثيرا ما نرى الانوف لخدوشة من التراحم والتدافع بالابواب التي يظللها عصي اشبه من عصي الكوزة ومن يسد طريق العارض الهاطل تقدم اهل الذكر والانشاد يقدمهم مشايخهم من بعد ان يفرغ الواعظ من قراءة ما يناسب المقام من الاستفتاح للفضائل النبي صلى الله عليه وسلم وسرد معجزاته والثناء على شريف مقامه وعلى جلاله واندفع القوم لترجيع الاصوات بمنظومات على اساليب مخصوصة في مدائح النبي الكريم صلى الله عليه وسلم يخصها اصطلاح العرف باسم المولديات نسبة الى المولد النبوي الكريم قد لحنوها بالحنان تخلص النفوس والارواح وترق لها الطبايع وتبعث في الصدور الخشوع وتقشعر لها جلود الذين يخشون ربهم يتفنون في * الحانها على حسب تفننها في النظم فاذا اخذت النفوس حظها من الاستمتاع بالحنان المولديات الكريمة تقدمت اهل الذكر المرحزون بالرقيق من كلام الشيخ ابي الحسن الششتري رضى الله عنه وكلام القوم من المتصوفة اهل الرقائق كل ذلك تتخلله نوبات المنشدين للبيتين من نفيس الشعر يتحنون به المناسبة بينه وبين ما يتلى من الكلام عند الانشاد من نسيب او غزل او امام بنسيج او تشوين للمعاهد الشريفة او مديح نبوي او ما ولى على سبيل لطيف من الظرف ولحن عريق في نسب الاجادة ثم حضرت دولة انشاد الشعراء وكان الخلفاء رضوان الله عليهم يتساهلون في اتباع الفث الذي يلهم به من ذلك العوام المتشاعرون بما يلقون سفاسف القول وسافل الكلام المصقول بشرك القافية الواهية والوزن الخارج عن نسب الاجادة ومصطلح الاوزان

ص 284

العروضية فلما جاء الله بساعة الكمال ألقت الهمم العلية المنيفة الكريمة الامامية الاحمدية المنصورية على الله بحبها وايد حزبها من ختم محاسن هذه المحاسن الشريفة النبوية بالدعوة الجليلة الامامية العلوية بمثلية هذه العصاة الخسيسة التي يتحاشى مجلسها النبوى عن خصف انعلتها الوطرة على اوطينه الشريفة الملوكية ويتنزه عن قولها الثقيل الذى تشمئز منه الطباع ولا يحصل لواحد على الاسماع اذن ولا قبول فانصبت مع الامتنان بحفظه الجراية وغشية الاحسان وادانتها العناية الشريفة الامامية بالعصاة الادبية من كتاب الدولة وشعراء (1) هذا الميدان وجهابذة هذا الشأن ودفعتهم لهذا المضمار العادية (1) الامامية فتباروا فى احراز الخصل تبارى الجياد يوم الرهان والشان فى الانشاد ان يقف الشاعر بازاء المسمع مستنبيبا اياه فى انشاد ما خبره فاذا فرغ خنع الشاعر وانصرف لمكانه من المجلس الكريم وجرى الترتيب بتقديم قاضى الجماعة الشيخ العلامة جملة الفضل الصليب العدد القوى الشكميمة صدر الفقة اثير الخلفاء سفير الائمة خطيب الخطباء بلبل منابع الجمع والاعباد القاضى ابنى القاسم بن على الشاطبي نحمد الله بعفوه فانشدت له قصائد تابى الاثبات فى هذا الموضع وتلاه الشيخ الامام علم الاعلام مفتى الاسلام بحضرة (1) انمودج الفضل ولبنة التمام ذو النسب الشريف والحسب العريق الاصاله المشتمل بملاء السوود والسرارة وذمالة الاخلاق ولين العريكة رضيع لبان العفة مليح البسط على ديانة مضمير ثغرة النادره (1) فصيح القلم المغبر فى وجوه * اهل اللسان والبيان شيخنا العلامة ابو محمد عبد الواحد بن احمد بن الحسن الشريف الحسنى فانشد له

س 285

الا حى نجدا والمعاهد من نجد وسائل بها من حل اكناها بعدى
معاهد انس لاتزال اعراضها مصارع عشاق ومسللى لدى وجد
نعما بها والعيش فينان مورك وجرى الهوى ملء العنان بنا تردى
احن الى تلك المعاهد والربى وماذا الذى يفنى حنينى او يجدى
ليالى الهو بالكواعب كالدنى وينعم طرفى فى معاطفها الملد
وكل هضم الكشح اغيد ناعم قلله من عقد عليه ومن قد
اذا هز غضب اللحظ ثم سطر به فرى فوق ما يفرى المجرد من غمد
اغازله فوق الكثيب سحيرة ويبسدى من الاشواق فسوق الذى ابدى
فبتنا على رغم الحسود وبيئنا احاديث احلى من امان ومن شهد
اطارحه الشكوى واخضع ذلة واشفق من هجر يتاح ومن صد
اذا ما رنى طرفى الى روض حلمه فما شئت من زهر جنبى ومن ورد
قلله عينا من رانا وبيئنا تدار كؤوس من وصال ومن وعد

(1) يباى بالاصل .

اقد غص جفن البؤس عنا ودونه
 وقد امتت لدائنا من رقيبها
 هو العيش لو ان الشبيبة ساعدت
 فقد نسخ المشيب حكم شبيبتي
 ولكن الى الاخرى سرى بهمة
 عناد العصاة المؤمنين ومن به
 هو البحر جودا والسما كان رفعة
 هو الآلة الكبرى التي عم نورها
 اليه تناهى كل فخر وسؤدد
 فمن جاهد قد نال ادم طوله
 ايا ليت شعري هل بظاهر ربه
 وازجى له العيش الضواهر جاهدا
 واحدوا بها واليل ملق رواقه
 عليه صلاة لا يزال نسيمها
 وتم سلام لا يزال مجددا
 اليك مدت الكف يا خير مرسل
 فبين يدي في المعاد مواقف
 بك استمسكت كفاي في كل موقف
 وخذ بيدي فضلا فما لي وسيلة
 وود بنيك عشرة السبط انهم
 امان لاهل الارض ما وجدوا بها
 ولم لا وانت جدهم وابوهم
 وفيهم ومنهم من يلاذ بظله
 امام الهدى خلف الندى قاهر العدى
 له همة تعلو الكواكب رفعة
 وصوله ضرغام اذا احمر ياسنا
 ورأى اذا ما الرشده عمت وجوهه
 وادراك ما يعي العقول مثاله
 له استسلمت كل الملوك ومن لهم
 ابوه جد الاملاك والجد جده

ص 286

مهامه تنضى ضمير العيش والجرد
 فيا لك من عيش هني لها رعد
 ببقيا وما ان من بقاء ولا خلد
 فما انا من ليل ولا انا من هند
 تبارى نجائيا لخير الورى تخدى
 تلوذ دوو الامال طرا ولا يكد
 به العفو ارجو والشفاعة استجدي
 وذو المعجزات اللاتى يعين في العد
 فيا كف مذنب باذياله شد
 وحاز به رقدا فيا لك من رفد
 اري ملقيا رحلي ومفترشا خد
 قبيل انقراض العمر والكون في لحد
 فطورا بنا تعدو وحيننا بنا تخدى
 يعاهده من قرب دارى او المجد
 اليك اياذا الفضل والعز والمجد
 دعاء غريق في مئامه بردى
 اجازى بها عن هزل امرى وعن جد
 فلا تسلمنى في مضايئها وحدى
 امت بها يوما اليك ومن ود
 بدور الورى اهل الحفيظة والعهد
 من الفتن الجما ومن كل ما يزد
 فله من اب ولله من جد
 سميكم المنصور كالاسد الورد
 وواقى الردى هادى الرعايا الى الرشد
 ويقصر عنها كل قيل وذى جلد
 ولان الشموس من كمال ومن عهد
 وجلم اذا طاش الوقور عن الخرد
 وصدر بلا ضغن هناك ولا حقد
 بلقيا هزير لا فى صدر ولا فى ورد
 فله من هاد هناك ومن مهد

امولاي حزت الفخر والفضل والندى
 علوت على كل الملوك وفقتهم
 هنيئا بما خولت يا خير من رقت
 بكم ولكم ذلت ودانت طوائف
 كففت اكف الظالمين عن العدى
 وأمنت ابناء السبيل وسبلها
 وصينت بكم اموالنا ودمائنا
 مدائنكم يعي القوافي حصرها
 ولم اتعاط المدح الا تبركا
 بنفسى واهلى والعشيرة كلها
 ففاخر فانت اليوم كالعلم الفرد
 فمالك من شبه ومالك من ند
 اليه عيون من عفات ومن وفد
 فكلهم من خوف باسك فى قيد
 فما ينتهوا لولاك فيه الى حد
 فجابوا مغاوير البلاد على قصد
 فكم لك من شكر علينا ومن حمد *
 عن العجز مالى من محيص ولا حيد
 والا فانى لا اعيد ولا ابدى
 وما كان او يكون نفسكم افدى

وتلام الفقيه الفاضل جملة السداجة وكرم الخلق طيب النفس جميل العشرة
 وطىء الكنف فى الطبع مسترسل عنان النشأة على الفطرة جامع المجلس الاثاث من طلب
 ممتع وادب بارع وخط رائق وقلم فصيح وسيف باتر وسان عامل القائد ابو الحسن
 على بن منصور الشيعي وانشده على الرسم المذكور :

أترى الزمان بوصل ليل مسعدى
 وابيت فيه مقبلا فى حجرها
 ومنها
 وهل التقى ليلا بها فى مشهد
 خالا لدى حجر هنالك اسود

وتبرجت تسبى الوجود بزينه
 من اذا تجلت فى مشاهد قدسها
 من لى بها قد اسفرت فى ليلة
 تلك الليلية ما لها اخت سوى
 فهل اركبن لها المطى عشية
 والليل يسحب مقبلا ديباجه
 والعين تخفق للروح خفية
 ويسوقها تذكار من سكن الحمى
 ومنها
 وتصيد لب الناسك المتعبد
 اجلت هموم شهود ذاك العهد
 يزرى دجاها فى العيون باثمد
 اخرى بطيبة اختها فى العقد
 واروح مشمولا ببرد الابرد
 والشمس ترفل فى حلى من عسجد
 خفافها فى الطى طى الفد
 وترى بطيبة او بقيع الغرقد

تلك المعاهد هل ارانى نحوها
 وهل اغتدى والصبح من كحل الدجا
 والليل من افق المشارق قد طوى
 والنجم مسلوب السنا وقد انظفا
 اصل الشرى والسير سير المسند
 راء وعين الشمس مقلة ارمند
 راياته بعد انتشار الانبيد
 طفا الشرار على ثقاب موكد

ومنها

شمليل تترك بالفضا شمل الحضا

بددا وشمل الوصل غير مبدد *

ومنها

ياهل ابيد بوخدها البيد الى

ان ابلغ الارض الطيبة النسي

فاحط عنها في المقاعد رحلها

وازور بالزوراء قبر محمد

خير البرية خاتم الرسل الذي

فاق الاوادم في الندى والسودد

ومنها :

تلك المعالي والعمالي كلها

من دونها في قربها المتفرد

فاقت على السبع الطباق وخيمت

في حضرة القدس القديم السرمدي

ومنها :

وسئل به آي الكتاب فقد حوت

من سودد المختار ما لم يجحد

فالقدر اعظم والمقام اجل من

ان يهتدي لثنائه بتعدد

هو النبي المستجار بظلمه

في الحشر من هول هنالك مرعد

هول يهيل الرسل لاكن ينجلي

بشفاعة المختار افضل منجد

غيث العوالم رحمة الله التي

شملت مواهبها ولما تنفذ

ومنها

فحمي بآيته وحد حسامه

شبه المعارض او وريد الملحد

فاسأل به بدر الذي ابتدر العدى

فيه الردى من باسه المتأسد

واسأل به احدا وهل اعنى به

احد خفاء بخطبه المتردد

ومنها

اخذت على كسرى وقيصر بعد ان

ثلث عروشهما كان لم تعهد

ابدت لها من غيظ ماء بحيرة

وخمود نار قبلها لم تخمد

ومنها :

صبح قد اصبح بالمهيمن غرة

للدهر فاقد قدر ذلك واحمد

واشكر لملك بعد اصبح مشهرا

ذاك الصباح معظما للمولد

حلا النبي به ولم يترك له

حقا ولم لا وهو فرع الخند

خير الخلائف احمد بن محمد

محمد المهدي الامام بن الامام محمد

القائم الهادي الذي ابدي الهدى

بالقرب شمس بعد جد مجهد

حزب الامام الطود منصور اللوى

السيد بن السيد بن السيد *

وقضيت لهم اسياهم وصعادهم

ان يصعلوا فوق السماء الابع

تلقى بهم اسدا ظمأ مالها
وتريك منهم في النوال اكفهم
هم وطدوا المجد المؤئل فارتقى
بخليفة اعيسى الملوك علاؤه
انى لها بمؤيد قد مده
ومنها :

رأى اذا ما عنه جهاز راية
لاكنه مستصحب بسعادة
وعزيمة ابقت السود فى اى
وغلوا بها ما بين نفس مروع
هى عزمة قد انقت الامر العل
شامت بوارقها القتام وارعدت
وقيلهم تركت عساكر قيصر
فى ما بين تلقى الرؤوس به الظبى
ومنها

هذى المواقف قد رسى للحلم من
ويريك بحرا فى المعارف زاخرا
يقظ يوارى الغيب عنه حقائقها
ظفرت يد الاسلام منه بصارم
أبراحة الله الذى بعلائه
لقد اطلعتك على المحافل رتبة
وسناك قد بهر العقول وسرها
ملأت محبتك القلوب وقادها
وغرسته فيها قائم بالثنا
وبه آتيت مغردا كالطيراذ
يهنيك بالعيد الذى عادت لكم
بكم يهنا العيد لوراء فلقد
لا زلت زينة كل عيد والعدا
وبقيت منصورا بربك غالبا

مر 290

/ وتلاه مؤلف الكتاب سمح الله له فانشده:

يوم اللقا الا الدما من مسود
تقضى مهالك الابى الابعد
بعماده المنصور فوق الفسرد
اذ لم تجد لماله من مصعد
رب السماء باسعد وتابعد

اغناه عن جند عليه مجند
تقضى مهالك الابى الابعد
انقياد لامره المسترشد
ومجدل ومشرد ومقييد
من الاذى وسواد تلك الابعد
هندا والسند البعيد بارعد
بالقصر هلكى بالرماد الرميد
فتخر ساجدة لهيبة احمد

علياه طود أى طود أقود
عما تشا فسل تفز بالمقصد
فيرى بعين الالعى المتوقد
حسن الروا ماضى الغرار مهند
تم الهناء وسر كل موجد
للملك كالبدر المنير الاصعد
مرعاك فى هذا المقام الاسعد
احسانكم يا ابن النبی بمقود
وجثيته حلو المذاق بمزود
قامت اياديكم لنا كالاماد
به المسرة بالشواب المخلد
صغتم لاهبته حل لم تعهد
حصد لسيفك ذى الفقار الاربد
يا خير منصور به ومؤيد

وعد بوصل اللوى والرقحتين عد
 نار الخليل التى سيطت بها كبدي
 مرايع الشوق قد أقوت من الجله
 وما عليهن من وتر الاقود
 وان ظمئت فمن ماء العذيب رد
 لانتھروا سائلا وانا على بعد
 يصلى بنار عذاب منكم وقد
 وجئت حى خلول السفح من أجد
 يكاد ينقد من لين ومن عيد
 تفر عن لؤلؤ رطب وعن برد
 حتى تصافح لحد المصطفى بيد
 حاز الفضائل من مشى ومتجد
 من دونها الشهب فى الاشراق والعد
 تحنو لعزته الاقيال من اكيد
 جناح كسرى فلم تخفق مدى الامد
 من فارس قفرات العمر والكتف
 يرجى له الجبر مرغوب ولا عضد
 اخنى عليها الذى اخنى على لبد
 هادى الانام الى نهج من الرشيد
 فيه الكمال انتمى ختما ومنه بلى
 عمرى وملء فم منها وملء يد
 به استقل منار الدين فى صعد
 كل الجهات فلم تقصر على بلد
 فى جبهة النهر لم تكسف على الابد
 شهب السعد بشمع فيه متلد
 مرفوعة من زبرجد على عمد
 أمسى بالنسكاب الدمع فى تكد
 دخان ند باوج الجو منعقد
 وهى الوليدة عظم الام بالولد
 ما دار فيه بلا لهو وغيردد

أعد أحاديث سام والحمى أعيد
 وعج على المنحنى من اضلفى بيد
 ومل لاكناف جرعاء الحمى لترى
 كيمث الجئاذر بالآساد فانكة
 وشم بروقا أضاءت من ثناياهم
 وقل لهم ان جرى دمعى بربعهم
 يا جيرة العالمين الله فى دنف
 ويا نسيم الصبا ان جئت كاظمه
 قف بالكتيب وعانق فوقه غصنا
 وارشف ثفور الاقاحى وهى ضاحكة
 وطف لدى البيت سبعا واسع ملتثما
 لحدنا تضمن خير المرسلين ومن
 من حيرت فيه ايات مبينة
 به اعتلت مضر الحمرا الى شرف
 أجل من كسرت جبيرا قواضيه
 وجدلت قيصر قسرا وقد حطمت
 وغادرت كل جبار لديه وما
 وأصبحت ملة التثليت منه وقد
 محمد سيد الارسسال خاتمها
 يا صفوة الله يا غوث العباد ومن
 أهدي اليك صلاة لا ازال مدى
 اهلا بمولدك الميمون طائره
 فى صبحه استبقت خيل السرور الى
 يوم غدت كل ساعاته غمرا
 قدركم الصبح منه اليل فالتبست
 من كل هيفاء قد قامت على سرر
 تظل من نغم الاصوات فى طرب
 قد ظللتها غمامات نواشى من
 يا مولدا وبه الايام قد عظمت
 يا مهرجان تود الحور لو حضرت

قد قارض الله في تعظيمه ملك
خير امام له في كل حارجه
من كفه ملتثما
ليث له من قناع القيل يسكنه
من معشر ان يكن عدنان اصلهم
فان تسألهم فهم بنو حسن
له الرماح التي ان هز عاملها
ان اشرعتها يد منه مويضة
يقظان يقرء من عنوان فكرته
فكر تخر له الافكار ساجدة
يقلف بالدر وهو البحر منفردا
طوق جيدي بنعمى منه جارية
قصرت اسجع مدحا فيه لاعب
سواك ربك من طين الكمال لذا
قد اكبرتك عيون الخلق اذ نظرت
روح سيوفك من دم العدا زمنا
وما ورا السود الا السد تفتحه

ص 292

بر له في سبيل البر كل يد
حبل من الود مربوط الى الخلد
لاكنه بانسكاب العرق منه بد
ومن بنيه الاسود كل دى ليد
فهم لعدنان اصل المجد والسود
وان تحاربهم فهم بنو اسد
لم يثنهن نسيج الدرع والزرر
أقمن ما في عصي الدهر من اود
في اليوم ما تبرز الايام بعد غد
اذا اغتدى نافثا بالسحر في العقد
والبحر يقذف بالدر وبالزبد
ما زلت عمرى في عيش بها رعد
سجع المطوق في أوراقه غرد
أمسيت في الخلق مثل الروح في الجسد
للشمس قد بزغت من جهة الاسد
فكل جفن لها يشكو من الرمد
بجيش نصر له الاقدار من مدد

وتلاه الفقيه الكاتب علة ذكاء ومحرز خصل السبق في مضمار الانشاء النابه
النزبه العزيز المكانة المفلح السجية المسترسل الطبع العذب الفكاهة الحلو
النادرة المبرز في اشتات الفضائل الاخ الكريم والولى الحميم أبو عبد الله محمد بن
على الفشتالى فانشده له

اسرار وجدك من جفونك تعلم
تخفى الغرام وفي الشهود عدالة
دمع وسقم والسهاد وصفرة
لم يدر من ألف السلامة ان ما
اطبقت أحشائي على نار الجوى
وتأدبت فمن هويت جوارحى
ان لم يفض دمعى على اخدوده في
نار البعاد على خفاء مكانها
برق باقصى المشرقين ومساؤه
ولسان دمعك عن هواك مترجم
لا يقبلون رشى على أن يكتموا
كل على عقد الصباية يرسم
العين من نضج الفؤاد معنم
فمنازل الصبر بها تتهدم
فالعين تنثر واللسان ينظم
صحن خدى فهو فيه مبهم
احرق من نار العذاب وآلم
من مقلتى بالمغربين به دم

يا ساكنى سلعا فقد سلع الحشى
وسكنتم بالمنحنى من اضلعى
وروت حديث ابى الزناد جوانحى
بتولهى وتولجى وشوقى
لانا الذى سلت عليه يد النوى
يا بady النخل النجاب بمهمه
اغواله وقف على ارجائه
فاضت مياه جهاته وتلاطمت
الف اغتيال السالكين بقفره
صفر البسايط والنرى متهيب
تطفو النجائب فوقه فكانها
تسموا على كفل النجود وتارة
رققا على قلب الذى ذهبت به
هن القسى لرمى اهداف المنى
واذا المطى بنا بلغن محمدا
ولها المراعى الخضر حول مناهل
بلغت بنا شمس الرسالة والهدى
تاج النبوة سرها وجلالها
يا طلعة بمولد جذلت بها
عم السرور العالمين وقد غدا
ايوان كسرى ساجد شكرا
غاضت بحيرة ساوة كخمود نا
يا خير من عنت الوجوه لجاهه
طلعت شمس الدين فى افق العلا
وغدا بك الكفر كان عيونه
فباى آيات التحدى يعنى
ابا نفجار الماء من بين انا
ام بانشقاق البدر وفق اللد اتي
ام بالاساليب التى يمينها
يفرى به غلب الرقاب من الاولى

من رقص موصول التفرق ارقم
وجرت دموى بالعقيق عليكم
نوم المضاجع عن قتادة يحصرم
وتشوفى ليورود طيف منكم
سيفا من الهجران وهو مصمم
ضل الظليم به ونسر قشعم
فالريح ان مرت به تترنم
امواج ءاله فلا تتجشم
بطشا فلا تكاد نفس تسلم
بالال عن درك الحيا يتلثم *
سفن يدافعهن يم خضرم
ترسب فى خضر الوهاد وتتهم
تلك النواحي فى النوى تتحكم
اوتارها الحدا ونحن الاسهم
فظهرهن على الرجال تحرم
زرق بيض ازاهر تنتعم
سيف الالهية الذى لا يقحم
العروة الوثقى الملاذ الاعصم
الدنيا لها ثغر العلا يتبسم
عرس بها للكائنات وموسم
وشهب الافق ترمى المحرقات وترجم
ر الفرس للنور الذى هو اعظم
وهو الوسيلة للجنان وسلم
بك وانتى للشرك ليل مظلم
مطروفة اوقت فيها حصرم
فكرى ونطقى بالفهاة ملجم
مل حكاها النهر وهو مفصم
على شرط الذى يتوهم
سيف البلاغة وهو غضب مخلم
جاءتهم عصم الفصاحة تخلم

وأنى مسيلمة اليمامة أفكسه
اترى الخواق من مخارق كاذب
شب أبو لهب ضرام لهيب
قبل الدعاء على الصناديد الال
يا خير من نيطت بعروة عزه الا
يا خير من خطت رواحل الدجا
اوصاف قدرك منهل متهيب
ان كان قد اثنى عليك الوحي يا
قل للذى حالك القريض لانت فى
فائن العنان لنجله وسليله
ملك ترى الاملاك خاضعة له
ودت عداه ان تكون رعية
طود يلوذ بعزه وبعده
الملك المنصور نجل الما
لهم الغطارفة الذين توارثوا
أنت الذى بكر الخلافة حزنها
ولبوس باسك فى المخازن ادى
وبريت اذاق الطيور من العدا
داست قبائلك القبائل واعتلا
جهزت جيشك وهو عنب كوثر
فارفق على القوم الذين تريدهم
وطدت فى السودان مملكة لها
فغزوتهم بصواهل وبوازل
بخلائق ضريبة شهيدة
وعواسل بجحافل وفساطل
وقواضب عربية قرشية
رضاعة مهج الكهات اما درى
بكتائب لون السماء دروعها
دكن لهن من الاسنة اعين
خرس كما ركد الادى شهامة

فكان منه على العماقة ميسم
محمد لا يستوى ومذمم
ومن القراية من يضرب ويولم
سحبوا الى غور القلب واسلموا
سباب وهى وثيقة لا تفصم
بفائه واليوم صعب ايوم *
وعليه اطياف المذائح حوم
عين الوجود فما لنا متكلم
جنب ثناء الله الكن اكنم
المنصور اى وسيلة لا تحرم
لتحوز عزا من حماه يقسم
اخذا من الراى بما هو احزم
دين الرسول من الفساد فيعصم
لك المهدي سبط محمد وهم هم
مجدا بنوه على النجوم فخيّموا
فى مأزق فيه القنا يتحطم
وسط المخازى بستان الاشثم
فتخاف اخلاف المواعد فيهم
كعب اياتك التى لا تسثم
عدلا ونار بالشهامة تضرم
فهم السوام وانت فيهم ضيفم
بين المقارب والمشارق مجثم
يدرى عنافتها الوجيه وشدقم
ساما وصاب فى الحروب وعلقم
عقدت برودا بالقشاعم ترقم
علوية حسنية لا تهلم
الانذال ان ان رضيعها لا يفظم
وفلانص الفرسان فيها الاتجم
ومن مثار النقع ثوب اسحم
ولسان سيفك فى الطلا يتكلم

ايـم الفـنـات يـفـوص في يـم الدـرو
 اما ترى سـمـر الرماح يـسـودها
 فاجتحت من بسنغاي اسحاقا وقد
 ظنت حصانك في الوجود فكل من
 اهل الاقاليم ابنت اما ترى
 فمدت الاملاك من اقطارها
 هـدى العزائم قد ارشت نبالها
 فاجل قداح الرأى واعقد راية
 ابن الامام الظافر المهدى من
 ناداكم السعد باعلا صوته
 علمت بنو الدنيا جميعا انكم
 دوموا لهذا الامر وابنوا بيته
 انبى القريض الخائضين بأبحر
 هـدى الاناشيد التى تشدو بها
 من دوح فضلك يجتنى ثمر المنى
 علرا امير المؤمنين فمن غدا

عـ كانـه بـدم القـلوب مـتـيـم
 كالبيض فى الافرنج دابا تحطم*
 حف بجيش السود وهو عرمرم
 ناواك فهو بالمهابة يقصم
 جل الاقاليم بذل سلموا
 راح الضراعة زنجها والديلم
 فقسيها الى بلب تسهم
 باليمن واركب فالنجاح مطهم
 فض الجموع وهو فرد معلم
 والدهر قاد نجائبنا فتسنمو
 قوم لهم ملك الوجود مسلم
 لازال وهو بعزمكم مستحكم
 من مدح أحمد فى السماء حللتم
 ورق البلاغة بالشنا وترنم
 بيد الشيد مؤخر ومقدم
 يرسف فى قيد المهابة يفحم

وتلاه الفقيه الفاضل علقمة العصر والادب الرطب الجتى والهصر والمقول البادى
 الكلف يجيب طى وقتل المهامه نشرا وطى الوثيق عقد للرجولة والجزالة والحسب
 والاصالة فارس الميدان وفاره الجوارح المطعم اكلة النظم المبرز فى الامداح المقومة الانابيب
 القاضي ابن عبد الله محمد بن على الهوزالى فانشد له على الرسم

يا حبذا ربح اتاك نسيمها
 ودعاه من سلع بريق لامع
 فاحت به نفحات رملة عالج
 ينبئك عن مسراه فجر باسم
 يا ساكنا تلعات جرعاء الحمى
 هل لى الى تلك المعالم عودة
 بابى عشيات هنالك تزدهى
 بيوانع عين سقام جفونها
 غيد تشب على القلوب نغرامها
 من لى بمن حل العذيب ودونه

ولديه من اخبارهم مكتومها
 فانصب من نثر الدموع نظيمها
 بشدا عريب باللاء تخيمها
 بحديث اشواق شواك اليهمها
 فربى العذيب ظعينها ومقيمها
 تشفى شجوننا فى حشاى سموها
 حسنا ويعبق نشرها وشميمها*
 سقم الجوانح لا يبل سقيمها
 حتى يلوب عشائها وصميمها
 اعلام نجد سهلها وحزومها

ومهامه لو كلفت بسلوكها
 هل من خوائف مهربات صلب
 وقف على اسرى السرى ارقالها
 تغدى بنا فى كل مرت صحصح
 تسم المزورات المجاهل فاعترت
 حتى تشق الدرب فوق ظهورها
 ونخيخ بالبطحا فيحطم كل ما
 واصب فى تلك الجمار مدامعا
 وتعرفت عرفاتها وحرأؤها
 واحيط عند المشعرين كليهما
 فأكون ممن قد اجاب ولم ينى
 وأرى بروقا موشمات موهنا
 لاحت فزفت للرحيل رواحيل
 حتى وردن بنا العقيق فراقها
 وتنسمت نفحات تربة من به
 وتلالات انواره فسمت لنا
 قب حوت سر الوجود ومن له
 من تنجلي يوم الجزاء بجاهه
 فخليلها انحى لاحمد قومه
 من افصح الحجر الاصم بصدقه
 وسقى واطعمها كتائب جيشه
 والبدر منشق لبعثته كما
 قسما بساطع نوره ان حم لى
 لاعفرن جبين وجهى لائما
 لعالم جاست خلال ديارها
 ايات وحى احكمت واتى بها
 لازال روح الله يعبق عرفه
 وصلاته ابداء يضاعفها له
 وادام تاييلا لوارث مجده
 ملك نمته دوحه نبوية

ص 297

ريح لكل بليلها وسمومها
 اخفافها ولحومها واديمها
 ودميلها وعنيقها ورسيمها
 والال يخفضها به ويقيمها
 بزلالها اكاهن وكومها
 ويسيل فى بطن المسيل سعومها
 حطمت عليه من النفوس حطيمها
 تطفى لظى جحيم الفؤاد جحيمها
 شوقى وزمزم والصفاء ورسومها
 شعري وميط عن القلوب همومها
 لما دعى للبيت ابراهيمها
 من نحو طيبة لازال اشيمها
 يحكى وشيك وميضهن طهيها
 بتلاع هاتيك الربى تنويمها
 طابت اباطح طابة ونسيمها
 غرر طوى حجب الضلال نجومها
 وجدت فراديس العلا ونعيمها
 عن اوجه الرسل الكرام غمومها
 ينفى الجوار وروحها وكليمها
 واجابه ذيب الفلات وريمها
 صاعا فاشبع هيمها ونهيمها
 خدمت لفارس نارها وضريمها
 زور لتربته الكريمة خيمها *
 لثرا رسوم لا يمل لثومها
 اى ملائكة السماء تسيمها
 مثوى الامانة روحها وحميمها
 بجمى مدينته المنيع حريمها
 حتى القيامة لايزال يريمها
 اسنى الخلائق فخرها وعظيمها
 وسمت به اقبالها وقروحها

شمسية احسابها وبهاؤها
سهلية ورجية اخلاقها
مضرية مرية فهيرية
اقلام مجد في مطالع سودد
اعلام فخر سودت هضباتها
لم تاب سوددهم ابات ربيعة
فمن بن قحطان عشت ادوارها
نسب تهز به قصي عطفها
ونقرع النور المبين محمد
ونما لنا المنصور فهو سليله
واتى به المهدي فارع نبعة
تتقيا الانام وارف ظلها
وافى أبو العباس فانتشرت به
حتى أعاد لنا خلافة هاشم
مخضرة عرصاتها قد فوفت
لا زال منه للبرية سايس
وغدت معاصم المواسم تزدهى

ببرية انسابها وارومها
جبلية اناتها وحلومها
اسنى مناسب خندف وصومها
كشفت بهم بهم الخطوب وشيمها
علما نزار قيسها وتميمها
بكر وتغلب ذهلها وجشومها
اضواء خندف فاستنار صميمها
تيها وهاشما كذا مخزومها
من هاشم أرج الاصول كريمها
وامام أمته فنعم مسيمها
ينبوع عذب المكرمات نديمها
وتفيض فيهم بالمواهب ديمها
أغصانها وظلالها وغيومها
موطودة أكنافها ورسومها
تلح المنى صمعاؤها وجميمها
يقظان فى مهد الامان ينيمها
بحلا محاسنه ودام يقيمها

وتلاه الفقيه الكاتب البارع النظم المطواع القريحة النبيل الاغراض العذب
الالفاظ المطبوع الكلام المالك لزمام الكتابة والنظام الحسن التذير الريان * من فنون
الاداب المعسول اللكاهة المغرب ببديع التنكيت الكاتب أبو على الحسن بن أحمد
المسفيوى بقوله على الرسم :

حيث رسومك جنة من دار
فضباتى بمحصب من خبئها
كسم يساوره البلا فكانه
ترك المتيم لايفيق وما احتسى
فيخال نفح الترب مسكا اذفرا
ومنازعى كاس السهاد زوامر
او بارق طى الفياهب مثلما
قدحته ايدى الغيم فى فحم الدجا
ورعيتها حتى اذا صدحت على

وسرت عليك من الغمام سوار
نثرت جمار الدمع من اشفار
فيه وشيك المحو فى الاسطار
ولا مثار الشوق غير مدار
ويخال عطفنا لنوى شطر سوار
أم اللاميل بها بعيد مدار
خطت على سبج سطور نصار
فكانما هو من اوارى وار
ايك الدجنة للصباح قمار

ولقد قدحت زناد شوق يبتدى
 لانهم منعوا الخيال مع الكرى
 ان بان انسى كان انسى لوعتى
 او أنتشق أرج الحياة فذاك ما
 فاجعل شعارك عزمة من همة
 وأخ الدميل على المطى سوى اذا
 والشم هناك تربة العز التى
 الامجد الاشرف الذى قد جاء
 حرم الهداية والرسالة خير ما
 وطن النبى الطاهر المختار من
 هاد الى السنن القويم وءاخذ
 ومؤيد بالمعجزات المحكما
 وتباشر الهدى المنيف به كما
 وتزيئت بشعاره الدنيا كما
 وانجاب غيم الشك عن وجه الهدى
 يا خير من يجدى الرجاء لبابه
 فصفاك الغر التى لا تنقضى
 أخرسن كل أخى بيان مسهب
 صلى عليك الله ما نم الصبا
 وأدام وارث دست هديك سبطك
 سباق شأو المجد أدنى خطوه
 فاذا السوابق عارضت مضماره
 اقلامه ان خط توقيع العلا
 وله ندى كف يساجله الحيا
 ما أقسم العانى بها الا اثنى
 هذا الذى سلب الملوك نفوسها
 ما عاصم من دونه لجج ولا
 ومتى يجهز للعادة رسالة
 قداح زبد المكرمات ومعتلى
 وجميل ذكرك صار اسرى من صبا

بلهيبه طيف الخيال السار
 وكفى بصد بعد شحط مزار
 أو بأن جارى كان دمعى جار
 يهديه نفح بشامة وعرار
 امضى واقضى من شبة غرار
 أمت بوخذ مطلع الانسوار
 ازدي حصاها رفعة بدرار
 من نفح روح الله صوب قطار
 يلقي النزىل به عصا التسيار
 أعلا دوائب يعرب ونزار
 حجز الخلائق عن شفير النار
 ت الساطعات الواضحات منار
 يتباشر الامحال بالامطار
 تتزين الاغصان بالازهار
 وأنا ندر الحق بعد سرار *
 حذر البوار وموبق الاوزار
 أو ينقضى بالعد قطر بحار
 وجلبن عى المصقع المكثار
 بشذى رياض الزهر فى الاسحار
 الزاكي الارومة فى أصيل فغار
 أهد المبارى أو طموح مجار
 رجعت ولم تعلق له بفبار
 يوم الوغى قصد الغنى الخطار
 فيغض جامحه يد الاقصار
 ويمينه مقرونة بيسار
 ولبوسها ومهد الاقطار
 يحمى شقيا منه بيد قفار
 كانت لهم بالجحفل الجرار
 اوج الفغار ومدارك الاوتار
 من حيث لا يبدوا دليل نهار

وكفى بلثم الترب من آثاره شرف الرقاب ورفعة المقدار
لا زال وهو مؤيد ومسدد حامى الدمار مظفر الانصار

الى غير هؤلاء من الفضلاء الاعلام وفرسان النثر والنظام من كل فياض القرية
يهز من لسانه العصب الحتام وتمشى تحت رايته أمراء الكلام صان الله جماعتهم وأجزل
من الدر المكنون بضاعتهم وألزم الالفاظ والمعاني طاعتهم ولم يزل فى خلال دولة
الانشاد يختلف الطرفاء من الخدام على الناس لاختصال الملابس بماء النعيم المصعد
من نثير الورد والازهار الاردية يكسب عليها بطاقات الرياحين والآس سكباً غدقا فى
الحجور والاردان فتدث ما تعلق باللباب والاطواق والحيوب من غمائم العنبر التى
تصاعد نؤها وسدافق المشهد الكريم فيلبث طيها لصق بالاثواب مدة مديدة ثم تنهل على
الحفل عارض النعمة من أبواب القصور الكريمة ويخص بالجفان والاخونة والصحون
والطيافير الرحبة الافطار جامعة لالحم المسارح وأنواع الطير * ودواجن البيادر
الفضاء الطبخ بالايوان الشريف ويخص الاطعام بين يدى الامام طبقة الاشراف
والنمط الاعلام من العلماء والفقهاء والقضات وأكابر الدولة ثم تبت الموائل بين الناس بكل
جهة وتمد بسط الاديم والمطارف صونا لاوطية المجلس الكريم فيقال على الناس من النعمة
العارض الهطل والسحاب المروم فلا تسئل عن التفتن فى المطابخ والتنويع فى المآكل
والارضاء فى النعمة قد استهلكته ضرور الحيوان وابيد طيابه ودواجنه وانتهى
الاحتفال الى ما يوجب البهت وينغمس الناس فى الاكل المتدارك والطعام ومتواثر بحيث
لايبقى بين رفع الخوان ووضعها وتعاقب الجفان فضلة من الزمن حتى يقع البهت
وتختل الهضوم فتتم النعمة وتختتم الكرامة ويشرح بحمل الارضاخ بانسكاب الحلاوى
المتنوعة والمربيات المتقنة ثم تصب الحلقات المستديرة للأكل الحصون العديدة المملوءة
بفانيد السكر الرحبة الافطار المعتامة من البخار اللطيف المدعو بالفرفرى صبا غدقا
فيتطارح عليها صنف أهل الذكر والانشاد ولفيف أهل البلد لجنوبهم متهاككين فى
اختطافه وتداوله بحالة تستضحك أمير المؤمنين ويهش لها ارتياحا ثم يختم بالشكر
والدعاء فينفصل المجلس ويفيض الحجيج وقد مكث من فاضل الطعام بفضاء الايوان
الشريف هضاب سامية فيؤذن للمساكين وذوى الحاجات المعومين عليها بالاسبواب
الشريفة تحويم القشاعم فينقضوا عليها ويسيل على هضابها منهم السيل العرمم
فلا يذادون عنها حتى تلقى كلمتهم ويرضوا جميعا فينقضوا عنها والجبال جبال فاذا
انصرفت أيام الوليمة الشريفة برزت صلاة الشعراء وعليها التوقيع الشريف فينشر
عليهم وتشفع لعليه المشايخ بالخلع الشريفة تقبل الله من أمير المؤمنين وأجزل ثوبته
وضاعف له الجزاء الاوفى فى دار النعيم وكانت لمولانا أمير المؤمنين ايده الله صدقات

ص 300

فاشية واسعة عظيمة العائلة يجريها على ايدى ثقات من رجاله فمنها الاموال التى يخرجها ختم كل رمضان ويعم بها ذوى الحاجات بحضرته العلية اهل الخير والدين كل على حومته حتى صار ذلك رسما وعادة يتحينها اهل الحاجة ومنها المهرجان الذى يقيمه يوم عاشوراء كل سنة لختان ذرية ضعفاء من مساكين الحضرة وأحواؤها وذوى الحاجة من أهلها يدخل بذلك أيده الله السرور على أولاد المومنين فيبكر الامناء ببابه العالى وقاضى الجماعة وصاحب المظالم المباشرة سنتها بالايوان الشريف ويتصاعد أهل حرفة الختان من أولى الحجامة وأهل الآلة والغناء * بأسرها التى ألفوها من عوائل الصلات والاحسان فيصطفون بالايوان الكريم وقد شجعت المواسى وتجاوبت الالحن واصطجبت أصوات المزاهر وارتفعت هضاب الكتان وأكداس الدراهم واستكثر من ذبح البقر فطمر بحر اللحمان وعلت أصوات الصبيان يتضاغون على أعناق آبائهم وقد مثلوا بالابواب الشريفة عالما يغص به الفضاء يعلوا وجوههم منار الحاجة ومذلة الانكسار فتنبعث الرحمة وترق النفوس ويعظم الخشوع وتقدم الصبية أفواجا أفواجا فكل من تناوله الختان أعطيت له أذرع من الكتان وحصص من الدراهم وسهم من اللحم يعمر باقامة هذه السنة بياض اليوم حتى ينهار الدم من كثرة ما استلجمته المواسى ويشمل الاحسان من ذلك أمما لاتحصى ويعم الصنيع أولى الحاجة وأهل الآلة الذين أقاموا مهرجانها وجلوا محاسنها وزينة يومها وفخامة دعوتها فيحتقب مولانا أمير المومنين من مشوبة هذا اليوم المبارك مما يتقل الله به موازين أعمال بره يوم الجزاء الموعود وأما ما يجرى على يده أيده الله فى سائر الاوقات من البر والصدقة ووجوه الاقتراب والزلفى من حال فى سبيل التوسعة على الفقراء بقسمه وطعام فى أوقات المجاعة يخرج وديون غرماء مفاليس تقضى ورقاب أرقاء تملك وأسارى تفتدى فلا يدخل تحت ضبط ولا يتناوله حسبان تولى الله عن الامة جزاءه وأجزل له يوم نجد كل نفس ما عملت من خير محضرا فضله الواسع واعطاءه

ص 301

ص 302

ذكر مبانيه الشريفة أيد الله تعالى واعز انظاره

هم الملوك اذا ارادوا ذكرها فبالسن الشعراء والبنيان

اقول ان امام الامة والملك لعود الملة مولانا الامام امير المومنين * ايده الله تعالى لما اختصه الله تعالى بالكمال وشرف الخلال وجمع له الفضائل التى سارت بها الامثال وعلو الهمة التى تنادم الفرقدين وتتوسد الذراعين وتفتقرش السنمكين فتبتغى فوق ذلك مظهرا وتخرق الافلاك معبرا فلا يرضى ايده الله من الامور الا ما خرق الاعتياد ومن الانار الا التى لم يخلق مثلها فى البلاد تخر لشموخ انفها شوامخ الاطواد ويدين لها بالعجز فرعون ذو الاوتاد وتمود الذين جابوا الصخر بالوادى من شرف آثاره الجلييلة الضخمة ومصانعه الجميلة الفخمة التى اخمل بها ايده الله تعالى ذكر مصانع قومه بنى العباس ببغداد

ص 265

وبنى مروان بالشام وآثار بنى عبيد التي منها القاهرة وسائر ما يعزى الى اولى السلطان
الأكبر من القياصرة والإكاسرة واهل الدول الاولى والاخرة قصره الشريف العظيم الخطر
العديم الندو المثل الضخم العمل الذى هو المثل المضروب فى الارض عظمة وفخامة
وضخامة وجلالة واحتفالا وتقنيا وتأنقا ولا بد عند الاستفتاح من ذكر هذا المصنع العظيم
الشريف من مقدمة تكون هى النتيجة فى اقامة المعلة لى عما يستشعر من القصور من يقف
على عين هذا الاثر الشريف الجليل المنيف فيرى ما ابصر اجل واعظم وافخر وابهر واخطر
وارحب واوسع وأنف وارفع مما سمع فاقول ان الله تعالى لا يواخذ العبد الا بما يكون
من العمل فى وسعه وطاقته والاحاطة بأوصاف هذا الاثر والآية الخارقة لا جرم من
قبيل المحال والتطبيق بما لا يطاق لا يكفى اصف من الفلك بعضه وانقلد من العلا فرضه
وانجنب البحر وخوضه فاقول

لقد وجدت مكان القول ذا سعة فان وجدت لسانا قائلًا قفل

فيا لله وللعجائب وللدنيا المتزوية فى ارض المغارب والخوارق التى لم يخلق مثلها
فى البلاد بهذا العصر وفى الاعصر الدواهب فماذا اقول وقد رابت الامر جليلاً وماذا أصف
وقد حملنى العجز عن الوصف عبئاً ثقيلاً ، ايروم اللسان وصفا لشيء ما له فى الدنيا
مثال وشبه وهذا المصنع العظيم ينبغى ان اثبه على مولانا امير المؤمنين ايده الله من
النية الصالحة فى تشييده وهو ان موالينا الخلفاء من سلفه الكرام رضوان الله عليهم
وان كانوا قد خطوا المدن ووطنوا القصور وشيدوا الاواوين واعلوا الصروح وبنوا
المساجد ورفعوا المآذن واجروا الانهار ورضوا الرياض واحرقوا الحدائق وابدعوا
البرك واغترفوا البساتين المفوضة فما قنع مولانا امير المؤمنين ايده الله * لطموح همته
الشريفة بالغاية التى وقفت عندها همهم رضوان الله عليهم فى كل شيء سمعت منه
ايده الله مرارا اذا جرى ذكر التعجب من عظيمها اثاره المنيفة وضخامتها ومجاورة
المائة فى فخامتها واحتفالها والمبالغة بما لا غاية بعده فى تأنقها ولطف وشيها وتنميقها
واستعظام الحاضرين لما بلغ الاتفاق عليها يقول ما بعثنى على ذلك الا انى اذا نظرت
الى اثار سلفنا الكريم اجد اثار الموحدين ما زالت تنازعها فضل تنجيز وضخامة واحتفال
اربى عليها واثار بنى مرين تجاد بها رداء التائق وربما شقت فى تنميق الحلة وبديع
الطراز وافقت لاهل النبوة ان يكون الفضل والشفوف لاثار من دونهم من الدول على اثارهم
فلم ارض الا بما يضى على اثار الدولتين قلت (1) قال ايده الله على اثار الملثمين
لم يبعدنى الحق لقيام الشاهد على صحة دعواه وهذا المعيار بين الدول فى الآثار إنما
يرجع الى القصور لا الى مطلق الآثار والا فالمحمدية التى من مشيدات مولانا الامام
المهدى رضى الله عنه قاعة بلاد السوس وأم القرى والامصار وملاك باب السودان ذات
القصور المشيدة والاواوين الموطدة والرياض المسفوفة والانهار المطردة والمساجد المزخرفة

ص 266

(1) بياض بالاصل .

والمآذن المقرطة بالآلى النجوم المشنفة الى معصر السكر الجائمة حوليها جثوم اهرام مصر يتقاصر عن تشييدها اولوا القوة من عاد وشمود الذين جابوا الصخر بالوادى ما شئت من توطيد وتشديد وبرك مستبحرة وجفان كالجواب وقذور راسيات وحركات هندسية ولوالب فلسفية ومقاييس حسبة وانهار تتسنى لاجراء ارختها العظيمة الاخشاب ذرى الاسوار الممتدة الاعراف الى عنان السماء بتدبير وفلسفة تعار فيها حكماء يونان وجنان سليمان لا يطير تحت جناحها البلد الجديد من فاس الذى هو عند بنى مرين مشيد به (1) ولا قصبة مراكش التى هى عند الموحدين ومن قبل الاعجاز بل اذا ذكرت المحمدية لف كل منهما رأسه استحياء وحسبها شهادة العيان رجع وبنى العمل ايده الله فى اختطاط هذا المصنوع العظيم على هذه النيلة الصالحة وارتاد له الجانب الشرقى وقصوره الكريمة لاتساع مساحته فاعتام له فى الطوالع النجومية ما رضى اهل الرصد اثره وتحينوا اوانه فكان الشروع فى تأسيسه فى شوال خامس الاشهر من خلافته السعيدة من عام ستة وثمانين وتسعمائة واتصل العمل الى هذا العهد وهو عام اثنين وعشر مائة لم يتخللها فترة وحشد به الصناع وارباب الحكمة من كل ارض حتى من بلاد الافرنجة مكان يجتمع فيه كل يوم من ارباب الصنائع الحكمة * وجهابذة البناء واولى المعرفة والكفاية فى التنميق والتشييد ومن سائر الفصيلة واسارى الدولة خلق عظيم يسمع لهم ومما يتألف برحاب القصر وساحته من (1) لشراء الخدمة والفعلة والفواكه المختلفة والالبان واللحان دوى كسوى الاسواق الهائلة ويختص هذا القصر الشريف من جميل الالقاب بالبديع لا جرم طابق الاسم المسمى لاحتوائه على كل نوع من انواع البدائع وغرائب العجائب يشرع اليه من الايوان فى مدخل عظيم عريض المسلك تسافر فيه الخطى وتكل القوى بعيد الشقة يسبح منه العابر فى بحر المديد الطويل لا تحصى لياته وتعاريفه والمدخل القصى من الباب الاقصى هذا القصر الكريم وهذا الذى كمل اليوم من المدخل الطويل المديد تربيعه وتم توطيده وتنميته عنوان المحاسن وترجمان العجائب تتعدد فيه الخطى ويستلب الحجب ويسحر بمخاسنه العيون والالباب واذا افضيت منه الى الدار الكبرى مشوى الامام نفسه ومطلع شمس والفلك الذى تبدوا فيه طوالع سعده فهناك يخرس اللسان وتعار الاذهان ويملك الدهشة الجنان ويجف القلم ويرتعش البنان وهذه الدار ارام العجائب وديوان الغرائب اخذ جدارها المنحوت من الفلك المحيط جفوة وعظما جوانب البسيط الافيج بدیعة الشكل متناسبة الاوضاع متقابلة المجاريب والتماثيل تزخر من يركرها الخمس بخار طافية العباب قد مثلت فى رؤوسها دوائر المرمر المختلفة الالوان العظيمة الاجرام ترقص فيها المياه الغزيرة على ايفاع طيور الادواح المفوفة ويخترق صحنها الفسيح الارجاء من هذه البرك البركة العظيمة المروقة

ص 267

(1) بياض بالاصل .

الارجاء بنجوم الفواقع الطافية من اضطراب احشائها وقد استدارت بوسط سمائها هالة
البلع الاعظم المتلع الجيد السلامي اللوائب والاعراب قد ظلت هامة جيدة الاعلى
بالقنسوة المنمقة من منحوت المرمز بتماثيل مختلفة من انواع القا وعراجين والاعناب
والبطيخ والدبا تنبع من خلالها ميازيب المياه الدافقة قترشق بسهامها المفضضة نحور
الواردين وتنعكس سموتها من الفلك الى الارض فتساب خلال المحنشة المنحوتة من
المرمر اناء الاراقم وعلى ضفة هذه البركة سماطان حافلان من اداع النارنج الباسق الافنان
تروق العين منه كل علاء سريسة الغلاء جمدة الوفرة تتوسم محاسنها من البركة في
مرءة بدية الصقل ونهرها المتدافع مخضر العذار بمهاشي الزليج المنم الرشى المسهم
البرد بالجدول المرمية تنتهى قباب هذه الدار الى عشرين قبة والاربع المتقابلة * طولاً
وعرضاً توله العقل وتبهر الناظر وتسبح العين منها فى بحار الحيرة جفاء وعظمة
وهياكل ماثلة تحتقر اهرام مصر وتلف العالم فى ملاءتها سعة ورحبا وتسخر بقصور اهل
القرون الاولى نقشا وزخرفا وتمويها وصبغا متنوعة الاغراض متشعبة الاوضاع من محاريب
وتماثيل ومقاصير وخزائن ومساجد الطلوات والتعبدات ومجالس الخلوات والجلوات تختص
القبة الشرقية منها بسقف الزجاج الملون فسميت هذه القبة بالزجاجيات بالاضافة اليه
منظوم الالواح يفرج السقف المعتم لذلك من شجر الخلاف الموه بالابريز الفائض الشعاع
واذا رمقت عين الشمس بمحاسن هذا السقف الزجاجي من خلال الكرى وفاضت اشعتها
الملونة على الجدران فصبغتها رايت نعيمها وملكا كبيرا وكيفية تستخف الاطواد الراسية
انفعالا وتأثرا قد دحيت ارضها بالمرمر الصقيل الفضى الملاءة ترقص وسطها فوارة خضراء
زمردية (1) ويكنف ابوابها الثلاثة برطال عريض المساحة ضخم العمل مثني الصفوف
بأعمدة المرمز تطاول جذوع النخل اعناقا وقوائم الجبال غلظا ونعومة على متين السوارى النواعم
الابدان صفاء الوان ورقة اشارة عمد انعطفت عليها اهلة الخراسن الخشبية الجامعة من غلظ
الاجرام ولطف التائق وقد تنوع السقف الى سبع قباب نفتتت فيها الصنائع المقرسة
الخشبية والمسطحة وتلومت بها آلات النقش تعميقا وتكريما تحت كل قبة من هذه السقف
فوارة فوارة كانما قدت من اديم الدترميس رقصا بالمياه وتزهوا هذه القبة ببهوها
المتبرج الزينة البديع النظرة الى المشتهى الروض المنظوم بالبديع شرقا يشرع اليه من
البهو على باب يسحر الطرف حسنا ولطفاً وتديبجا انعطفت قوساه المنحوتتان من لباب
المرمر انعطاف الحاجبين على قائمة من المرمز مسكية اللون ابنوسية الغلالة ابقى النحت
فى حلق القوسين منه وفى اسارير جبهته الناتئة تجاه الروض من البدائع المقرسة
اثرا يزهو على مرور الجديدين بين يديه شطرنجية كانما نسجتها العناكب لطفاً واذماجاً
تمر الى بركة النهر ذات البلع المتلع الجيد التى تسافر فيها العين غرباً الى القبة الخمسينية

(1) بياض بالاصل .

وهذه أقبلة العظمى الشهيرة بالخمسينية قيد البصر وانموذج الكمال وعنوان سعة الهمم
 مثلت بين القباب مثل عقيلة القصر المترتبة على كرسى الجمال والكمال وضخامة الجلال
 أبرزها الانقان وحيدة في مصانع الدنيا جفاء ووضعاً وتأنقاً وتقناً وزخرفاً ورجفة تقنع
 العين من عظيم هيلكلها البارز على ما يوجب البهت ويخير الفكر ذات الوفر العظيم الضخم
 العمل الخشبي التأليف (1) * المديد الجناح على جوانب الأرض واملت بين العادة
 اجرام الخشب الارزى المعتام في المقاطع المنشود في اغلال المنابت فاضلا اعجاز النخل
 طولاً وسباطة وقام بجانبه عند مراكز اجرامه في الرقراق الهائل المحيط بالدار
 عقابان عظيمان ترى السر فرقا منهما بين طائر وراقم وتبر هذه القبة بسقفها البالغ
 اقصى مبالغ الجفوة والضخامة يولد الدهش الناظر اليه كأنما يرمى بطرفه الى قبة الفلك
 مستدارة ورجبا وتجويفا وسموا مكفوا على الجدران بغير عمد سوى قبرة الذى يمسك
 السماء ان تقع على الأرض مظلاً بالبراشيل الضخمة التى غادرت القحط فى المنابت
 الاشبه والمعادن الجديدة ولقد بلغت المنارة التى عرج بها المعلمون الى السماء
 وتسمنوا ذروتها حتى توصلوا الى تأليف اجزاء هذا السقف الضخم الى سبعمئة حمل
 وهو كل زوج من افراد الاخشاب الارزية الضخمة التى لا يستقل معها المطايا البدن الا عن
 رغاء يبكى الصخر ومن الحديد المؤلف لأجرامها مائة قطار واعتبر هذا فى السقف
 الذى استفرغ هذا الوسع السلم اليه ثم فى البراشيل التى اكنته والتقمة فى
 جوفها فسبحان من تطاول قدرته واخذ الاحكام مقعد هذا السقف فولد فيه امهات
 الصنائع واصول الخواتم من العمل المدعو بمنقار وميجم توليدا يستوقف الناظر اعتبارا
 واستبصارا وتعجبا . وانساح من تحته مربل الجفت فى بحر من الجص طامى
 العباب بالمعجائب وهناك تخارف الاحكام وتماجت النقوش وتفتت الصنائع
 تدبجا وتكريشا وتحرشفا وكتابة تركيب حروفها غصون التسجيرات وتخللها قصب
 الورق اللطيف ويتصل بشط هذا البحر من اسفل نطاق المرمر الفضى الذى توشحت به
 القبة واستدار على خصرها مندمجا بالشعر فى وصف البناء واضح الكتابة بمرمر سبجي
 اللون قد بين فيه الخيط الابيض من الخيط الاسود وساح عنه الزليج البراق الملون
 تترقق مياه صبغه صفاء ورقة دياجة قد انتظمت فيه الازر بفرش الأرض لفا واحدا
 مشجرا بالقطيب اللون المعاطف تصعيدا وتصويبا وتحريفا وبسطا وتركيبا يشق
 القبة بركتان انيقتان بين فوارات لجينية وتمائيل مدهبة ومفضضة ما بين اسود فاغرة
 الافواه تقلد باغصان اللجين انسكابا رقت رائفة الصفير متلمظة الالسن بسلاسل
 الفضة من سكب الماء وقد توسط فى البروخ بين البركتين فوارة رحية القطر واسعة
 الشكل كأنما عجت من طينة المسوك يعلوا جوهرها بزر السنيب ومدارج النحل

(1) يابى بالاصل .

هذه القبة الرحب الفناء ذهب بمحاسن البناء تمويها وزخرفا تلقى بصدرة رؤوس الطير
 للأسفل نواطق بلسانها الاطراء والاغياء وابوابها المقرسة الموهة ومضارعها الضخمة تذكر
 سد ياجوج جفوة وعظما بين يدي كل باب فوارة ضخمة متباعدة القطر كأنها هي سجنجل
 تتوسم فيه القبة كلها (1) ومثل امامها البرطال العارض
 الساحة المتعدد القسي البعيد الامد الضخم العمدة مشى الضفوف من
 جدوعها المرمية المائلة كالجبال المنحوتة مدحو الارض بالرخام الصقيل كأنه صرح
 ممرد من قوادر بين يديها مسيل الوادى المتدافع يغور فى الارض من تحتها ومعبره
 على جسر من الرمر متعدد القسي تكنفها من عن يمينها وشمالها بركتان عظيمتان
 مصقولتى الزرد بمدارس ومن النسيم الدائم الهبوب قام بحفافيهما سباطان من ادواح النارنج
 المقى الظلال ويسموا على رأس هذه القبة وأختها الزجاجية تيجان متلعة الجيد ضخام
 العمائم المعنمة من أكوار نحاسية تراكب الذهب الابريز على سطوحها فيكاد سنا بركة
 يذهب بالابصار قد نقص عندها من عدد أكوار تيجان الماذن وتطاطات عن نهضتها
 تأدبا مع بيوت الله ويساجل هاتين القبتين الضخمتين ترباهما المتقابلتان عرضا والمدعوة
 منهما بقبة النصر الاية المحكمة والمثل المضروب فى مصانع الارض جفاء ورجبا
 وزخرفا ونفتا وتمويها وصبغا لا تتناهى أوضاعها وأغراضها من محاريب وتماثيل
 ومفاخر وخزائن ومساجد ومخازن ومقابن ومنافس حتى لا تتقاذف دخنة الشموع
 الدائمة الارق صونا لجلتها الموحية من درن أنفاسها واذا نازعتها لداتها من القباب السالفة
 فضل احتفال وجاذبتها ملاء الطراز أبرت بسقف بهوها المعنام من منحوت العاج والابنوس
 وبسقفها الرزم على فضائها الافيح رزوم رزوم الغمامة الوشيعة الرداء بالاشعة الاصلية
 فمن أصفر فى أخضر فوق مبيض كل ذلك بالصنائع المقرسة التى تحار فيها جفأة
 العماليق وحكماء يونان واذا نظرت الى غلائلها من الجص المرقومة بكل يد صناع
 ودهن ملء بالحكمة نظرت الى ما يحجم عنه البيان وتكل العبارة تدقيقا وتعميقا وتخليصا
 وتمويها وادماجا وفى زليجها المنظوم الاثر بالفرش تحار الاذهان ويتعلم اللسان قد
 تنادت فيها الصنائع المتفننة بالمبارزة وبلغ الاغياء فى لطف جواهرها الفردية لغاية
 لا تستبين العين صورها دقة وادماجا كأنها رقمتها الابن اللطيفة يغشى العيون أشعتها
 المنبعثة لا يكاد يثبت البصر عليها صقلا وتبرجت منها القبة فى حلة من الوشى
 سابغة تستهان عندها الستور المرقومة والزرابى المبتوثة والبرطال المائل امامها قيد
 الابصار وحلة اعتبار قد استدار قوس خرسنته العظمى متمطيا فى الهواء كأنها حذر
 من قوس الغمام جفوة وضخامة وشاشية مسقفة * الوسطى خباء مطنب فى السماء
 تحف به قلانس فارغة السمك وعناقيد جعدة التركيب تبدوا من خلال خمائل مفوفة من
 بديع النقش وزخرف التنميق وعمده المرمية التى انعطفت عليها اهله مسية وتقبل القبة
 منها بثمان تبهر الناظر جفاء وطولا تتخلل الخضر السندسية الغلائل منها البيض

(1) يباى بالاصل .

الحسان والفؤارة العظمى الراقصة بالمياه أمامها الفرة الواضحة والشمس البادية
التكوين فى الارض وقد جرت مع هذه القبة أختها المتبرجة أمامها المدعوة بقبة التيجان
ذات الإبهاء الرحبة الفناء فى طلق واستبقنا فى ميدان الجمال والكمال وضحات الجلال
استباق فرسى رهان وتتميز هذه بشعار سقف المخزن الذى عقدت سمواتها منه
بالصنائع المقربسة التدى وجناتها بشامات زرق من سحق اللازورد المزممل
بالنضار الفائض الشعاع الى محاريب وتماثيل ومقاصير ومساجد وخزائن بادية التمنيى
رافلة فى حلال الانتقان وملابس الاحسان وكم من هذه القباب المنبثقة من اترابها الكواعب
وضراتها البيض التراب من كل عقيلة تكبر ان توصف وتجل ان تحصى محاسنها
وأوضاعها ويليف كالخضراء الرافلة من فرشها وعرشها فى مطارف سندسية واطراب
الوادى ومركب السفينة ومسرح الطرف الى رياض المسرة (1) من القوة الضمهم العمد الضخمة
الحظية بملاك المعراج الى ادراج المصرية الشامخة الانف جليسة النجوم وكناس
الغزاة الفلكية بالغة الصرح الطاعن بأسنة شرفاته كبذ السماء الى لداتها تشييدا
وزخرفا ونقشا ورحبا وعمدا ضخمة ومحاريب متقابلة وتماثيل متناظرة ومحاسن جملة
ومأرب متممة والرفرف الذى يجمع فلك عمامته المعلمة على قودها عجب يروى وآية
من الايام تتلى عظيم الهيكل ضخيم العمل خشبي التأليف هريت شد: القب كسيفيه
جافى أسنمته الفنى معقودا اسارير الجباه وزوايا القب بالصنائع المقربسة طلق المعجا
بالعبيسات المسطرة والسوارى المصطفة سابغ ازر المشيعات الفضفاضة قد استهينت فيه
معار الصبغ والتمويه واستهلكت النقوش المتماجنة وتلوح بفراته المخدوشة وصفحاته
الملس الات الزخرف فتفتنت الصنائع وتخارق الاحكام تنطق أعالى طرره وأسافلها بلسان
الاغياء والاعجاب وتنادى مصانع الدنيا هل من مبارز ويزيد زخرف الخمسينية على
زخرف هذه الدار الهائل بكونه مثنى العمل فهو على ضخامته وبلوغه أقصى مبالغ الجفوة
بديع (1) نظره سموا وشموخ أنف وقد التقت الادواح وتفتيات * الظلال وارتفعت
الارض على أصول الاشجار ومنابت الدوح فلا يرى أهلها الا الفصون الملد وغلائلها الغضر
وزهرها الغض وثمارها المتنادية القطاف قد افترشت مماشى حدائقها الغلب المتخفضة
من الدار وأرض القبو الهائل الواصل بين عرصتى الدار بالزليج المليح الثوب
ترقص الفوارات المرمية بالمياه السلسالة بحيث يرى المنحدر اليها
دنيا من تحت الارض قد توارت محاسنها بالغور عن لفع العيون
ينتريها خدمة سلطان الملك من خلال الاولاراق دنائير تفرش أرضهم وترقم اثوابهم
ويحف بهذه الدار ديار عديدة تحيط بها اسماء وألقاب الدار (1) البيضاء والدار الحمراء
كلما سرحت بها العين رتعت منها فى محاسن جملة من المياه الدافقة والفوارات الراقصة
والنقر المربعة والبرك الريانة والسرر المرفوعة واذا بلغت الدار التى يقضى اليها من البديع

ص 272

(1) بياض بالاصل .

من اعلی یمین الخضراء متصاعدا مع الدرب المالك لابوابها حتى تنتهى الى اقصاها من الجانب الشرقى رأیت برنامج المحاسن فى وانموذج الكمال بناؤها عادى یجلل الاذهان وتناهى التشييد بها والتويد الى اقصى مبالغ الفخامة والضخامة وتبر على المصانع الحاقلة بغرب الوضع الذى لم يسبق اليه ولا حام طائر فكر عليه نتيجة همة صيغت من نور النبوة المتحدية بالخوارق الخارجة عن طوق البشر ومالوف الصور لما نظم مولانا امير المؤمنين ايدى الله صورها الخيالية بذهنه الشريف وحسها الكريم الذى يخترع الاشياء فى احسن تقويم احضر عرفاء المباني فاقترحها لهم واخذ ايدى الله يرشدهم بحاسة الوصف الى امكانها التى تصورها فلم يكونوا ليهتدوا حتى تولى لهم رسمها ببنائه الكريم فى قرطاس فلمسوه بايديهم وراوا ما قد اهتدوا الى فهم ما لم يوته اولوا الحكمة من يونان فبهتوا ثم شرعوا فى تشييدها وفق الاقتراح الكريم والهمة الشريفة المنيفة فانتظمت دوائرها المتراكبة بعضا على بعض فى الهواء وطبقا عن طبق سماطين متقابلين نظاما يوجب البهت والحيرة بحيث تسموا على قبابها المنيفة غرفها الاثيرة ثم لا يرى سكان علوها اهل سفلا مع جلب الضياء الفاضل الشعاع للديار السفلى المحجلة عن العليا بحكمة لطيفة المدارك دقيقة المسالك وانتسجت فوق صحنون اعيالها الشبايك الحديدية وتمتاز المياه الدافقة بالبارد والسخن من الحمام المنتظم بينها شرقا ذى البركة العظيمة المفروغة الوقود من تحتها من النحاس الاحمر تنابها القواديس الفاغرة الافواه اليها من كل جانب فتعلا حواصلها وتسافر بها لهذه الديار وقد اخلت * الاهبة لمصبها فى النقر المرمية بكل دار من انبوين ينبجس احدهما البارد والاخر بالسخن مفدين بلوالب تنجذب عند القتل طوع يد التخيير بين الحار والقاتر ومزجهما عند الاستعمال فاصبحت هذه الديار مكلمة الراء متممة المآرب قد ختم عليها التحصين والمنعة وارخى عليها الاحتجاب سدوله بحيث لا يخلص اليها الطيف حتى لقد بلغ الاختفاء مبالغ فى ذلك مبالغ الاغيا الى اتقاذ منحوت على شكل الفالوس الكبير مغطى بصفيح النحاس الاصفر الصقيل قد مثل بجدار كل دار منه شكل معتم لمناولة مايرد من المرافق والمشاكل والمشارب على الديار يدور بوجهه عند الداعية من الاماء والخدم القائمة بخدمة سيداتها من اهل الحجاب العالى فليس فى جوفه من وراء الجدار ، ثم يدور بوجهه لداخل المنزل فتقع المناولة من غير أن تتراى الى الاشخاص وتبدوا منها للعين قلامة ظفر اغباء فى الاحتجاب وملاصقة فى العين التى صار بها امير المؤمنين المثل المضروب فى عالم الارض وتسمو بمنتهاها شرقا بنية المجلس الكريم الرافل فى حلل الوشى والتنميق والزخرف ثم يزهو الجانب الغربى منها بالمصرية الشامخة الانف القريبة الشكل المستوية على عهد المرمر الشامخ فيها محكم الجص حتى فى الشبايك البديعة التكريش والرعوس والجباه المقرسة

ص 273

فأصبحت في ذلك نسجة وحدها ذات الغرف الأثيرة والشراحيب البديعة والمجالس الكريمة المريبة على مصانع الدنيا ببديع النظرة الفاعلة بالنفوس والارواح فعل العقار إسفار بالإطلال على بستان النهر الذى تسافر منه العين الى رياض القبة وبساتين الملك التى تصرح خلالها القصور المنيفة كالنجوم العوائم ثم الى جناب الحضرة المحذقة بها على مسافة تناهز اليوم والمقام المقابل برد الريانة والجداول المنسابة والحدائق الغلب ثم الى بسائط الحضرة ذات الانهار الجارية والخلجان المتداقة والسواقي المتدافعة التى انتسجت منها أيدى الانواء ومجارى الماء نمارق مصفوفة وزرابى مبثوثة وتساجل هذه الديار فى التشييد والتوطيد والاحتفال والتعداد والاغيا فى مأرب التجار والتحصين وجر ذيول المحاسن والتفخيم الديار المنظومة والمقامات الرافلة فى حلل الزين اللائذة بالعقيلة الكريمة من قبة النصر التى سجت عليها ذيول عزها وناقتها من خلفها تحت خفارة السور الاعظم الطامع الغرف المحيط بأقطار الدار ويفوت هذا القصر القصور الاولى من مباني الدار العظام ومصانع اولى الملك بالمرمر الكثير العدد الضخم العمدة الصافي الجواهر * الناصع البياض المعنام من المعادن النفيسة تتبارى التجار من أهل الحرف فى نقله وجلبه طوع اقتراح مولانا أمير المؤمنين أيده الله من قاصية بلاد البنادقة متهاكين فى تجشم الشقة البعيدة وتحمل الأعباء الثقيلة ولقيا العنت برا وبحرا فى نقل اجرامه الجافية التى يثود حملها السفن الضخمة حتى لربما غرق بعضها وكان بنو عبد المومن خلفاء الموحدين لما اختلفوا وما أبقوا للتشييد قصورهم بمراكش ووكلوا بها همما طامحة لم ترض بالدون ولم تقتصر على النزر التافه قصارى ما انتهت اليه همهم جلب المرمز لها من عمل المزية بالاندلس ثم جاءت دولة بنى مرين فاتخلوا فاس دار ملكهم وترامت هم بنى عبد الحق ملوكهم الى مساجلة بنى عبد المومن فى اختطاط القصور بها وتشبيد المصانع فكانوا ينقلون المرمز لها من قصور الموحدين بمراكش ثم جاء الله بالدعوة الكريمة النبوية والدولة الغالبة القاهرة العاتبة الحاشرة فانفت الهمم الكريمة الامامية الاحمدية المنصورية أعلى الله منارها وخلد اثارها من تخريب مدينة من قواعد ممالكه الشريفة بتجديد أخرى كما فعل بنو مرين نهبة سيوفهم العلوية الزيدانية المظفرة وتخطى التى هى هى قصارى الموحدين الى تخوم البنادقة اغرابا بمعدنها النضيد الاديم المعقود من حصباء الفرد الى الدمة مما يشاء من الفنون المقترحة فاشتملت قصوره من ذلك أيده الله ومصانعه الشريفة على ما تقاصرت عنه قلب الخلفاء الاعاظم ودانت بالعجز عنه ول الاعاريب والاعاجم فلقد دارت لوراء الدار الكبرى من قصوره الشريفة على خمسمائة عمود مرمية مائلة كالجبال الرواسى ضخامة وجفاء وقسموا القباب وبراطيلها على مائة منها ترجح الواحدة بالاعداد من عمل الموحدين المائلة الاشخاص اليوم مع الشفوف فى المعدن ونضارة النحت ثم يتوزع الاربعمائة الجدار المحيط بأقوار

ص 274

(1) بياض بالاصل .

الدار ما بين المثلثات الاشكال والمفردات النابتة تحت السوارى الازدية لصق الجدار الى اعمدة ضخمة الاجرام زمردية الالوان منحوتة من معادن يعمل مراكش هدى اليها رائد البحث الناشئ عن طموح الهمة فواصل بين العمدة البيض الحسن الموائد من القباب وأما ما تضمنت الحمامات والمساجد والمجالس والقباب والديار والمصانع فلا يعد ولا يحصى وقد تخارق الاحكام وتفننت الصنائع حتى استعمل المرمر فى ملاطم المساجد وقسى الابواب والمحاريب والتمائيل والمقاصد والخزائن وقبة النصر مليحة اللمة من هذه الفنون مشرات اليد من بيضائها وصفرائها وخصرائها متفننة المساجد والمجالس والمحاريب والتمائيل منه رافلة من ذلك فى محاسن تكل العين عنها فأصبح * البديع السعيد من هذه الآثار الفخمة نسيج وحده فى مصانع الارض لايشق له غبار ولا تلحق القصور الاولى شأوه وقد قام على رأس هذا القصر الصرح العظيم الذى لاتطاوله بنية ولا تباريه قامة البادى الصلب العظيم التيه على المصانع بحسن الشكل وتعالى الزين وجر ذيول الوشى وشموخ الانف متواضعا على عظمته يبيوت الله وماذنها حاصدا بنجمله المغرب فى الحسن ممر الظلام لترعاه غزالة الصبح الكانسة فى التافه مغربا على الصروح المنيفة بالمجالس الكريمة المتراكبة فى معارجه طبقا عن طبق قد بلغ الاغياء فى الاحتفال فيها الى تنجيد الفوارات المرمية اللجينية المعدة للرقص بالمياه الفزيرة التى يسموا بها من الدولاب العظيم والفلك الكبير الداخلى فى جملة الآثار العظيمة التى وكل بها امير المؤمنين أيده الله عزمه فى هذا التاريخ ان شاء الله تعالى اسئل الله تعالى أن يمنح مقامه الكريم تاما على الذى احسن ويحفظ على الاسلام من دولته الغراء امة كى تقر عينها ولا تحزن وحمام هذا القصر العظيم الذى تبوا مقعد العز وشرف المنزلة الدالة على حسن الاختيار فدلكة المعاسن والجموع الخوارق وبيت القصيد ویتیمة الجید ومنتهى الكمال وخاتمة الاختراعات ذو الابواب الاربعة التى يفض منها الى قصر مولانا الامام المقدس مهدي الامة رضى الله عنه مآلف الائمة الخلفاء ونشيدة بسطهم الذى يجد منه الحال فيه نشوة لا يستطيعها الجريال منقبة استأثر بها على سائر القصور واية شاهدة على صلاح بنية بانيه رضى الله تعالى عنه وسقاء الرحيق المختوم فى دار نعيمه ثم الى حمى العقيلة الكريمة قبة التيجان ثم الى البديع ثم الى باب القصر حيث مقصد الخاصة والبطانة ناهيك من حمام خارق سياج العادة وعرض المتبر للتهمة وأعسى ذرع وصفه سنبك اللسان الى وصل القلم الطلق ما شئت من ضخامة البناء وتعالى المزين واختراع الوضع الذى اضحى به نسيج وحده فى حمامات الارض يشتمل من عمد الحمام على خمسين عمودا دارت قوراء الدار منها على اثنى عشر جدعا جافية الاجرام طافحة الاعناق رقراقة الاديم زمردية الالوان لجينية الرموس والقواعد وتستوزع البيوت والمساجد

(1) بياض بالاصل .

والبراطيل والمحاريب بفيه العدد وانزاحت فوق براطيله المتقابلة وصناعتها المتناظرة في حراسته التماثية منعطفة في الهواء انعطاف اقواس الغمام ختسية التاليف قد نلومت بها، آلات النفث والزخرف واستهينت فيها معادن الصبغ والتمويه وانسحب فوق قبته العادية البناء مسجده العديم النظير وبراطيله المتقابلة الاوضاع ذيل السقف العجيب المدعو بمنقار وميجم وكله * بعمل المندروش قيد اللواظ والابصار حسنا وزخرفا وصيغها وتمويها وسقايته المغدقة السقيا والميضأة الطويلة الاعناق الدارة المياه المثل المضروب في الحسن والتنسيق البالغ اقصى مبالغ الاغياء ان اربضاء الاسود المرمية متناوبة بالمياه المصوغة من سنبك اللجين وسلاسل الفضة وقد سنخ المرم فيه حكم الجص فصيغت منه الشباك المعقودة فوق الاساطين والرؤوس المقربسة من تحت الخراسن وتخارق الاحكام فاستعمل في قسى الابواب وملاطم المسجد والبيوت والمحاريب والمقاصير فادلج يجر ذبول الزهو والفخر على سائر المصانع الشريفة والقصور المنيفة الى الباجين المائلين في صدر البيت الاقصى من بيوتته المعدله للهواء المعتامين من نفيس المرمر لصبب الانبوين المنبجسين بالسخن ولقد رأيت ما يسحر الطرف ويوجب البهت حسنا وظرفا واختراعا ويتصل بهذا القصر الشريف قبة بستان النهر وهو لقب وضعه مولانا امير المؤمنين ايده الله في تاريخه علما على الروض والاخذ ما بين لابتى سور القصور وسور القصبه قبة الآخذ بالنهر الذى اخذ ايده ايده الله تعالى في اجرائه الى قصوره الشريفة واستفرغ كده فى بنائه العادى عريض المسلك فسيح المد كان بناءه المرصوص مفرغ من الصخر الملموم يشع ما بين ادواح هذا الروض المفوف صفوقا بشجر النارنج والاس متدافع السيل غير مغمم السيف حتى ينتهى الى ترابه من القبر المعد له تحت القبة الخضراء بروضة المجاز ومركب السفين ومن هنالك تنهاداه البرك والقباب حتى اتصلت من الخمسينية كما قدمنا ويقابل باب النهر من هذه الخضراء تجاه القبة وبمتهى بستان النهر الفضاء الافيح المرتاد للقبه العظمى التى امر مولانا امير المؤمنين ايده الله باختطاطها وتوطيد بنائها العادى فى ازيد من ثلاثائة شبر طولا ليسع لحما والجسم الغفير فى الاعياد والمواسيم والوفود المتتالية على الابواب الشريفة من الممالك القاصية والارسال المتتالية من المشارق والمغارب ورسم ايده الله تعالى ان يكون مستقفا من البساط المزيف خلف التمدية والزخرف البديع الخواتم والنقوش المحدودب الظهر البين فى الاضلاع المصعد بالاحشاش الضخمة المزخرفة المعترضة بين الجدارين مشى ويشرع باب الى المسرة وبهوها الضخم البناء الرحب الفناء الياجوجى السد المفرغ القطر العادى البرج القوى الناحية المعقود الظهر لحمل الانلاط القاذفة بمارج الباروط وشواظ النار فى سبيل الاغياء والمبالغة فى المتعة والتحصيل ينطبق على الباب المضارع البالغة اقصى مبالغ

الجفوة والفخامة مفضاة بصفيح * الحديد المثبت بالمسمار الضخم التكوين وانتظمت القصور الشريفة الامامية بهذه البنية العظمى بضخامتها على الاواس الفخامة في ابداع اجادة والطف سلك واحسن ترتيب وذهب بمزية الفخار على قصور الخلفا وملوك الارض ببديع النظرة التي تسافر بها العين على فاسخ من باب قبة الزجاج القبلى بالدار الكبرى الى الباب الجوفى من الخضراء ثم الى باب النهر منها وتسموا مع بستان النهر ما بين القضب النخيفة القصور المتمايلة القدود على ارداف الموج الثقيلة حتى تند من بابى القبة العظمى متصاعدا مع الطريق المنحرفة الظلال من عن اليمين وعن الشمال حتى تنتهى الى البنية المنيفة المائلة على البركة العظمى فى اعلى المسرة وهذا الروض المدعو بالمسرة المنتظم ببستان ظهر المصرية الاخلا ما بين لابتى سور القصبية والصالحه عرضا هو ما هو من بعد الاقطار وانفساح الخطة قد مد على البسيط الافيج جناحا اخضر مكل فى جوبه جياذ الرهان بديع الوضع حسن الترتيب تتناظر فيه الحدائق الغلب من مغروس العنب والزيتون والرمان ونخيل صنوان وغير صنوان ومن كل قنوان دانية وجنات الفاها تنقسمها طولا وعرضا طرق شتى محفوفة باحواض الآس والدارنج وشجر الخابور وخمائسل السورد والنسرین والياسمين وغاب زينة المربى على التقدير كثرة وانبساطا على مناكب الارض عدة لامتياز البلاد واذا بلغت الى البحر الزخر من البركة العظمى التى باعلاه رأيت ما يبلد الفكر ويوجب البهت ضخامة وجفاء ورجبا يسع ممشى الضخمة الاجرام حلبة الخيل عرضا تضطرب احشاؤها اضطراب موج التيار وتسافر منها العين فى مجرى السفين متباعدة الاقطار تستبين للعين سيما الواقف بعدوتها الخمس المعقودة بالبناء لصق جدارها شرقا وغربا قيد البصر حسنا وضخامة يفور التنور منها بجدول متدافع السيل وتكتنفها ادواح الآس وشجر النازنج والاترج وكل غريب من انواع الشجر الذى لا يسقط ورقة ولا تخلق الايام غلائلها السندسية والبنية العظمى المائلة عليها المثل المضروب فى حسن المنزلة وبديع النظرة يغترقها النهر المتدافع الى مصبه فى البحر المحيط فى البركة المتموجة بين يديها وتتصل بها قبلة مدينة انيقة شرع مولانا امير المؤمنين ايله الله فى تاسيسها ليخص بسكنها ممالكه الذين ازدهت الخلافة بياهر زيههم وجمال موكبهم لا تنال حسن مكانها وشريف منزلتها وبديع نظرتها والانهار الجارية من تحتها والاودية المخترة لبساطتها والرياض المحدقة بجناتها والمنازل المشرفة خلالها والقصور المنيفة امامها بقناد ودجلتها وجلق وغوطتها وقاهرة مصر * ونيلها ومما اسهم به ايله الله وخلد ايله لمدينه فاس من الاثار الشريفة والمصانع المنيفة التى هى طرز على عواتق تحصينها ومنعتها الحصون الشامخة الانوف الجائمة حوايلها والمعامل المائلة اعلاما راسية ازاءها ضرب بها ايله

الله على اهلها :

خواتم من طين الحصانة افرغت فليس لها حتى القيامة من فض
بحول الله وقوته اما المدينة (1) قومه ال ادريس التي جلل عمرانها المتراف
جانبى الوادى فيكتنفها شرقا وغربا المعقلان الضخمان اللذان انتاهما (1) بها تحت كفالتهما
ان شاء الله تعالى للموطد بالجانب الشرقى منهما الربوة المنيقة ذات الصخر الملموم
الثقيل بحجرة قطران تجاه المصلى القديم العيذى من باب الفتوح وبمقابلته بالجانب
الغربى من المدينة اتجاها القبلة مدفون بئى مرين وبمصلاهم العيذى قريبة لابل كبيرة
الذى يلفه على عظمتها فى زاوية من زواياها ذو العمل الضخم والزوايا المثلثة الشكل والبناء البالغ
اقصى مبالغ الجفوة قد اغرى بهما ايده الله عنايته ووكل بشأنهما كفايته فجاء بها آية الاعجاز
توطيدا وتشبيها وتحصينا متمى المآرب والمرافق مستكملى التحصين من مآرب الحامية
المتنقات من جيش النار ودار قائداهم وخزائن العدة والسلاح والبارود والرصاص وأهراء
الطعام وجبات المياه الرحبة الاجواف وابار منحوتة فى الصخر الى قعر البحر من الماء
العذب الفرات مستكثرا فيها من الانفاط القاذفة بمارج البارود وشواظ النار والاكوار
العادنية والصخرية التى تلى الجبال كثيبا مهيلا وتلقى من صواعقها على الاسماع قولا
ثقيلا فعوذ بهما ايده الله المدينة من كل طارق يطرق الى غابر الدهر بعز الله وعنايته
اما البلد الجديد حيث متبوا الامر وغاب الملك فقد وفى له ايده الله السهم وأجزل القسط
بما أدار به من الابراج الضخمة التى انتبذت لصق سوره حصونا شامخة واقطعت
اعلاما مائلة سمت جدرانها وتصاصت شرفاتها وتفننت فى سبيل التحصين
اوضاعها يحرس بعضها بعضا وتكاثر النجوم عدد انفاضها الفاغرة الافواه لالتهام من ينتابها
كان كل برج منها قرية من قرى النمل واذا استهلكت رعوها فى العيدين عند العود من
المصلى او لورود بشارة عظمية فلا تسئل عن تزلزل الارض ورجفانها تذكر رجة الصعق
والنفخ فى الصور ويمتد على البلدين ركام البارود كأنما هو ليل مطبق فترى الناس
سكارى وما هم بسكارى من قعقة الرعود وهول الصواعق فسبحان القادر الغالب * (1)
والحصن الجائم من هذه الحصون امام باب السبعاذ يأخذ بكظم البرج الجديد معدم سامى الذروة
شامخ الانف وفحل الرسيعة الذى لا يمتطى صهوته ولا يقدح انفه ولا يطرق حماء وحوزته
وبرج العقرب الذى لا ترقى حمته ولا تعالج لدغته ولا تسام مع الايام المدينة التى كفلتها
رقبته قد انتبذ امام البلد الجديد ربيعة الجيش وبطل الكتيبة الذى يحمى الحقيقة قد
اسبغ من لام الحصانة وظاهر منها فى ذرع مبالغ فنادى هل من مبارز واذا انتهت الى
الآثرين العظيمين والفلكين المحيطين والحصنين الضخمين اللذين خيم بهما على انف عود
الدين بهرسى العرائش العديمة النظير فى مراسى المعمور سعة وانفساحا وهدوا رايت

ص 279

(لم) يباشر بالاصل .

ما يوجب البهت ويبلد الفكر جفاء وضخامة ومنعة وحصانة استفتح ايده الله بالاولى
 منهما المسمى حصن الفتح كتاب اعماله البرية لاول خلافته السعيدة فكميل لسنين
 منها ثم عززه بالثاني الذي ناهز اليوم التمام فجاء عديم النظير اطبق اهل المعركة بمباني
 الحصون من العرب والعجم وارباب الجولة من اهل الملتين انه ماريء مثله في حصون البر
 والبحر وضعا وشكلا وجفاء وضخامة وجمعاً لشرائط التحصين جمعاً مستوفى وقد شد
 به ايده الله باخيه عضد الاسلام وركننه واتى بهما آيتين باهرتين ابطل بهما كيد
 عدو الدين ودفع بهما في صدر طاغوث الشرك واقامهما مع الايام شجى في حلقه وصان
 بلاده منهما باجمتين الاسود الفاغرة الافواه (1) بعز الله وعنايته ولبس الحصن الذي
 اختص ايده الله تعالى على بلاد تازى ببعيد من هذه الآثار الضخمة والحصون الفخمة
 تشبيداً وتوطيداً ومنعة وتحصينا *

ص 281

واما ما اصلحه ايده الله تعالى ورمه او زاد فيه فتممه بمدينة اسفى وبلد ازمور
 الذي جدد ايده الله سوره واداره بكماله ومدينة اصيلا وسائر الاطراف والثغور وبيعض
 الجسور فشى يضاعف الله به الثواب والاجر ويجزل الدخر يوم تجد كل نفس ما عملت
 من خير محضرا .

الناحية الفكرية

ذكر علومه الشريفة وسائر مروياته ومن اخذ عنه من الائمة الاعلام ومشايخ الاسلام *

اقول ان امام الامة ومهديها رضى الله عنه وان كان له الفضل الذي لا ينكر فى
 القيام على علوم جمة ورسوخ القدم خصوصا فى علم القرآن الكريم اداء وفهما واحكاما
 وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وفهم طرقه ومعرفة اساليبه وما يحتاج اليه
 من الفقه وفروعه ومن العربية وفنونها والتضاع وعلم الطلب * والانفراد بمعرفة ديوان ابى
 الطيب واستحضار حكمه وامثاله والبراعة فى علوم اليبزرة فمولانا امير المؤمنين ايده
 الله من بعد اعلم الخلفاء (2) وسعيد النصبة التى حكم له بها شرف بيته والامام الذى
 صلت جماعة الملوك والخلفاء من فضله فضلا وكمالا واصالة وجلالا وشرفا محضا وملكا
 ضخما وعلمها جما ومشاركة تامة اقدرته الملكة بها ايده الله على فهم سائر العلوم والاضطلاع
 بها معقولها ومنقولها اصولها وفروعها قديمها وحديثها يقتاد العويس منها والسهل
 بزمام ادراكه ونفوذه واذا رءا مكانا عليا قالت همته انا اولى بمكان على ومن يرضى بالوقوف
 دون مكان ابائه وجدوده الا قد رايت أن اعول فى تحقيق هذا الباب على تقييد شريف بخط

ص 218

ص 219

(1) بياض بالاصل .

(2) بياض بالاصل .

يده الكريمة ناولنيه ايده الله متضمنا لذكر ما قرأ من العلوم وذكر من اخذ عنه من
الشيوخ وسنده عنهم في كل فن حتى في الفقه الغريب الاسناد الى مؤلفه في هذه
العصور قال ايده الله بدأت قراءة كتاب الله عز وجل على معلم اولاد الملوكة في
الدولتين الفقيه الاستاذ امام جامع مشور فاس ابي عبد الله محمد البرثي رحمه الله
الى ان انتقل السلطان بمراكش فاخذت في القراءة على الفقيه الاصولي النحوي العددي
الفرضي ابي الربيع سليمان بن ابراهيم الى أن تحرك السلطان رحمه الله لسوس ولعاقبة
جبل درن رحلني معه رحمه الله فبدأت الرسالة بالسوس على الفقيه ابي عمران موسى
السوسي رحمه الله وسلكتها على الفقيه ابي الربيع سليمان باللوح مرتين وكنت اقرا
مختصر خليل لنفسى واكتب منه لوحا وبعد خروجي من الكتاب ادرسه اذ لم يكن يكلفني
السلطان رحمه الله قراءته لطوله ثم درست الرسالة ايضا باللوح على الفقيه النحوي ابي
محمد عبد العزيز بن ابراهيم سلكتين وقرأتها عليه قراءة فهم وتدقيق بعد حفظها وقرأت
عليه ايضا مقدمة ابن ابراهيم قراءة فهم وتدقيق مرارا متعددة واعربها عليه وقرأت عليه ايضا
القبة ابن مالك باللوح سلكتين او ثلاثا واعربتها عليه مرارا متعددة وقرأتها قراءة
فهم وتدقيق مرارا متعددة وكذا لامية الافعال له ايضا وقرأت عليه علم الحساب وقرأت علم
العربية على الفقيه الاستاذ نحوي زمانه بلا مدافع ابي العباس احمد القدومي رحمه الله
وبدأت قراءة الالفية على الفقيه المتفنن الدراك الفهامة ابي عبد الله محمد بن ابي القاسم
الشريف وعاق عن التمام ما كان من تحرك الطاغية باستدعاء ولد اخينا فتحركت لفاس
ومنه لبسيط ازغار وكنت في خلال * الإقامة بازغار اقراها على الاستاذ ابي عبد
الله محمد الحارثي وقرأت على الفقيه العالم الاوحد ابي العباس احمد المتجور اصول الدين
وقرأت عليه كبرى السنوسي رحمه الله قراءة فهم وتدقيق وبحث ورويتها عنه وسائر
عقائد السوس عن شيخه وشيخ الجماعة بفاس ابي عبد الله محمد اليسيتني عن شيخه
الامام المتفنن ابي زكرياء يحيى السنوسي عن شيخه الموحد الصالح ابي عبد الله محمد
بن ابي مدين عن شيخه ابي عبد الله السنوسي قرأت عليه حاشية الصغرى عليها
من لفظي الى قريب للنصف واجازها لي وكذا اجاز لي حاشية الكبرى وشرحيه الكبير
والصغير على قصيدة ابن زكرياء وقرأت عليه ايساغوجي والشمسية في المنطق وقصيدة
ضياء الدين الخزرجي في علم العروض مرتين فيما اظن ومختصر السعد قرأت عليه بعضه
واجاز لي باقيه وكذا المطول وحدثني بتلخيص المفتاح والايضاح للقزوين عن جماعة من
اصحابه الشيخ ابن غازي كاشيخ ابن هارون عن ابن غازي المذكور عن الشيخ ابن
مرزوق الكيف عن ابيه شارح خليل عن جده شارح العمدة عن الشيخ جلال الدين
القزويني مؤلف الكتابين واخذت عنه شرحه على قصيدة ابن الصباغ المكناسي في علاقات

ص 220

المجاز قراءة لبعضه من لفظه وإجارة لبقائه وقرأت عليه أوائل الكتب الخمس بل البخارى
والترمذى ومسلم وإجازنى فيها وفى باقى الكتب الخمس بسند متصل مذكور فى
فهرسته التى كتب يرسمى وإجازنى فيها بكل ما له من مقروء ومسموع رحمه الله وقد
رويت عنه الحديث المسلسل بالاولية وحديث المصافحة وحديث مسح الخفين ورويت الفقه
المالكى عن الشيخين العالمين الاستاذين شيخى الجماعة ابى العباس احمد المنجور والقاضى
الاعلى ابى محمد عبد الواحد الحميدى الامام شيخ الجماعة ابى عبد الله محمد بن
غازى رحمه الله كالشيخ ابى محمد سقين والشيخين الامامين ابى الحسن ابن هارون
وابى عبد الواحد الحيدى والفقيه ابى محمد عبد الرحمن ابن ابراهيم وشيخهما الامام ابى
عبد الله اليسمى رحمه الله عن شيخ الجماعة ابن غازى الامام الحافظ المحصل
ابى عبد الله القورى عن شيخه الفقيه الصالح ابى عمران موسى الجانانى رواية الشيخ
الفقيه الكبير ابى عمران موسى بن معطى العبدوسى عن شيخه الفقيه العبدوسى
المذكور عن الفقيه المحقق ابى فارس عبد العزيز القزوينى عن شيخه ابى الحسن
الصغير شارح التهذيب عن الفقيهين ابى الوليد راشد الوليد وابى ابراهيم الاعرج
اورباغلى صاحب الطرر على الدونة عن شيخهما الفقيه الكبير الامام الصالح ابى
محمد صالح الهسكورى * عن اشياخه الفقيه ابى القاسم زانيف والفقيه ابى موسى
المومنانى والفقيه ابى القاسم بن البقالى عن الفقيه المحدث الكبير ابى القاسم بشكوال
عن ابى محمد بن عتاب عن ابى محمد مكى بن ابى طالب عن الشيخ ابى محمد بن ابى
زيد عن ابى بكر بن اللباد عن يحيى بن عمر عن سحنون عن ابن القاسم عن ولى مالك ولى
اسناد فى المذهب عن الشيخ ابى محمد المنونى على قرابته بالبلاد المشرقية وهو أنى اخذت
عن شيخنا ابى العباس المنجور وهو عن شيخهم الامام ابى عبد الله اليسمى وهو عن
ناصر الدين اللقانى وهو عن الشيخ نور الدين السنهورى ونور الدين عن الشيخ عبادة
الزنى والشيخ عبادة اخذ عن الشيخ جمال الدين الاقفهسى وجمال الدين عن تاج الدين
بهرام وهو عن الشيخ خليل وهو عن الشيخ عبد الله المنونى ورويت توضيح خليل على
فرعى ابن الحاجب عن شيخنا المنجور عن شيخه الامام الرجال ابى عبد الله اليسمى
عن الشيخ ناصر الدين اللقانى عن الشيخ نور الدين السنهورى عن الشيخ عبادة
الزنى عن الشيخ جمال الدين الاقفهسى عن الشيخ تاج الدين بهرام عن الشيخ ابى
المودة خليل بن اسحاق وحضرت فى ايام الاخ رحمه الله مجالس عدة عند الفقيه الشيخ
سيدى شتروى بن هبة التلمسانى فى التفسير والفقه والنحو والكلام وممن اخذت
عنه الفقه الفقيه المحدث الصالح ابو المنجاة رضوان بن عبد الله واجاز لى الكتب الخمسة
فى الحديث وحديثى بالحديث المسلسل بالاولية وكذا الفقيه الرجال الصوفى ابو عبد

ص 221

الله محمد بن علي رويت عنه حديث الرحمة المسلسل بالاولوية وحدثني ياربوعين الاسيوطي واجاز لي اجزة عامة فيآله من مقروء ومسموع ومن جمعتها احياء الميت بفضل اهل البيت للاسيوطي والجامع الصغير للاسيوطي قرأت عليه طرفا منه وأجاز لي فيه عن شيخه الامام العلقمي عن مؤلف الكتاب الاسيوطي وبجميع تأليف الاسيوطي عن العلقمي عن الاسيوطي وممن أخذت عنه الفقيه المعبر قاضي الحضرة بفاس ابو محمد الحميدى المتقدم الذكر قرأت عليه من التفسير والفقه وبعضا من كافية ابن الحاجب في النحو والشمسية للكتاتبي وقرأت عليه من مختصر خليل دولتين احدهما من اولى الكتاب والثانية من النكاح وبعضا من جمع الجوامع الامام السبكي في أصول الفقه وشرح جلال الدين المحلى عليه وكذا الفقيه المفتي بحضرة فاس ابى زكرياء يحيى السراج حضرت مجلسه بفاس وفتح الله على في فهم كتاب اقليدس في الهندسة بغير استاذ لعزة وجوده بهذه البقاع المغربية فكنت افك في كل يوم شكلا من اشكاله ولم بعض معرفة بعلم التعديل انتهى ما نقلته من خطه ايده الله تعالى * وكان ايضا يتعاطى ايده الله بمحضر الملا من الفقهاء والعلماء الذين يجمعهم للتخليق في مجلسه الكريم للمذاكرة بمراكش وفاس وفي بعض حركاته السعيدة كتابجمة فمنها ما يقرأ متنه ومنها ما يرجع اليه نقلا ومطالعة ومن ذلك الكشف في علم التفسير وحواشيه للطيبى وسعد الدين والسيد والفارسي وابن خلين السكوني وللعلامة ابن البناء وتفسير البيضاوى وحواشيه للشيخ زكرياء والحافظ الاسيوطي وملا عصام وكتاب الرصاع على اى المغنى وهرائى المجد الى اى السعد من تأليف العلامة الامام ابى العباس احمد المنجور شيخ مولانا امير المؤمنين ايده الله وشيخ الجماعة ومغنى اللبيب في العربية وحاشية الشمونى عليه وشرح ابن الدمامينى وحاشيته ايضا عليه والارشاد لامام الحرمين فى علم الكلام وشرح المقترح له وشرح تلميذه الشريف زكرياء والمعالم الدينية للفخر وشرح شرف الدين التلمسانى لها وشامل ابن عرفه الذى حاذى به طوابع البيضاوى والصحائف وشرحها السمرقندى والمقاصد وشرحها لسعد الدين التقطارنى والمواقف لعصم الملة والدين وشرحها للسيد الجرجانى وحاشية حسن جلبى على شرح السيد والاربعين للامام الفخر والقطب فى علم المنطق على الشمسية للكتاتبي وحاشية سعد الدين عليه وحاشية السيد عليه وشرح سعد الدين ايضا عليها ومنطق الشفا لابي على بن سينا وشرح الارشادات له أيضا لنصير الدين الطوسى وشرح الفخر لها ايضا وكافية ابن الحاجب كان يدارسها مع الحافظ العلامة الفقيه الاستاذ النحوى العروضى ابى العباس احمد بن على الزمورى وشرح النبيل عليها وهو من أنبل شروحها وشرح الرضى عليها وشرح المؤلف عليها وملاجمى عليها وشروحات وحواشى عليها غير ما ذكر وشرح ابن الدمامينى على تسهيل ابن مالك وغير هذا من المصنفات الجليلة النفع ومن المشايخ الاعلام

من 222

الذين اجازوه ايده الله كتابة ومراسلة من الشرق الى المغرب الشيخ الامام العالم العلم
الصدر الكبير الشهير رئيس ائمة اعلم بالديار المصرية وقبلة اهل الارض قاطبة علم
الطريقة ومركز دائرة الشريعة والحقيقة حجة الاسلام وعلم الاعلام وقبلة الانام الشيخ
الامام الاوحد الفوت الرباني ولي الله ابو عبد الله محمد بن ابي الحسن البكري الصديقي
ونص كتابه المتضمن الاجازة الى مولانا امير المؤمنين ايده الله تعالى (1) الله سبحانه
وتعالى له العزة التي لا تضاهى والعظمة التي لا تباهى والكبرياء خضعت له املاك السماء
وملوك الارض والجبروت الذي تهيف لذكره رواسى الدماء طولا والعرض سبحانه فلق
بنور الابداء ظلمة العلم وابدى ابداع وانشا * واخترع وانفرد بذاتى القدم تضطرب من
هيئته احشاء الزواجر فيتطايروا اديها فرقا وتتصدع من نواميس سلطانه الافلاك فتشق
فرقا له الحمد سبحانه ان دل بمصنوعاته على واحدية ذاته العلى وشار بمسبحة مخلوقاته
الى احديته قدسه الاذلى ولا كمصنوع القى شعاع ارادته على مرآة حقيقته فاضاء بسبحات
صمديته وموضع لنظم شتات المخلوقات محمول على اكناد العناية لم يستدخله قبله
جنس ولا نوع بل هو مظهر وترتيبه حمد نفسه بنفسه وابرز سر حامديته من حيث
هو وهو بمطلع محمدية واحمدية ثم انجب منه بالواسطة العلية العلية من البتول الزهراء
الطيبة الطاهرة النبوية ابناء لولا الختم المحمدى لكان كثير منهم ابناء الى ان تتم
الدورة المفتحة بمحمد النبي صلى الله عليه وسلم المختمة بمحمد المهدي انتهاء لاجرم
واختار منهم علماء رحماء خلفاء على البرية ملوكا طلعت شمس عظمتهم من الافاق
المشرقية والغربية فمحت ظلاما واذهبت باليقين شكوكا وواعجبا من طلوع الشمس
من المغرب امانا للعالم وحفظا كافا كف العدوان من بنى ادم كيف وهو احمد خليفة
ملك ملك حبات القلوب وسلطانا بتلك الاقطار استطار ذكره بين نقطتى الشروق والغروب
لا بدع فهو فى ابناء الزهراء قسم من قسمت جبين جده المصطفى صلى الله عليه وسلم
تسجد له الغزاة رابعة النهار وتجري على وفق بل فوق مراده باذن الله سبحانه الاقضية
والاقدار انفرد فلا يلز معه فى مضمار واحرز قضبات السبق فلا يشق له غبار ودعتسه
العليا اليها لتدرك به شاو الفخار وحشرت لدعوته افئدة الموحدين فكل ينادى البدار
البدار وارعدت من هيبة سيف ظهوره القوم الفقرا افئدة الملوك فلا سيف الا ذو الفقار
هذا وعثرا فى تصيب القول الذى لم املك كفاقه فتأمل به لسان القلم قبل اهداء التحية
الى سدة الانافة فاما اولا فانى اقبل بجيبنى واهداب مقلتي اجلالا لتلك الحضرة المكرمة
المقدسة عن شفتى عتبة النبوة والرسالة وساحة العظمة والجلالة بين ينى غرة مولانا

ص 223

(1) بياض بالاصل

امير المؤمنين وقبلة الموحدين نجل المصطفى صلى الله عليه وسلم وسليته ومن نصر
بالرعب غنيا عن الاخذ وصليته والاقب وصهيله من طنت في آفاق العالم حصاته
وتعبت بضبط مناقبه حفظة القول وحصاته ونزعه الى الانزاع البطين كرم الله وجهه
عرق خلافة بغير العدل لا ينبض ونماه بالجد الاسعد الى الجد الاصعد سر خصوصية لم
يزل يقسم له من المواهب او في العطاء ويفرض وفي القطر المغربي أثره الله وللتعميم حذفت
له متعلقا واثراء من العلم * والنسب والولولة والصباحه والفصاحة اذ كان ثم غيره منها
مهلقا واستله من غمد الغيب حساما لاعداء الملة حاسما وجعل انف الكفر لا يبرح من
ذكره راغما وارسل لديه ارسال العطايا بما يخص ويعم البرايا واختاره لذلك قاسما
وجعل بيده الشريفة ميسم السعادة فاذا اسعد عبدا كان له به واسما واورد سيوفه النبوية
موارد ورائد عبدة الصليب فلن ترى لهم من باقية واخذهم الله على يده باسرهم ونحرمهم
اخلة رابية فاصبح الاسلام متوجا منه بعزة الحى القيوم واعدائه يدعون بالويل والثبور
لبوار دولة الاثنوم وتشرف به تحت الخلافة على الممالك المغربية ورمت بسهامه الصائبة
اكباد اهل الملة المسيحية فاصبحت ملوكهم يتهادها الرخم والبغات وياباها العقبان
والنسور فلا احتفال ولا اكتراث مفعمة اودية سيول عساكره فى موارد السوغى ومصادره
باعراب كم دربوا على حرى اخلاف الحرب وورى زناد الطعن والضرب ومغادة ومراوحة
للجلاد وهز للصوارم وتثيف الصعاد من كل مقتعد من عرب الجياد واحسن معتقل من
اصم الكعوب بكل رعاف الانابيب بناصرهم من فتاك الاتراك كل قسور قاسر ومن صيد
الحقاد يدخل كسروى كاسر وغششهم همام وايهم مقدم جارين بذلك اجيش بحارا وسيولا
ومن السوابل ذيولا حتى تركوا معاقل الكفر قنيصة حابل ونهبة عاجل عاقدن بالعبير
من مشار النقع قبة آخلة باقطار الجو مسمعين من صلصلة رعود مقارعة السيوف والاسنة
ما ملا اكناف الدوفيا له ادام الله نصره واقباله وابد له العظمة والجلالة من ملك جر
على المجرة اذياه وفات القول مدحا فما الخضم بالنسبة للثناء عليه الا بلالة واستعل
سناه على القمرين فما هما بالاضافة لنوره الا ذباله ومع ما قدمته ورقمته ومن النسج
المهلل من حيث الانشاء جبرته الا انى بغير اوصافه الشريفة ما جبرته فلا بد من توفية
السنة الشريفة فى اهداء السلام حقها وانى الاحج واصاقب هديها ووفقها فاقول السلام
عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد فانى احمد اليكم الله الذى لا اله الا هو واصلى واسلم
على عبده ونبيه ورسولنا سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وشيعته ووآثره وحزبه
سلاما كانما هب من رياض رضوان من بين الحور والولدان نسيمه بل كانما طيب
فراديس الجنان خلال الرفارف والعبقرى الحسان شميمه وانهى الى تلك الحضرة
المقدسة التى لم تزل على معاقل التقوى مؤسسه الباذخ شرفها بالفر اليامين من آل

هاشم وابناء العوانك والفواطم المنقطع درس مبدا شرفها * العلي ليت كل ليت اراد ذلك
 السؤدد وتوخاه وبحسبي من كنت مولاه فعلى مولاه وكفاني وكل منتهض للحجاج لذلك
 المقام العلي ما روى لكل نبي نظير وانت نظيري يا علي وماذا عسى ان القم به فم
 المعارض من الحجر بعدما روى من قوله صلى الله عليه وسلم من لم يقل على خير الناس
 فقد كفر اما الحديث الاول فمشهور ومقبول واما الحديثان بعده فالقول بعلم وضعهما
 عند مهرة الفن منقول على أن في المحجة البيضاء غنى عن بنيات الطريق فقد علم
 الناس المفادى بنفسه والموذن ببراءة وأخذ الراية يوم خيبر ولو شئت لقلت وسلني
 عن مخبات الفريق وحملته ما انهيه وبالنوع ارسم مبادئ قواده وخوافيه ان ادعيتي
 لذلك المقام النبوي والمحتد العالي العلوي تكاثر وبلى الفمام ومتعنجر السجام سيما اذا
 ارخى اليل سدوله وبسطت الى الله اكف لم تزل عنده مقبولة ولقد وصل الى المقال العديم
 المثال المزرى نظامه بعقود الال فاذا به السحر الا انه الحلال يسكر سامعه بلا حد بيد أنه
 الجريال لا تبلغ طوامير البطحاء وكو طالت السنة اقلامهم عنان السماء عشيرة او لا تصل
 قواهم وكو امتتها كل النفوس الناطقة الى تجير مثله وكو كان بعضهم لبعض نصيره
 وظهيرد وكو ادعى احدا من معجزات احمد صلى الله عليه وسلم ان يمد الله كراما
 كاتبين في زمن نجله امير المؤمنين احمد بكتاب كريم على اسلوب قويم يرسله الى لجب
 قديم من النبعة والصميم لم نكذب دعواه فما من خارق في الامة الا وهو من معجزاته صلى
 الله عليه وسلم علاه وما جملني به من شعار او اثار او جررت به على الروض ديلا معطارا
 فذاك ولا تسأل عن الخبر وسبحان من يرضى من عبده بالشناء عليه وهو منه واليه فكأنه
 سبجانه لنفسه بنفسه شكر وما شافني به من طلبه الاجازة فالبيت والحديث له وهو في
 اوج هذه الرتبة الرفيعة المنزلة ولاكن رب أب ارسل الى ابنه على يد عبده عطاء فنقله واليه
 باهره وحمله وحيث وقع الامر قامر مولانا حتم وطاعته غنم فمولانا مجاز من هذا العبد
 بجميع ما يجوز لهذا العبد وعنه روايته بشرطه الاعتبار عند اهل الاثر وبمثل ذلك
 مجاز اهل العصر اجازة عامة بما يكون ابناء الوقت جميعا على مائدة فضل مولانا وتحت
 ظلال ذلك الانعام فانه ايده الله بملائكته وهو السبب في تحصيل هذا المرام وما برز به
 من مجلدة جامعة مطبوعة واسعة لعل الله ببركة مولانا ييسرها ويجري بها قلم العناية
 فيجبرها ويحررها ويرسلها العبد الى حضرة سيادتكم * ولعلها تقع موقع القبول من شرف
 حضرتكم ومولانا وابناؤه وعطاء حضرتته ووژراؤه وكبراء امرته وجنوده واركان دولته
 في امان الله وحفظه ورعايته ولحظه ما (1) وخطت الاقذار وعبت الهوادد وصبت
 المواطر احسن تحرير في رابع عشر ربيع الثاني عام اثنين وتسعين وتسعمائة العبد
 الداعي محمد بن ابي الحسن الصديقي سبط آل الحسن ومن اجازه ايله الله كتابه

(1) بياض بالاصل .

ورسالة الشيخ الامام نخبه الفضلاء الاعلام تاج الملة علم الائمة فخر العلماء الجلة قاضي القضاة المالكية بالديار المصرية الفقيه الجليل العالم العلم الفاضل الشيخ بدر الدين القرافي ونص الاجازة بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم الحمد لله الذي بعث اكمل خلقه المصطفى احمد وانزل عليه كتابه الكريم فكان اجل مبلغ واحمد واتاه جوامع الكلم وجميل الارشاد والحكم فابرز القول الصحيح الحسن الاحمد والصلاة والسلام على تلك الحضرة العلية القرشية القاسمية الهاشمية اجل من قدمه الله الحى القيوم الاحد كشف به الغمة وكف به الظلمة ورقاه الى اعلى مراتب القرب واصعد وكماله وكمل به واسعد وعلى آله الطيبين الطاهرين اولى السيادة والسعادة والقدر الامجد وصحبه الفائزين بمصاحبته ومناصبته باوفى حال يحمد وبعد فان واردات العناية وامدادات الهداية نعم اختارها سبحانه لمن اختاره وقربه فكان من اهل الكرامة والرعاية ومنح قسمها بحسب ارادته كما شاء لمن شاء وهذبه فلا صنع للعبد فى بداية ولا فى نهاية قسمة حيرت اولى الالباب وحالة تفاوتت فيها مراتب الوصول والانتساب فوهب جزيل المواهب وذهب بمن سلك به طريق العلم احمد الطرائق واحسن المذاهب واثله زيادة السعادة والمطالب فكان لمحصل هذا العلم النصيب الاوفى بما فقههم فى دينه وجملهم بجليل المناقب وجعلهم نجوما يهتدى بهم فى ظلمات الغياهب وقدمهم وقربهم واثالهم مزايا المآرب فرفلوا فى حبرات القبول وحصلوا من ثمرات العلوم الاطايب وبلغوا نجم سولهم لما بلغوا نصح الرسول المجتبى فى المشارق والمغارب فهم صفوة اصفيائه وورثة انبيائه الذين رقاهم بالصعود فى منازل السعود الى ارفع المراتب وفضلهم بما فتح عليهم من معانى المعالم وفضلهم بفضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب فرفعت اقدارهم الدعوة المباركة ووضعت اجنتها لهم الملائكة فما لهم عن رضوان الله حاجز ولا حاجب وكفاهم من الله العلى العليم على مر الدهور * مزيد التشريف والتكريم حيث اقامهم شهداء على وحدانيته بقوله شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة واولوا العلم قائما بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم ففازوا بعزته وحازوا من الكمال فاخر رفعتة وقد قبض الله سبحانه وتعالى لهذه العصاة من كل اهل السعادة والاصابة فى كل زمن رفع لهم شأننا واثالهم ثوابه حفظا لهذا الشأن واهله وصونا له عن وقوعه فى غير محله ونفعا لعباده وارشادا لعباده فى ارض الله وبلاده فكان من اجلهم فى هذا الحيز شأننا وارفعهم واعلاهم مقاما ومكانا من انام الانام فى امن وامان على مدى الايام ورفع عنهم حوادث البغى والانام وانتشر له هذا الذكر الجميل عند الخاص والعام ونظر فى رغبتة نظر مشفق عالما انه عبد من عبيد الله مكنه من خلقه ربه الله ومولاه فحفظهم باوفى ذمام وسلك بهم مراقبا اقبال الله عليه التام وجاهد فى الله حق

ص 227

جهاده فكان احمد قائم ما اعمد سيفه عن الطغاة اللئام العلم الخافق على رؤوس الانام
سيد الاشراف بقية الاسلاف الحائز بجميل الاوصاف ذي العنصر الاظهر والمقام الابهى
الاظهر والمجد الاسمى الاسنى الازهر سلامة سيد من تقدم وتاخر امير المؤمنين القائم
بنصرة الدين مولانا احمد المنصور بن مولانا امير المؤمنين سلطان القطر المغربي وكافله
لازالت اعلام عزته باهية التمكين ولا برحت مزايا عزماته مكلوة بعين الله الملك المعين
مؤيدا بمدده الباهر المتين مشيدا عزه محفوظا سعدة محفوظا باوفى تأمين وانه بهذا الشأن
له عند الله اليد الطولى والفضل الاكمل الاوفى ومزيد الاجر فى الآخرة والاولى فان
هذا الهدى من هذا البيت الشريف توالى وهم احق من لنشره تولى وقد ورد علينا الامر
الكريم من هذه الحضرة العلية السلطانية الهاشمية المحفوفة بعناية الملك الرحيم
والخطاب الباهر الفخيم واستدعأوه الوسيم الى هذا العبد الفقير المقيد بقيود التقصير
المنكسر خاطره لقلّة العمل والتقوى ولحقوق الحال الخطير بإبراز سلسلة الفقه الى امام
المتقين عالم دار هجرة سيد المرسلين مالك ابن انس الاصبحي ابن عبد الله المدنى الفقيه
الممدوح يقول البخارى اصح الاسانيد كلها مالك عن نافع عن ابن عمر رضى الله تعالى
عنه وارضاه وما لهذا الفقير من السند فى الحديث الشريف النبوى حسبما نطق به
مرسومه العلى وابانه مكتوبه الجلى بعبارات جليلة النظم بديعة الرسم فاخرة فى جيد
الزمان قلائد موشحة بفرائد الفوائد دالة على انه فى الاعتناء بهذا الامر من اعلى المراتب *
ص 228 والمصاعد

ان وجهها يضىء بالعرفان نعمة قد زكت من الرحمان
نحمد الله اذ ارانا كمالا فيه عز للعلم من سلطان
دام فى عزة وفاخر شأن وبغياه نيل اعلى الجنان

فرايت امره تشريفا وتكريما واقبالا واجلالا وتعظيما لازال علم الدين به مرفوعا وعلم
امره على الرؤوس محمولا وعلى العيون موضوعا فبادرت لامثال ما نسب اليه واراده واقبل
عليه ورأيت ان طاعته ومخالفته غرم مع ما انا عليه من كثرة الاشغال بالفتوى والقضاء
وعدم الخلوص الى القضاء وكان فى هذه الاشارة الشريفة الهاشمية السلطانية فضل
مزيد وحال سعيد وذلك ان سلسلة الفقه الى وقتنا هذا لم تقف على من تعرض من
مشايخى ومشايخ من الطبقة التى فوقهم الى مالك ولا من حور هذا الامر ولا نظر فيه وانه
لامر يحتاج اليه كل فقيه فكان هذا الخطاب الشريف داعيا الى هذا الحال الجميل والاسلوب
الجليل فوجهت الوجهة الى امره الشريف وفق ما طلب ووفيت من مقصده الارب واتحفت
حضرتة العلية بزيادة باهرة حسنا زاهية زاهرة الفضل والمعنى وهى الاجلّة بسورة
الفاحة للفوز ببركتها الناجحة بسند لهذا الفقير بينه وبين من انزلت عليه صلى الله

عليه وسلام وشرف وكرم من العلي الكبير على شريف ذلك الجناح خمس في المشايخ
الاعلام الانجاب وأنه الحقيق بالفوز بهذا السند العالي المستطاب والكمال الباهر العجايب راجيا
منه دعوة بظاهر الغيب لافوز بالمجاب وقلت متشرفا باقباله داعيا بازدياد دولته وصولته
وجلاله وحفظ مهجته الشريفة وحراسة السادة الشرفاء من اولاده وتمكنه في ارضه وبلاده
لنفع عباده

اجزت لمن تفضل واستجار	او بادر لاقتنا خيرا وحازا
وبرز في سلوك العلم حالا	به من فضل مولاه يجازي
امام كامل عون البرايا	امير المؤمنين حوى محازا
وذلك بعد تشريفي بامر	وقصد للاجازة واستجازا
فبادرت امتثالا قدر وسمي	ومقتنيا مناهج من اجازا
وقد ابدت حقا لا مجازا	لما صار الامام به مجازا
بفاتحة وسنة خير هدى	وسلسلة لمن حاز امتياز
بدار الهجرة العليا امام	بما ابداه من فضل مجازا *
وارجو منه يبلل لي دعاء	بما ارجوه من خير مجازا
بخاتمة تبلغني مراما	بجنات اراها لي مفازا
واشياخي تبلغهم رضا	ويوصلهم الى خير مجازا

ص 229

وربت هذا المطلوب على فصلين وخاتمة الاول في الاجازة بسورة الفاتحة ثم
بسند الحديث الشريف واظهاره الفاتحة الثاني في الوصول الى امامنا امام دار الهجرة
وسلسلة فقه الشريف والخاتمة في الاجازة وذكر مولدي وما يسر الله تعالى من التأليف
وانعم به من فضله المتيف وبالله التوفيق والهداية الى سواء الطريق وهو حسبي ونعم
الوكيل الفصل الاول في سند الفاتحة العالية والاحاديث الغالية اما الفاتحة الشريفة فقد
تلقيتها عن بلدنا المحدث الرحلة بقية الاوائل جامع الفضائل ولي المعارف وكنز العوارف
هو الواعظ الخاشع على ابو الحسن فخر الدين الشهير بلقبه بن احمد الانصاري
القرافي الشافعي وكان بيني وبينه من المودة والمحبة الشأن الكبير وله تهجدات مستمرة
ومسكنه بالقراءة المشكورة واجازني بجميع مسموعاته ومروياته ومؤلفاته وما له من منثور
ومنظوم وما له في طريق القدم من السلوك المعلوم وسأذكر مشايخه الآخذ عنهم في
الحديث قرأت عليه سورة الفاتحة واجازني بما له فيها من السند الجليل حسبما سمعته
من لفظه وكتبه لي بخطه وذلك انه قال قرأتها على قاضي القضاة شيخ الاسلام محمد بن
ابراهيم التتائي المالكي شارح مختصر سيد الشيخ خليل بن اسحاق وتساء بمثنائين
فوقيتين قرية من قرى مصر واجازني بها وربما قرأه من كتابه السلسبيل الفاضل

وبجميع مؤلفاته ومروياته قال وقرأتها ايضا على الشيخ العالم الصالح احمد شهاب الدين البلقيني الشافعي واجازني بها وهو قرأها على الشيخ العالم الحجة في مذهب مالك شمس الدين اللقاني واجازه بها وكل من الشيخين شمس الدين التتائي والشيخ شمس الدين اللقاني قرأها على شيخهما قاضي الجماعة برهان الدين التتائي المالكي واجازهما بها وشيخهما البرهان اللقاني المالكي قال قرأتها على العلامة المحدث علم الدين سليمان مؤدب أدب الجن واجازه بها قال علم الدين سليمان قرأتها على القاضي شهروتي قاضي الجن واجازني بها وهو قرأها على النبي العربي اكمل الخلق محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم وللقاضي برهان الدين اللقائي مع الجن بعض وقائع متضمنة لمزيد توقيير عندهم وامثال قوله كما هو مستفيض مشهور وذكرت بعضها منها * في غير هذا الموضع وقد اجاز هذا العبد الفقير مولانا وسيدنا امير المؤمنين حافظ دين الله المتين بما اجازني به شيخى المذكور من هذه السورة الشريفة والنعمة السابقة الوريقة وادليته فيها ما وصلني منها وانها رتبة في الذروة العليا للقرب من اكمل خلق الله في الاخرى والدنيا جعلنا الله ممن شملته عنايته وعمته رعايته ووفقنا الى ما رضىه وسنه واقامنا في اتباع الكتاب والسنة

ص 230

خصصتك امرا ليس يخفاك شأنه فسيديا واداب لجمع المآثر
وكن عالما بالعالم تحمد سره - وتلقى رضا الباري بحسن الدوائر
وجد وجد بالنفس في طلب الرضى تلاحظ وجه الله في اليوم الآخر
اما قد رأيت الله اولاك رتبة بها شرف الدنيا ونيل الفاخر
وذلك عنوان القبول فمن رعى لنعمة مولاه حوى خير فاخر

وأما سندي في الحديث الشريف فقد اخذته عن الجلة من علماء بلدى واجلهم في هذا الباب شيخنا الولي الصالح الخاشع الناسك بقية السلف المحدث السند يوسف المدعو جمال الدين ابن شيخ الاسلام قاضي القضاة زكريا الانصارى صاحب المؤلفات الفريدة في العلوم العديدة كان شيخنا المذكور له القدم الراسخ في التقوى والمجاهلة في رضى عالم السر والنجوى على سنن عجيب في الانجماع عن الدنيا واهلها والعكوف على بلل الفضائم في محلها واعانة طلبة العلم بمصفات والده واخذ الحديث عنه لازمة مدة قرأت عليه من اول صحيح البخارى الى اول كتاب الصلاة وسمعت عليه بعضه مع بعض اصحابنا واجازني بالكتاب جميعه وبجميع ما يجوز له روايته بحق روايته للصحيح المذكور قراءة وسماعا واجازة بجميعه من والده شيخ الاسلام زكريا الانصارى الخزرجي الشافعي بحق روايته له قراءة لبعضه واجازة لسانه عن شيخ الاسلام ابراهيم الشهين بابن ابي شريف بكسر الشين المعجمة والراء المهملة المكسورة بعدها مثناة تحية لله القمى الشافعي بحق روايته له سماعا واجازة لباقيه عن شيخ الاسلام ابراهيم القلقشندي بقائه مفتوحة

ص 231

تم شين معجزة مفتوحة ثم نون ساكنة ثم دال مكسورة بعدها ياء نسبة الى قرية من
 فري مصر الشافعي مذهباً بحق روايته له اجازة فقط عن الشيخ الصالح القدوة ابي
 عبد الله محمد بن الشيخ الصالح ابي الحسن علي بن نور الدين ابي بكر البكري الصوفي
 القادري الشافعي * وعن شيخ الاسلام عبد البر قاضي القضاة محي الدين بن الشحنة
 العنفي وعن الشيخ الامام العالم كمال الدين ابن حمزة الدمشقي الشافعي وعن شيخ
 الاسلام خاتمة المحدثين الاعلام ابي الفضل عبد الرحمن المدعو جلال الدين السيوطي
 الشافعي وعن الشيخ العالم الصالح ابي الجود محمد المدعو امين الدين الشهير
 بابن النجار بنون وجيم امام جامع الشيخ القمري بمصر ومنهم شيخنا العلم الباهر
 والعالم الفاخر خاتمة المحدثين بقية العلماء الماجدين ذو الوجه النير الحسن من ظهرت
 فيه دعوة جد الحسن صلى الله عليه وسلم نصر الله امراً سمع مقاتلي فاداهما كما
 سمعها الشيخ الكامل محمد المدعو نجم الدين بن احمد الغبطي بغين منقوطة فمثناة تحته
 فطاء مهملة فمثناة تحته الشافعي المصري مولداً كان نفعا لخلق الله وجابراً للقلوب
 المنكسرة بلا اشتباه وكان المشار اليه في السنة الشريفة ببلدنا وكان بينه وبين والدي
 محبة قديمة قرأت عليه بالمدسة الاشرفية بمصر المحروسة في علوم الحديث وسمعت
 عليه بعضاً من موطا الامام مالك ابن انس وبعضاً من صحيح البخاري وبعضاً من صحيح
 مسلم بالجامع الازهر بمصر المحروسة بحضور اعيان ذلك الوقت من الفضلاء وصدور
 الابحاث الجليلة وسمعت من لفظه الحديث الشريف المسلسل بالاولية وسمعت من لفظه
 ايضاً باقى الكتب الستة واجازني بذلك وبجميع ما يجوز له وعنه روايته وكتبه بخطه
 الشريف وذكر فيها سنده بالكتب المذكورة وذكر مشايخه في الحديث المسلسل بالاولية
 وما فيه من الايات الشعرية شيخ الاسلام زكريا وشيخ الشيوخ عبد الله السنباطي
 والشيخ امين الدين ابن النجار المتقدمين والشيخ بدر الدين المشهدى ومن صحيح
 البخاري شيخ الاسلام زكريا المذكور والشيخ الامام المحقق الهمام ابو السعود شهاب
 الدين بن الشيخ الامام عز الدين عبد العزيز السنباطي والشيخ امين الدين ابن النجار
 المذكور وشيخ الاسلام قاضي القضاة كمال الدين ابو الفضل محمد بن علي القادري
 الشافعي المعروف بالكمال الطويل شيخ الاسلام كمال الدين ابو البقاء محمد بن حمزة
 الشريف الحسنى وذكر شيوخه في صحيح مسلم شيخ الاسلام زكريا والسيد كمال
 الدين المذكورين ومن شيوخه في صحيح سنن ابي داود والسنن المسماة بالجامع الترمذي الشيخ
 زكريا المذكور والشيخ عبد الحق السنباطي وفي سنن الترمذي الشيخ المحدث ابي الفضل
 محمد بن الشيخ المحدث الشهير محمد بن بهاء الدين المهدي ومن شيوخه في السنن
 الصغرى للنسائي الشيخ زكريا والشيخ ابي هريرة * عبد الرحمن بن عمر النشيلي

ص 232

بنون ثم شين معجمة ثم مثناة تحته بعدها لام مثناة تحته نسبة لقرية من قرى مصر
وفي السنن لابن ماجه شيخ الاسلام المذكور وشيخ الشيوخ هو ابو الفضائل عبد الحق
السنباطي المذكور ومنهم شيخنا الولي الصالح والعارف الناجح والقنوة الفالح مربي المريدين
قدوة السالكين العلم الخافق ابو عبد الله محمد بن الولي ابي الصفا احمد شهاب الدين
بن الشيخ العارف ابي الفضل عبد الرحمن بن الاستاذ الوارث الراسخ والعلم الشامخ
الولي الكبير والمقتدى الشهير صاحب الكرامات الخارقة والاحوال الصادقة والمشاهد الفاتحة
القطب الرباني الباقي بعض كراماته بزاويته بمصر الى يومنا هذا أبو الاخلاص محمد
التيمي البكري الصديقي الشاذلي الشهير بالحنفي بقبيلة العصابة الشاذلية اعاد الله
تعالى علينا من بركاته وخالص امداداته اجتمعت به بمنزله الكائن بجوار زاوية
جده المذكور وصدر بيني وبينه محبة عظيمة وكان بينه وبين والدي صداقة ومودة قديمة
قال لي قد اجتمعت مع والدك يوما في موضع فضمني ضمة وقع عندي انها ضمة وداع
وفراق وكان الامر كذلك ولم يقع بينهما اجتماع وكان يبالي في حفظ مودتي وخصني
بدعوات وجدت نفعها وكان توجهه الى فوق الحد وقد استجرت له وله علو السند كما
ستقف عليه فاجازني بالبخاري ومسلم وجميع ما يجوز له روايته من مقروء ومسموع
وحديث وفقه واجازني بطريق الشاذلية بالسلسلة التي قيدها عنه وقال انها اصح
الطرق الشاذلية واجازني بالباس الكوفية والعرقية والطيلسان وارخاء العذبة والجلوس
على السجادة وتلقين الذكر على طريق القدم ولم ازل ملازما له الى حين وفاته وكان له
اجتماع كثير على كثير من اولياء مصر المشهورين بالكرامات وذكر من مشايخه الشيخ
الكامل الفاضل عبد القادر الشاذلي اخذ عنه صحيح البخاري عن الشيخ شهاب الدين احمد
الشاوي سمعا لبعضه واجازه لباقيه بالمدرسة لكاملية بالقاهرة المعزية بين القصرين عن
امام الحفاظ ابي الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي ومن شيوخه قريبه الشيخ
الفاضل ابي الخير خير الدين بن القطب سيدي محمد الحنفي المذكور قال اخبرنا به
الشيخ شهاب الدين ابو العباس احمد بن محمد بن ابي بكر الواسطي بحق سمعه له
من الشيخ صدر الدين ابي الفتح محمد الميذومي بسنده وقد ساوى الشيخ خير الدين
المذكور الشيخ الحافظ السيوطي في الرواية عند الميذومي بواسطة واحد الا ان السيوطي
اخذ عن اربعة كلهم عن الميذومي واما الحافظ ابو الفضل العراقي فروى عن الميذومي بلا
واسطة ومن شيوخه الحافظ الجلال السيوطي اخذ عنه صحيح مسلم وقرأ عليه فهرسة
اسماء مؤلفاته * وهي نحو مائة مؤلف واجازه بذلك وجميع ما يجوز له وعنه روايته بشرطه
قال وكتب لي خطه بذلك ومن شيوخه ايضا شيخ الاسلام زكريا المذكور وقال انه
اجازه في ثاني عشر جمادى الاولى سنة 894 والقاضي شهاب الدين الصغير في سنة 9

ص 233

وكلاهما من تلامذة الشيخ ابن حجر والشيخ نور الدين الأشمدي الشافعي والشيخ محمد بن محمد المدلجي العثماني الشافعي شارح الشفا للقاضي عياض والشيخ الصالح العمري أبو الحسن علي نور الدين بن أبي بكر الفيش الانصاري شيخ زواية المتبولية وقف السلطان قايتباي ومن شيوخ الشيخ نور الدين المذكور عدة من الاعلام باخباره بذلك نسيخنا المذكور حين سألناه وهو شيخ الاسلام الحافظ أحمد بن حجر وشيخ الاسلام يحيى المناوي وشيخ الاسلام علم الدين البلقيني والعلامة المحقق جلال الدين والشريف النسابة والشيخ عبد السلام البغدادي والشيخ برهان الدين البقاعي صاحب المناسبات وغيرهم من الاعيان ولما شيوخ نسيخنا المذكور من طريقة الشاذلية فمن طريقة جده القطب المذكور وهو أنه صلب والده على طريق السادة الشاذلية واقتدى به وتلقاه والده كلمة التوحيد ووالده من ابيه المذكور وابوه المذكور من جده القطب محمد الحنفي وجده القطب المذكور من قطب زمانه الشهير بابن الملق وابن الملق اقتدى بجده شيخ الاسلام أبي العباس بن الملق السكندري الاصول الجدل وهو صلب واقتدى بالشيخ الولي العارف تاج الدين أبي الفضل أحمد بن عطاء الله السكندري صاحب الحكم والتنوير ولطائف المنن ومفتاح الفلاح وتاج العروس ووجد بخط القطب الشيخ الحنفي الكبير المتقدم ابن الشيخ أحمد بن الملق اخذ الطريقة صعبة وتلقاها عن سيدي أبي الدرياقوت العرشي وهو وسيدي تاج الدين ابن عطاء الله أخذا عن الشيخ الولي أبي العباس بن عمر المرسى وهو صلب واقتدى وأخذ التلقين عن استاذ هذه الطائفة الشاذلية القطب السيد الشريف أبي الحسن الشاذلي نفعنا الله ببركاته وهو صلب السيد الشريف والعلامة الشهير عبد السلام ابن مشيش بيا موحدة في اوله فشين معجزة فمثناء تختيه ثم شين معجزة وهو اقتدى بالعوث الجامع السيد الشريف أبي عبد الرحمن الحسن المدني العطار الشهير بالزيات والزيات نسبة الى محل سكنه بالمدينة قال الشيخ ابراهيم المواهي وهاكذا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقية هذا السند شريف عن شريف الى سيدنا الحسن بن علي بن أبي طالب وهو اول اقطابها عن جده المصطفى عليه السلام قال سيدي الولي العارف محمد سبط سيدي أبي الحسن الشاذلي في كتابه شفاء الغليل ودواء العليل ان طريق جدي الشيخ أبي الحسن علي الشاذلي * ص 234 فبدوها معروف مطروق بين الناس واخرها بغلبة الظن لم يتلقاها من السادة الشاذلية الا القليل والقسم الاول الى الشيخ الزياد المتقدم واما القسم الثاني وهو بقية طريق الشيخ الزياد المذكور فقد صلب واقتدى بشيخه القطب تقي الدين الفقير بالتصغير وفتح القافين منهما وهو الذي سمى بذلك تواضعا وهو صلب واقتدى بالشيخ القطب فخر الدين وهو صلب واقتدى بالشيخ القطب أبي الحسن علي وهو رضي الله عنه

صاحب واقتدى بالشيخ القطب تاج الدين وهو صاحب واقتدى بالقطب الملقب بشمس الدين
 وهو صاحب واقتدى بالشيخ القطب الملقب بزین الدين القزوينی وهو صاحب واقتدى
 بالشيخ القطب ابی القاسم المروانی وهو صاحب واقتدى بالشيخ القطب سعيد وهو
 صاحب واقتدى بالشيخ القطب سعد وهو صاحب واقتدى بالشيخ ابی محمد فتح
 العودی وهو صاحب واقتدى بالشيخ القطب جابر وهو رضى الله عنه صاحب واقتدى
 بأول الاقطاب السيد ابی محمد بن الحسين بن علی بن ابی طالب وهو صاحب واقتدى بجله
 رسول الله صلى الله عليه وسلم قال شيخنا ابو الاخلاص محمد الحنفی المذكور وهله
 أصح طرق السادة الشاذلية وتفضل واجازنی بها وان افعل ذلك لما طلبه من علی طریق
 التشبيه بالقوم واجازنی بكل ما يجوز له روايته من مقروء ومسموع وغير ذلك من
 الباس كوفية وعرقية وطيلسان وارخاء عذبة وجلوس علی سجادة وتلقين ذكر وحديث
 واجازنی بما اجازه به شيخه الشيخ الامام العلم الهمام عبد القادر بن محمد بن احمد
 الشاذلی وغيره من المشايخ نفعا الله ببركاتهم اما شيوخه من الصوفية فخلق كثير من
 أشهرهم ابو الحسن علی نور الدين النبتیتی بنون ثم باء موحدة ساكنه ثم مثناة فوقيتين
 بينهما مثناة تحتية ثم مثناة تحتية نسبة الى قرية من قرى مصر والشيخ شهاب الدين
 المرحومی شیخ الولی الشہید ابو السعود الجارحي والشيخ ناصر الدين المتوفى
 الشاذلی والد الشيخ ابی الحسن علی الشاذلی المالکی شارح رسالة الشيخ ابن ابی زید
 القيروانی الشروح المتعددة منها شرحه المشهور تحقيق المباني قال شيخنا وكان
 والده المذكور من المعمرين صاحب خلائق من مشايخ الصوفية منهم سيدى ابو الذهب
 التونسى والشيخ ابو العباس الحنفی التونسى وسيدى الولی الكبير ابراهيم المتبول وسيدى
 عمر النبتیتی وسيدى مدين المدفون بزوايته بمصر بطريق بولاق وغيرهم من السادة
 الشاذلية والوقائية وتلقن الذكر المثلث والمربع علی الشيخ ابی اسحاق بن طام بن منصور
 الشيرازى قال شيخنا المذكور وهو لقن الفقير وله كتاب فى تلقين الذكر وفضله
 وادابه وشروطه وفى الصعوبة والمصافحة واجازنی بجميع ما فيه * وكتب لى خطه
 بذلك ومن شيوخ شيخنا المذكور فى طريق الصوفية الشيخ ابراهيم المواهبى الشاذلی
 الحنفی قال قرأت علیه كثيرا من مؤلفاته فى الطريق وعلم واصول الدين ولقننى الذكر
 واجازنى بخطه قال وشیخ شيخه سيدى محمد المغربى لقننى كلمة لا اله الا الله قال وغير
 هؤلاء المذكورين من العلماء والصوفية تركت ذكرهم طلبا للاختصار وخوفا من الاطالة
 والاكتثار قال شيخنا الشيخ محمد الحنفی المزبور قد اجتمعت بسيدى ابراهيم المتبول
 وسيدى محمد بن اخت الشيخ مدين المذكور وحل نظرهما علی انتهى كلما فى بعض ما
 البتة فى اجازتى ومنهم شيخنا فى الحديث والفقه وغيرهما الامام العلامة للحق الفهامة

ص 235

المدقق بقية العلماء ذوى الرسوخ الحجة العمدة الخاشع المتواضع زين بن احمد الشهير
بالجزى بجيم مكسورة ثم مثناة تحته ثم زاي مكسورة ثم مثناة تحته الى بلده على
النيل تجاه روضة مصر وبين الروضة ومصر بحر النيل كان على حالة عجيبة من هضم
النفس والتواضع وتفهم الطلبة وتحقيق كلام العلماء والنظر فيه بكلام الدقة والتقيد لحفظ
مقالهم ومقامهم كان اذا اشكل عليه كلام بعض العلماء وكان بظاهرة يفهم الاشكال
بقول هذا من سوء فهمنا ثم لم يزل يجهد حتى يظهر صوابه ويقول كيف حالنا لو تساهلنا
فى حق الناس وكان رفيقا لوالدى وابتداء القراءة معه فى مختصر الشيخ خليل على
شيخهما العالم الصالح شمس الدين محمد اللقانى فى يوم واحد وكانا كالاخوين جمعهما
الصدق والتواضع والخير والعلم وكان يتحدث بنواضعهما مع انفرادهما فى بلدهما الوالد
بالقضاء والاخر بالافتاء قرأت عليه من اول الموطا الى احاديث الرضاع قراءة دراية واتقان
بجودة وامعان ابدى فيها العجائب وقيدت عنه خصوصا فى الاعارب الغرائب وكان
مجلسه يشتمل على فوائد لا تختصر بما يقرأ فيه وكان له صبر على البحث وتحريك الطلبة
على التحصيل ويحرص على حصول المراد لفهامهم ويرد عليهم بكمال اللفظ كل ذلك
طلبا للنفع واجازنى بذلك وبقى الكتاب وقرأت عليه بعضا من اول صحيح البخارى
ومسلم والشفاء واجازنى بالكتب المذكورة وجميع ما يجوز له وعنه روايته وسند كل
عندى ومن اجل شيوخه العلمان الزاهران والعلمان الماهران الاخوان الجليلان البارعان
المالكيان الشيخ محمد المدعو شمس الدين بن حسن اللقانى والشيخ ناصر الدين كان
عليهما مدار المذهب المالكى والاول منهما اكبر منا واكثر فقهها وكان له قدم راسخ فى الكشف
واجتمع بعد من الالياء المصريين والمغاربة والثانى اكثر تحريرا وتحقيقا فى العلوم
العقلية ازيد النفع به لطول عمره وكثرة ملازمته ليلا ونهارا للاشتغال * والاشغال
وكان له صبر جميل على ملازمة الطلبة له من ذوى المذاهب الاربعة بمصر فى العلوم العقلية
بحيث صار شيوخ الوقت كلهم طلبة له مع الجماعة على اهل الدنيا بحيث جاء وكيل
السلطان الحافظ مصر الى الجامع الازهر وطلب الاجتماع به للتبرك والدعاء فقال ان
عدل عن الاجتماع معى دعوت له والا فلا وقد كان ابتدا شيخه هذا بالعلم على اخيه
الشيخ شمس الدين كما مر ثم انه اجتمع باخيه الشيخ ناصر الدين وحصل منه
النصيب الوافر فيما قرأه وحضره فيه من العلوم وصارت له عنده مكانة وقدمه على
بقية طلبته لتدقيقه وتحقيقه ومعرفته بكلام الناس وكان لا يوجه معظم كلامه الا اليه
بحيث كان اذا بحث الشيخ ناصر الدين بعض المواطن يقول له انت معنا وكان لا
يفارق مجلسه قال شيخنا وكان الشيخ ناصر الدين المذكور حقيقا بالتقدم على اهل عصره
قلت وقد ادرسته وحضرت بعض دروسه فى الفقه من مختصر الشيخ خليل وكان ترد عليه

ص 236

الفتاوى من الاقطار من الروم وغيرها من اجلاء مشايخ ذلك الوقت ويكتب بخلاف ذلك ويبرهن عليه وكان مجلسه في غاية المهابة كانما على رؤوس اصحابه الطير وقد عرفت بهما في الدليل الذي وضعته على الديباج المسمى بتوشيح الديباج وحلية الابتهاج وتوفي شيخنا المذكور بعد ان حج وزار المدينة سنة 979 وخبّرني ولد اخيه انه عند توجهه الى المدينة المشرفة على ساكنها افضل الصلاة والسلام كان كثيرا ما يتشد (اصبحت نفسي رهينة بين مكة والمدينة)

رحمه الله تعالى وطيب مرقدہ ومنهم صاحبنا جامع الفضائل ابو الحسن على المدعو نور الدين الانصارى ثم القرافى الشافعى المتقدم فى سند الفاتحة قرأت عليه الفاتحة كما مر وسمعت منه الحديث المسلسل بالاولية والحديث المسلسل بالاتكاء وجانباً من اول صحيح البخارى والباب الاخير منه واجازنى بذلك وبجميع ما يجوز له وعنه روايته وبما له من مؤلفات علمية ورسائل واحزاب صوفية وتقدم اسم مشيخته فى سورة الفاتحة ومن شيوخه فى صحيح البخارى وبقيّة الكتب الستة وغيرها من الكتب التفسير والحديث والفقه وغيرها من بقية العلوم الدينية جماعة اعلام منهم الشيخ الجلال السيوطى قال رويته عنه بالاجازة العامة بلا واسطة وبواسطة جمع كثير من تلامذته كالشيخ محمد الشامى صاحب النثرة والشيخ شبر موت الحركسى قال وسمعت منه الحديث المسلسل بالاولية ومن اعلی مشايخ الاسيوطى الشهاب الحجازى أحد الشهب السبعة المجتمعين فى عصر واحد وهم اعلی ما عند شيخ الاسلام الكمال الطويل القادري * قال شيخنا المذكور وقد قرأت عليه كثيرا من الحديث واجازنى بجميع رؤياته وكذا شيخ الاسلام احمد بن النجار واعلاما عنده المسند المعمر شمس الدين محمد بن ابي عمر الحبلى بسماعه على (1) عبد البارى قال وقد وقع لى رواية الحديث وغيره من سائر المرويات ما عدى الفاتحة من الطريق المذكور عاليا بدرجة قراءة لبعض الحديث واجازة بجميع ما يجوز لى روايته من الشيخ المسند المعمر لما فوق المائة العلامة الفردى قريش البصيرى العثمانى عن شيخه الشيخ المقرئ شمس الدين الجزرى عن شمس الدين ابن الخباز عن الامام محيى الدين النووى قال والجزرى المذكور شيخ الحفاظ الجلال السيوطى واما شيوخه فى الطريق فقال اعلی مشايخي فيها القطب الربانى ابو السعود الجارحى تلقنت عليه المسبعات واعلى شيوخه شهاب الدين المرجومى عن مدين عن سيدى احمد الزاهد قال وتلقنت الذكر واخذت عن شيخ الاسلام احمد بن النجار المتقدم عن سيدنى محمد بن اُخت سيدى مدين عنه قال واُخِلت عن الشيخ القطب

ص 237

الشيخ شاهين الحلولى بالجبل المعظم بمصر عن شيخه حسين جلى وسيدى احمد بن عفة وعن الشيخ ناصر الدين اللقانى عن سيدى احمد بن عفة وتلميذه سيدى الشيخ الصالح العالم زروق المغربى وروى عن الاول امامه معنى بجمع الخير كله وعن الشيخ جلال الدين السيوطى عن شيخه الشيخ عبد الكبير نزيل مكة ومنهم شيخنا الشيخ المسند المعمر بهاء الدين بن عبد الله بن الشيخ العارف بالله الشيخ نور الدين على العجمى بن اليسا التركى المعروف والده وجده بالعجمى المعروف بالشنشورى بشينين معجمتين الاولى مفتوحة والثانية مضمومة بينهما نون ساكنه ثم واو ثم راء مهملة بعدها ثنات تحته نسبة الى قرية من قرى مصر الشافعى مذهباً كان من اهل الخير والدين سمعت منه الحديث المسلسل بالاولية وهو اول حديث سمعته منه قال لى وهو اول حديث سمعته من اشياخه وكذلك من فوقهم الى آخر السند فمن شيوخه الشيخ الحافظ عثمان الديلمى شيخ الشيخ ناصر الدين اللقانى كما سنذكره عند التعرض لذكر السند وشيخ الاسلام زكرياء والحافظ جلال الدين السيوطى وذكر سنده فى الحديث المسلسل بالاولية وهو عندى بخطه فى اجازته لى وسمعت اول الموطا والجامع الصحيح وقطعة من صحيح مسلم وبالسنة الصغرى للنسائى والجامع واول كتاب السنن لابى داود واجازنى بذلك للترمذى وسنن ابن ماجه والشفاء وكتاب جامع الاصول والترغيب والترهيب والسيرة النبوية للعلامة ابن هشام وسيرة ابن سيد الناس ودلائل النبوة بحق روايته عن المشايخ الثلاثة المذكورين بالاسانيد المتصلة المعروفة لهم والآتى ذكرها * فيه وعن الشيخ برهان الدين القلقشندى عن الشيخ عبد الحق السنباطى والشيخ تقى الدين الاوحاقى وعن شيخه وقدوته ومربيه شيخ الاسلام كمال الدين الطويل القادري وعن الشيخ نور الدين المحلى والشيخ المعمر سعد الدين الدهى والشيخ بدر الدين المسهدى واجازنى ايضا شيخنا المذكور بمؤلفات شيخ الاسلام زكرياء ومؤلفات الحافظ الجلال السيوطى خصوصا الاحاديث الثلاث العشاريات التى اجازها بها شيخه الجلال المذكور وسندها عندى بخط شيخنا المذكور من جملة اجازته لى وم ر تقريباً سنة 888 من الهجرة النبوية ومنهم شيخنا القدوة بقية السلف المسند المعمر شرف الدين موسى الشهير بالبلقيني الحنفى قرأت عليه من اول صحيح البخارى الى احاديث الاذان واجازنى ذلك وبقية الصحيح المذكور وجميع ما يجوز له وعنه روايته ومن شيوخه المشهورين العلامة جلال الدين عبد الرحمن السيوطى وقاضى القضاة برهان الدين بن ابراهيم الكركى بكافين اولاهما مفتوحة والثانية مكسورة بينهما راء مهملة ومنهم صاحبنا ورفيقنا فى الفقه محب والذى علم الحديثين صاحب السند المتين الزاكي خلقا وخلقاً الباهر بهاؤه عبداً محمد بن الشيخ محب الدين ابن الامام المحبة عين

م 238

القضات الاخيار أحمد شهاب الدين الفيشى بقاء مكسورة فمثلة تحتية ثم شين معجمة
ثم مثناة تحتية نسبة الى قرية من قرى مصر كان جده من القضات المشهورين بتنفيذ الحق
واظهار سطوة الشرع على الجبابرة وقيل بسيف الشرع عدة وقد عرفنا به فى الديباج وكان
والد ولده شيخنا فى الحديث على حالة حسنة من كمال الدين والخير والصلاح والجميل
مع ايتام المسلمين ومعاملتهم بكل جليل مع الذكاء الثاقب وحال حسن جدا قرأت عليه
اول سيرة شيخه الامام خاتمة المحدثين محمد الشامى الشافعى المسماة بسيل الهلى
والرشاد فى سيرة خير العباد واجازنى بها وبالموطا وصحيح البخارى وما يجوز له
وعنه روايته ومن شيوخه فى الموطا وغيره شيخ الشيوخ الشيخ شمس الدين اللقانى
المتقدم وعبر عنه شيخنا بالقطب والشيخ الامام المعمر الرحلة محمد بن عمر النشيل
والشيخ الصالح ابى حفص عمر العبادى الشافعى شيخ البرقوقية بصحراء القاهرة
ومن اشهر شيوخه فى البخارى او منهمم الشيخ عمر العبادى المذكور بقراءته لجميعه
عليه وشيخ الاسلام احمد بن النجار الحنبلى بقراءة غالبية والشيخ المسند المعمر الرحلة
الشيخ جمال الدين يوسف السالى المشهور بالجمال قرأت عليه المجلس الاول منه الى
كتاب الايمان واجازة لباقيه والشيخ الامام المسند الرحلة المعمر محمد وهو الشيخ
الابودرى المالكي والشيخ الامام المسند الرحلة عبد العزيز الازدى بسماعه المجلس الاول
منه وذكر * شيخنا سنده بما ستقف عليه قال لنذكر بقية السند كما وعدنا فى الكتب
التي ذكرها اما الموطا فقد تقدم اخذنا له عن شيوخنا المتقدم ذكرهم قال شيخنا الشيخ
رين الجيزى وصاحبنا الشيخ محمد القيسى انهما اخذاه عن شيخهما الشيخ ناصر الدين
اللقانى قال الثانى انه قرأه بكماله على الشيخ المذكور وبعضه على شيخه النشيل واجازته به
شيخه العبادى كما مر قالا والشيخ العبادى تلقاه عن قاضى القضات برهان الدين ابراهيم
اللقانى وهو تلقاه عن الحافظ ابن حجر قال الحافظ المذكور اخبرنى به الفقيه نجم الدين
محمد بن نور الدين على بن الامام كمال الدين محمد بن عقيل البالى سماعا عليه قال
اخبرنى به المشايخ زين الدين عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن البتيتى ومحمد بن
على بن محمد بن عبد المجيد الملقى وابو الحسن على بن محمد بن عبد القادر الهمدانى من لفظة
قال اخبرنا به ابو الحسن محمد بن الحسين بن عتيق بن رشيق الربعى وعبد المهيمن
ابن سليمان بن موسى البكرى سماعا الاول سوى من اوله الى قوله الترغيب فى الصلاة
فى رمضان وسوى من قوله يبع المكاتب الى الموطا وسماعا على الثانى كهذين وقال
الملقى اخبرنا به زين الدين محمد بن محمد بن ابى الفتوح الكلاصى وعبد المحسن بن
عبد المحسن فى آخرين وقال الهمدانى اخبرنا به ابو العباس احمد بن ابى القاسم الصقل
وغيره قالوا كلهم اخبرنا به ابو الفضل عبد العزيز عبد الوهاب بن اسماعيل بن مكى

ص 239

الزهرى انا جدى ابو الطاهر اسماعيل بن مكى بن اسماعيل الزهرى اخبرنا به الامام ابو بكر محمد بن الوليد الطرطوشى اخبرنا به ابو الوليد الساجى اخبرنا يونس بن عبد الله بن مغيث الصفار مناولة قال اخبرنا ابو عيسى يحيى بن عبد الله بن يحيى بن يحيى بن يحيى الليثى اخبرنا عمر ابن عبد الله بن يحيى بن يحيى بن يحيى اخبرنا ابى اخبرنا مالك بن انس رضى الله عنه بجميع الموطا سوى ما فاته سماعه على مالك فرواية زياد بن عبد الرحمن المعروف بشبظون عن مالك وكان يحيى بن يحيى قد سمع الموطا من زياد بسماعه من مالك قبل ان يرتحل اليه يحيى بن يحيى رحمه الله تعالى انتهى قال الشيخ السيوطى فى حاشية الموطا فى احاديث الاعتكاف فى حديث من اراد أن يعتكف وهذا فيما فات يحيى سماعه من مالك فى الموطا فرواه عن زياد بن عبد الرحمن المعروف بشبظون وكان ثقة عن مالك وكان يحيى بن يحيى قد سمع الموطا منه بالاندلس ومالك يومئذ حى ثم رحل يستمعه من مالك سوى ورقة فى الاعتكاف لم يسمعها اوشك فى سماعها من مالك فرواها عن زياد عن مالك انتهى المقصود منه هاكذا انقلت هذا السند من خط شيخ شيوخنا شمس الدين اللقانى قال ابن حجر قال لنا التنوخى قال انا ابو حيان رجال * اسناده من شيخنا الى مالك فقهاء مالكيون وقال اللقانى قال ابن حجر واخبرنا بهذا الكتاب غالبا ابو العباس احمد بن عيسى الصقلى فى كتابه الى دمشق قالها (1) ابو العباس احمد بن عيسى الصقلى فى كتاب الينا من مصر قال اخبرنا ابو الفضل الزهرى بسنده وقال اى الزهرى قرأته بمثل هذا متصلا بالسماع ليس فى الطريق اجازة على ابن اسحاق التنوخى بالقاهرة واخبرنا به ابو محمد عبد الله بن محمد بن هارون وقاضى الجماعة احمد بن محمد زاد النشيلي ابن المحسن بن العمار الخزرجى والفقيه ابو محمد عبد الله بن محمد بن هارون الطائى اى بزيادة الطاء قال ابن حجر قال قاضى الجماعة المذكور انا به ابو الربيع زاد النشيلي شيخ شيخنا الفيشى بعد ابى الربيع لفظ الحافظ سليمان بن موسى بن سالم الكلاعى قال اخبرنا به الفقيه ابو عبد الله زاد العبادى شيخ شيخنا الفيشى المذكور قرأت على ابى عبد الله محمد بن ابى الطيب ابن زرقون قال اخبرنا به ابو عبد الله احمد بن محمد الخولانى زاد الفشيلي ابن عبد الله بن عبد الرحمن زاد العبادى قال اخبرنا ابو عمر وعثمان بن احمد اللخمي زاد اللقانى بعد اللخمي انا ابو عيسى عبد الله بن يحيى بن يحيى الليثى انا عمر ابن عبد الله بن يحيى بن يحيى قال اخبرنى به ابى يحيى بن يحيى انا مالك بن انس رضى الله عنه وقال ابن حجر قرأت على شيخنا ابى اسحاق التنوخى عن العلامة امين الدين ابى حيان بن محمد بن يوسف بن على بن حيان اجازة ان لم يكن سماعا انا ابن هارون بسنده المتقيم ايضا وقال ابن حجر قال شيخنا يعنى التنوخى واخبرنا به ابو محمد بن ابى غالب

ص 240

(1) هنا كلمة غير واضحة بالاصل

اجازة انا ابو الحسن بن المقبر مشافهة من ابي عبد الله الحميدى عن ابي عمر بن عبد
البر عن سعيد بن نصر بن قاسم بن اصبح عن محمد بن وضاح عن يحيى بن يحيى بن
فذكره قال انا التنوخى قال انا ابن جان رجال اسناده عن شيخنا الى مالك فقهاء
مدنيون انتهى قال شيخنا القيشى المذكور قال شيخنا النشيلي والابودرى اخبرنا به
شيخ الاسلام قطب الدين ابو الخيرى بن ابي عبد الله محمد الخيضرى والشيخ المسند
احمد بن عبد القادر بن محمد بن طريف بالطاء المهمة وءخره قال الشاوى بشين
معجمة سماعا عليهما خلا يوما فى اوائل المجلس الثالث ما جاء فى ذكر الله تبارك
وتعالى وءخره كتاب الاعتكاف قال القطب اخبرنا الشيخان الامام الحافظ ابو عبد الله
محمد بن ابي بكر ابن ناصر الدين الدمشقى والسيد الشريف العلامة اقضى القضاة زين
الدين عبد الرحمن بن علي ابن زمام الحسن الحنفى سماعا من لفظ الاول لجميعة وقراءة
على الثانى لجميعة خلا الجامع قال اخبرنا العلامة المسند شهاب الدين ابو العباس احمد
بن عمر بن علي بن هلال الربعى المالكى سماعا زاد الحافظ ابن ناصر الدين فقال واخبرنا به
قاضى القضاة ولى الدين ابو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد * ابن خلدون الحضرى م 241
المالكى قراءة عليه من اوله وانا اسمع من اوله الى العمل فى الوضوء ومناولة الباقية مع
الاجازة ح وقال الشاوى اخبرنا به مسند لديار المصرية شيخ القراء ابو اسحاق
ابراهيم بن احمد بن عبد الواحد الشاوى مشافهة ان لم يكن سماعا قال هو وابن
هلال وابن خلدون اخبرنى به الشيخ الامام ابو عبد الله محمد بن جابر بن عبد الوادى
ءانش بمشاة تحتيه بعد ذلك مهمة مهمزة مملودة معجمة سماعا قال شيخنا الفيشى
فوقع بيننا وبين المؤلف من طريق الحافظ ابن حجر عن البالى ثلاثة عشر وعن التنوخى
والخرائط اثنا عشر ومن طريق القطب الحنصرى والعقبى عن القرطبى احد عشر
ومن طريق الشاوى والعقبى عن ابن المعمار عشرة واما سند البخارى فقد تقدم اخذه
عن جماعة واخذ شيوخنا كما تقدم الشنشورى عن الحافظ عثمان الديمى وعنه اخذ الشيخ
ناصر الدين المتقدم هذا الصحيح وله اعنى الحافظ الديمى فيه طريقان احدهما عن
شيخه الحافظ ابن حجر والثانية عن ابن طريف الشاوى عن الحافظ ابي الفضل العراقى
كما نبها شيخ شيوخنا العلامة المحقق ناصر الدين اللقانى المالكى اليه ووجدت الطريق
الاول بخط فريد وفيه الشيخ احمد بن الشبلى الحنفى معزيا ذلك الى الشيخ ناصر الدين
المذكور فى اجازته لاميير المومنين المتوكل على الله محمد العباسى قال اجزت له ان
يروى عنى جميع صحيح البخارى رضى الله عنه بروايتى له عن عدة من المشايخ منهم شيخ
الحفاظ فى عصره ابو عمرو عثمان الديمى تغمده الله برحمته قراءة عليه لبعضه واجازة
لباقيه قال اخبرنى به جماعة من المشايخ منهم حافظ العصر وفريد الدهر شهاب الدين ابو

الفضل احمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن محمد العسقلاني الكتاني الشافعي رحمه الله تعالى قال أخبرني به جماعة من المشايخ ابي اسحاق ابراهيم بن عبد الواحد التنوخي قال أخبرني به سند الافاق شهاب الدين ابو العباس أحمد بن ابي طالب ابن ابي النعم نعمة بن بيان الصالحى قال أخبرنا به ابو عبد الله الحسين بن المبارك بن محمد بن يحيى الترملى قال أخبرنا به ابو الوقت عبد الاول بن عيسى الهروى قال أخبرنا به جمال الاسلام ابو الحسن عبد الرحمن بن محمد بن مظفر الداودى قال أخبرنا به ابو محمد عبد الله بن أحمد بن حمويه السرخسى قال أخبرنا به ابو عبد الله محمد بن مطر بن صالح ابن بشر الفربرى بفربز قال أخبرنا به مؤلف الامام العلامة الحافظ المجتهد الحجة ابو عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم البخارى قال الشيخ اللقانى ومنهم اى من مشايخه فى الصحيح شيخ الحفاظ والمحدثين الشيخ جمال الدين القلقشندى الشافعي ومنهم شيخ الاسلام والمسلمين ابو اسحاق ابراهيم اللقانى المالكي ومنهم الشيخ الامام * المحقق شمس الدين ابو عبد الله محمد بن قاسم الشافعي اسانيدهم الى البخارى بالطريق الاولى والطريق الثانى للديلمى عن ابن طريف كما رأيت ذلك بخط الشيخ ناصر الدين اللقانى فى اجازة الجنابى الشهابى احمد بن محمد العبادى سبط الشيخ الفهامة محمد الافقهسى قال اجزت له أن يروى عنى جميع الجامع الصحيح بروائى عن شيخنا الامام فخر الدين ابي عمر وعثمان بن محمد بن عثمان بن محمد بن ناصر الديلمى الشافعي تغمده الله برحمته بقراءتى عليه لبعضه واجازته لباقيه بقراءته لجميعه على السند ابي العباس احمد بن طريف الشاوى قال أخبرني به الحافظ ابو الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقى ورفيقه الحافظ ابو الحسن على الهيثمى والعلامة المقرئ ابو اسحاق ابراهيم التنوخي والخطيب ابو الحسن على بن ابي المجد الدمشقى قال الاول أخبرنا الشيخ ابو على عبد الرحيم بن عبد الله بن يوسف الانصارى عرف بابن شاهد الجيش سماعا قال أخبرنا به المشايخ الثلاثة ابو العباس أحمد بن علي بن يوسف الدمشقى وابو الطاهر اسماعيل بن عبد القوى بن عزوز وابو عمر وعثمان بن عبد الرحيم بن رشيق سماعا عليهم لجميعه سوى من باب المسافر او اخذ به السير يعجل الرجوع الى اهله فى اخر كتاب الحج الى كتاب الصيام ومن باب ما يجوز من الشروط فى الجهاد ومن باب غزو المرأة فى البحر الى باب دعاء النبى صلى الله عليه وسلم الى الاسلام فاجازه بسماع الثلاثة من الشيوخ ابن القاسم هبة الله بن علي البوصيرى وابن عبد الله بن حمد الارتاحى قال البوصيرى أخبرنا به ابو عبد الله محمد بن بركات بن هلال النحوى سماعا وقال الارتاحى أخبرنا به ابو الحسن على ابن الحسين بن عمر الفراء اجازة قالا أخبرتنا ام الكرام كريمة ابنة أحمد المروزية قالت أخبرنا به ابو الهيثم

ص 242

محمد بن مكي الكشهيني ح وقال الهيثمي قرأته على الشيخ مظفر الدين محمد العسقلاني قال اخبرني به ابو عبد الله محمد بن ابي بكر الصقلي ح وقال التنوخي وابن ابي المجد اخبرنا به ابو العباس احمد بن ابي طالب الصالحى الحجار سماعا قال التنوخي لجميعه وقال ابن ابي المجد للثلاثيات منه ومن كتاب الاكراء الى آخر الصحيح واجازة منه بسائره زاد فقال واخبرتنا به أم محمد ووزير التنوخية سماعا وقاضى القضاة تقى الدين سليمان بن حمزة بن ابي عمر وابو بكر بن محمد بن عبد الدائم وابو المعالى عيسى بن المطعم وفاطمة بنت عبد الرحمن بن عمرو الفراء قالوا كلهم وكذا الصقلي واخبرنا به ابو عبد الله بن الحسين بن المبارك الزبيدي قال الصقلي والحجار ووزير وابن عبد الدائم سماعا لجميعه وقال الباقر حضورا قال التقى سليمان لجميعه وقال المطعم لما عدا من باب تحويل الاسم الى اسم احسن منه الى باب الرقاق لاعيش * الاعيش الاخرة وقالت 243 م فاطمة لقطعة منه وهى من باب الركاب والعرر للدابة الى باب نسبة اليمن الى اسماعيل زاد الحجاز والتقى سليمان وابن عبد الدائم والمطعم فقالوا واخبرنا به ابو الحسن محمد القطيعى وعلى بن ابي بكر بن روزية القلانسي اجازة وزاد الحجاز والتقى والمطعم فقط فقال واخبرنا به ثابت الجندی وعمر بن كرم الدينورى ومحمد بن زهير شعرانه ومحمد بن عبد الواحد المدينى اجازة قال الثمانية اخبرنا به ابو الوقت عبد الاول الهروى سماعا لا (1) اللقى فمن باب غيرة النساء ووجدن الى آخر الكتاب واجازة لسائره قال اخبرنا به ابو الحسن عبد الرحمن المظفر الداودى قال اخبرنا به ابو محمد عبد الله بن حموية السرخسى بسماعه هو والكشهيني اخبرنا به ابو عبد الله محمد بن يوسف بن مطر الفربرى قال اخبرنا به مؤلفه الحافظ المجتهد ابو عبد الله البخارى قلت تقدم ان شيخنا الفيشى اخذ الصحيح عن الشيخ ابي حفص عمر العبادى والعبادى اخذه عن ابن طريف الشافعى فساوى شيخنا المذكور وشيخه الشيخ اللقاني فى الشاوى فى ان كلا منهما بينه وبين واحد وكذا شيخنا سيدى محمد الحنفى اخذ عن الشيخ عبد القادر الشاذلى وهو عن الشاوى وتقدم ايضا لشيخنا الفيشى المذكور انه اخذ عن الابى درى وهو اخذه عن ثمانية وعشرين شيخا بقراءة الحافظ عثمان الديلمى منهم جدى اقضى القضاة محمد شمس الدين القرافى تلميذ البساطى واحضرت فيه الفتوى بعده وقد ذكرته فى ذيل الديباج وما له من مزايا وجدى هذا اخذ عنه الصحيح العلامة عبد العزيز السنباطى المتقدم شيخ شيخنا الشيخ نجم الدين الفبطى وجدى المذكور اخذ عن المعمر المسند الشيخ شرف الدين ابي الطاهر محمد بن ابي اليمن عز الدين محمد بن

(1) بياض بالاصل .

التومك الربعي سماعا عليه الثلاثيات من الصحيح واجازة لسائره عن المسند أم محمد زينب (1) الرحمة بن عبد الرحيم المقدسية مكاتبه منها قالت انبأنا عبد الخالق بن الانجب الشيتري عن ابي بكر وجه بن طاهر بن محمد السحامي عن ابي سهل محمد بن احمد الحفصي عن ابي الهيثم محمد بن الكشمهيني انا ابو عبد الله محمد بن يوسف بن مطر بن صالح بن بشر الفربري سماعا قال انا به مؤلفه محمد بن اسماعيل البخاري سماعا عليه مرتين مرة ببخارى ومرة بفربر انتهى ورجاله اقل عددا مما قبله وسند الحافظ السيوطي فيه تقدم اخذ عدد من شيوخنا عنه وقال اعني الحافظ السيوطي اخبرنا بصحيح البخاري الشيخ جلال الدين ابو الفضل عبد الرحمن بن احمد القمصي بقراءتي عليه من كتاب البيوع والمسند لحب الدين ابو عبد الله محمد بن علي العلبي المعروف بابن الالواحى بقراءتي عليه من كتاب * البيوع الى آخر الصحيح واجازة منها بسائره قالوا اخبرنا به ابو الحسن علي بن محمد بن محمد بن ابي المعجد الدمشقي سماعا لجميعه قال الثاني الا من قوله باب من خص بالعلم قوما دون قوم الى باب هل يخرج من الميت من القبر بعده فاجازة قال اخبرتنا به وزيرة بنت عمر بن سعد بن المنجا التنوخية قالت اخبرنا به ابو عبد الله الحسين بن المبارك بن محمد بن المظفر بن داود بن الداودي قال اخبرنا به ابو محمد عبد الله بن حموية الحموي قال اخبرنا به ابو عبد الله محمد بن يوسف الفربري قال اخبرنا به البخاري واما صحيح مسلم فقد تقدم اخذ شيوخنا المذكورين له ومنهم الشيخ محمد الحنفى قال ارويه سماعا لبعضه واجازه لباقيه عن جماعة من المشايخ منهم شيخنا الحافظ الجلال السيوطي قال اخبرنا به شيخ الاسلام علم الدين البلقيني سماعا لبعضه واجازة لباقيه وشيخنا العلامة تقي الدين ابو العباس احمد بن الشيخ كمال الدين محمد السمشي سماعا عليه بمجالس من اوله واجازة لسائره قال البلقيني اخبرني والدة اجازة انه لم يكن سماعا قال اخبرنا العلامة شمس الدين ابو عبد الله محمد بن ابراهيم بن القحام الشافعي سماعا عليه من اوله الى حديث ابي مسعود الانصاري انبأنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحديبية اثر سما كانت من الليل الحديث الى الحديث الذي فيه خروج الموحدين من النار ما جازه منه للقول ولباقى الكتاب قال شيخنا البلقيني وانا به غالبا ابو اسحاق التنوخى عن ابي الفضل سليمان بن حمزة عن ابي الحسن علي بن الحسين بن المعتز عن الحافظ ابي الفضل محمد بن ناصر السلامي عن الحافظ ابي القاسم عبد الرحمن بن ابي عبد الله برسده عن الحافظ بن بكر بن عبد الله ابن محمد بن زكرياء بن الحسن الخورفي عن

ص 244

(1) بياض بالاصل .

ابن الحسن مكي بن عبدان النيسابوري عن الامام القدوة مسلم قال الحافظ بن حجر هذا السند في غاية العلو وهو جميعه بالاجازات وتقدم اخذ شيخنا الشيخ نجم الدين الفيطي له عن اخذ شيخ الاسلام زكرياء قال قال شيخ الاسلام زكرياء انا بصحيح مسلم المشايخ الاسمية الحافظ الرحلة ابو القيم رضوان العقبى وامام المحققين ابو عبد الله القاياتي وحافظ العصر الحافظ احمد بن حجر ومسند الوقت ابوذر عبد الرحمن الزركشي قراءة على الاول وسماعا على الباقيين قبل القاياتي لجميعه وعلى الآخرين اولهما للكثير وثانيهما لبعضه وقال يعنى الشيخ زكرياء وقال شيخنا الثانى انا به الحافظ يعنى ابن حجر قال ابن رضوان وابن حجر انا به ابو الفضل الربيعي سماعا لجميعه بقراءة ثانيهما وشيخ الاسلام ابو حفص عمر البلقيني سماعا للاولى لبعضه واذا للثانى زاد ابن حجر فقال واخبرنا به ابو الحسن محمد الالسي سماعا لجميعه وقال القاياتي انا به امام المصنفين الشراح عمر بن علي الانصارى عرف باللقن * ادنا قلوا انا به الزين عبد الرحمن بن عبد الله الهادى الحنبلى سماعا لجميعه الا البلقيني فلبعضه قال انا به ابو العباس احمد بن عبد الدائم بن احمد المقدسى سماعا لجميعه ح قال الزركشي وهو اعلم ممن تقدم انا به ابو عبد الله بن ابراهيم الخزرى البياني سماعا قال انا به الشريف ابو الفضل هبة (1) بن تاج الامناء ابن عساكر المشقى قال (2) وابن عبد الدائم انا به المويدين بن محمد الطوسى اذنا قال انا به فقيه الحرم ابو عبد الله محمد بن الفضل بن احمد الفراءى سماعا قال اخبرنا به ابو احمد محمد بن عيسى الجلودى سماعا قال انا به ابو اسحاق ابراهيم بن محمد بن شعبان الفقيه الزاهد سماعا قال انا به مؤلفه الامام مسلم ولم نستوعبه السنة في هذه الكتب الثلاثة من طريق شيوخنا المذكورين لتعدد شيوخهم خشية الاطالة

ص 245

الفصل الثانى

فى سلسلة الفقه الموصلة الى الامام مالك بن انس امام دار الهجرة رضى الله تعالى عنه من طريق شيوخنا المالكية وسياتى من طريق شيخ الاسلام زكرياء الانصارى المتقدم سلسلة اوائلها شافعية وما بعد ذلك مالكية اما من طريق شيوخنا المالكية فقد اخذنا الفقه عن جماعة من الشيوخ الا ان اكثرهم نفعا لنا شيوخ الوقت فى الفقه وهم المشايخ الاربعة المتقدمون وهم والذى يحيى بن عمر بن احمد بن يونس الانصارى وينتهى نسبه الى سيد الخرج سعد بن عباد واشتهر بالقرافى شهرة جده من ذرية المولى الكبير والعارف الشهير عبد الله بن ابي حمزة الازدى نفعا الله بمدده والشيخ عبد الرحمن الاجهورى والشيخ عبد الرحمن التاجورى والشيخ زين الجيزى نور الله مرقمهم وطيب مشهدهم وهم اخذوا عن عدة من الشيوخ اجلهم قهها

(1) بياض بالاصل .

(1) هنا كلمة غير واضحة بالاصل

الشيخ المدعو شمس الدين بن حسن اللقاني المتقدم ذكره وهو اخذ عن الشيخ الامام الورع الزاهد مفتي المسلمين نور الدين السنهاوري والسنهورى اخذ عن الشيخ العلامة القدوة مفتي المسلمين زين الدين عبادة بن علي بن صالح بن عبد المنعم الانصارى الخزرجى القاهرى والشيخ عبادة اخذ عن قاضى القضاة جمال الدين عبد الله بن مقداد بن اسماعيل بن عبد الله الاخفهمسى المعروف بالاقفص شارح الرسالة والمختصر والاقفهمسى اخذ عن الشيخ الامام الحجة الفهامة قاضى القضاة تاج الدين ابى البقاء بهرام بن عبد الله بن عمر بن عبد العزيز الدميرى القاهرى شارح مختصر الشيخ خليل وصاحب الشامل والتصنيفات العديدة واخذ الشيخ بهرام عن شيخ المذهب وحامل لوائه الناظر الى مسائله كانها مجموعة بين يديه الواقف على نقول الذهب كانها محصلة لديه الامام الزاهد ضياء الدين خليل بن اسحاق بن موسى القاهرى الشهير بالجندى صاحب المختصر فى الفقه وشارح ابن الحاجب الفرعى والمتكلم على بعض المدونة وهو تفقه بالشيخ الامام العالم * العامل الزاهد ولى الله تعالى ابى محمد عبد الله بن سليمان المنوفى صاحب الكرامات الكثيرة والافاضات الجميلة الشهيرة وهو تفقه بشيخ المالكية فى زمانه العلامة ركن الدين ابن القوبع بالقاف فوار بعدها موحدة ثم عين مهملة وبالشيخ الامام شمس الدين محمد بن ابى القاسم التونسى مختصر تفسير ابن الخطيب كذا ذكره الشيخ خليل المذكور زاد الحافظ شيخ الاسلام ابن حجر فى كتابه الدرر الكامنة فى ابناء المائة الثامنة فى مناقب شيخه الشيخ ابو عبد الله المتوفى ان ابن القوبع تفقه بالشيخ يحيى بن الفرج بن زيتون والشيخ شمس الدين التونسى وان حسس وابن النابلس ولا ذكر شيخ شيوخنا الشيخ شمس الدين اللقاني المذكور سنده من شيخه البرهان اللقاني الى الشيخ خليل كتب الى قاضى القضاة برهان الدين الدميرى المالكي فى اتصال السلسلة من الشيخ خليل الى الامام مالك فلم يجبه كذا وجدته بخط سيد الشيخ شمس الدين المذكور وهو عندي لکن رايت فى سند قاضى القضاة بمكة المكرمة نجم الدين ابن يعقوب تخريج العلامة المحدث نجد محب الدين المدعو جار الله من الحافظ عز الدين بن عبد العزيز بن الحافظ نجم الدين عمر بن الحافظ تقى الدين محمد بن فهر الهاشمى المكي الشافعى الذى سماه شفاء القلوب لمرويات قاضى القضاة نجم الدين بن يعقوب قال بعد ان ذكر السند المتقدم الى الشيخ عبد الله المنوفى وترك بياضا يسيرا ثم ذكر السلسلة من الامام الحجة ابى محمد عبد الكريم بن عطاء الله السكندرى الى الامام كما سندكره فكتب على التخريج المذكور الشيخ المحدث الحافظ شمس الدين محمد الداودى تلميذ شيخ الاسلام الحافظ الجلال السيوطى انه يقال ان المنوفى اخذ من ابن عطاء الله وهو قريب لقرب زمن الشيخ عبد

الله المنوفى من الشيخ ابن عطاء الله انتهى وإن كان الشيخ خليل لم يذكره من مشايخ شيخه إذ لا حصر في عبارته قلت قال شيخ شيوخنا الشيخ شمس الدين اللقاني كما وجدته بخطه والشيخ خليل رفيق اخذ معه عن الشيخ عبد الله المنوفى وهو أحمد بن عمر بن علي بن هلال الريعى نسبة الى ربيعة الفرس بن نزار بن معد بن عدنان المتقدم فى سند الموطا تفقه على ابن هلال المذكور قاضى القضاة أحمد فخر الدين المخلطة وفخر الدين تفقه بجماعة منهم الفقيه الجليل ابو حفص عمر بن فراح السكندرى وابن فرح تفقه بجماعة منهم ابو محمد عبد الكريم بن عطاء الله السكندرى وتفقه ابن عطاء الله بجماعة منهم الاستاذ المحقق ابوبكر الطرطوشى وتفقه الطرطوشى بجماعة منهم العلامة الحجة القاضى ابو الوليد سليمان بن خلف الباجى وتفقه الباجى بجماعة منهم المقرئ الاديب ابو محمد مكى بن ابى طالب بن مختار العيشى الاندلسى وتفقه مكى بجماعة منهم الامام القدوة الورع الزاهد جامع مذهب مالك وشارح اقواله ابو عبد الله محمد بن ابى زيد عبد الرحمن القيروانى * صاحب الرسالة وتفقه ابن ابى زيد بجماعة منهم الامام الزاهد احد الحفاد الملودين والفقهاء المبرزين ابو بكر محمد بن اللباد بن وشاح اللخمى الافريقى الشهير برأيه وتفقه بن اللباد بجماعة منهم امام القدوة الزاهد الموصوف باجابة الدعاء يحيى بن عمر بن يوسف بن عامر الكتانى العلوى الافريقى صاحب كتاب اختلاف ابن القاسم واشهب المعروف بابن عمر وتفقه يحيى بن عمر بجماعة منهم الامامان الحجة الزاهد ابو سعيد عبد السلام المدعو سحنون باسم طائر لحدته فى المسائل ابن سعيد بن حبيب التنوخى الافريقى والامام العلامة القدوة ابو مروان عبد الملك بن حبيب بن سليمان الاندلسى وهما تفقها بجماعة منهم الامامان الجليسان القتيهان ضابطا المذهب ابو عبد الله عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جنادة المعتقى المصرى والعلامة الزاهد ابو عمر اشهب ابن عبد العزيز بن داوود بن ابراهيم القيسى العامرى الجعدى وهما تفقها بامام دار الهجرة النبوية الحجة المجتهد ابن عبد الله مالك بن انس رضى الله تعالى عنه وهو تفقه بالامامين ربيعة ونافع وتفقه ربيعة على سيدنا انس بن مالك ونافع على سيدنا عبد الله بن عمر رضى الله عنهما وهما ممن اخذ عن سيد المرسلين وامام المتقين وقائد الفر المحجلين الى جنات النعيم ابى القاسم محمد الامين صلى الله عليه وسلم وعلى آله الاكرمين وصحبه الطاهرين ورضى الله عن سائر الائمة المجتهدين واما طريق شيخ الاسلام زكرياء فاروى عن شيخنا الصالح المعمر يوسف المدعو جمال الدين المتقدم ولد شيخ الاسلام زكرياء الانصارى صاحب حاشية تفسير القاضى البضاوى وشارح البهجة وغيرها من المؤلفات الفريدة عن والده المذكور بالسند الاتى ذكره فيه بالكتب التى تذكر فيه فالمدونة قال الشيخ زكرياء اخبرنى بها ابو عبد الله القاينى اذا

ص 247

عن أبي حفص البلغيني أنبأنا العبد المذنب أبو علي الأنصاري عن أبي القاسم محمد بن محمد بن سراج العامري أنبأنا أبو القاسم أحمد بن يزيد بن تقي أخبرنا محمد بن عبد الرحمن الخزرجي أخبرنا محمد بن الفرج مولى ابن الطلاع أخبرنا أبو عمر أحمد بن محمد بن عيسى عن عبد الرحمن بن أحمد التجيبي عن أبيه عن أحمد بن خالد بن يزيد عن محمد بن وضاح عن سحنون وأما الرسالة قال الشيخ زكرياء أخبرنا أبو إسحاق الصالحى أذا عن الفقيه أبي عبد الله محمد بن عرفة أنبأنا أبو عبد الله محمد بن عبد الخالق عن ابن عبد الله محمد بن فرج مولى ابن الطلاع عن مكى عن أبي طالب وأبي عبد الله بن عابد كلاهما عن ابن أبي زيد وأما مختصر ابن الحاجب الفرعى قال اعنى الشيخ زكرياء أخبرني أبو الفتح محمد المرامى أذا عن أبي طلحة الحدادى أنبأنا الشريف أبو أحمد الدمياطى عن أبي عمر بن الحاجب وأما مختصر الشيخ خليل قال * الشيخ زكرياء أخبرني به أبو النعيم العقبى وغيره أذا عن البدر حسين البوصيرى أخبرنا به مؤلفه أذا وكان خاتمة أصحابه فذكره انتهى فاستفده الخاتمة أحسن الله تعالى الخاتمة وجعلها لكل سوء حاسمة وإفاض الله تعالى على هذا المجد العالى والشرف العالى وإدام لديه مزايا جليل المسالك وحرس مهجته ودولته وأبقى رفعة وصولته بعزرة النبى والملائك وقد تقرر فى كتب الحديث ان السند خصوص هذه الامة وشرفها فى القديم والحديث وهو نعمة وإى نعمة وسلسلة عالية تتصل بمن هدى الى الخير وسنة عالية بالوفاء لمن روى حديثا تقام به سنة او ترد به بدعة فله الجنة وقد اجاز الائمة الاجازة بالكتابة ورغبوا فى الانابة وتحصل الاصابة لتكون هذه الفضيلة الجليلة والحالة الجميلة متصلة غير مقطوعة مرفوعة غير موضوعة وجرى على ذلك أمائل العلماء واجلاء الكمال النبلاء وحازوا من ذلك اجرا وافرا وثوابا فاخرا وقد طلب من هذا الفقير سلوك هذا الطريق وان اكون من هذا الفريق وسند باهل الاجازة انما قضى الموت مرقى (1) الاما جد وقد رغب ولى الامر أيد الله به الدين وقمع به الطغاة والتمردى فى لقاء هذه السلسلة وطلب ازديادها ودوام الخير المستمر والاجر المستقر فتوجهت الى هذا الامر الجليل والشأن الجميل رجاء الاجر الجزيل واجزات جناب عن الاسلام والمسلمين عون المظلومين غوث المكروبين قاطع دابر المارقين والكافرين مؤيد الدين سيف الله القاطع وسنانه النافذ اللامع ونوره المستبين حضرة امير المؤمنين مولانا احمد سلطان القطر المغربى الموهى اليه فى طى هذا الكتاب والمنعوت بجليل الوصف المستطاب فى هذا الخطاب لازال بعزة الجذاب بالفاتحة الشريفة بالطريق المذكورة المنيفة والموطا وصحيح البخارى ومسلم وباقي الكتب الستة والشفا والسيرة المذكورة وسيرة ابن سيد الناس وفقه خليل وجميع ما يجوز لى وغنى زوايته من مقروء مسموع ومجاز ومناولة ووجارة ووصية كتابة مراسلة وفروع

(1) هنا كلمة غير واضحة بالاصل

واصول ومعقول ومنقول وتأليف وتخريج منقول من كتب تفسير وقرآن وكتب حديث وصحاح وسنن ومسانيد ومعاجم ومستخرات وسير ومغازي واصول وكلام وتصوف ووعظ وتواريخ ودواوين خطبية وشعرية وقصائد مفردة نبوية وغيرها مما هو في ولقيى وقلم ونثر وبما لي من مؤلفات لفتها وجمعتها وضممتها وربتها ارجوا من الله سبحانه ان تكون لقاصدها مؤلفه وان لا تكون في شؤونها مختلفة اذ ليس كل من اقف ولا كل من تحلى بحلية وصف خصوصا عند اختلاف الغرض * وما يكون لها عرض والمدار على حسن النية وخلوص الطوية فمنها ما تم وهو شرح مختصر الشيخ خليل الذي حميته عطاء الله الجليل الجامع لما عليه من شرح جميل وحاشية القاموس المسماة بالقول المانوس وشرح ديباجة القاموس مؤلف مستقل لم اقف على من كتب على ذلك شرحا مستقلا واجوبة حوادث فقهية وهي احكام التحقيق باحكام التعليق والدرر النفائس في هدم الكنائس واداء الامانة بالتزام ما اشترط عن اسقاط الحصافة وهي من افراد قاعدة اسقاط الحق قبل وجوبه وقد حصل منها الدمامين شيئا ونظمها وزاد الثناء اربعا وكملت على ذلك الى ان اوصلتها ثلاثين ونظمتها وشرحتها والدرر المنيعة في الفراغ عن الوظيفة والدرر المنثورة في هبة السيد لام الولد والمدبرة الى غير ذلك من الاجوبة التفسيرية وغيرها مما وقع فيه البحث بين فضلاء بلدنا ومن ذلك هداية السالك بمعرفة شراح مدونه الامام مالك وذيل الديباج وحلية الابتهاج تكملة طبقات ابن فرحون ومسا شرعت فيه وارجو الله سبحانه اتمامه شرح الموطا وقد رابت الامام في النوم في واقعة طويلة وسألته قراءته فاجاز لي ذلك وشرح التهذيب وجل القصد منه تعيين المشهور خصوصا ما ذكره الشيخ ابو الحسن الصغير من الخلاف في تقييده المشهور وبعض تقايد على اوائل ابن الحاجب والمذيل على حاشية الحلبي لسيرة ابن سيد الناس وهي حاشية جليلة وبهجة النفوس في المحاكمة بين 'الصحاح والقاموس فيما نسبته صاحب القاموس الى الجوهرى من الوهم وغير ذلك من منثور ومنظوم وسائر ما يصح اسناده الى عما تلقينه عن اساتذتي وشيوخى واولياء تمكنى ورسوخى مما يصح اسناده اليهم من معلومات او تتوقف فيه الرواية عليهم من مقاديرهم ومولدى في ليلة السابع والعشرين من رمضان عام تسع وثلاثين وتسعمائة كما سو بخط والدى واسئل الله لي حسن الخاتمة ولكن دعى لي بها اجازة عامة مطلقة تامة بشرطها اعتبر عند اهل الاثر متلفظا بها عند كتبي لها ومتبعا سنن الاكرمين من اهلها وقلت :

ولو كان علمى شربة لسقيته	وبالقت في فعلى لتحصيل قصده
ولم لا وقد جاء الزمان بمثلته	ورغبته في العلم مد لسعده
قدم وابق وانشر مكرمات جليلة	وصل واستظل وارغم علوا بصده

بقيت بقاء نستمد ظلاله ودمت جمالا للزمان ورفده

وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه انيب ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ربنا لاترغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك انت الوهاب ربنا * عليك توكلنا واليك انبنا واليك المصير اللهم اني اعوذ بك من علم لا ينفع وقلب لا يخشع ودعاء لا يسمع ونفس لا تشفع اعوذ بك من شر هؤلاء الاربع اللهم اني اسئلك ولهذه الحضرة العلية توفيقا في العلم والعمل يستمر اقباله واسعاذا يحفظنا من الخطا والخلل يتوالى اجلاله واقبالا من فيض الفضل العلي يزيد نواله ويزين كماله وخاتمة تبلغ الى السعادة الاخرية وحالة توصل الى الاستناد الى جناب الحضرة القاسمية المصطفية ورتبة في جنات النعيم وفي حال (1) ولي ذلك والقادر عليه والمرشد الى الخير والسابق اليه وصلى الله وسلم على سيدنا محمد امام المرسلين وخاتم النبيئين وعلى جميع الانبياء والمرسلين وعلى ءاله وصحبه الطيبين الطاهرين الاكرمين وكان الفراغ من هذا التقرير والتحرير في اوائل جمادى الاولى سنة (1000) الف من الهجرة النبوية الهاشمية قال ذلك وكتبه العبد الفقير محمد بدر الدين بن يحيى بن عمر بن أحمد بن يونس الشهير بالقرافي المالكي من ذرية ولي الله القطب الكبير عبد الله بن ابي حمزة الازدي نفعنا الله تعالى بامداداته وخلواته ءامين ءامين .

ذكر منظوماته ايده الله وأدبياته الرائعة

أقول ان هذا الامام ايده الله تعالى وان كان في سائر العلوم علما تأتم الهدات به فلا كفن الادب فهو الروض الذي لاتزال طيور أفكاره صادحة على أريكة وشموس احسانه بازغة من فلكه وروحه الزكية سارحة في رياضة كارعة في حياضه لا تكاد دواوينه تفارق راحته ولا يروى في غير واديه انسه وراحته حتى تملأ من حفظ اللسان وتضلع واشرق من ثنيات الانسان وطلع وجلا فكره كل مخدرة تستلب قلوب البرايا لاجرم هو ابن جلا وطلاع الثنايا فهو ايده الله اخذ من شرف الشعر باسمه وتعرف على حكمه آية في قرضه ونقده وحله وعقده حسن الاختراع لطيف التوليد غريب المنزع قد نازع راية السبق في هذا المضمار فحول الخلفاء والامراء والابناء من قومه واسرته من ءال علي والعباس ومروان كالرشيد بن المهدي والواثق ابن المعتصم وعبد الله بن المعتز العباسيين وسليمان بن الحكم المرواني الخليفة الذي كان بقرطبة وتميز بن المعتز من الشيعة الخلفاء بمصر ولئن تقدموه ايده الله زمانا فما تقدمون احسانا بل ربما كان أسلس عنانا واحد لسانا وسنانا والطف اشارة واجزل عبارة بالفاظ لو هاجت البحر لاعذبته ومعان لو واجهت دجى الليل لازاحته وسيشهد لما ذكرت شاهد عدل مما اجره * من كلامه الذي يعد من السحر وله الانفراد بالبراعة في علم المعنى من فنون الشعر ومعرفة طرقه

(1) هنا كلمة غير واضحة بالاصل

واسمائه واللقابه وهى طريق يدق على الخواطر سلوكها ولا يهتدى اليها من العقول الا ملوكها
وقد رأيت ان اعول فى اثبات ما له من ذلك ايده الله وترتيبه على تقييد شريف بخطه
الكريم وقد تكلم فيه على بعض مآخذه والموازنة بين كلام القوم وكلامه واذا انتهى
الى بيت من ابيات المعنى شرع بتفسيره لاهل الادب بابه حتى يطلعوا على ما اشتمل عليه
من المحاسن ويعلموا بذلك فضل اهل البيت وقد قسم ايده الله المنظوم المرتب الى الابيات
المزدوجة والمثلثة والمربعة والمقطوع ونصه بسم الله الرحمن الرحيم قال ايده الله من
اوليات شعري ما قلت فى وردة مقلوبة بين يلى محبوبة

ووردة شفعت لى عند مرتهنى راقى وقد سجدت لفاتر الحدق
كان خضرتها من فوق حمرتها خال على خده من عنبر عبق
ومن يعلم الخال العبرى الذى يوضع على الخلود يعلم عقم هذا التشبيه ولى وصف
رفيب ملازم :

رفيبى كان فى الارض مرآة شخصه قايى تولى الطرف منى يسراه
مقيم بوجه الوصل حتى كانها وصالى هلال والسواد صده
وفى غير ذلك المعنى :

ايا روضة ضنت على بزهرها ولم يتلق ناظر اى سناك
ابحى لنفسى من شلاك بقاءها اذا فت طرفى على انفى يراك
وهذا مأخوذ من قول الشريف الرضى:

عار صار فى ركب الحجاز وسله فمتى عهدى باكناف جمىع
واستملا حديث من سكن الحنيف ولا تكتباه الا بدمعى
فانى ان ارى الديار بعيىنى فاعلى ارى الديار بسمعى
وهو مأخوذ من بشار قوله

قالوا بمن لا ترى تهلى فقلت لهم الاذن كالعين توفى القلب احيانا
وانت اذا تأملت هذا وجدتنى اقنع بالقليل من الرضى وبشار وذلك ان من
يحدثهما يصف لكل منهما حبيبته واين هو وباية حال تركه فيتعلل بذلك وقد قيل
يكفى المحب من الحبيب قليل وينوب عن شخص الحبيب خياله

انه لم يكنه فانه تمثيل * وما متعت به انا لا يغنى فتىلا وما هو الا كما قال
الارجانى ص 252

سال الصدى عنه واصفى للصدى كيما يقول فقال مثل يقاله
ناداه اين ترى محط رحاله فاجاب اين ترى محط رحاله
وقد علمت ان الشم انما يحصل بواسطة تكييف الهواء المتصل بالخيشوم بتكييف

الرائحة لا بطريق نقل الرائحة من ذى الرائحة الى الهواء لاقتناع انتقال الاعراض وقول
ايحي لنفسى بقاءها التى هى الرائحة ولا بقاء لها بغيره ليس كقول الرضى ولا تكتباه
الا بدمعى ومن المزدوج ايضا

على جدول غطت بشعرها ليلا يرى الشمس القريبة لى طرف
فبت ارى فى جدول بدر وجهها غريقا ونقطات العبير به كلف
ومنه وهو فى التجنيس المركب :

لما ناي المحبوب رق لى الدجا واتى يعلننى بزهر كواكبسه
اول غراب الليل ودك يا حشا البين مرى الصباح كواكبسه
ومنه ايضا وقد جرى ذكر بيتى الواثق وقوله ولو درى حل به الويل
طرفت حماه والاسود فوادره فتولى فى الظبا وهو يبعد
فعلمت آساد الثرى كيف تقدم وعلم غزلان النقى كيف تشرد
وفى طريق التعمية فى اسم نسيم :

يا هلالا طلوعه بين حجبى وغزالا كناسه بين جنبى
ان سهما رميت غادرهما لو تناهى ما شك آخر قلبى

فقولى ان سهما تنصيص وغادر هما اسقاط وهو اشارة لاسقاط هما من هذا
الاسم وقولى لو تناهى انتقاد والانتقاد هو اشارة الى الكلمة ليؤخذ جزء
الاسم المطلوب كان يذكر الوجه او الصدر او التاج الصافى والرأس ويريد به الحرف الاول
من الكلمة او يذكر القلب والجوف والحشى والخصر ويريد به الوسط او يذكر الآخر
والمنتهى والختام ويريد به آخر الكلمة فقولى لو تناهى معناه انه اخذ لفظة هم غير متناهية
ايضا اردت باخر قلبى الياء ايضا لتسمية فبقيت الميم من هم وقولى ما شك آخر قلبى
وهو ان تذكر الاسم وتزيد المسمى او تذكر المسمى وتريد الاسم وقد تم الاسم واعلم انهم
لم يشترطوا فى استخراج التعمية بطريق التعمية حصولها بحركاتها وسكناتها بل
اكتفوا بحصول الكلمة من غير ملاحظة هيئتها الخاصة فاذا وقع ذلك فمن المحسنات*
ويسمى العمل التديلى وفى اسم غزال وهو ما جمع بين تعمية ولغز : واملد مطوى الحشا
زال ردفه فلا خصر الا ان تصورته وهما

ص 253

بنصف اسمه يرمى القلوب وعكس ما بقى ابدا اذن المحب به حما

فقولى املد اردت به بعمل المترادف غصن مطوى الحشى انتقاد وزال ردفه قضيب
به عرضين ازلت به الثون بعمل الاسقاط الباقي من غصن بعد طى الصاد التى بوسطه
واثيته بموضعه بعمل الانتقاد واوضحت ذلك بقولى فلا حصر وان كنت لا احتاج اليه ليلا
يكون فى البيت شئ خارج عن التعمية ومنه فى اسم شلالى :

(1) هنا كلمة غير واضحة بالاصل

واحور وسان الجفون كأنما سقى لحظه من ريق فيه يقرظ
نضر صارما لافل صارم لحظه تزايد منه منذ سل تلادف
فقولى تلادف من طريق التسمية وفى العمل التذييل وهو ان يأتى بالكلمة بحركاتها
وسكناتها وهو من المحسنات كما سبق

من شقاى قفصته وهو خشف لم أقل ف ان قلت فات فهمت
املك مملفه تحلل خصر وثنى عن حبه ما عدلت
فقولى املد اردت الالف بعمل التشبيه وتحلل خصر منه انتقاد اردت بالخصر
وسط لفظه منه وتحلله ان ينحل السكون الذى على النون وقولى وثنى اى الالف من
التثنية الا التثنى فتم الاسم بحركاته وعدده ومنه أيضا ولها حكاية

وصفوا اشتياقى للحبيب وسرهم قول الحبيب انا انا فيه
قلبي له حجر فقلت مغالطا للحاسد الموذى انا فيه

وفى هذا البيت علة من المحسنات غير التعمية منها جناس التورية المسمى
عندهم بالملق وجوده بانه يكون كل من الركنين مركبا من كلمتين وهذا هو الفرق
بينه وبين المركب وقل من فرق بينهما ومنه الاستخدام وعهدى بالفقيه على بن منصور
الشيظى تعرض الى شرحها بكرامة والتعمية فى هذين البيتين بالعمل الحسابى وهو كثير
الا ان هذا العمل احسب ابا عنتره اذ لم أره لغيرى ومادة التعمية فيه انا انا فيه
قلبي له حجر فقولى انا انا فيه اضرب انا فى هو قولى فيه نص فى الضرب ويخرج من هذا
مائتان وستون عدد حروف هيمانى وحقك بـ وقولى قلبي له حجر بعمل القلب يصير رجع
فصار المجموع هيمانى وحقك يرجع وفيه التورية * وهيمانى وحقك الخارج من هذا
الضرب فبصيتكم بالواشى وهو من المحسنات أيضا اعنى قوله له وحقك وتصلح ان تسمى
هذه التعمية بالافتتان لان الافتتان عندهم ان يفتن الشاعر فيأتى بفنن متضادين من فنون
الشعر فى بيت واحد وهذا وقع التضاد فيه فى كلمة واحدة فظاهر انا انا فيه يضاد
هيمانى وحقك يرجع الذى يخرج بطريق الحساب فافهمه ويمكن استخراج تعمية اخرى
من قولى للحاسد انا فيه ومن المزدوج أيضا وفيه التورية

مر 254

ان يوما لناظرى تبدى متلى من حسنه تكحىلا

قال جفنى لصنوه لا تلاقى ان بينى وبين لقياك هيبلا

ومنه أيضا

هدب الجفون بصحن خذك سجلت ولدى الهوى زكتهم عيناك

فقتضى الهوى جور السكرى زورا شملت لهم انى على مضناك

ومنه وفيه التورية :

بستان حسنك ابدعت زهراته
وقوام غصنك بالمسرة ينثنى
ومن الابيات الثلاثة قولي وقد قطفت وردة من روض المسرة في زمان النرجس
وافى بها البستان صنوك وردة
اهدى البهار مجاجرا واتى بها
فبعثتها مرتادة بنسيمها
ومنها ايضا

لى حبيب يأتى بكل غريب
لست أشكو لصيرفى ونحوى
فعماله فى لازم متعد
ومن الابيات المربعة

تبدى وزند الشوق يقدحه النوى
وهش لتوديعى فاعرضت مشققا
ولولا ثواه بالحشى لاهنتها
فاعجب آساد الشرى كيف تحجم
ومنها ايضا

تحالفت منه عيناه الى سبب
فحدقة العين تقصينى وتؤيسنى
اسكوا نهائى وشوقى واقتراقهما
ان طعت ذاك فمن لى فاتنى ارب
ومنها ايضا

لا وطرف علم السيف فقد
ووميض لاح لما بسمت
ومنها ايضا

ما هلال الافق الا حاسد
ولدا عاش قليلا ناحلا
وهن مقطوع

من عنبر الشحرام من مسك دارين
مهقف ان نشنى قلت مقتضب
ذنبنى اليه ولا ذنب محبته
بلى ومنه نسيمات الرياحين
من قضب نعمان او من كتب بيرين
لاجلها بسهام اللحظ يرمينى

اما اميجلة ظلما رضيت به لو انه دام منه كان يكفيني
معذب قد حرمت النوم بعدكم فانعم بنوم هنى غير مفتون
(1) على ورد ذاك الخد برق فم يعوض الخد من ورد بنسرين

توقيعاته ايده الله

كانت تصدر عن مولانا امير المؤمنين ايده الله توقيعات نبيلة تنيه بها الرقاع وتتهادها الاططار والبقاع يرمى بها الى الاغراض فيصيب فيها الكلا والمفاصل باوجز لفظ وارشق عبارة فمنها ان مولانا الهمام كافل الامة بعد الامام بادى الفرر فى حياه الليالى والايام مولانا الامير الاجل الاكمل الاصيل مولانا ابا عبد الله محمد الشيخ المامون بن امير المؤمنين وولى عهده كتب الى ولانا امير المؤمنين ايدهم الله تعالى ايام مخيهم بمحلتهم السعيدة يظهر الزاوية من ساحة فاس المحروسة فى عام تسعين يفاوضه فى امر اوقف نفوذه على اذنه الكريم وموافقة رايه الشريف * وكان فى الرقعة والله تعالى اعلم ان امر مولانا امير المؤمنين بذلك ووافق فوق له مولانا الامام امير المؤمنين ايده الله تعالى بضمير التكم المظم وهونا واثبت امام وافق معناه وافقنا فلم ندر ساعتئذ بايهم ايدهم الله تعالى نعجب معز عبيدهم ولا من ايهم حماهم الله تعالى نتعجب امن حسن توقيع مولانا امير المؤمنين وايجازه ام من ذكاء مولانا ولى عهده اعزه الله واهتدائه بديهته الى فهمه وهو على ما كان عليه حينئذ من صفر السن والله در من قال صغيرهم عند الانام كبير ومنها ما وقع به ايده الله تعالى وخلص ملكه لسكية صاحب السودان (999 هـ) كان لما عقد له مملوك الجنب العالى الاملى جوذر باشى السلام من بعد مخالفة والايقاع به وبجنوده وتشريده عن كاغوا قاعة مملكته حسبما قمنا وكان السلام مقودا على مال بلله سكية وضريبة ضربها عليه المظم جوذر باشى ورفع شأن السلام الى مولانا امير المؤمنين ايده الله فوق لسكية بقوله تعالى اتمدوننى بمال فما اتى الله خير مما حاكم بل انتم بهديتكم تفرحون ارجع اليهم فلناتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها اذلة وهم صاغرون فكانت العاقبة كما اقتضى التوقيع الكريم ومنها ان اديبا يعرف بطلم الدين الخليل كان ورد على ابوابه الشريف من البلاد الشرقية مستنجيا ومسترفيا ولا ازمع القول لبلاده مملوء الحقائق موافى الرغائب انشد عند الوداع من نظمه بين يلى مولانا امير المؤمنين ايده الله تعالى :

اسير عنك ولى فى كل جارجة فم يحلث عن احسانكم عجباً

(1) بياض بالاصل .

لا نلت قصدى اذا ما كان فى املى اكون فى خدمة المنصور ان رغبا

فان رضى بى فىا فخرى وياشرفى وان ابى الملك المنصور واحربا

فوقع له ايدى الله على لفظة رغب رغبتنا فيك وعلى أن رضى بى رضىنا بك وعلى أن
ابى اردناك ومنها انى رفعت الى جلالته العالى ايدى الله تعالى مرة رقة اشكوا لفضله العميم
بعض ما اهنى من امور دنيائى فبرز لى توقيعه الشريف ايدى الله تعالى بيتين فى
نظمه البارع

يا كاتبها اذا كتب غرس روضا ذا فنن

ان جوابى الذى يشكو دنياه اردد حزن

وانت اذا تأملت هذا التوقيع الشريف وجدت بيتيه عامرين بمحاسن جمه * اما
اولا فلذلالتهم على شرف القائل فان كل من له ذوق سليم يفهم أن هذه نفس ذى
عزة وسلمان وعلو شأن وهمه من شأنه أن يشكى اليه وتعرض قلاص الامل لديه لما
تدل عليه قرينة ان جوابى الذى يشكو ادناه من العظمة والجلالة والعزيز العريق الاصاله
واما ثانيهما فلما افاده قوله اردد حزن من مواجهة الشاكى بالمواساة والتسليه وهذا هو
الشأن فى الشكوى الى ذى مروءة فكيف بسبط النبوة واما ثالثا فلما يدل عليه مجموع
البيت الثانى من كرم قائله ايدى الله وسعة بذله لما تقرر ان الموصول من معيار العموم
فهو بذلك وعده ايدى الله تعالى لكل من يشكو الدنا كائنا من كان برد الحزن عنه
ودفع الهم عن ساحته بالمرادف الذى هو درهم الملهز فيه وما كفاه ايدى الله وخلد
ايامه حتى اكده الوعد بالاداء الدالة على تحقيق الحصول على الامنية وتمام البغية الهنية
وبيان الملهز الذى زمله ايدى الله تعالى بشعار التورية المركبة فى الاصل ان قوله اردد يرادف
در حكاية لقول العامة وحزن يرادف هم فحصلت التورية المركبة فى درهم برمه وفى
دورهم مفككين وهذا من السحر الحلال ونكتة الدرهم لا يهتدى لصوغها الا من صاغ الله
جوهره النفيس من اطيب المعادن واشرف العناصر ومحاسنه ايدى الله فى هذا الباب
كثيرة سئل الله تعالى ان يزيد مقامه الشريف تماما على الذى احسن

ذكر تصانيفه وتآليفه

كنا وقفنا بما اوردنا من علوم مولانا امير المؤمنين ايدى الله لتبقى الاطلاع عليها
الراية والعلم واوقدنا المسارين اليها فى دياجى نفس هذا الكتاب نارا على علم وعجلنا
لوفد اهل الادب من القرى الذى قدمنا من منظوماته الرائقة ما تفدوا به ارواحهم
اللطيفة وتستطعم حلاوته اذواقهم السليمة وان الان ان اجمع ارباب المعارف اجمع على
موائد مؤلفاته الكريمة التى تشبع نهمتهم ويحتقرون عندها نعمتهم فاقول ان مولانا
الامام امير المؤمنين ايدى الله لما آتملت حواصل تحصيله من درر الكلام وملك

الدقيق من حر النضر والنظام فاصبح يتصرف فيها تصرف المالك المقندر ويدعوها الى ما يشاء من الانشاء فيبتدر وكان بما قلد مع ذلك من رعاية الخلق وسياسة المغرب والمشرق ومارس من الحروب وكابد من الاهوال والخطوب وعانى من انتظام الممالك بين الشروق والغروب واقعد الناس بسياسة الملك واعرفهم بنظم ذلك السلك ومن اعلم ممن تنثال على بابيه امور العجم والعرب والسودان والروم والترك تسامت همته الشريف ايده الله * الى تدوين كتاب في علم السياسة ودعاه خلد الله دولته الى تخبيره واجراء جياذ الاقلام في ميادين تحريره مقصدان سنيان احدهما ان في الاشتغال بذلك شغلا بمصالح العباد وحيطة البلاد لما يفيد من المعرفة التامة لتحصين الحصون واختطاطها وتشييد المعادل وتوطيدها وتعبئة الحروب ومكائدها والاتها وخدعها وانواعها والحصار والاته (1) وادواته ومعرفة انواع مدافع القذف والرجم واسماؤها والقابها وكيفية عملها طولا وقصرا وخفاء وتفرغ ذلك عما يقتضيه غرض الرمي الى البعد او القرب او الى السماء او الى الارض او الى الاستقامة او الى الانحراف وتحت التي يرمى بها شواطئ النار وتعداد انواعها وقسمتها الى الحجرية والمعدنية وغير ذلك مما تقتضيه السياسة العلمية حتى في اقامة الحدود وافراديات لذكر ماخذا من الشرع وانتزاع اقوال العلماء فيها من الكتاب والسنة لا كمثمل من تصدى من الملوك الى التصنيف فيما هو من نوع البطالة في حقه بالنسبة الى ما هو اوكد من مصالح الخلق كما فعل المنصور يعقوب ببن يوسف بن عبد المومن من خلفاء الموحدين في العكوف على تصنيف كتاب الله على مذهب امامهم في نفس الراى واخذ الناس في سائر الاقطار بحفظه والعمل به كما هو مشهور فكان اشتغاله بذلك عما هو اهم من مصالح العباد محض بطالة لوجود من هو اقعد به واقدر عليه من علماء زمانه والمقصد الثانى انه ايده الله رءا كل من تعرض الى التدرين في هذا الفن قصاراه الوقوف عند السياسة العلمية الراجعة الى المصطلح فى الوزير والنديم والمشير وتنمية الخراج والعدل فى الرغبة وسيرة المملكة فى الموكب والمركب والملبس ونحو ذلك مما تعرض اليه السلطان ابو حمو من ءال زيان ملوك المغرب الاوسط فى كتابه المسمى بواسطة السلوك وكل اكتفى بالقول واضرب صفحا عن العمل ولله در من قال نحن الى امام فعال احوج منا الى امام قوال فارى ذلك مولانا امير المومنين ايده الله ان يجمع بين الفائدتين ويفوز بالخصلتين وسمى ايده الله تعالى هذا التأليف الشريف بكتاب العارف فى كل ما تحتاج اليه الخلائف واستهل براعة خطبته الشريفة بما هو اشرق من مطالع البدور وابهى من شمس الخدور ورايت ان امل الخطبة الشريفة بكمالها ليعلم منها موضوع الكتاب ونصها نحمدك اللهم على ما اثلت من رياسة وعلمت من سياسة وذهبت من ملك ونظمت من سلك وكفيت من اعداء وهديت من ءراء ونصلى على مبلغ

(1) بياض بالاصل .

انبائك وخاتم انبيائك المؤيد باهل ارضك وسمائك من به اقامت لنا على خلقك الحجة
وبلسانه الصادق نهجت لهم في اتباعنا الحجة صلاة تكون لهم كفاء ولمجده السامي وقد
وبعد * فبنا حاجة الى تكميل نفوسنا في قواها البشرية باستعمالها في حقائق المعلومات
العلمية والنظرية وعلوم الحكمة العملية اولى بنا فيما نحن فيه واعون على ما نجلبه لهذا
الامر العلوي الفاطمي او تنفيه فلنصرف اولا عنان القول اليها ولنوجف بالخيال والرجل
في ميادين هذه الطروس عليها ومن الله سبحانه نستمد وعلى عونه جل اسمه نعتمد
وهو حسبي ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة الا به ومنها الجزء اللطيف الذي جمع فيه لنفسه
ايدى الله الادعية الماثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم في سائر ما يستعمل من العادات
والعبادات وفي سائر الحركات والسكنات وما يقال في المساء والصباح استخرجت من
معادنها من كتب الائمة وجمع العلماء على تتبعها واستقصائها حتى انتظمت قلادة
جمعها وانسقت دررها في سلك الترتيب والتبويب والتأليف الغريب والعمل المرجو
والقبول عند السميع الجيب واتخذته ايده الله تعالى اصلا يرجع اليه في اوراده التي
يعكف عليها في الخلوات والجلوات وكهنا يلوذ به عند قرع ابواب حضرة الملك العلام
لما يرى ايده الله تعالى ان انجح الوسائل التي يهب عليها نسيم القبول ويفتح بها كل
باب مقفول هو ما سأل به رسول الله صلى الله عليه وسلم وليه وخليته فتوخي ذلك ايده
الله لهذا القصد الجميل واعتمده انجح وسيلة وتوج هذا الكتاب من انشائه الشريف بخطبة
بارعة تسعى امراء الكلام على الاقدام صافية وهي لك الحمد يا من طيب بريحان ذكره
انفاسا ناشقة وارواحا وانهل من جريال هيلالته وعلى من سلافة سبحاته وتكبيراته
افئدة ظامية واشباحا والصلاة والسلام على نبيك وعبدك المبتعث وقد ادلهم الخطب فكان
السوق الضلالة صباحا ولابواب الهداية مفتاحا والرضى عن الله وضعبه المقتدحين بهديه
زند الايمان فاورى بعد ان كان شحاحا وبعد فان اضواء صبح يمزق جلايب ليل الغفلات
واضوع ند تستنشقه الانفاس بالاصال والبكرات واسد ساعد تحل بانمله عرى
الازمات ويرمى عن قسيه جيش الذنوب الموبقات ذكر الله باري البريات والتملق له
سبحانه بكريم الدعوات سيما بكلم من اولى (1) الكلمات فهي للتصديقات بالنسبة
اليها تصورات فصلى الله على نبي ايات نبوته بديهيات و-ايات سائر اخوته من
النبیین عليهم السلام نظريات وانى لما حملت من ثقل هذه الامامة حملا عظيما وحزت من
تراث النبوة والمنة لله جسيما واعوزوان كنت الامام الفاتر الاخ العاصد واذا عظم المطلوب
قل المساعد * هذا والقلوب متفرقة والاهواء على حب المفاصد متفقة وللانسان في خاصته
لقب اخرى من شافهته بشؤونها العجم والعرب لذت بمن له الطول واستقدرت من له القدرة
وييده القوة والحول وجتته سبحانه من بابه بان تملقت له بكم اخص احبابه فالتام بحمد

(1) هنا كلمة غير واضحة بالاصل

الله الامر وانشق وانصدع فجر الاستقامة عن ليل الاعودجاج وانفلق وكنت ابدا حريصا على جمع تلك الكلم الكريمة من بطون الدفاتر والفوص على دررها واستخراجها من قعر تلك البحور الزواخر الى ان وقع الفتش بالجامع الكبير والوضع الذي وسم كل موضوع سواء بالتصغير فالقى على كل ربوة من رباه روضة مورقة وعلى كل ورقة وردة مونة فجردت منه الدعاء من مثله يلتمس الشفاء وكتبته محلوف الاسناد متصل الاعداد على هيئة الوظيف والاوراد لم انظم بين تلك اليواقيت خزفه ولا سقتها بتعريف لم يزدنها معرفة فلكل كلمة نبوية من ذاتها طرب وعلى كل قطيع من جريالها حجب وبما تنبئك مقاطعها عن ميزها عجب وما ورد موقوفا على الصحابي ربما اخرته فيما حشدته وجعلته ساقا للباب مهما وجدته والله سبحانه وتعالى يتم النفع به ويجعله سيلا موصلا لخدمة بنيه آمين وكان ايده الله تعالى من قبل الخلافة وفي ايام الفراغ من الشواغب على عهد الخليفة الغالب بالله اخيه قد انبعثت همته الشريفة الى جمع اشعار العلوية من امهات الادب والدواوين الشعرية وعزم ايده الله على افرادها بديوان يصبون عصابتها الشريفة من المخالطة بمن دونها في النسب وياخذ لها البيعة بالتقديم على رعايا الادب وربما قيد من ذلك تقاييد ثم قطع عن وصل هذا العمل ما كان من الخروج عن المغرب الى جهة المشرق عند انتقال الغالب بالله بالموت حسبا قدمنا وجاءت دولة المعتصم بالله بفتن كقطع اليل وحروب سال على الارض من دمانها السيل وكان ايده الله صالى حرها حتى خمد وخافض لجها حتى سكن وركد فاتصل بذلك القطع وتأكد المنع الى ان جاءت ايام الخلافة العلية والدولة الكريمة الهنية فنسخ حكم الهزل حينئذ الجذ واستولى على الفكرة الكريمة في مصالح العباد وفتح البلاد وحيطة الخاص والباد الكدح والكد وصرفت العناية من ذلك الى ما هو الراى الاسد اللهم الا ان يكون من التأليف ما يدخل في جنس هذا العمل فانه مما يتناوله الحد واما ماله ايده الله وخلد ايامه من التقاييد الشريفة والانتقال العجيبة على الاسئلة والاجوبة العلمية والفوائد الادبية فييد الفضلاء من ذلك ما اغنى عن تسيطره في هذا الباب لشهرته وكان التأليف منذ تقلص * طلال الدول بالمغرب وبلوغها الى سن الهرم والضعف قد انقطع بانقطاع اهله وخرست السن الاقلام وغاضت مياه المعابر واستوحشت ربوع الدفاتر واموت منازل العلم حتى تدارك الله الدعاء الباقي وجدد الدين بهله الدولة الكريمة الحسنية فاستقل جد الاسلام من عثاره وحيى ميت العلم الدارس ونفخ في شبحه روح الحياة فنهضت به الدولة وبسائر مناصب الدين في معارج السمو والارتقاء تصعد من فلك الى فلك حتى انتهت به من خلافة مولانا امير المؤمنين ايده الله ودولته الشامخة الانف الى الفلك السابع وهناك استوى على اشرف المناصب واسمى المراتب فلقهت حياض العلم والتحصيل واعملت مشبغة العلم الى الحضرة

س 261

الشريفة من أوب وصوب الرسيم والدميل واينع رياض التدريس فى سائر الحواضر وامهات الامصار بعد ان صوح بهيجه واستعار من الحسرة اجيجه واستدارت فى سماء الدروس هالاتها وازينت من الشيخة الجهابذة بدراريها فنفق سوق العلم وكثر حاملوه وتعددت ايمته ومشيخته وشخذ امير المؤمنين ايده الله الهمم واغرى بكل من اهله وجذب بضيغ كل فهامة فتنافس الناس ونبغ التأليف فى ايامه السعيدة وجدته الشريفة وتبارى الفضلاء بحضاره فاحرزوا قصبات السبق من كل فوار العنان يستل من قراب فكرته الوقادة سيفا ماضى الغرار فيبارق به المناضل (1) الخزانة الكريمة العلية الامامية الشريفة اليوم على عدد جم من تصانيف اهل العصر فى كل فن حتى فى الطب والهندسة واخص بمزية الذكر من هذه التصانيف الشريف الكريم الذى تعرض فيه صاحبنا العلامة الفقيه الحافظ المتفنن الدراك سابق الحلبة وفارس الميدان ابو عبد الله محمد بن عبد الله الرجراجى الى الجمع بين تقييدى الامامين البسيلي والسلوى عن شيخهما صدر الائمة وعالم علماء الملة شيخ الاسلام وعلم الائمة الاعلام ابى عبد الله بن عرفة مع شرح ما لم يتكلم عليه المفيدان من الاى الكريمة وكل ذلك باقتراح مولانا امير المؤمنين ايده الله وبمشاركته الكريمة بما كان ايده الله تعالى يوتر تفسير الامام ابن عرفة الذى بتقييد تلميذه الامامين المذكورين ويحضره عند قراءة ورده من المصحف الكريم لمراجعة ما يستشكل من المعانى الشريفة القرائية والاسرار التنزيلية ثم لا يجد وليجة من دون مطالعة التقييدىن معا اذ ربما قيد احدهما على ما اغفل الآخر وبالعكس وربما تخطيا معا محل الحاجة ولم يلزم احدهما بساحتها ولا عاج عليها بركاب تقييده فوقع لذلك الاختيار الكريم والرأى الشريف على الجمل بين * التقييدىن لفائدة الجمع اجمع بين كلام الفحلين على محل واحد وسند الثلمات التى اتصل كلاهما بكلام الآخر مع التتميم بشرح ما اغفل الامامان رأسا من الاى الكريمة ونذب لهذا الشأن العظيم ايده الله علماء الحضرة والحلبة التى نجمت بدولته السعيدة وتخرجت بعنايته الشريفة الفقيه ابن ابى عبد الله والقى منه ايده الله من يدعوا به الراية فوضى بالشرط وتخطاه الى امام بالكلام مع الامام ابن عرفة بما لم يغفل من ابحات لطيفة وفوائد جمة منيفة ثم اثنى عنان القول الى شرحى الامام نجة علماء الاسلام شيخ المثابة العلية الامامية الشريفة المنصورية وشيخ الجماعة ابى العباس احمد بن على المنجور على رجز ابن زكرياء فى علم الكلام وانا استغفر الله من رد الصدر الى العجز بتأخير الشيخ عن ابن ابى عبد الله ولاكنى اعتذر بشرف شرح كلام الله تعالى على شرح البتر واقول ان الشيخ رضى الله عنه شرح هذا المنظوم المعزو لابن زكرياء التلمسانى بشرحين جليلي النفع عظيمي الفوائد اما الصغير منهما وهو الذى بيد الناس فهو الذى سهل به الشيخ الطريق الى هذا الرجز وقتم

ص 262

(1) هنا كلمة غير واضحة بالاصل

به بابه المقفل وهو الذى عليه معول شيوخ الكتاب واليه مرجع العلماء المتعاطين لتدريسه اليوم واما الكبير فما هو الا كما قيل اتى الوادى فطم على القرى فان الشيخ رضى الله عنه جرى فيه ملء العنان لغاية لا يلحق فيها شاو لكثرة ما جمع من الاثقال واورد من الابحاث وبسط من المعانى فلو اقترحه ابن التلمسانى على الامام لقال هذا فوق مقترحتى حتى او طالعه البيضاوى لقال لطواله اعزبى ومات الشيخ رحمه الله وتركه منتبذا فى مسودته بين اوراق خزانته ولم يبرزه للناس فتلافى مولانا الامام امير المؤمنين ايدى الله امره وبحث عنه فرفعه الى مقامه العلى اولياء الشيخ مبدد الشمل فتوجهت اليه العناية الكريمة فانظم جمعه وترتبت قلالته وكتب الله لمولانا الامام امير المؤمنين ايدى الله مثوبة استخراجيه من لفيف الاهمال وانقاذه من لهوات التلف وهو من العيون التى استأثرت بها الخزانة الشريفة الامامية ومن المخدرات التى اسبل عليها حجاب الصون بخطوط الشيوخ من مهنة الابتذال ومن تأليف الشيخ التى جل نفعها وسمى الى اعلی المقامات وضعها حاشيته الكبرى التى علق على شرح الامام ابى عبد الله السنوسى لكبراه وهى التى يتوكا عليها العلماء اليوم عند النهوض باعباء هذا الشرح ويستضيئون بقبسها فى مدلهجات اشكاله ومنها فهرسة شيوخه الكبرى التى جمع لمولانا امير المؤمنين ووسمها باسمه الشريف وقد شحن سفينتها التى استوى بها على جودى الكمال ببضائع راجحة الوزن من كلام شيوخه وفوائدهم ومحاضراتهم * وبسط احوالهم واخبارهم ومن ملح اهل العصر وانشاداتهم والامام ببعض ادبياتهم ولابد بعد هذا من مراقى المجد الى اى السعد وهو جزء لطيف تكلم فيه على ما لسعد الدين التفازانى من الاى التى استشهد بها فى فصوله على تلخيص المفتاح للقزوين ثم اسموا من هذه المراقى الى مرتبة الهادى الى (1) (المرادى تأليف الشيخ الامام الاوحد الفذ الفريد استاذ المغرب فى وقته فى علوم الفرائد وسيبويه زمانه فى العربية والنحو الشيخ ابى العباس احمد القدومى وكان مولانا امير المؤمنين ايدى الله عند وجهته الاولى بركابه العالى لفاس اشار على الشيخ ابى العباس رحمه الله بالتعليق على الفية ابن مالك فاسرع الاجابة وقابل الاشارة الكريمة الامامية الشريفة بما يجب لها من (1) لذلك وعكف عليه وكان رحمه الله من اهل الجد والعناية فما مضت ستة اشهر او ثمانية والله اعلم حتى حرر تصنيفا جليلا من مجلدين ضخمين ما اتفق للمتأخرين ولا للمتقدمين فى فن العربية مثله ولا نسج فاضل ولا عالم على منواله لو رآه الفارسى لترجل بين يديه او لمح ابن عصفور لطار من قفصه اليه لما التزم فيه رحمه الله من الاثيان بجمع ما لاهل فاس من طبقة وطبقة شيوخه واشياخ اشياخه من الابحاث اللطيفة والایرادات العجيبة واللطائف الغريبة والاجوبة المرقصة وجعل الكلام مع المرادى أس العمل ثم ما ترك ياقوته او درة يتيمة او لؤلؤة مكنونة الا

ص 263

(1) بياض بالاصل .

وعاص عليها في معادنها من سراج السطور وتآنيه ابن الحاجب وتسهيل الفوائد وغيرها من غنائل الفن فطرز بها الكتاب وكلل بها تاج مفرقه وفضل بها عقود الثمينة فصار هذا المصنف الغريب طرازا تزهوا به الطاف الخزائن الشريفة الامامية ومما تيمس به تيهها وعجبا على الخزائن الملوكية تأليف الفاضل العلامة السرى النزية (1) الرحالة الحاج ابي جمعه سعيد بن مسعود الماغوسي التي منها شرح لامية العجم املاه بالبلاد المشرقية ورفعته الى حضرة مولانا امير المؤمنين ايده الله وقد وسمه باسمه الشريف وعليه تقریقات علماء مصر وفضلائها وبعض علماء الشام ثم شرح لامية العرب له ايضا امل جله او كله ببلاد المشرق ايضا وهذب من بعد قفوله للمغرب بمراكش دار الخلافة خدم به المقام العلى الامامى الاحمدى المنصورى موسوما بشريف اسمه النبوى الكريم واذا وصلت الى شرحه على درر السمط فى اخبار السبط الامام ابن الابار فى تابين اهل البيت وصلت الى الروض الانفس حسن تصنيف وترصيف وتنضيد وتفويف ومزج الشرح بالمشروح شرح الحياة بالروح يتفوق منه مسك النبوة ويندى بماء الرسالة (1) جمع من اخبار

مر 264

اهل البيت واستوعب من حسن مآثرهم وشريف دولهم * والامام بكل من ولى منهم وذكر وقائعهم متعلقا فى ذلك باذيال ابن الابار وقلما طارسه لاشتمال الدرر مع صغر حجمها وجازتها على علوم جملة من اخبار اهل البيت التى يكتفى فى الاشارة اليها بلطيف التلويح وبديع التلميح ومن الاقتباسات القرآنية والحديثية ومن التضمينات الشعرية ومن الاسرار الادبية والبيانية فلم يرع له الفاضل ابو جمعه ذلك تلويحا الا اوضحه ولا تلميحا الا شرحه ولا اقتباسا الا اقتبس من تدر مشكاته (1) لىالى السطور بساطع اشعائه ولا تضمينا شعريا الا وكملة ان كان من قصيد او مقطوع بما قبله وبعده من الابيات وعزاها الى بانيتها وعرف الملم من وفد اهل الادب باهليها واذا انتهى الى الاسرار العربية والبيانية فهناك تظهر صولته وتقوى على دول العربية دولته والمنقبة العائمة التى ذهب هذا المصنف العجيب بفضلها هو ما ذكرنا من جمع اخبار اهل البيت جمعا مستوفى لكون الكتاب ورد فيهم على الخصوص وبذلك صار روضا انفا كما ذكرنا بحيث لو وقع الناظر فى خميلة من خمائله ما احب الانتقال عنها واذا ذكرنا اهل البيت فلنلهم من مآثرهم بديوان الشريف الفاضل السرى محمد بن ابي الفضل المكي المتقدم الذكر وهو الذى جمع فيه مدائحه فى مولانا الامام امير المؤمنين ايده الله لاطرب السامعين من اشعاره بذكر سلع والعقيق واشوقهم بها الى الحمى والبيت العتيق وكان كتاب الدولة وجماعة اهل الادب

(1) بياض بالاصل -

وعلماء القريض بالحضرة العلية يستريب بما ينتحل هذا الفضل وأنا اسئل ستر الاعضاء
واحكي ما حكى انشد رحمه الله عند وفادته على الابواب الشريفة في قصيدة قام بها بين
يحيى مولانا امير المؤمنين ايده الله وهي

أتري زمان الرقمتين يعود	ومذيب جسمي بالبعد يعود
أم هل زمان نوى الاحبة ينقضي	عنا ويقضي للذنو وعود
ويضمنا دار الهوى بطولع	ويظلنا ظل هناك مديد
دار عرفت بها الصباية والصبي	والعيش غص والشباب حديد
بابانة العلمين من لتيتم	فتكت به منكم قنى وقود

مطبعة و مكتبة عصرية
الرياض

الفهارس العامة

1 - فهرس الفصول

2 - فهرس الوثائق

3 - فهرس أسماء الاعلام

4 - فهرس أسماء القبائل

5 - فهرس أسماء الاماكن

6 - فهرس القطع الشعرية

7 - فهرس أسماء الكتب

فهرس الفصل •

1	- مقدمة
25	- ذكر خلافة امير المؤمنين المنصور بالله
41	- نكبة الملا من قواد الاندلس
48	- ذكر وفادة ارسال ملوك الارض بالفتح والخلافة
51	- ذكر تجهيز الحركة الاولى لتمهيد السوس
52	- ذكر اعتلال امير المؤمنين
55	- ذكر مفر داوود بن المولى الامير عبد المؤمن من الحضرة وخروجه بالسوس
59	- ذكر خروج امير المؤمنين وعسكرته بتناسيفت
61	- ذكر ارتحال امير المؤمنين فى العساكر لفاس
73	- ذكر استيلاء العساكر على قطرى توات وتيكورادين
78	- ذكر نهوض العساكر الى بلاد السودان
81	- ذكر تجدد البيعة لولى العهد الامير ابى عبد الله محمد الشيخ المامون
92	- ذكر قسيمة الممالك والاعمال بين الامراء بنى الامام امير المؤمنين
93	- ذكر خروج الدعى ابن قرقوش بجهات الهبط وجبال غمارة
96	- ذكر ارتحال امير المؤمنين لفا.س للمرة الثانية
102	- ذكر انتزاع الخيل من عرب الخلط وسائر قبائل ازغار
114	- ذكر ارتجاع مدينة أصيلة من يد المشركين.....
115	- ذكر قفول العساكر من توات وتيكورادين من بعد التمهيد
117	× - ذكر افتتاح بلاد السودان
120	× - ذكر تجهيز العساكر الى السودان
136	- ذكر الايقاع بسكية وجنوده

146	✚ - ذكر فوجاع الصاكر من كانوا الى تنبكتو وما تظل ذلك من الاخبار
149	- ذكر انتهاض محمود باشا لمعاودة فتح البلاد
152	- ذكر استئصال شافة سكية
154	- ذكر اصطلاء اخي سكية الناكث بنار مكره
163	- ذكر استدعاء محمود باشا
	- ذكر ما شتمت عليه هلم الممالك المنتظمة في سلك الايالة العلوية المنصورية من
165	من الخصائص والمزايا والمفاخر التي لا تتوازي
169	- ذكر ثورة الناصر بن الغالب بالله ومقتله
171	- ذكر خروج الناصر بميلية وإيقاع المولى الامير ابي عبد الله محمد الشيخ به
	- ذكر إيقاع المولى الامير ابي عبد الله محمد الشيخ بالناصر على فاس ثم القبض
174	عليه وقطع دابره
191	- ذكر الإيقاع بعرب الغرب
197	- الناحية الادارية
204	- الناحية الاقتصادية
211	- الناحية الاجتماعية
235	- ذكر الإحتفال للميلاد الكريم
252	- ذكر مبانيه الشريفة
265	- الناحية الفكرية
	- ذكر علومه الشريفة وسائر مروياته ومن اخذ عنه من الائمة الاعلام ومشايخ
265	الاسلام
294	- ذكر منظماته ايده الله
299	- توقيعاته ايده الله

فهرس الوثائق

- 69 - بيعة ملك بورنو
- 82 - نص البيعة بولاية العهد للمولى محمد الشيخ بن المنصور
- 123 - رسالة المنصور الى أسكية اسحاق
- 131 - رسالة المنصور الى عمر بن محمود بن عمر قاضى تنبكتو
- 143 - رسالة المنصور الى الجهات والاقطار بعد فتح السودان
- 183 - رسالة المنصور الى قائديه بالسودان جودر باشا بعد القضاء على ثورة الناصر
- رسالة المنصور الى أهل فاس وأهل الثغور من بلاد الغرب يشكرهم على الثبات
على العهد وعلى مواقفهم أيام ثورة الناصر
- 185
- 187 - رسالة المنصور الى صاحب مكة والمدينة وارض الحجاز السلطان حسن
- رسالة المنصور الى كبير المشايخ علم الطريقة بالديار المصرية زين العابدين
الفكرى
- 189
- 204 - ظهور تولية المنصور لابراهيم الشط على رئاسة الاسطول المغربى
- تقييد شريف بخت يد المولى احمد متظمنا لذكر ما قرأ من العلوم وذكر ما أخذ
منه من الشيوخ وسنده عليهم
- 266
- نص اجازة الشيخ الامام رئيس ائمة العلم بالديار المصرية ابو عبد الله محمد
بن ابي الحسن البكرى الصديقى للمولى أحمد المنصور
- 629
- 272 - نص اجازة الشيخ الامام قاضى القضاء المالكية بنص بدر الدين القرافى
- 301 - مقدمة كتاب (المعارف فى كل ما تحتاج اليه الخلائف) للمنصور
- 302 - مقدمة كتاب الادعية للمنصور

فهرس اسماء الاعلام

أحمد بن علي الزموري - 196
 أبو عبد الله الهزميري - 197 - 198
 القاسم الشاطبي - 199 - 209 - 215
 أبو عبد الله البصري المكناسي - 209
 أحمد بن علي الزموري - 209 - 210 - 217
 أحمد بن علي المخبور - 120 - 244
 أحمد الوشريس - 220
 أيود يوس - 238
 أحمد القدومي - 223 - 287
 أبو الحسن بن هارون - 244
 أحمد البلغيتي - 253
 أبو هريرة - 255
 أحمد بن حجر - 257
 أحمد بن عطاء الله السكندري - 257
 أبو عبد الله السنوسي - 286
 أبو الحسن المديني - 154
 ب - بنو مرين - 32 - 63 - 64 - 94 -
 بنو حفص - 32 -
 بنو الأحمر - 32 -
 بني زيدون - 36 -
 (دون سباستيان) - 38 - 136 -
 بنو عثمان - 57 - 59 - 61 - 134 -
 ابن خلدون - 62 - 63 -
 الزيانسي - 63 -
 بوحصون - 83 -
 بن تودة - 88 -
 ابن غانية - 94 - 188 -

أ - أحمد المنصور في معظم الصفحات
 أبو الفضل الغربي - 30 - 36 - 52
 إبراهيم السفيناني - 34 - 3 - 58 - 61
 أحمد أنزاوي - 34
 الاتراك - 35 - 37 - 83 - 165 - 238
 انريك - 39 - 136 (هنري)
 أبو الطيب البكري - 40
 اندريس السوط - 44
 أحمد بن وده - 58
 أحمد الهوزالي - 58
 - أحمد الأعرج - 63
 أحمد الخطار - 65
 إبراهيم بن أبي شريف - 254
 أحمد بن القاضي - 72 - 226
 اسحاق - 77 - 79
 أبو فارس - 82 - 128 - 137
 الافرنج - 94 - 159
 إبراهيم الشط - 326
 إبراهيم بن رضوان - 63
 إبراهيم القلشندي - 254
 أبو الحسن بن المنصور - 128
 أبو مسلم - 244
 أحمد بن موسى - 130
 أحمد - 132
 ابن بيل (إليزابيت) - 136 - 158
 أبو الحسن المريني - 154
 الانكليز - 160

الحسن بن ابي فكر - 32 -

الحسن - 69 -

حسن بن ابي نجي - 181 -

ي - يوسف الملولى - 28 -

يوسف الانصارى - 254 -

يحيى بن الناصر الموحدى - 88 - 89 -

يحيى السوسى - 244 -

يحيى بن محمد السراج - 209 - 245 -

ل - لاتوين (مارتين لوتى) - 159 -

م - محمد النبى محمد عليه السلام - 26 -

239 - 253 - 257 -

محمد بن سليمان - 27 - 33 -

مومن بن غازى العمرى - 27 - 29 - 31 -

- 84 -

محمد الدرعى - 29 -

محمد الدفالى - 32 - 33 - 34 -

محمد زرقون - 32 - 34 - 35 - 36 -

محمد الزغبى - 32 -

المتوكل السعلى - 33 - 48 - 52 - 14 -

2 - 237 - 238 - 239 -

محمد الشيخ بن المنصور - 33 - 37 -

41 - 51 - 53 - 55 - 114 - 115 - 134 -

- 35 - 47 -

المعتصم السعلى - 33 - 37 - 48 - 2 -

5 - 53 - 88 - 220 - 224 -

محمد بن أحمد - 33 - 48 -

المعتد بن عباد - 36 -

المستكنى - 36 -

محمد بن سالم - 38 - 112 -

قواد الثالث - 40 - 60 - 61 -

محمد بن موسى - 48 - 53 -

ابن قرقوش - 129 - 216 -

البربر - 163 -

بدر الدين القوافى - 181 - 250 - 253 -

بنى ويسعدن - 214 -

البياك - 222 - 223 -

ابن حيان - 235 -

ابن الصباغ المكناسى - 244 -

ابن خليل السكونى - 246 -

ابن عرفة - 246 -

- برهان الدين الثانى - 283 -

ابن حمزة الدمشقى - 255 -

برهان الدين - 257 -

المولى - 285 -

ج - جودر باشا - 77 - 97 - 138 - 152 -

175 - 218 - 280 -

الجلالقة - 221 -

جلال الدين - 244 -

جلال الدين - 245 -

جلال الدين المحلى - 245 -

الجرجانى - 246 -

جلال الدين السيوطى - 255 -

د - داود بن على - 60 -

داود بن عبد المومن - 38 - 2 - 5 - 54 -

دون انطون - 136 - 160 -

دون كشتوبان (دون كريستوف) -

- 160 -

و - ولادة - 36 -

ز - زيدان - 62 - 128 -

زين العابدين - 181 - 246 -

ح - حم بن بركة - 31 - 60 - 68 -

محمد الطيب - 49 -

محمد بن علي الهوزالي - 68 - 240 -

محمد بن ابراهيم - 52 - 54 - 130 -
162 - 166 - 185 -

منصور بن عبد الرحمن - 54 - 150 -
175 -

موسى بن علي - 55 -

محمد بن ابراهيم الزدوتي - 55 -

محمد بن علي الشاطي - 60 - 61 -

محمد بن عسب - 64 -

محمد بن بركة - 65 - 66 - 134 - 140 -

محمد السويري - 66 -

الموحسون - 94 - 188 - 238 -

موسى العمري - 112 -

منصور الفيلاي - 137 -

الحاج محمد - 137 -

محمد باشا - 146 - 240 - 151 -
223 -

منسا سليمان - 154 -

محمود بن مبارك - 167 -

محمد بن عبد المومن - 168 -

الحاج محمد بن عبد القادر - 182 -

مومن بن ملوك - 185 -

الموفق العباسي - 187 -

المنصور الموحدي - 188 -

المامون الموحدي - 191 -

مالك ابن انس - 218 - 251 -

محمد الشاوي - 224 -

محمد بن علي الفشتالي - 231 -

محمد ابن ابي الفضل المكي - 314 -

محمد ابي احمد بن موسى - 326 -

محمد البرعي - 243 -

موسى السوسي - 243 -

محمد بن ابي القاسم الشريف - 243 -

محمد الحارثي - 244 -

محمد السويدي - 244 -

محمد ابن ابي مدين - 244 -

محمد بن غازي - 244 -

محمد بن تستين - 244 -

موسى العبادوي - 244 -

محمد بن علي البكري - 254 -

محمد بن احمد المصطوي - 255 -

محمد بن ابي الصفا - 256 -

محمد البكري - 254 -

محمد ابن ابي عبد الله الرجراجي -
285 -

ن - ناصر الدين الثاني - 254 -

نور الدين الطوسي - 246 -

نور الدين الاشدني - 257 -

نور الدين العجوي - 261 -

البخاري - 62 -

الناصر الغالب - 32 - 158 - 161 -
162 - 165 - 169 - 185 -

الانكشارية - 176 - 221 -

ص - صالح - 83 -

صالح السكوري - 244 -

ع - عبد النبي بن احمد - 28 - 29 -

عبد الله الغالب - 28 - 32 - 35 - 37 -
48 - 41 - 64 - 83 -

عبد الكريم بن موسى - 33 - 195 -
215 -

عزوز الوزكيتي - 33 - 38 - 102 - 1

23 -

العجم - 35 - 221 - 224 -

على - 57 - 58 - 59 -

عبد الرحمن بن منصور - 60 -

عمر بن محمد بن عمر - 61 - 66 -

67 - 98 -

عبد العزيز الوطاسي - 63 -

عبد الواحد بن أحمد - 78 -

علي بن داود - 81 -

علال بن داود - 81 -

علال بن محمد - 87 -

علي بن موسى - 115 -

علال بن عبو - 136 -

العرب - 163 - 164 - 221 -

العبيديون - 187 -

عبد الرحمن بن أحمد - 198 - 199 -

209 -

علي بن سليمان - 199 -

عبد الواحد الحميدي - 209 - 244 -

علي بن أبي طالب - 218 - 257 -

عبد الرحمن شبطون - 220 -

عبد الملك بن مروان - 236 -

علي بن منصور - 242 -

عبد الرحمن إبراهيم - 244 -

عبد العزيز الترويني - 244 -

عبادة الزيني - 245 -

الإمام العلقمي - 245 -

علي بن أحمد الانصاري - 253 -

عبد البر الحنفي - 255 -

عز الدين السنباطي - 255 -

عبد القادر التادلي - 256 -

عبد الرحمن العراقي - 256 -

عبد السلام البغدادى - 257 -

عبد السلام بن شيش - 257 -

علي الشاذلي - 257 -

عمر العبادي - 262 -

علي بن أبي المجد الدمشقي - 266 -

عبد الكريم بن عطاء الله السكندري - 270 -

ف - ملك اسبانيا - 39 - 56 - 59 - 183 -

ض - ضوء الدين الخزرجي - 244 -

د - الروم - 40 - 41 -

الرشيد الموحدى - 191 -

رضوان بن عبد الله - 209 -

س - سعيد الدفالي - 32 - 33 - 34 - 37 -

241 -

سلومان مهر باشا - 136 -

السمرقندي - 246 -

سعد الدين التفتاوني - 246 - 287 -

سعيد المانحوسي - 287 -

ب - الترميذي - 244 -

تاج الدين بهرام - 245 -

ج - خليل بن اسحاق - 245 - 253 - 269 -

ش - القاضي شريم - 218 -

الشنشوية - 222 - 223 -

الشواشي - 222 -

شقرون التلمساني - 245 -

شمس الدين اللقاني - 253 - 259 -

شهاب الدين الصيوفي - 257 -

فهرس أسماء القبائل

مطاع - 133 -	أ - ادوو لتوبت - 48 -
المعقل - 151 -	ب - بنو خالد - 131 -
مدغرة - 166 -	ج - جثم - 82 - 151 - 187 -
مسفوة - 225 -	هـ - هوزالة - 55 -
ص - صنهاجة - 93 -	الهبط - 131 -
ع - أود عبد الكريم - 86 -	هسكومة - 187 -
س - سفيان - 82 - 133 -	و - الوداية - 54 -
اود سالم - 137 -	ز - زغار - 63 -
خ - الخلط - 82 - 168 - 192 -	زناتة - 63 -
ل - لندراش - 36 -	ح - اولاد حسين - 60 - 129 -
غ - غياثة - 166 -	الحيانية - 168 -
الغرب - 168 - 184 -	ي - اليمن - 184 - 135 -
ش - الشرافة - 34 - 223 -	بنويز ناسن - 164 -
اولاد شعيب - 162 -	ك - كزولة - 48 -
	م - مختار - 82 -

فهرس أسماء الاماكن

- | | |
|--|---|
| <p>جبل شلین - 36 -</p> <p>جبال ششاوة - 53 -</p> <p>جبل دون - 48 - 53 - 225 -</p> <p>جبل هوزالة - 54 -</p> <p>جبال غمارة - 60 - 129 - 164 -</p> <p>جبل مدغرة - 163 -</p> <p>جبل يزناسن - 165 - 217 -</p> <p>جامع الازهر - 255 - 260 -</p> <p>د - دمنات - 62 -</p> <p>درعة - 157 -</p> <p>دار بن مشعل - 165 -</p> <p>دكالة - 169 -</p> <p>دار السلام - 211 -</p> <p>ه - الجند الغربية - 39 -</p> <p>الهند - 39 -</p> <p>هشوكة - 48 -</p> <p>هلانة - 48 -</p> <p>الهوط - 60 - 88 - 129 - 208 - 215 -</p> <p>وادی المخازن - 27 - 30 - 35 - 38 -</p> <p>47 - 52 - 84 - 136 - 236 - 326 -</p> <p>وادی الجواهر - 33 -</p> <p>وادی آش - 34 -</p> <p>وادی سبو - 60 -</p> <p>وادی الساورة - 86 -</p> <p>وادی السد - 114 - 131 -</p> <p>ز - ظهر الزاوية - 34 - 37 - 38 - 100 -</p> <p>85 -</p> <p>ح - حاحا - 48 - 169 - 303 -</p> <p>حصن الفتج - 59 -</p> | <p>أ - اندلسی - 32 - 34 - 36 - 37 - 94 -</p> <p>161 - 180 - 188 -</p> <p>أسفی - 39 - 137 - 305 -</p> <p>أزغار - 84 -</p> <p>أصیلا - 88 - 136 - 137 - 305 -</p> <p>انشای - 104 -</p> <p>اصواد - 104 -</p> <p>اغمات - 130 - 164 - 108 - 197 -</p> <p>أم الربيع - 133 - 192 -</p> <p>أبو الخمائر - 133 -</p> <p>لاشبونة - 136 -</p> <p>اكنسو - 151 -</p> <p>اساطوس - 237 - 241 -</p> <p>أسوف أنوال - 304 -</p> <p>أزمور - 305 -</p> <p>ب - باب السبع بفاس - 37 -</p> <p>الباب الجديد بفاس - 37 -</p> <p>يونو - 40 - 42 - 151 -</p> <p>بحر النيل - 42 -</p> <p>باب أغمات بمراكش - 59 -</p> <p>البحر المحيط - 90 -</p> <p>باريس - 159 -</p> <p>بحر الزقاق - 160 -</p> <p>البديع - 222 - 233 - 289 - 290 -</p> <p>291 - 292 - 293 - 294 - 295 - 296 -</p> <p>297 - 298 - 299 - 300 - 301 -</p> <p>البرجة - 39 - 52 -</p> <p>ج - الجزائر - 35 - 37 - 38 - 40 - 58 -</p> <p>59 - 83 - 224 -</p> |
|--|---|

انكلترا - 136 - 137 - 158 - 150 -
 ص - صعود مصر - 151 -
 صنعاء - 247 -
 ع - العرائش - 58 - 59 - 303 -
 عين اغبال - 133 -
 ف - فاس - 31 - 32 - 33 - 37 - 57 -
 58 - 59 - 60 - 62 - 65 - 85 - 86 -
 87 - 131 - 134 - 137 - 165 - 177 -
 246 - 302 -
 افريقية - 32 - 187 - 188 -
 الفحص - 58 - 88 -
 فجيج - 61 - 64 -
 فرانسة - موريطانية - 159 -
 فلانضس - 160 -
 فج الفرس - 160 -
 ق - القسطنطينية - 38 - 40 - 41 - 57 -
 58 - 59 - 61 -
 القصر الكبير - 39 - 88 -
 القاهرة - 55 -
 قلعة الكرار - 131 -
 قادس - 159 - 160 -
 قشتالة - 160 -
 القيروان - 188 -
 ر - الريف - 31 - 58 - 60 -
 رباط ماسة - 30 -
 رباط سلا - 327 -
 الركن - 33 - 34 -
 رأس الماء - 40 - 59 - 60 - 61 - 62 -
 134 -
 روان - 159 -

الحجاز - 181 -
 ط - طنجة - 157 -
 ي - يوكوم - 159 -
 ك - كاغو - 75 - 76 - 79 - 107 - 111 -
 112 -
 كدية المخالي - 93 -
 كارت - 166 -
 م - مصر - 29 - 154 -
 المغرب - 30 - 31 - 32 - 35 - 37 -
 38 - 40 - 52 - 55 - 57 - 87 - 188 -
 مراکش - 30 - 31 - 37 - 38 - 39 -
 42 - 52 - 53 - 54 - 56 - 59 - 61 -
 62 - 65 - 73 - 79 - 83 - 87 - 99 -
 137 - 165 - 246 - 303 -
 المشرق - 30 - 35 - 38 - 40 -
 مكناسة - 38 - 40 - 65 - 66 - 126 -
 134 - 137 -
 مالي - 42 - 154 -
 مليلية - 162 -
 مكة - 181 -
 المدينة - 181 -
 مورقة - 188 -
 مسجد القصبة - 222 -
 المشتى - 222 -
 المدرسة الاشوفية بمصر - 255 -
 المدرسة الكاملية بالقاهرة - 256 -
 الصورة - 300 - 301 -
 ن - تطيس - 32 -
 النيل - 90 - 91 - 111 - 83 - 143 -
 154 -
 النوبة - 90 - 151 -
 تمسارة - 159 -

تاكر اكوى - 48 -
 تلمسان - 52 - 63 - 94 - 213 -
 تانسيفت - 55 - 56 - 57 - 58 -
 164 - 219 -
 تادلا - 62 - 128 - 157 -
 تنموين - 65 - 66 - 87 -
 تمنطوط - 66 -
 تنوكنو - 76 - 98 -
 تغازى - 80 - 137 - 138 -
 تالغت - 85 -
 تازى - 162 - 163 - 166 - 167 -
 تافراط - 166 -
 توتزوت - 214 - 241 -
 التناء - 253 -
 فم تانوت - 52 - 54 -
 ث - ثنية الكلاوى - 53 -
 غ - غرناطة - 32 - 36 -
 ش - شلين - 32 -
 شوشاوة - 54 - 303 -

السوس - 30 - 33 - 37 - 47 - 48 -
 52 - 53 - 54 - 55 - 83 - 86 - 128 -
 169 -
 سكتانة - 33 - 53 -
 سبلا - 33 -
 السودان - 40 - 42 - 74 - 89 - 91 -
 92 - 107 - 111 - 114 - 140 - 153 -
 سجماسة - 60 - 61 - 63 - 65 - 6 -
 8 - 136 - 169 - 212 -
 سنفاى - 76 -
 غوثة - 131 - 135 -
 سهريج المنارة - 137 -
 اساييس - 167 -
 السجين - 219 -
 ت - تامسنا - 28 - 114 - 169 -
 تيطاون - 32 - 133 - 224 -
 توات - 41 - 60 - 61 - 62 - 64 -
 65 - 86 - 111 -
 تيكوارين - 42 - 60 - 62 - 64 - 65 -
 67 - 85 - 86 - 87 - 111 - 135 -

فهرس اسماء الكتب

- | | |
|--------------------------------------|--------------------------------------|
| أ - ألفية من مالك - 243 - | ب - كتاب البخارى - 162 - 166 - 244 - |
| ايا فوجى - 244 - | ج - جمع الجوامع - 245 - |
| كتاب الاسيوطى - 245 - | د - دور السوط - 287 - |
| كتاب اقلودس - 250 - | ح - حاشية الصغرى - 244 - |
| الارشاد - 246 - | حاشية الشمونى - 246 - |
| كتاب الادعية للمنصور - 283 - | حاشية حصن جلى - 246 - |
| ب - كتاب البخارى - 162 - 166 - 244 - | ط - الطور على المدونة - 244 - |
| 254 - 255 - | ك - كبرى السنوسى - 244 - |
| ج - جمع الجوامع - 245 - | الكتب الخمس - 244 - |
| د - دور السوط - 287 - | كافية ابى الحاجب - 245 - |
| ح - حاشية الصغرى - 244 - | الكشاف - 246 - |
| حاشية الشمونى - 246 - | ل - لامية الافعال - 243 - |
| حاشية حصن جلى - 246 - | لامية العجم - 287 - |
| ط - الطور على المدونة - 244 - | لامية العرب - 287 - |
| ك - كبرى السنوسى - 244 - | م - المصحف - 166 - |
| الكتب الخمس - 244 - | مختصر خليل - 243 - 245 - |
| كافية ابى الحاجب - 245 - | |
| الكشاف - 246 - | |
| ل - لامية الافعال - 243 - | |
| لامية العجم - 287 - | |
| لامية العرب - 287 - | |
| م - المصحف - 166 - | |
| مختصر خليل - 243 - 245 - | |
| | |
| مقدمين اجرم - 243 - | |
| الفتاح والايضاح - 244 - | |
| مغنى اللبيب - 246 - | |
| المعالم الدينية - 246 - | |
| منطق التقا - 246 - | |
| موطأ مالك - 255 - | |
| المعارف للمنصور - 282 - | |
| المفتاح - 287 - | |
| ع - كتاب العبر - 62 - | |
| ف - كتاب الفائق - 220 - | |
| ر - الرسالة - 243 - | |
| كتاب الرضاع - 246 - | |
| س - السلسبيل - 253 - | |
| سنن ابى داوود - 255 - | |
| سنن الترمذى - 255 - | |
| سنن ابن ماجه - 256 - | |
| ت - تاريخ ابن حيان - 235 - | |
| تفسير البيضاوى - 246 - | |
| ش - الشمسية فى المنطق - 244 - | |
| الشمسية للهاشمى - 245 - | |
| شرح ابن الدمامين - 246 - | |
| الشفاء - 245 - | |
| شفا الفليل - 257 - | |

فهرس القطع الشعرية

- 54 - قصيدة للفقير البليغ ابو عبد الله محمد بن على الهوزالى عدد ابياتها (10) ومطلعها
- تردى اذى من سقمك البر والبحر وضبحت لشكوى جسيمك الشمس والبر
- 104 - قصيدة للكاتب ابي زيد الفازازى عدد ابياتها (22) ومطلعها
- الظن والضرب منسوبان للعرب بالسهرية والهندية القصب
- 104 - قصيدة لابي عبد الله بن الصفار عدد ابياتها (37) ومطلعها :
- نسيت شر عبيد العجم للعرب جهلا بفضل رسول الله والنسب
- 149 - قصيدة عدد ابياتها (19) ومطلعها
- جيش الصباح على الدجى متدفق فياض ذاالسواد ذاك محقق
- 140 - قصيدة للكاتب البارع الاصيل ابو عبد الله محمد بن على الفشتالى عدد ابياتها (40) ومطلعها
- بشرى تزف من الزمن المقبل لمنصه الجذل الذى لم يرحل
- 140 - قصيدة لابي عبد الله محمد بن على الهوزالى عدد ابياتها (32) ومطلعها :
- الت وقد الوى على وصلها الهجر كما افتر اثر الليل عن ثغره الفجر
- 156 - قصيدة عدد ابياتها (14) ومطلعها
- هكذا تحرز العلى والمعالى وتلق الطلا بسمر طوال
- 157 - قصيدة للشاعر الحلية الفضية ابو عبد الله محمد بن على الهوزالى عددها (25) ومطلعها
- جرى بمناك الدهر ملء غناها وساعدت الايام فى عنفوانها
- 158 - قصيدة لابي الحسن بن احمد المسفيوى عدد ابياتها (31) ومطلعها
- تجلى بسعد الجدل مقتبل النصر كذا غاية العليا كذا غاية الفخر
- 159 - قصيدة للكاتب الحسن بن احمد المسفيوى عدد ابياتها (31) ومطلعها :
- فتح لمنجليج الصباح المسفر تجنيه من وقع القنى المتاطر
- 160 - قصيدة للفقير الوجيه الاصيل الجليل المشارك القائد ابي الحسن على بن منصور الشيعي عددها (50) ومطلعها
- وافى كما طلع الاصباح تأييد لكن سرى ليله مع ذاك محمود
- 162 - قصيدة للكاتب البارع المجيد ابو الحسن على بن احمد المسفيوى عددها (23) ومطلعها :

كذا فليكن مدرك للفخار كذا فليكن مجد حامى العلم

179 - قصيدة للهوزالى عدد ابياتها (29) ومطلعها:

هو النصر يجنى من ذوابل مران خياشمها يرعفن بالعلق القانى

180 - قصيدة للكاتب ابو الحسن بن احمد المسفيوى وعددها (30) ومطلعها

وافاك فتح واضح الاقبال أربى على الماضى مدى استقبال

181 - قصيدة للكاتب ابو الحسن على ابن منصور الشيعظمى عددها (37) ومطلعها

هاكذا هاكذا تكون العالى مسندات عن العلى والعوالى

182 - قصيدة عدد ابياتها (14) ومطلعها :

الفتح من حركات احمد واجب كل العواهى فى العدالة طالب

218 - قصيدة للكاتب ابو الحسن على ابن منصور ابن سليمان الشيعظمى عددها (16) ومطلعها

أيا عالم العلم يا ناشره وحامل راياته الظافرة

222 - قصيدة للكاتب ابو الحسن بن على بن منصور الشيعظمى عددها (47) ومطلعها

فيطلع قرص الشمس من تحت دجنة تمد بها أملود بأققدم

- قصيدة للعلامة ابو محمد عبد الواحد بن أحمد بن الحسن الشريف الحسنى

238 عدد ابياتها (52) ومطلعها

الا حى نجدا والمعاهد من نجد وسائل فها من حل المحتافها بعدى

240 - قصيدة للقائد ابو الحسن على بن منصور الشيعظمى عدد ابياتها (64) ومطلعها

أترى الزمان يوصل ليلي مسعدى وهل التقى ليلاً بها فى مشهد

242 - قصيدة لمؤلف الكتاب عدد ابياتها (47) ومطلعها

أعد أحاديث سام والحمى أعد وعد بوصل اللوى والرقمتين عد

244 - قصيدة للكاتب ابي عبد الله محمد بن على الفشتالى عدد ابياتها (85) ومطلعها

أسرار وجدك من جفونك تعلم ولسان دمعك عن هواك مترجم

247 - قصيدة للفقير الفاضل علقمة عدد ابياتها (57) ومطلعها

يا جبذا ربح اتاك تسليمها ولديه من اخبارهم مكتوما

249 - قصيدة للكاتب ابو الحسن بن احمد المسفيوى عدد ابياتها (41) ومطلعها

حيث ر..يومك جدة من دار وسرت عليك من الغمام سواد

274 - قصيدة عدد ابياتها (11) ومطلعها

أجزت لمن تفضل واستجار أو بادر الاقتنا خيرا وحازا

297 - قصيدة عدد ابياتها (6) ومطلعها

ان يوما لناظرى تبدي مثلى من حسنه تكجيلا

لقد اعتمدت على النسخة المخطوطة من (مناهل الصفا)
الموجودة بالمكتبة الملكية بالرباط ، ويسعدني أن يكون مسك الختام
التنويه بالمكتبة الملكية وشكر القائمين عليها لما أبدوه من مساعدة
مكننتني من نسخ المخطوط ومقارنته .

وفي الوقت نفسه ، أرجو أن يعتبر هذا المجهود المتواضع
محاولة للكشف عن الحقيقة جهد الامكان والله المستعان